البناء الاجتماعي

دكتور محمد فؤاد حجازى

البناء الاجتماعى

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٢٧٤٦

اسم الكتاب:
البناء الاجتماعى
الطبعة: الخامسة.
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
اسم المؤلف:
دكتور / محمد فؤاد حجازى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٣٣٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٦٠٢٤ / ٧٨
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-7236-74-3

الاهـــداء

الى مـن أتاحـوا لى الراحـة والســكينة
فكانوا عـونا من اشعـلى أداء الرسـالة

زوجتى وأولادى

محتويات الكتاب

الفصل الأول ـ المعايير

١٧ ـ ٤٤

الفصل الثانى ـ المكانة والدور

٤٥ ـ ٩٦

الفصل الثالث ـ الجماعات المنظمة

٩٧ ـ ١٤٤

الفصل الرابع ـ النظم الاجتماعية

١٤٥ ـ ٢٤٤

الفصل الخامس ـ الثقافة

٢٣٥ ـ ٣١٥

خاتمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر مفهوم البناء الاجتماعى من أهم المفاهيم الاجتماعية فى علم الاجتماع المعاصر ، فمنذ أن ظهر هذا المفهوم وهو يزداد رسوخا ويزداد أهمية سواء فى الدراسات الاجتماعية أو الانثروبولوجية ، حتى أن معظم الدراسات التى تجرى تأخذ بعين الاعتبار هذا المفهوم ، بل انه يمكن القول دون خطأ يذكر أن معظم الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية المعاصرة هى دراسات بنائية· ذلك يرجع الى تلك الحقيقة الاجتماعية التى أضحت احدى مسلمات علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية بل المسلمة الأولى ، وهى أن المجتمع ما هو الا شبكة من العلاقات الاجتماعية المنظمة التى تنظم علاقات الأجزاء بالكل ، ومن ناحية أخرى ذات ترتيب معين ترتبط طبقا له عناصر الحياة الاجتماعية مما يجعل من المجتمع نسقا متكاملا ، وفكرة النسق المتكامل هى المعنى المتضمن فى فكرة البناء الاجتماعى · (فاصطلاح البناء الاجتماعى فى العلوم البيولوجية والطبيعية يشير الى ترتيب وتشكيل عناصر النسق · وعادة يستخدم هذا الاصطلاح كأداة لوصف العلاقات بين العناصر فى نسق من ناحية متغيرات معينة ، وتعتمد المتغيرات المختارة على هدف التحليل ، وأيضا فى العلوم الاجتماعية يقال ان بناء النسق قد تحدد عندما نصف علاقات محددة معينة بين عناصر النسق) (١) · والنسق كما عرفه برتا لانفاى Bartalanfy

---

1 — BLALOCK, H.M. and ANN B. BLALOCK : «Towarda Clarification of System Analysis in the Social Sciences» In Barker, Frank : «Organizational Systems — General Systems to Complex Organizations» Edite, Richard D. Irwin, Inc., Illinois, 1973. P 58.

هو مجموعة من العناصر فى تفاعل كل مع الآخر • وعرفه هال وفاجن Hall and Fagen بأنه مجموعة الأشياء معا مع تفاعلها المتبادل • وعرفه أكوف Ackoff بأنه وحدة تعتمد على أجزاء متبادلة التفاعل • وتعاريف كثيرة قيلت ، ويبدو أن كل كاتب كان يحاول الاجابة على السؤال (ما هو النسق ؟) ، وكل هذه التعاريف تتفق على أن النسق هو عبارة عن مجموعة من الوحدات units أو العناصر elements ذات العلاقات النشطة والتى تعمل باسلوب كوحدة مترابطة •

وفى الحقيقة أن فكرة المجتمع كنسق أو بناء اجتماعى أى مجموعة أجزاء تعمل معا فى تفاعل متبادل ، قد فرضت نفسها لشدة وضوحها على علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ، فمنذ عهد علماء الاجتماع الأوائل الذين تصدوا لدراسة المجتمع أو حتى أحد وجوه المجتمع تبينوا هذه الحقيقة واضحة جلية فمنتسكيو فى كتابه روح القوانين وكان يهدف الى دراسة القانون فى المجتمعات الانسانية ، لاحظ انه لا يمكن فهم القانون الا فى علاقته بسائر النظم الاجتماعية فى المجتمع ، وانتهى الى حقيقة أنه لا يمكن فهم أى نظام اجتماعى الا فى علاقاته بالنظم الأخرى ، لأن النظم ما هى الا أجزاء تعمل معا فى كل هو المجتمع • وهذا هو معنى البناء الاجتماعى • وكذلك هربرت اسبنسر قد أشار الى هذه الحقيقة فى انه رغم ان هناك تفرق أى وحدات فى المجتمع الا أن هذه الوحدات لا تعمل منفصلة كل عن الأخرى ولكنها جميعا تتساند وتتكامل وهذا ما يجعل المجتمع نسق يتكون من أجزاء تعمل فى ترابط مكونة بناء اجتماعيا كما أن دوركيم يؤكد هذه الحقيقة فى قوله ان أفراد المجتمع يعيشون فى نفس الاطار من النظم القانونية والسياسية والاقتصادية ، وكل هذه الأشياء تؤلف بناء له درجة معينة من الثبات والاستقرار ، بمعنى أنه يستمر فى الوجود فترات طويلة من الزمن يحتفظ خلالها بأهم مقوماته التى تنتقل من جيل الى جيل • أما

الفرد فانه يمر فقط خلال ذلك البناء الذى يجد نفسه فيه • فالبناء لم يولد معه ولن يموت بموته •

ولقد بذل علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية جهدا كبيرا فى تحديد مفهوم البناء الاجتماعى وما يهتم به الباحث فى دراسات البناءالاجتماعى ودارت بينهم مناقشات حول هذه القضايا ساهمت فى توضيح ذلك المفهوم من ناحية ، ومن ناحية أخرى فى ارساء قواعد الدراسات البنائية (١) •

ففكرة البناء الاجتماعى على ما يقول فيرث تتطلب شروطا معينة بالذات لأن الكلمة توحى للذهن معنى العلاقات المنظمة بين الأجزاء والكل . وكذلك الترتيب الذى بمقتضاه ترتبط عناصر الحياة الاجتماعية كل بالأخرى علىأساس أن البناء الاجتماعى نسق متكامل (٢) • فهو يرى أن الحياة الاجتماعية تعنى تنظيما لمصالح الأفراد وتوجيها لسلوكهم تجاه بعضهم البعض ، وترتيبهم فى جماعات من أجل العمل المشترك ، ومن ثم تفصح العلاقات التى تقوم بينهم عن نوع من التنسيق يمكن أن نسميه بناءا اجتماعيا (٣) •

كما يذهب ايفانز بريتشارد Evans-Prichard الى أن البناء الاجتماعى يعتبر مجموعة من العلاقات التى تقوم بين الجماعات الاجتماعية التى عادة ما تتمتع بدرجة عالية من القدرة على البقاء والاستمرار فى الوجود • ومن ثم لا تندرج تحت هذا المفهوم تلك العلاقات السريعة والمؤقتة التى تحدث بين الأشخاص فى مواقف معينة بالذات ثم تنتهى بانتهاء هذه المواقف، كما لا يندرج

---

(١) د • أحمد أبو زيد • البناء الاجتماعى - مدخل فى دراسة المجتمع • الجزء الأول - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (هذه المناقشات مطروحة بشكل تفصيلى فى هذا المرجع) •

2 — FIRTH, RAYMOND : «Social Organization» Watts, 1951.

3 — FIRTH, RAYMOND : «Human Types» Mentor Books, 1958. P. 82.

تحته ايضا تلك الجماعات الصغيرة التي لا تستمر فى الوجود الا فترة قصيرة من الزمن والتى تخضع للتغير السريع ٠ اذ لابد من وجود درجة معينـة من الإطراد والاتساق فى الحياة الاجتماعية وتوفر نوع من التنسيق فى المجتمع والا استحال على أعضائه العيش معا ٠ فالناس لا يستطيعون الانصراف الى شئونهم الا لأنهم يعرفون نوع السلوك المتوقع من الآخرين ، وكذلك نوع السلوك الذى يتوقعه الآخرون فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية ٠ فهم يستطيعون التنبؤ بالأحداث ، وبذلك يمكنهم ترتيب حياتهم بما يتفق مع حياة الآخرين ٠ ولكل مجتمع صورة أو نمط يسمح لنا بالتكلم عنه على أنه بناء يعيش فيه أفراد وينزلون على سننه ٠ واستخدام كلمة بناء بهذا المعنى يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين أجزائه ، على أى حال الى الحد الذى يمكن معه تجنب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف ٠ وأنه يتمتع بدرجة من الديمومية والبقاء أكبر مما تحظى به معظم العلاقات العابرة السريعة فى الحياة الانسانية (١)٠

وهكذا يهتم الباحث عند دراسة البناء الاجتماعى أساسا بتحليل العلاقات الاجتماعية والكشف عن العوامل التى تؤدى الى سير هذه العلاقات دون أن يحدث صراع أو اضطراب على الأقل . فالذى يمكن الأفراد من مباشرة مناشطهم الاجتماعية هو ما يتوقعه الانسان من غيره من الناس ، والذى يمكن الحياة الاجتماعية من السير دون اضطراب ودون أن يصاب المجتمع بالتصدع ، هو قيام بناء اجتماعى على أسس متينة ، ولا يتاتى ذلك الا اذا كان لدى أعضـاء المجتمع فكرة واضحة عما يتوقعه كل من الآخر حتى يمكنهم ترتيب حياتهم على هذا الأساس ٠ وأداة المجتمع فى ذلك هى المعايير ، فالمعـايير هى قواعد أو

---

(١) ايفانز بريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ ترجمة د ٠ أحمد أبو زيد ـ منشأة المعارف ـ الاسكندرية ١٩٦٠

وانظر أيضا د ٠ أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ـ مدخل لدراسة المجتمع ، المرجع السابق ذكره ٠

انماط للسلوك تحدد ما هو متوقع ومعتاد وصواب أو مناسب فى موقف معين ، فهى ترشد الانسان الى ما يجب أن يعمل ويفكر فى موقف معين، فهى أذن قواعد تحكم وتوجه سلوكنا فى كل المواقف الاجتماعية التى نشترك فيها ، فهى أنماط سلوكية يتوقع المجتمع منا أن نتطابق معها ، فهى تقود سلوكنا فى المجتمع ٠ حتى أن ردفيلد Redfield نظر الى البناء الاجتماعى ليس على انه نسق من العلاقات أو أنواع الروابط الموجودة بين الناس وأفعالهم فحسب . بلوأيضا على أنه نسق من المعايير (١) ٠

ولهذا كان الفصل الأول من هذا الكتاب عن المعايير ، ذلك أن المعـايير تعتبر أهم أدوات المجتمع فى ارساء قواعد بنائه الاجتماعى ، فالمعايير هى التى تعطى النظام والاستقرار وامكانية التنبؤ بالسـلوك المتوقع ، فأى موقف اجتماعى لا معايير له يصبح مصـدرا للفوضى والاضـطراب ٠ وان مجتمعا بلا معايير لا يستطيع الاستمرار فى البقاء ، فحيث لا يكون هناك معايير لايكون هناك بناء اجتماعى ٠

وجاء الفصل الثانى من الكتاب حول المكانة الاجتماعية والدور ، ذلك أن هذا الموضوع يعتبر شديد الارتباط بموضوع المعايير من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعتبر المكانة الاجتماعية والدور أدوات هامة فى معرفة السلوك المتوقع ومن ثم احداث الاطراد والاتساق فى الحياة الاجتماعية ٠ فالعلاقات الدائمة على ما يقول ردفيلد Redfield هى التى تعطى امكانية التنبـؤ بالسـلوك ويلاحظ أن المعايير لا تسبح بلا نظام فى المجتمع ولكنها مرتبطة بشدة بالمكانات الاجتماعية ، وما المجتمع الا شبكة من المكانات الاجتماعية ، فشبكة المكانات الاجتماعية المتداخلة هى نمط من العلاقات المنظمة والدائمة بدرجة كافية حتى

---

1 — REDFIELD, R. : The tittle Community Chicago, 1956.

وانظر أيضا د ٠ أحمد أبو زيد « البناء الاجتماعى » المرجع السابق ذكره ص ٤٠ ـ ٤٣

انها تعتبر احد الأسس التى يقوم عليها البناء الاجتماعى لأى مجتمع · كما أن الدور هو الوجه الديناميكى للمكانة . فالمكانة والدور هما وجهان لظاهرة واحدة فالمكانة هى مجموعة من الحقوق والمسئوليات ، والدور هو القيام بأعباء هذه المسئوليات والتمتع بتلك الحقوق ·

وجاء الفصل الثالث عن الجماعات المنظمة أو ما يحب كثير من علماء الاجتماع بتسميتها بالمنظمات · ذلك أن موضوع المنظمات شديد التعلق بموضوع المكانات ، فما المنظمة الا مجموعة من المكانات والأدوار أكثر من أنها مجموعة من الأفراد ، فهى فى الحقيقة مجموعة من المكانات والأدوار قد نظمت لتكون بناءا اجتماعيا فرعيا فى ذلك البناء الكلى المسمى المجتمع ، فالمجتمع كنسق يتكون من أنساق فرعية تتساند وتتكامل ، اذ أنها مسئولة عن تحقيق هـدف النسق الكلى وهو المجتمع · ولذلك ، على ما رأينا ، يعتبر ايفـانز برتشارد Evans-Prichard أن البناء الاجتماعى هو مجموعة العلاقات التى تقوم بين الجماعات الاجتماعية التى تتمتع بدرجة عالية من القدرة على البقاء والاستمرار فى الزمن لفترات طويلة ، أى المنظمات · وكذلك ، على ما رأينا أيضا يعتبر فيرث Firth أن احد أهم مكونات البناء الاجتمـاعى هى تلك الجماعات التى يشكلها الناس من اجل العمل المشترك ، والتى تفصح العلاقات التى تقوم بينهم عن نوع من التنسيق يمكن أن نسميه بناءا اجتماعيا · وكما يذهب أيضا راد كليف براون Radcliffe-Brown (١) أن الجـماعات الاجتماعية التى سماها المنظمات الكبرى مثـــل الأكاديمية الفـــرنسية الجماعات الاجتماعية التى سماها المنظمات الكبرى مثل الأكاديمية الفرنسية أو الكنيسة الرومانية يمكن أن تستمر فى البقاء باعتبارها ترتيبا للأشخاص رغم كل ما يطرأ على الوحدات التى تدخل فى تركيبها من تغيرات ، ولكن البناء من حيث هو تنسيق يستمر فى البقاء ·

---

1 — RADCLIFFE, A. BROWN : «Structure and Function in Primitive Society Cohen and West, 1953.

وجاء الفصل الرابع عن النظم الاجتماعية اذ على ما يقول جنزبرج Ginsberg أن (علم الاجتماع بمعناه الواسع هو دراسة التفاعل والعلاقات المتبادلة بين البشر وظروفهم ونتائجها • وعمليا اصبح واضحا انه اذا حاول علم الاجتماع التعامل مع كل النسيج للعلاقات البشرية فى تعقدها اللانهائى سوف لايصنع الا تقدما ضئيلا•لذلك قصر علم الاجتماع نفسه على دراسة العلاقات الاجتماعية كما هى متجسدة أو محددة فى اشكال معروفة أى نظم اجتماعية) (١) • كما يذهب هرتزلر Hertezler (الى انه عندما الاهتمامات والأفكار والمشاعر والمعتقدات تصبح فيشكل طرائقشعبية وعادات اجتماعية وتقاليد وحقوق ومعايير ، وتظهر فى اشكال أكثر ترابطا وعقليا كأنماط لترتيب وتعقيد التفاعل بين أعضاء الجماعة الاجتماعية عند ذلك تصبح نظما اجتماعية) (٢) • ذلك ما دفع دارسى البناء الاجتماعى الى دراسة العادات والتقاليد كما يفعل علماء الثقافة ، وانما اتجهوا الى دراسة البناء الاجتماعى (وذلك بتحليل العلاقات الاجتماعية والكشف عن العوامل التى تؤدى الى سير هذه العلاقات دون أن يحدث اضطراب فيها وان كان ذلك لا يعنى أن الباحث البنائى يغفل فى تحليلاته تلك العادات والتقاليد وأساليب السلوك ، ولكنه لايقف عند هذا الحد من التحليلات ، ولكنه يذهب الى أبعد من ذلك فهو يهتم بهذه العناصر الأولية البسيطة التى ترتبط بعضها ببعض فى شكل انماط تقوم بينها علاقات•فمما يعطى هذه الظواهر أهميتها العلميةويجعلمنها موضوعا للدراسة هو ارتباطها وتشابكها من الظواهر التى تؤلف معا نسقا واحدا متكاملا نسميه النظام الاجتماعى ، فالنظام الاجتماعى هو احد أطرزة السلوك ومن ثم فهو

---

1 — GINSBERG, MORRIS : «Studies in Sociology» Methaen and Co. LTD. London, 1932. P. 23.

2 — HERTEZLER, T.O. : «Social Institutions» McGraw-Hill, 1929, P. 108.

عمليــة تجريدية من تــلك العلاقات الاجتماعيــة الجزئيــة فهــو يمثل معياراً للسلوك) (١) ٠

فكأن الظواهر الجزئية التى تؤلف حقائق عيانية مشخصة والتى تبدو ظاهرة فى الحياة اليومية ويمكن حتى لغير ذوى الخبرة ادراكها ، ليست سوى العناصر الأولية التى تؤلف عن طريق ترابطها معا أنواعا من الأنســاق غير المرئية ٠٠ وهذه الأنساق اللامشخصة أو اللاعيانية التى يمكن تسميتها بالنظم الاجتماعية هى التى تهمنا بالفعل فى دراسة البناء الاجتماعى نظرا لأنها هى التى تدخل فى تكوينه (٢) ٠

وهكذا تعتبر النظم الاجتماعية الوحدات الأساسية فى البناء الاجتماعى، ولما كان النظام الاجتماعى أنشىء أساسا لأداء وظيفة فى المجتمع ،أىأن كلنظام يؤدى وظيفة جزئية فى هذا الكل وهو المجتمــع ، ومن ثم تتشــابك الوظائف وتتساند ، ولذلك لا يمكن دراسة أى نظام الا فى علاقته بالنظم الأخرى أىعلاقته بالبناء الاجتماعى ٠

فان كانت النظــم الاجتماعيــة هى معايير للسلوك ، فمن ثم هى توفر الاستقرار والاطراد والاستمرار وامكانية التنبؤ ، ومن ناحية أخرى تتشابك النظم الاجتماعية وتتداخل مكونة نسيجا متماسكا ، ذلك كله هو ما يعنيه علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بمفهوم البناء الاجتماعى ، حتى أنه يمكن القول أن دراسة البناء الأجتماعى فى جوهرها هى دراسة النظم الاجتماعيــة ٠ وفى الحقيقة أن دراسة النظم الاجتماعية ووظائفها وتشابكها وتداخلها ، أى التفاعل القائم بين مختلف النظم فى المجتمعات البدائية التى توفر على دراستها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية هى التى أدت الى بلورة وارساء مفهوم

---

(١) د ٠ أحمد أبو زيد «البناء الاجتماعى » المرجع السابق ذكره ص ١٣ ٠
(٢) المرجع السابق ذكره ص ١٢٥ ٠

البناء الاجتماعى وأتاحت له الرسوخ والثبات والأهمية عند دارسى الاجتماع والانثروبولوجيا ٠

وجاء الفصل الخامس عن الثقافة وعلاقتها بالبناء الاجتماعى ، وتناولت فيه تلك القضية المثارة بين علماء الاجتماع وخاصة البنائيين منهم ٠ فيذهب علماء الثقافة الى أنها هىالحقيقة النهائية التىيتجه اليها عنايتهم عند الدراسة وهى متميزة عن المجتمع ، بل ذهبوا الى أن المجتمع فى رأيهم ما هو الا أداة ووسيلة لقيام الثقافة ووجودها واستمرارها ٠ وحاولت فى تلك الدراسة بيان العلاقة بين النظم الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى والثقافة ٠ وفى الحقيقة أن النظم الاجتماعية هى صانعة الثقافة ، وأن التغير الثقافى ما هو الا تغير للنظم الاجتماعية . أى تغير بنائى ينعكس أثره على تغير السمات الثقافية ٠

وجاءت خاتمة الكتاب بالضرورة عن أثر الاسلام فى البناء الاجتماعى ، فنحن نعيش فى مجتمع اسلامى ، وذلك للكشف عما يمكن أن يؤديه الاسلام لذلك البناء الاجتماعى من ثبات وكيف ينهى بل يمنع نشأة الصراع الذى يهدد البناء من ناحية ، ومن ناحية أخرى عن أهمية الأخذ بالفكر الاسلامى فى مجال العلوم الاجتماعية ٠

والله الموفق الى ما فيه خير العباد ٠

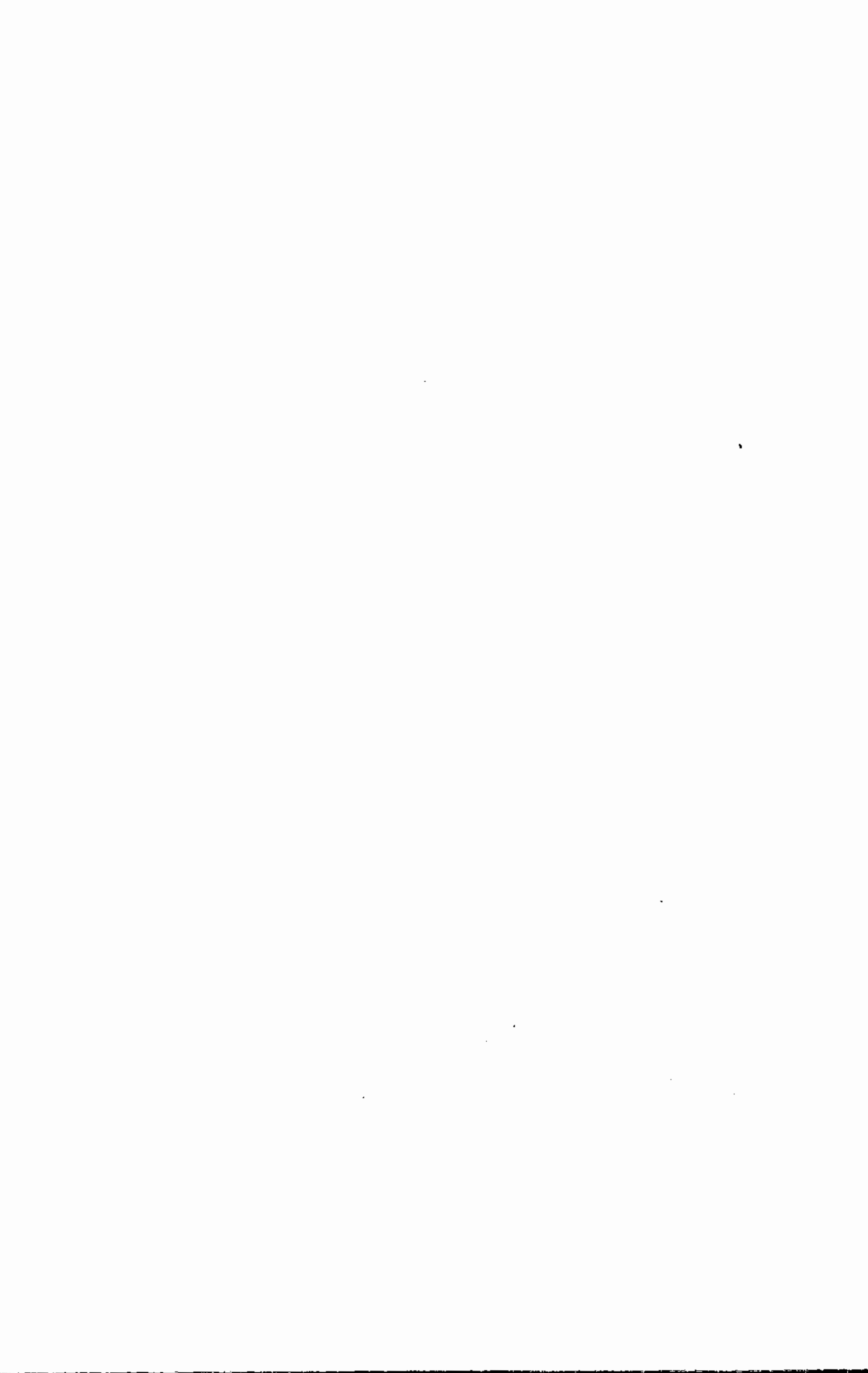
دكتور

محمد فؤاد حجازى

الفصل الأول

المعـايير

- طبيعة المعيار
- تنوع المعايير
  - الأساليب الشعبية
  - الأعراف
  - القوانين
  - معايير الجماعات المنظمة
- العلاقات بين المعايير
- لماذا نتطابق مع المعايير
- صراع المعايير



المعـــايير

NORMS

تفصح العلاقات الاجتماعية عن نظام عجيب وان كان يتميز بالاستقرار ·
ففى كل يوم نتفاعل مع كثير من الناس ، نعرف بعضهم ولا نعرف الآخرين ·
كيف يحدث أن كل هذه الأنواع من العلاقات الاجتماعية تجرى بين الناس سواء
من يعرفون بعضهم أو من لا يعرفون بعضا بمنتهى السهولة ، كيف يكون ذلك
ممكنا ؟ يوجد الجواب على هذه الأسئلة فى المعايير التى تسود فى كل مجتمع
والتى تشكل عنصرا هاما فى البناء الاجتماعى للمجتمع ، ومن ناحية أخرى
تشكل موضوعا له أهمية أساسية فى علم الاجتماع ·

طبيعة المعيار The Nature of Norm

(المعايير هى قواعد rules أى أنماط Patterns للسلوك ،
تحدد ما هو متوقع ومعتاد وصواب أو مناسب فى موقف معين · فهى ترشد
الانسان الى ما يجب أن يعمل أو يفكر فى موقف معين ، واكثر من ذلك مايشعر
به (١) · فمثلا نحن نعرف أن لعبة كرة السلة لا يمكن أن تحدث بدون قواعد ،
هذه القواعد هى المعايير ، ويمكن القول أنها تشكل بناء كل لعبة . وأيضا لايمكن
أن يستمتع المشاهدون بهذه اللعبة أو تلك الا اذا كانوا هم أيضا على علم بقواعد
اللعبة التى يشاهدونها · وأيضا هناك قواعد لمشاهدة اللعب ، وهـذه تسمى
أيضا معايير المشاهدين ، وهناك أيضا عقوبات لمن يخرج من اللاعبين على معايير

---

1 — BIESANZ, MAVIS H. and BIESANZ, J. : «Introduction to Sociology» Prentice-Hall, Inc., Englwood Cliffs, New Jersey, 1973. P. 64.

اللعب ، وأيضا هناك عقوبات لمن يخرج من المشاهدين على معايير المشاهدة ، فاذا كان مع أحد المشاهدين تذكرة فى الدرجة الثالثة وحاول أن يجلس فى الدرجة الأولى فانه يمنع ويوجه الى الدرجة الثالثة ، واذا أصر على معارضته للمعايير فانه يطرد خارج الملعب · وما هو صادق بالنسبة للعبة الكرة ، هو بنفس الدرجة صادق فى كل المواقف الاجتماعية · وأيا كان الترتيب أو النظام الذى يتضح من سلوك الناس فى علاقاتهم بعضهم مع بعض فهو يرجع ويعزى الى وجود معايير يحاول كل مشارك فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية أن يتطابق معها ·

(ومن ثم فالمعيار هو قاعدة تحكم وتوجه سلوكنا فى كل المواقف الاجتماعية التى نشترك فيها ، فهو نمط سلوكى يتوقع المجتمع منا أن نتطابق معه ، هو خاصية ثقافية توجه وتقود سلوكنا فى المجتمع · انه أسلوب للفعل . انه الأسلوب الذى وضعه لنا مجتمعنا لفعل الأشياء ، ومن ناحية أخرى هو الأداة الجوهرية للضبط الاجتماعى) (١) ·

ويلاحظ أن المعايير هى أنماط مثالية ideal patterns ، موجودة ومنغرسة فى عقل الممارسين فى ثقافة ما ·كتوقعات عن سلوك الفرد والآخرين ، وفى بعض الأحيان تصاغ بوضوح فى شكل قواعد أو قوانين ، فهى كتخدم كمرشد للسلوك الواقعى الذى قد ينحرف عن المعايير قليلا أو كثيرا · فمثلا عند كتابة أى موضوع فلابد للكاتب أن يحاول جاهدا استخدام اللغة العربية الصحيحة ، وتكون اللغة صحيحة عندما نتطابق مع قواعد اللغة العربية أى معاييرها · فمثلا نحن نعتاد وضع نقطة عند نهاية الجملة ، فاذا حدث ووضعنا علامة استفهام بدلا من النقطة فان هذا سوف يسبب اضطرابا للقارىء ·

---

1 — BIERSTEDT, ROBERT : The Social Order, An Introduction to Sociology» McGraw-Hill Book Company, Inc., New York, 1963. P. 223.

(فالمعايير هى قواعد النسق التى تصف وتحدد السلوك المتوقع فى مختلف الظروف . وبصفة عامة المعيار هو تقرير واضح قد يأخذ شكل تحريم Prohibition ، وتطلب من الفرد أن يسلك بأسلوب معين فى موقف معين) (١) . فالمعايير تقرر وفى نفس الوقت تحرم ، بمعنى أن المعايير تقرر وتتطلب أفعالا معينة . ومن ناحية أخرى تحرم أى تمنع الفرد من فعل أفعال أخرى . فمثلا نحن ملزمون بلبس الملابس فى المجتمع وممنوعون من السير فى الشوارع عرايا . نحن ملزمون بالنجاح فى الامتحانات فى برامج الكلية وممنوعون من الغش فى الامتحانات ، ونحن ملزمون بقيادة سياراتنا على الجانب الأيمن من الطريق وممنوعون من تخطى الاشارة الحمراء أو السير على اليسار . وهكذا عادة يأتى التصريح والتحريم متزاوجين ، بمعنى أننا نكون مطالبين بعمل معين وغير ممنوعين من اتيانه ، وفى نفس الوقت ممنوعين من فعل معين ومطالبون بمحوه . وعندما تكون المعايير التحريمية غير مؤيدة بالقانون ، أى أن تحريمها غير مسن أى لم يصدر به تشريع يعرف هذا النوع من المعايير باسم المحرمات Taboos . وان يذهب بعض علماء الاجتماع الى أن المعايير التى لها قوة فوق العادة فى تحريماتها هى التى تسمى تابو Taboo ، مثل الزواج من المحارم حتى أنه أصبح صفة مميزة لكل المجتمعات) (٢) .

وهكذا نحن نعرف المعايير وهى تحت أنظارنا دائما ، ولكن من كثرة تعودنا عليها أصبحت مألوفة لنا حتى أصبح من النادر أن نلاحظها الا فى حالة خروجنا عليها .

والوظيفة الأساسية للمعايير لعضو المجتمع هى خفض أو اقلال المناقشات فى المواقف الاجتماعية العديدة التى يواجهها الانسان والتى يشارك فيها .

---

1 — ALLYN, CHARLES : «Sociology, An Introduction» Prentice-Hall, Englwood Cliffs, New Jersey. 1972. P. 23.
2 — Ibid., P. 24.

وبدون المعايير يصبح عبء المناقشة لا يطاق ، ويصبح تخيل نمط السلوك الملائم في كل موقف اجتماعى أمر محير كلية ٠ وفى الحقيقة انه اذا أردنا فعل شيء ما وعمدنا الى التفكير فيما نقصد عمله مثلا ، عندما ندخل محلا للشراء ، أو فصلا دراسيا ، أو نقطع تذكرة ، وفكرنا فيما سنقوله للبائع أو للمدرس أو لبائع التذاكر ، فلن نستطيع انجاز الا قدرا ضئيلا وعددا صغيرا من أعمالنا فى اليوم٠ ولنأخذ مثلا من الحياة الواقعية لطالب ، ولنرى كيف تمكنه معايير المجتمع أن يبدأ يومه دون أن ينفق معظمه فى مجرد التفكير عما يجب عمله ، وكيف يعمله ٠ فعندما يستيقظ فى الصباح فليس عليه أن يفكر أن يلبس حذاءه أم لا ، أو أن يحلق ذقنه بشفرة حلاقة أو بسكين ، أو يحيى زملائه باللغة العربية أو بلغة أجنبية ، أو أن يشرب الحساء بالشوكة أو الملعقة ، أو اذا كان يقود سيارة هل يعبر السيارة التى أمامه من اليمين أو من اليسار ، أو أن يدخن فى حجرة الدراسة أم لا ، أو متى وكيف يتكلم فى حجرة الدراسة ٠ وهكذا فى أفعال كثيرة لا حصر لها خلال اليوم ٠ وبلا شك تبدو هذه الأمثلة وغيرها بسيطة بل وغاية فى السذاجة ، ولكن السبب فى بساطتها وسهولتها يكمن فى أن هناك معايير تنظم وتيسر هذه المواقف ٠ وبدون تلك المعايير كان لابد من اجراء مناقشات عديدة فى كل من هذه المواقف ٠ ويمكن أن يتصور الانسان أى فوضى كانت تنشأ فى هذه المواقف فى حالة غياب المعايير ٠ فمثلا كان يمكن أن يسير أحد من الناس بسيارته على الجانب الأيمن والآخر على الجانب الأيسر ، وأى الحوادث كان يمكن أن تحدث لولا أن هناك معيارا أن كل فرد يسير على الجانب الأيمن ٠ كما أنه بدون وجود المعايير تصبح العلاقات الاجتماعية عشوائية ، بل ومحتمل أن تكون محلا للخطر ٠ ومن ثم فالمعايير هى التى تعطى النظام والاستقرار وامكانية التنبؤ للحياة الاجتماعية ٠ وهذا ما يجعل من المعايير عنصرا ذا أهمية قصوى للبناء الاجتماعى ٠ فأى موقف اجتماعى لا معايير له يصبح مصدرا للفوضى والاضطراب ٠ وان مجتمعا بلا معايير لا يستطيع الاستمرار فى البقاء ، فحيث لا يكون هناك معايير لا يكون هناك مجتمع ٠

تنوع المعـايير

لم يجمع علماء الاجتماع على تصنيف متفق عليه للمعايير ، وان كان معظم علماء الاجتماع عند ذكرهم للمعايير عادة يتفقون على ذكر المعاييرالآتية: القوانين والمكانات ، والقواعد . والأساليب الشـعبية والأعراف والعـادات والطقوس والشعائر • ولكن المعايير التى يجمع علماء الاجتماع على أنها اهم المعايير فى المجتمع من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يخلو منها اى تصنيف من التصنيفات التى يوردها علماء الاجتماع وهى الأساليب الشـعبية والأعراف والقوانين •

١ ـ الأساليب الشعبية Folkways

الأساليب الشعبيـة هى مصطلح قدمه سمنر Sumner وهو منأوائل علماء الاجتماع الأمريكيين ، وقد سمى سمنر كل عادات الجمـاعة اساليب شعبية ، ويعنى الاصطلاح حرفيا اساليب الجماعة ، اى اساليب النـاس فى اشباع حاجاتهم وللتعامل كل مع الآخر ولقيادة حياتهم • (فالأساليب الشعبية هى عادات تحكم معظم أساليب الحياة اليومية ، والاتصالات المعتادة مع الناس الآخرين • فهى تحدد ما هو صواب اجتماعيا) (١) •) وهناك كلمة أخرىوهى العـادات cutoms وهى مالوفة عند الناس ، وسوف نستعمل كلا من كلمتى العادات والأساليب الشعبية كمترادفين ، وان كانت كلمة الاساليبالشعبية هى الاكثر قبولا كمفهوم فى علم الاجتماع) (٢) •

والأساليب الشعبية قد تكون تحكمية خالصة وميسرة للحياة مثل الأوزان والمقاييس وانساق النقود التى يستخدمها مجتمع من المجتمعات ، وقد تكون

1 — BIESANZ : Op. Cit., P. 65.
2 — BIERSTEDT : Op. Cit., P. 226.

بعض الأساليب الشعبية لها شكل الشعائر مثل أنماط الأكل أو احتفالات أعياد الميلاد ، أو الأسلوب الصحيح لتحية الأصدقاء كالمصافحة باليد عند العرب ، أو رفع القبعة عند الغربيين ، أو التمنيات بالعافية للمريض ، أو التهنئة للأزواج الجدد ، مثل هـذه الأنماط من التحية أو التهنئة أو التعزية تعتبر شعائر خاصة للسلوك والتي يطلق عليها بعض علماء الاجتماع اصطلاح تقاليد convention والبعض الآخر الذوق العام etiquette تلك المجموعات من المتوقعات المتبادلة هي ميسرة ومريحة في العلاقات الاجتماعية ٠

وتحدد أساليبنا الشعبية السلوك الصحيح في مختلف الأدوار ، فهي تميز أعمال الرجال من أعمال النساء ، وتضع المثال لما يجب أن تكون عليه سلوك السيدة الفاضلة والرجل الفاضل ٠ كما أن الأساليب الشعبية تحكم الطراز العام لمساكننا وملابسنا وأسلوبنا في الترفيه وتربية الأطفال ٠ فهي تحدد ما هو سار وجميل ٠ وهي تشكل ذلك الكم الكبير من عاداتنا ذات الجذور البعيدة في تقاليدنا ، (فالمعايير الشعبية هي ببساطة الأساليب المعتادة والعادية لجماعة لفعل الأشياء ٠٠٠ والأجيال الجديدة تتشرب الأساليب الشعبية جزئيا بتعليم متعمد ، ولكن أساسا بالملاحظة وممارسة جزء من الحياة التي حولهم ، فطالما الأطفال محاطين بالأساليب الشعبية وهم يشاهدون باستمرار أنها أساليب فعل الأشياء ، فمن ثم تصبح هي الأساليب الوحيدة والصحيحة) (١) ٠

فالأساليب الشعبية هي معايير علينا أن نتطابق معها ، والتطابق مع الأساليب الشعبية لا يتطلبها القانون ، ولا تجبرنا عليها أي هيئة ٠ فليس هناك

---

1 — HORTON, PAUL and HUNT, CHESTER : «Sociology» Fourth Edition. McGraw-Hill Book Company. New York. 1976. P. 48.

قانون يطلب منا لبس الحذاء فى الشارع ، أو النوم فى سرير أو الافطار فى الصباح ، أو الحديث باللغة العربية ، ورغم ذلك نفعل كل هذه الأشياء والاف مثلها دون تفكير ، ذلك يرجع الى أنها مسألة عادة ، أنها أساليبنا الشعبية ، فهى مؤيدة اجتماعيا ولكن غير رسمى ولا عن عمد ، ورغم ذلك فهى مؤثرة ٠

وبالطبع كل مجتمع له أساليب شعبية خاصة به ، فكثيرا ما يكون هناك أساليب شعبية مسموح بها فى مجتمع وفى نفس الوقت ممنوعة فى مجتمعات أخرى ، بمعنى أن ما هو صواب فى مجتمع ما قد يكون خطأ فى مجتمع آخر ٠ واذا كانت الأساليب الشعبية تتغير من مكان الى مكان فهى أيضا تتغير فى داخل المجتمع الواحد من زمان الى زمان ، فالنساء يعملن الآن أعمالا كثيرة مما كان يعملها الرجال فهن مدرسات وطبيبات ومحاميات وأســـــاتذة فى الجامعات ، وكانت الأساليب الشعبية فى القرن الماضى تحرم عليهن القيام بهذه الأعمال وتعتبرها أعمال الرجال فقط ٠

ويلاحظ أن (الأساليب الشعبية مقواة بالمكافآت مثل التأييد والتقـدير والقبول فى الجماعة) (١) فالانسان يجب أن يكون حسن العلاقات مع الآخرين وخاصة أولئك الذين يعتبرهم جماعته ٠ فنحن عادة نتطابق مع الأســـاليب الشعبية لأننا نكره أن نكون مختلفين عن جماعتنا ، ولا نحب رفض أصدقائنا لأنماط سلوكنا ، لأننا فى الحقيقة فى حاجة لتأييدهم وموافقتهم من أجل أن نعيش معهم فى جماعة ٠ وهكذا عندما نفعل كما يفعل الآخرون فنحن نكافأ بتأييدهم وقبولهم لنا ، وهذا التأييد والقبول يعتبر جزاءا يشجعنا على التطابق ونحن أيضا عندما نتطابق مع معايير جماعتنا نحن نعلن لجماعتنـا ولاءنا ونؤكد عضويتنا فى الجماعة فقيام المسلم بذكر الله عند الأكل وذكر الله عند دخول منازل الغير يعتبر اعلانا منه أنه عضو فى الجماعة المسلمة وهو بالتالى يتلقى التأييد والقبول بل والاستحسان من جماعته وهذا فى حد ذاته جزاءا

1 — BIESANZ : Op. Cit., P. 65.

حسنا فى الدنيا . واذا كان هذا ما يسمى بالجزاء الايجابى ، فهناك ايضا جزاءات سلبية لمن يخرج على الأساليب الشعبية مثل النبذ والطرد واللاقبول من الجماعة . فالطفل الذى يحيى الضيوف بأدب يكافأ بالابتسامات والهدايا، اما اذا كان جافا أو اظهر سوء أدب مع الضيوف تعاقبه والدته بالاستياء منه وعدم اعطائه الهدايا ، والنبذ والطرد من حضرة الضيوف . وعادة لا يرغب معظم الناس أن تصفهم جماعتهم بالفظاظة او الجهل أو قلة الأدب ، فهم يرغبون فى الانتماء والقبول من جماعتهم ولهذا يتطابقون عادة حتى بدون التفكير فى اساليب بديلة .

ويلاحظ أن هذه الجزاءات سواء الايجابية أو السلبية لا تقوم بتنفيذها اى باجبارنا عليها اى هيئة معينة فى المجتمع .

وغنى عن البيان انه لا يمكن حصر الأساليب الشعبية فى مجتمع ما حصرا كاملا ، لأنها تكاد تكون لا متناهية ، وأن أى قائمة تحاول حصرها سوف تكون بلا نهاية . وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا المقام هو أن الأساليب الشعبية هى احدى خصائص المجتمعات الانسانية ، وبدونها لا يمكن أن يوجد مجتمع . ومن ثم فهى تشكل جزءا هاما من البناء الاجتماعى وتساهم فى انتظام واستقرار العلاقات الاجتماعية .

ب ـ الأعراف Mores

كلمة العرف More هى المصدر اللاتينى لكلمة الأخلاق Moral ذلك يعنى أن العرف يختلف عن الأساليب الشعبية . بمعنى أن السلوك الأخلاقى يختلف عن مجرد السلوك المعتاد . (بعض الأساليب الشعبية اكثر اهمية من الأخرى . ومن ثم نحن نعرف فئتين من الأساليب الشعبية :

(١) تلك الأساليب التى علينا أن نتبعها لأنها سلوك حسن ومؤدب -

(ب)وتلك التى يجب أن نتبعها لأن هناك اعتقادا بأنها جوهرية لرفاهية الجماعة ٠

فنحن نعنى بالأعراف تلك الأفكار القوية عن الحق والخطأ التى تتطلب أفعالا معينة وتحرم أخرى ٠ وعادة ليشترك أعضاء المجتمع فى الاعتقاد بأن الخروج على المعايير سوف يؤدى الى دمارهم) (١) ٠

فالأعراف هى المعايير التى تعتبر حيــوية لرفاهية الجماعة ، فهى ليست ببساطة السلوك الصحيح والقبول اجتماعيا مثل الأساليب الشعبية ٠ فقــد سمى سمنر كل عادات الجماعة أساليب شعبية . ولكنه قصد بالأعراف تلك الأساليب الشــعبية التى يعتبرها المجتمع هامة لرفاهيته ٠ فقــد قال سمنر Smnur ان العرف هو تلك الممارسات التى يعتقد المجتمع أنها تقود الى الرفاهية الاجتمــاعية ، بينما الأساليب الشــعبية لا تتضمن فـكرة الرفاهية الاجتماعية ٠

انه مثلا من الصعب رؤية أن الحلوان (البقشيش) يقود الى الرفاهية الاجتماعية ، فيمكن زوال (البقشيش) دون تهديد جدى لاستمرار بقاءالمجتمع ولكن الموقف يختلف تماما بالنسبة للسلوك الجنسى ، فالانحراف فى هــذا المجال ينظر اليه على أنه تهديد للأسرة ومن ثم للمجتمع ٠ فالرجل الزانى فى مجتمعنا ينظر اليه على أنه لا أخلاقى ، بل يعتبر قد اقترف جريمة تهدد بقاء المجتمع واستقراره ، فالانسان الذى يهدر هذا العرف ينظر اليه على أنه خطر على المجتمع ومن ثم يعامل بأقصى العقوبة ٠ ولا يقتصر هذا على مجالالسلوك الجنسى ، ولكن أيضا الطالب الذى يغش فى الامتحــان ينظر اليــه على أنه لا أخلاقى ويفصل من الجامعة فورا ، وكذلك التاجر الذى يغش فى السلعة أو السعر أو الميزان ينظر اليه على أنه لا أخلاقى وأن سلوكه يهدد كيانالمجتمع

---

1 — Ibid., P. 48.

ومما هو جدير بالذكر أن الأعراف لم يخترعها فرد أو فكر فيها انسان أو أنتجت عن قصد لأن فردا قرر أنها أفكار حسنة · انما الأعراف انبعثت تدريجيا من التجارب المعتادة للناس ، وبدرجة كبيرة بدون قصد أو اختيار بين بدائل أو حتى وعى بها · فقد نشأت الاعراف من قرار جماعة أن فعلا معينا يبدو ضارا ولابد من منعه ، أو بالعكس أى أن فعلا معينا من الضرورى وحتى أنه لابد من فعله ومن ثم فالاعراف هى حكم جماعة معينة عما يؤدى الى رفاهية الجماعة ·

وهكذا فالأعراف هى المعايير التى يعتبرها المجتمع هامة لرفاهيته الشعبية ومن ثم قواها بدقة وصلابة كبيرة ، فالجزاءات التى يقصدها قد اكتسبت مضمون عاطفى كبير ، فهى مؤيدة بالقيم السائدة فى الثقافة (فتحدد الأعراف ما هو صواب وما هو خطأ ، الأخلاقى وغير الأخلاقى من الأفعال والأفكار وحتى المشاعر · ويمكن التعبير عنها فى مصطلح السلوك الواجب Must-behavior ، أو قد تكون سلبية لا تفعل وفى هذه الحالات تسمى محرمات Taboos (١) · فالجزاءات التى تؤيد الأعراف مشحونة بالعواطف الاجتماعية أكثر من تلك التى تؤيد الأساليب الشعبية · والاحترام هو مكافاة الذين يطيعون المعايير ، ويشعر أولئك الذين يخرجون عليها بالخجل والعار اذا اكتشفتهم جماعتهم ، ويشعرون بالذنب اذا لم يكتشفوا · وهذه العواطف الاجتماعية تختلف من مجتمع لمجتمع · فقد تنبذ الجماعة الخارجين على المعايير أو يجلدوا أو يسجنوا أو ينفوا أو يعدموا ·

ويلاحظ أنه اذا لم يحاسب الأفراد على سلوكهم فان نسيج التوقعات المتبادلة Mutual Expectations يتحطم ويتحطم معه البناء الاجتماعى · فالعقاب الذى يوقع على الفعل الخاطىء ليس لمجرد تعليم

---

1 — BIESANZ : Op. Cit., P. 66.

الشخص المذنب ولكن بقدر أكبر لتذكير الآخرين بأن المعايير لابد أن تطاع — ولهذا تعلم الأعراف للأطفال ليس كمجموعة من التوقعات ولكن كمجموعة من المسلمات المقدسة ٠ .

وهناك فى ثقافتنا معايير ذات تاريخ طويل تتضمن لبس لباس معين للرجال وآخر للنساء ، والولاء للوطن . ومن بين المحرمات (تابو Taboo) القتل والسرقة والخيانة وزواج المحارم ٠ وعادة يقال ان المعايير يمكن أن تجعل أى شيء صواب ٠ فالسلوك الذى يكون محرما بشدة فى مجتمع يمكن أن يكون مسموحا به فى مجتمع آخر٠ففى بعض الثقافات،مثل ثقافة الجاهلية كان يوجد وأد البنات ، وفى بعض المجتمعات البدائية (بعض قبائل الهنود الحمر) قتل الشيوخ ، وفى ثقافات أخرى يعتبر اكل لحوم البشر Connibalism أمرا اخلاقيا مسموحا به ٠

ويلاحظ أن الأساليب الشعبية للثقافات الأخرى تدهشنا لاختلافها، بينما الأعراف اذا كانت مختلفة بشدة عن أعرافنا فهى تصدمنا وترعبنا ونعتبرها لا اخلاقية وخطيئة ٠ وعادة يشعر الناس الآخرون بنفس الشعور تجاه معاييرنا ٠

الأعراف مثل الأساليب الشعبية تخضع للتغير ولكن اكثر بطئا ٠ فمثلا كان الرق يعتبر عملا اخلاقيا والآن يعتبر عملا لا أخلاقيا فى معظم الثقافات ٠

جـ ـ القوانين Laws

المعايير التى نسميها قوانين هى الاكثر معرفة لدى الناس ، ومع ذلك ليس كل المجتمعات لديها قوانين ، وان كان كل المجتمعات لديها أساليبشعبية وأعراف ٠ ففى مجتمع صغير موحد تكون الجزاءات اللارسمية كافية لجعل السلوك يتطابق مع المعايير ، ولكن فى مجتمع مركب يصبح من الضرورى

وجود معايير ذات جزاءات رسمية لتوفق بين سلوك أعضاء المجتمع ، حتى يستطيع المجتمع الاستمرار فى أداء وظائفه بأسلوب منتظم ٠

فالقوانين لا تظهر الا فى المجتمعات التى لها تنظيم سياسى أى لها دولة وحكومة ٠ اذ أن القوانين تسنها هيئات تشريعية ذات سلطة تشريعية مستمدة من هذا التنظيم السياسى ٠ وبالاضافة الى ذلك فعادة القوانين مكتوبةوتسجل بأسلوب ما . وهذا يوضح سبب عدم ظهورها فى المجتمعات البدائية اذ أنهـا لا تقرأ ولا تكتب ٠ وان كان هناك بعض علماء الاجتماع يمدون معنى القانون ليشمل كل تلك العادات التى يلاحظون أنها تؤيدها سلطة معروفة فى هـذه المجتمعات البدائية ، ويطلقون عليها القانون البدائى ٠

ولكن معظم علماء الاجتماع يؤيدون اطلاق اصطلاح القانون على تلك المعايير التى تسن وتسجل ، وهذا هو ما يمايز بين القوانين من ناحية وبين الأساليب الشعبية والأعراف من ناحية أخرى ٠ وهـذا ما قاله سمنر من أن الأساليب الشعبية والأعراف تلقائية cresive أى تنمو تلقائيا ودون وعى أو قصد ، بينما القانون يسن ويشرع enacted ٠ ولهذا عندما نقول كلمة القانون غير المكتوب فنحن فى الحقيقة نشير الى العرف والأساليب الشـعبية وليس القانون ٠

فالقوانين هى قواعد للسلوك مصاغة عن قصد ومؤيدة بسلطة خاصة ، والجزاءات التى تؤيدها رسمية وتنفذها هيئات معينة مثل المحكمة ٠ فالقانون ملزم مباشرة بحكم أنه مسن ، ولا يصدر الزامه عن الرأىالعام ، أى أنهلايعمل بطريقة غير رسمية ، ولكنه يعمل بسلطة الدولة وبأسلوب رسمى ٠ فالقـانون يفترض سلفا قيام دولة ، كما أنه لا يمكن أن تقوم دولة بدون أن يكون لهـا قوانين محددة تفرض السلام والأمن والنظام بينالناس ، ووجود كل منالدولة والقوانين مرتبط بالآخر ولا ينفصل عن أخيه ٠ ولهـذا تعرف الدولة بأنهـا الشعب الذى يحيى خاضعا للقوانين ، وهى الشعب المنظم وفقا لأصولالقانون،

والدولة بهذا التعريف تشمل السلطات والأفراد ، السلطات من شأنها حماية الأفراد ووقاية الحقوق وحسم ما ينشأ من نزاع بين الأفراد أو الجماعات الذين تتعارض مصالحهم ، ولولا هذه السلطات التشريعية التى تسن القوانين لاستعصت الألفة والتطامن والتماسك بين أعضاء المجتمع ٠

فالقوانين تخدم عدة أغراض :

(أ) هى تؤيد الأعراف التى قبلتها ثقافة الجماعة السائدة فى المجتمع، ومثال الأعراف المؤيدة بالقانون ، مسئولية الرجل عن زوجته وأولاده ، والتحريم ضد القتل والسرقة ٠

(ب) وهى تنظم المواقف الجديدة التى لا تتناولها العادات ، فعند اختراع السكك الحديدية والسيارات والطائرات والراديو والتليفون والتليفزيون ، كان على الحكومة أن تضع القوانين لتضبط وتنظم استخدام هذه المخترعات الجديدة مثل تنظيم المرور ٠

(ج) وهى تملأ الفجوة عندما الأساليب القديمة تثبت عدم فاعليتها فى مواجهة أزمة كمحاولة بعض الحكومات اصدار قوانين تحدد أسعار بعض السلع لمواجهة أزمة ارتفاع الأسعار ، حيث أن الأسلوب القديم الذى كان يحدد الأسعار وهو نظام العرض والطلب ، أصبح فيه اجحاف بالفئات الفقيرة ٠

(د) وهى تعمل على جذب أنماط الثقافة الجارية فى الحياة الواقعية لتتمشى مع الأنماط المثالية والقيم السائدة ٠ مثل قوانين الضرائب التى تأخذ من الغنى لمساعدة الفقير بالمستشفيات والمدارس والخدمات المحلية ، ومثل قانون يهدف الى الاصلاح الاجتماعى ٠

وغنى عن البيان أن القوانين عديدة وشاملة ومهمة جدا فى المجتمعات المركبة ، وحتى أنها تحظى باهتمام كثير من المتخصصين مثل المحامين والقضاة والشرعيين وعلماء القانون ، بل وقام لها فرع خاص من فروع المعرفة

الانسانية · ولقد وصل الاهتمام بالقانون حتى أنه اعتقد كثير منمفكرىالغرب أن له أصلا الهيا ، وهذا ما يذهب اليه أصحاب نظريات الحقوق الطبيعية · ويلاحظ أنه فى المجتمعات الاسلامية المصدر الأساسى للقوانين هو القرآن والسنة أى أن لها مصدرا الهيا أيضا · وان كان هذا لا يمنع أنه حتى فى المجتمعات التى تستمد شريعتها من مصدر الهى ، أن يوجد بها قوانين نشأت عبر الزمن من حاجة المجتمع اليها ، كقوانين تنظيم المرور ، وقوانين تنظيم دخول الموانى والمطارات ، وقوانين التعليم ، وقوانين الرقابة الصحية ، هذه القوانين تسمى بالقوانين الوضعية بلغة الغرب وهى عند المجتمعاتالاسلامية ما يعبر عنها علماء الشريعة فى عبارات جامعة (لا ضرر ولا ضرار ـ مصلحة المجتمع) حتى تسمح للمجتمعات بالتعبير عن احتياجاتها والتغير فى الاتجاه الذى يحقق صالحها ولا يضر بالجماعات الاجتماعية ·

ونلاحظ أيضا أن المجتمع المركب يتكون من جماعات اجتماعية مختلفة ، وكل جماعة من هذه الجماعات لها عرفها وأساليبها الشعبية التى تختلف كل عن الأخرى · بمعنى أن المجتمعات المركبة ليستلها ثقافة واحدة مثلالمجتمعات البدائية · وهذه الجماعات تدخل فى علاقات اجتماعية توجهها المعاييرالمختلفة لكل جماعة ، ومن ثم فقد يقع الصراع بين هذه المعايير المختلفة ، هنا يحتاج الأمر الى معيار أكثر سلطة وسيادة ويمثل المجتمع كله ليقضى ويحكم بينهذه الجماعات ومعاييرها المختلفة ، ذلك هو القانون وتلك هى احدى الوظائف الأساسية للقانون · ومن ثم فالقوانين لها وظيفة هامة فى بناء المجتمع ، وتعتبر القوانين عنصرا هاما فى استقرار المجتمع واجبار أعضائه على اتباع نوع من العلاقات الاجتماعية المضبوطة والمؤيدة بسلطة الدولة ·

معايير الجماعات المنظمة :

كل الجماعات المنظمة لها قواعدها وترتيباتها الرسمية التى تضع واجبات ومسئوليات الأعضاء كل نحو الآخر ونحو المنظمة نفسها · ونحن

نسمى هذه المعايير معايير منظمات • فالكلية والجامعة لها قواعدها الرسمية المنفصلة عن قوانين الدولة والتى قد تتطابق مع القوانين أو لا تتطابق معها • وبالمثل كل الجماعات الاجتماعية المنظمة فى المجتمع لها معاييرها الخاصة •

وواضح أن هذه المعايير تخص فقط أعضاء المنظمة ، وعادة تكون هذه المعايير أكثر ضبطا وتنفيذا فى تنظيمها للسلوك من قوانين الدولة • وهكذا يتمتع المدرس فى مدرسته ربما بامتيازات أكثر ولكن أيضا يعانى من قيود أكثر من أولئك الذين هم مجرد مواطنين • فمثلا يستطيع المواطن العادى أن يأكل وهو يسير فى الطريق العام ، ولكن المدرس الذى يأكل فى الطريق العام تنظر اليه جماعته باشمئزاز لأنه خرج على معايير الجماعة • وهكذا تفرض المنظمات مجموعتها الخاصة من المعايير على الأفراد الذين ينتمون اليها •

انه من العجيب فى هذا الشأن أن بعض المنظمات المساعدة للدولة مثل الجيش ، تعتبر أكثر صلابة فى تنظيمها للسلوك اليومى لأعضائها عن الدولة نفسها • وأكثر من ذلك ففى المجتمع العام يعتبر الجبن أمام عدو مجردانحراف عن المعايير ولا يعاقب عليه القانون ، ولكن نفس الفعل فى الجيش ، أى الجبن أمام العدو قد يصل فيه العقاب الى حد الاعدام ، فهو انحراف شديد عند معايير هذا النوع من المنظمات •

يكون جزاء الخروج على معايير المنظمة واضح جدا • واستمرارالخروج عليه يؤدى الى فصل العضو من المنظمة وينتج عنه فقد حقوق وامتيازات العضوية ، فنقابة الأطباء تفصل من عضويتها الطبيب الذى يخرج على معاييرها ، وكذلك المحامى الذى يخرج على معايير النقابة يفصل منها •

الاختلاف الأساسى بين القوانين التى هى معايير الدولة ومعاييرالمنظمات الأخرى ، هو أن الأولى تستخدم لكل مواطن فى البلاد طالما أنهم خاضعون لتشريع الدولة ، بينما معايير المنظمات تنطبق فقط على أعضاء المنظمة • كما أن القانون يطبق اجباريا على كل عضو فى المجتمع ، ولكن معايير الجماعة

المنظمة تنطبق اختياريا ، بمعنى أى تنطبق على الفرد عندما يختار أن يكون عضوا فى هذه الجماعة ٠

(ويلاحظ أن الدولة ما هى الا منظمة مثل المنظمات الأخرى ، ولكن فقط اكبر وأشمل ٠ فهى المنظمة التى ينتمى اليها كل أعضاء المجتمع ٠ ومع ذلك ما هى الا منظمة من بين المنظمات التى يتكون منها المجتمع ، وهكذا يصبح القانون أيضا معايير جماعة اجتماعية ، ولكن أصبح لها اسم خاص وهو القانون فقط بسبب أن الدولة نوع خاص من المنظمات ونوع هام جدا من المنظمات فى المجتمعات المركبة الحديثة) (١) ٠

وهكذا عندما نتحدث عن القوانين نحن نعنى معايير الدولة ، وعندما نتحدث عن القواعد الرسمية الأخرى نحن نعنى المنظمات الأخرى فى المجتمع ٠ وفى كل من الحالتين سواء فى حالة الدولة أو الجماعات المنظمة ، نقول ان المعايير قد وصلت الى مرحلة الانتظام Institution Lized أى أنها تعددت وسنت enacted ٠ (فنحن نتحدث عن انتظام المعايير Institutionlize Norms عندما تصبح للمعايير مجموعة من الجزاءات الايجابية والسلبية ، وعندما يقبلها أعضاء النسق كشرائع وعندما يكون أعضاء النسق قد تمثلوها واستدمجوها Internalizedتماما) (٢) ٠

ويصبح الفرق بين معايير الدولة ومعايير الجماعات المنظمة فرق فى الدرجة فقط ٠ ١ ـ القوانين اكثر نفاذا وشمولا عن معايير المنظمات الأخرى، وقابلة للتطبيق على أعضاء المجتمع كله ٠ ٢ ـ يختلف أسلوب الدولة فى تطبيق الجزاءات عن الجماعات المنظمة الأخرى ، حيث لا يوجد أى منظمة غير الدولة يمكنه أن يحكم بالاعدام أو الجلد أو السجن على عضو فيه خرج على معاييره ٠

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 234
2) Allyn : Op. Cit., P. 23.

العلاقات بين المعايير

هناك علاقة بين الأساليب الشعبية والأعراف والقوانين فبالرغم من أن كلا من هذه المعايير مؤيدة بجزاءات مختلفة ، ومن ثم ليس لنـــا أن ندعى أن العرف بالضرورة أكثر الزاما من الأساليب الشعبية ، أو أن القوانين بالضرورة أكثر قسوة من كل من العرف والأساليب الشعبية فقد تكون الجزاءات السلبية فى بعض الحالات أكثر قسوة ، ولكن العقوبة الأشد لا تؤدى بالضرورة الى تطابق أشد ، وأكثر من ذلك ليست غرامة مالية صغيرة بالضرورة أكثر قسوة من مجرد السخرية ٠

كما يلاحظ أن فى كل دولة يوجد قوانين التى تخرج على أحدها فى بعض الحالات ، فاذا كان مجرد الخروج على القانون جريمة فنحن جميعا مجرمون فمثلا هل هناك أحد لم يقد سيارته مرة أزيد من السرعة القانونية لمنطقة معينة؟ نحن نخرج على كثير من القوانين الوضعية دون أن ينالنا جزاء ، وكثيــرا ما يرجع ذلك الى أن كل الناس الآخرين يفعلون ذلك ، أى أن هذا الفعل اكتسب تأييدا اجتماعيا مضادا لما يحكيه القانون ٠ فهناك كثير من القوانين الوضعية مهجورة وعقيمة ٠ اذ بقيت فى الكتب مدة طويلة بعد انقضاء الحاجة اليها ، أى مدة طويلة بعد فقدها تأييد القبول العام لها ٠

وهــكذا ، فبالرغم من أننا يمكننا الخروج على بعض القــوانين دون الخوف من العقاب ، فاننا جميعا نفكر مرتين قبل الخروج على أحد الأساليب الشعبية أو العرف ، لأن الجزاءات توقع سريعا على الخارجين ، وهـــذه الجزاءات تجد التأييد والعون من المجتمع ، فلا يمكن لأحدنا أن يحضر الى الكلية دون حذاء ، أو أن يخلع ملابسة ويمشى فى الطريق ، بالرغم من أنه لا يوجد قانون يمنع هذه الأفعال ، ومن هذا نرى أن القانون ليس بالضرورة أداة أكثر فاعلية للضبط الاجتماعى من الأساليب الشعبية أو العرف ٠ وفى

بعض الحالات مثل طلب دفع الضرائب يكون القانون أكثر فاعلية للضبط الاجتماعى من الأساليب الشعبية أو العرف ·

وفى المجتمعات البدائية التى لا يوجد فيها حكومات واضح أنها لاتعرف القوانين · ولكن كل المجتمعات بدون استثناء لديها عرف وأساليب شعبية ، فلا يمكن أن يوجد مجتمع بدونها ، ولا يمكن الحياة فى مجتمع انسانى بدونها ·

ويلاحظ أن القوانين التى تظهر فى المجتمعات المركبة ، كثير منها ما هو الا بلورة لمعايير هذه المجتمعات ، وعادة (تكون القوانين أكثر فاعلية عندما تكون منغرسة فى الأعراف) (١) · ويصبح دور القانون تأييد العرف نظرا لأهميته بجزاء اضافى مؤيد من الدولة وقوتها البوليسية ، ومن ثم يأخذالعرف شكله الرسمى فى القانون ، ولكن يلاحظ أن الأعراف موجودة قبل أن تسن القوانين ، وقد يتغير العرف ويظل القانون على ما هو عليه ، ذلك يعنى انه غالبا ما تتخلف القوانين نظرا لتغيرها ببطىء · وفى الحقيقة فان القوانين غالبا ما تفشل فى ملاحقة العرف فتتأخر فى عملية التغير الاجتماعى ، ومن ثم فى بعض الحالات تمثل التأثير المحافظ فى المجتمع ، وان كان هـذا ليس صادقا بصفة مطلقة . لأنه فى بعض الأحيان تسن القوانين قبل أن يحظى بتأييد المجتمع ، ومن ثم فى هذه الحالة يكون من الصعب بل فى بعض الحالات من المستحيل تنفيذها فى المجتمع ·

وعادة تعتبر الأسـاليب الشـعبية أكثر قابليـة بل وسرعة للتغير من القوانين · فكثير من الأساليب الشعبية ترتبط بالمستحدثات مثلا ، وهـذه قد تتغير من سنة لأخرى · وأكثر من ذلك أن معظم الأساليب الشعبية لا تأخـذ شكلا رسميا فى القوانين ، ومن ثم ليست خاضعة لهذا التأثير الاضافىالذى يؤدى الى الثبات ·

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 70

فاذا كانت القوانين فى كثير من الحالات بلورة وتعريفا رسميا للتحريمات ومبيحات تتضمنه أصلا فى العرف ، فانه أيضا ليس فقط محتمل ولكن غالبا ما يحدث الصراع بين القوانين والعرف فى المجتمعات المعاصرة بسبب الفجوة الثقافية ، والفجوة الثقافية تعنى أنه اذا كان هناك قانون استمد أصله من عرف ، وتغير هذا العرف بتغير حاجات المجتمع ، وظل القانون على حاله ، نقول ان هذا القانون تخلف ولم يلاحق التغير الذى حدث فى الأصل الذى استمد منه القانون وجوده · وتوضح القوانين المهجورة هذه النقطة ·

وفى بعض الأحيان يظهر الصراع بين هذين النوعين من المعايير (القانون والعرف) موقفا هاما ، بل قد يشكل خطورة على المجتمع · وليس التفاوت والتباعد بين العرف والقانون دائما يأخذ هذه الصفة المأساوية . فمثل هذا التفاوت لا يمكن تجنبه كلما زاد تركيب المجتمع · وفى مثل هذه االحالات ، بل فى معظم حالات الصراع ، فان العرف هو الذى يسود وليس القانون · فاذا كان الصراع حول شىء يجب اعطاؤه فانه القانون الذى عليه أن يخضع لهذه القاعدة وليس العرف طالما أن هذه القاعدة هى ذاتها عرف جرت به رغبة المجتمع ، وأصدق مثال على ذلك هو القانون التجارى ، الذى يقضى بالعرف التجارى بين التجار اذا كان القانون يخالف العرف ·

ولا يعنى هذا ، أن القانون ليس له ما للعرف من أهمية ، فالقوانين لها أهميتها ، وخاصة فى المجتمعات الكبيرة حيث العلاقات الاجتماعية ليست أولية ولكنها ثانوية وليست شخصية كما فى المجتمعات الصغيرة ، ولكنها وظائف ناجمة عن تفاعل الجماعات الاجتماعية · فمثلا فى المجتمعات الكبيرة هناك من لا يرغب فى دفع الضرائب لولا أنها مؤيدة بالقانون . ونحن كأعضاء فى هذا النوع من المجتمعات نعرف أهمية هذه الأفعال ، حيث يؤيد العرف القوانين التى يتطلبها المجتمع ، ولكن العرف بذاته لا يمكن أن يؤمن ويؤكد التطابق ، لأن جزاءات العرف لا تعمل بالكفاءة المطلوبة فى هذه المواقف مثل

دفع الضرائب أو دفع ايجار المنزل • فاذا لم يكن الفرد خاضعا لعقاب قانونى عند عدم دفع الضرائب أو ايجار المنزل ، فانه يمكنه الخروج على العرف فى هذا الخصوص دون أن يناله جزاء • وجماعته التى ينتمى اليها لن تكشف جريمتـه ، ومن ثم لا تستطيع التعبير عن استيائها وعدم قبولهـا لفعلتـه • فالقانون الجنائى مثلا وضع لمن يخشى العقاب ولا وازع له من عرف ، ولذلك سماه بعض المشرعين (الأخلاق فى أقل مستوى) • ويريدون بذلك أن القانون الجنائى بأوامره ونواهيه وعقابه وضع للانسان الذى يخشى العقاب البدنى •

لماذا نتطابق مع المعايير

لقد رأينا أن المجتمـع يتكون من جمـاعات ، وأنه يباشر علينا ضغطا لنتطابق مع المعايير ، وأحيانا بعض المعايير تبلورها الحـكومة وتطبقها مثل القانون • ومن السهل رؤية أننا لا نستمتع برفض زملائنا لأننا لا نستطيع تحمل العزل الاجتماعى وخاصة من الجماعة التى ننتمى اليها أو العزل بواسـطة السجن ، ومن ناحية أخرى من السهل رؤية أننا نستمتع بتأييد وقبول أعضاء جماعتنا لنا ، وأن هذا فى ذاته يعتبر أكبر مكافأة • ولكن الرجاء فى المكافأة والخوف من العقاب ليس السبب الوحيد الذى يدعونا للتطابق مع معاييـر مجتمعنا • ولكن هناك أسس أخرى للتطابق ، وهذه التى سنتكلم عنها بدون التمييز بين القانون أو العرف أو الأساليب الشعبية •

(أ) التعليم والتثقيف :

فأول سبب لتطابقنا مع المعايير هو أننا قد تعلمنا أن نفعل ذلك ، فمنذ طفولتنا المبكرة تعلمنا أن نلاحظ معايير مجتمعنا • فالمعايير شأنها شأن الوجوه الأخرى من الثقافة نجدها فى المجتمع ونتقبلها دون مناقشة ، لأنه فى السن المبكرة نتلقاها كحقائق غير قابلة للمناقشة ، وخاصة أنه فى هذه السن المبكرة

لا يكون لدينا القدرة الادراكية التى تمكننا من مناقشتها • فمثلا تعلمنا أن نحترم الأكبر منا سنا ، وتعلمنا أن نأكل بأسلوب ، معين وأن نلبس نوعا من الملابس ، وأن لا ننطق الكلمات البذيئة ، وأن نكتب ونقرأ من اليمين الى اليسار ، الى ما لا نهاية من التعليمات • فعملية التنشئة الاجتماعية هى التى يتعلم بها الطفل معايير مجتمعه ، وبعد فترة تصبح هذه المعايير هى الصواب والأسلوب الصحيح لأداء الأشياء ، بل فى بعض الأحيان تصبح الاسلوب الوحيد وما عداها هراء •

(ب) الألفة :

السبب الثانى لتطابقنا مع المعايير أننا بمرور الوقت نألفها ونعتادها ، ففى كثير من الحالات ما نعتاده يصبح مألوفا لدينا • فمثلا نحن نتعلم استخدام الملعقة فى الصغر وبعد فترة يصبح استخدامها مسألة عادة • وهكذا فالتكرار للفعل يحوله الى عادة وهكذا تتثبت جذور الأساليب الشعبية فى الكائن الاجتماعى • وعندما يصبح انسان معتادا لنوع من الممارسة ، فهو يأتيها تلقائيا بدون جهد أو تفكير • ومن ذلك الوقت يصبح الخروج على الأساليب الشعبية أصعب بكثير من التطابق معها •

(ج) المنفعة :

والسبب الثالث لتطابقنا مع معايير مجتمعنا أنه عادة نقدر قيمة منفعتها، فهى تمكننا من التفاعل مع الآخرين بأسلوب يؤدى الى منفعة الكل ، فهى تساهم فى تيسير الحياة الاجتماعية • فمثلا ، واضح أن الأسلوب العادل لتوزيع تذاكر طائرة مثلا حيث هناك عدد محدد من الكراسى هو بيعها أولا لمن قدم أولا، فنحن نرى الرشد فى عبارة من يأتى أولا يخدم أولا • فنحن بصفة عامة لا نسمح للأقوى أن يكون على رأس الطابور لمجرد أننا نعرف أنه يمكنه أن يشق طريقه بالقوة ، فمثل هذا الموقف سوف يؤدى الى الفوضى وانتصار القوة على النظام •

وبالمثل نحن نقف بالسيارة عندما نرى النور الأحمر ونسير عندما نرى النور الأخضر . ونحن نفعل ذلك ليس فقط لأننا تعلمنا هذا أو لأننا اعتدناه ، ولكن لأننا نعلم أن فى ذلك فائدة وأمنا لنا جميعا • وهكذا فى كثير من المواقف الاجتماعية نعرف الكفاءة الرشيدة للمعايير التى نتطابق معها •

(د) التوحد مع الجماعة :

والسبب الرابع لتطابقنا مع المعايير ، هو أن التطابق وسيلة للتوحد مع الجماعة • فقد نتطابق مع معايير جماعتنا الاجتماعية ، مثلا ، اكثر من معايير الجماعات التى لا ننتمى اليها ، ليس لأننا نعتبر معاييرنا أرقى ، وليس لأننا تعلمنا وألفنا معاييرنا ، ولكن لأننا عندما نتطابق مع معاييرنا فنحن نعبر عن عضويتنا فى جماعتنا وتوحدنا معها •

ويلاحظ أنه ممكن أن كل هـذه الأسباب تعمل معا فى موقف اجتماعى واحد ، وفى موقف آخر قد يعمل واحد أو أكثر •

ويلاحظ أيضـا ، أن مجرد وجود المعـايير لا يعنى أنها دائما مفهومة ومطاعة ويتم التطابق معها تلقائيا ، ذلك لشىء واحد هو أن المعـايير نفسها ليست قاطعة • فنحن نسمع كل يوم أساليب شعبية وأعراف تناقش فى عبارات مثل (انها ليست خطيئة) (هل تعتقد أننى اقترفت جرما) (هل لابد أن البس السواد فى الجنازة) • وحتى القوانين التى كتبت بعناية ، تخضع للمناقشة بين المحامين من ناحية لتفسيرها وتطبيقها •

كما أنه خلال فترات التغير السريع ، يحدث الخروج على المعايير بشكل واسع اذ مجرد أن توضع المعايير موضع المناقشة ، تتضـاءل قوة المعـايير وتصبح فى حدها الأصغر • فالأعراف التى توضع موضع المناقشة لم تعـد معايير ، اذ أن معنى ذلك أن المعيار قد فقد تأييده الاجتماعى ، وكذلك القبول الاجتماعى •

(تشكل معايير الثقافة مع الجزاءات الرسمية واللارسمية التى تؤيدها نسق الضبط الاجتماعى فى المجتمع ، ولكن المعايير نفسها لا تضبط أى شيء ، اذ يفسر الناس ويعرفون ويؤيدون المعايير عندما يتفاعلون فى جماعة ، وفى عملية التفاعل تنبعث معايير جديدة أو تعريف جديد لمعيار قديم) (١) ٠

صراع المعــايير

يعتبر الصراع بين المعايير من أحد أهم المواضيع فى تحليل البناء الاجتماعى وفهمه ، اذ يمكن أن يكون الصراع بين المعايير محددا هاما لســـلوك الأفراد والجماعات والمنظمــات والمجتمعات ٠ اذ تمكننا معرفة مواطنه فى البنـــاء الاجتماعى ليس فقط من فهم أحسن لأنماط السلوك ولكن أيضا امكانية التنبؤ بها (٢) ٠

المجتمعات البدائية ليس لديها أكثر من مجموعة واحدة من المعتقدات ، ومن ثم تولد مجموعة واحدة من المعايير ، فهم يعتبرون أنفسهم جماعة واحدة ولهذا يرى الملاحظ للمجتمع البدائى صورة واحدة ، وكذلك تكشف ثقافتهــم عن درجة عالية من التكامل . وقد ينحرف الأفراد فى مثل تلك المجتمعــات ، ولكن انحرافهم يكون عن مجموعة واحدة من المعايير ٠ ولكن فى المجتمعات المركبة يختلف الموقف تماما ، فى مثل تلك المجتمعــات المكونة من جمــاعات مختلفة وكل منها على ما رأينا له معاييره المختلفة التىيتطابقمعها الأعضاء٠ ومن ثم فقد يتعرض الفرد أو الجماعة بل وعادة يحدث أن يتعرض لمعاييــر متعددة ٠ بعض هذه المعايير قد تكون متوافقة ، ويؤيد بعضها البعض ، ولكن أيضا من المحتمل أن تختلف المعايير ومن ثم قد تكون متعارضة وفى بعض

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 71

2) Allyn : Op. Cit., P. 49.

الأحيان متصارعة كل مع الأخرى · فأحيانا ما يعتبر خطأ عنـد جماعة من الجماعات يعتبر صواب عند جماعة اخرى حتى فى نفس المجتمع الواحد ، انه قد يكون ما هو انحراف عن المعايير عند جماعة هو تطابق مع المعايير عنـد جماعة اخرى · (ففى المجتمع الأمريكى مثلا يوجد الكاثوليك والبروتستانت واليهود ، ولكل من هذه الجماعات معاييرها التى قد تتعارض ، ومن الناحية السياسية يوجد الديموقراطيون والجمهوريون ، ومن ناحية جماعات العمل يوجد ذوو الياقات البيضاء ، والعمال . وفى الأفكار يوجد المثاليون والماديون، لذلك المجتمع المركب مثل المجتمع الأمريكى لا يمكن أن يعرض درجة من التكامل الثقافى التى يتميز بها المجتمع البدائى) (١) ·

ويلاحظ أن الفرد فى مثل هذه المجتمعات المتعارضة الثقافات ، يتعرض لثقافات متعارضة وقد تكون متصارعة ، فمثلا قد يتعرض طالب عربى مثقف ابتعث الى أمريكا ، للثقافات الآتية ثقافة مجتمعه العربى بمعاييرها ، وثقافة الحضارة الغربية بمعاييرها المختلفة تماما ، وفى نفس الوقت يباشر كل منها ضغطا عليه · بل ان المجتمع الواحد قد يكون فيه ثقافات فرعية متعددة يتعرض لها الفرد أو الجماعة · فالفرد ينتمى فى نفس الوقت الى جماعات متعددة ، ومن ثم يصبح مطلوب منه التطابق مع معايير مختلفة · فمثلا طالب يكون من الريف ثم يأتى الى الحضر ثم ينضم الى جماعة للألعاب الرياضية ، ثم يعمل فى مصنع وكل هذه التنظيمات هى جمـاعات لكل جماعة معاييرها قد يؤيد بعضها بعضا ، وبعضها قد يتعارض مع الأخرى . وعندما تتعارض هـذه المعايير كل مع الأخرى أو تتصارع ، هنا يجد الفرد نفسه مضطرا للاختيار بينها ، ويمكن أن تكون النتائج ان ينمى الأفراد لأنفسهم صراعا للمعايير ، أو يجرون تغييرات فى اتجاهاتهم ومعتقداتهم · (وهكذا فى المجتمعات الحديثة

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 247.

المركبة والمتميزة باللاتجانس ، يتعرض الفرد لثقافات متصارعة) (١) • وهى مشكلة نادرا ما يواجهها الفرد فى المجتمعات البدائية •

وفى الحقيقة أن أحد هذه الصفات البارزة فى المجتمعات المركبة أنها تركب من تقسيمات ثقافية عديدة ، مثل الاقليمية والجنس pacial والسلالية الى آخره ، والتى عادة تتقاطع كل مع الأخرى • والانسان يمكن أن يكون عضوا فى جماعات متعددة فى نفس الوقت ، وأيضا قد يكون فى تقارب شديد مع جماعة أخرى ليس هو عضوا فيها ، فالطبقات الاجتماعية ليست معزولة أو مفصولة ، وكثيرا ما ينضم أبناء الطبقة العليا الى الطبقاتالكادحة ويدافعون عنها ويتكلمون بلسانها ، وينشأ الصراع بين معايير طبقتهمومعايير الطبقة الأخرى •

وفى المجتمع غير المتجانس ، ربما لا يتعرض الفرد فقط لمعايير مختلفة ولكن أيضا يتمثل معايير قد تكون متناقضة وحتى متعارضة منطقيا • فمثلا قد يعلم الآباء الأبناء أو قد تعلم الديانة أتباعها أن يعلم كل منهما الفرد أن العلاقات الجنسية أساسا عمل شيطانى . ولكنه فى نفس الوقت وسائل الاتصال الجمعى من سينما وتليفزيون وقصص أو جماعة أترابه قد يقنعونه أن العلاقات الجنسية أمر طبيعى ، وهكذا صراع المعايير يمكن أن ينتج تلقائيا وغير محسوس به فى أثناء عملية التنشئة الاجتماعية ، نتيجة عدم تجانس معايير الديانة والآباء ومعايير وسائل الاتصال الجمعى • ومن ثم ينشأ الصراع •

ويعتقد بعض علماء الاجتماع أن مثل هذه المواقف الصراعية هىالمسئولة بشكل كبير عن الارتفاع فى نسبة الأمراض العقلية فى المجتمع الأمريكى • وذلك لا يرجع فقط الى أنه يوجد معايير متعددة على الفرد أن يتطابق معها ،

---

1) Allyn : Op. Cit., P. 49.

ولكن يرجع الى وجود معايير كثيرة متعارضة) (١) . فالمعايير الدينيةتختلف عن معايير الأعمال ، ومعايير وسائل الاتصال الجمعى ، وعن معاييرالعلاقات الشخصية ، وهكذا . فتعدد المعايير واختلافها فى المجتمعات المركبة تضع أمام الأفراد مشاكل ما كان لها أن تحدث . ولهذا يمضى الفرد جزءا كبيرا من حياته محاولا التكيف مع هذه الواجبات المتصارعة . والفرد الذى يقع فى هذا النوع من الضغوط المتقاطعة ، قد يجد من الصعوبة أن يحقق شيئا ، فانه اذا أرضى واحدة من المعايير فمعنى ذلك أنه يضحى بالثانية ، فقد يغمره الاحساس بالذنب أو القلق أو أن القرار الذى يتخذه يصاب بالتردد وعدم الكفاءة ، أو أن يصاب بالجمود .

ونتيجة أخرى لتعدد اختلاف المعايير فى المجتمع المركب ، هى أن الاختلاف فى المعايير تعوق الفهم ، كموقف المتحدثين بلغتين مختلفتين ، وهو يشبه تماما الموقف الاجتماعى الذى خلا من المعايير ، ولقد قلنا أنه دون المعايير يصبح التفاعل بين الناس صعبا وخطرا ، وفى بعض الحالات مستحيلا ، وفى الحقيقة موقف اجتماعى بلا معايير هو موقف اقتراب ، والاقتراب يمثل التخبط بينما المجتمع يمثل النظام .

* * *

(1) Bierstedt : Op. Cit., P. 247

الفصل الثانى

المكانة والدور

المكانة

- أهمية المكانة
- التنشئة خلال المكانة
- المكانة الموروثة
- المكانة المكتسبة
- الفرد ومكانته الاجتماعية
- تتابع المكانات
- تعدد المكانات
- رموز المكانة
- علاقات المكانة
- تناقض المكانات

الدور

- المكانة والدور
- تأسيس الأدوار
- الدور والفرد
- انجاز الأدوار
- توترات الأدوار
- صراع المكانة والدور

المكانة والدور

STATUS AND PLOLE

لقد رأينا أن من أهم وظائف علم الاجتماع هو تحليل طبيعة أسس البناء الاجتماعى • ولقد أنجزنا فى الفصل السابق جزءا من ذلك • ولاحظنا فيه أن انتظام التفاعل الاجتماعى يرجع الى وجود المعايير التى تقود وتحدد مسار العلاقات الاجتماعية التى تقوم بين اعضاء المجتمع • فالمعايير تعطى العلاقات والتفاعلات الاجتماعية امكانية التنبؤ ، وتشكلها فى أنماط للسلوك ، ومن ثم تعطى بناءا للمجتمع •

والآن سوف نناقش ظاهرة أخرى ، ذات علاقة وثيقة بالمعايير ، والتى تساهم بشكل كبير فى بناء المجتمع ، تلك هى ظاهرة المكانة الاجتماعية ، ولسوف نرى أن المعايير لا تسبح بلا نظام فى المجتمع ، ولكنها مرتبطة بشدة بالمكانات الاجتماعية ، ولسوف نرى أيضا أن المجتمع ما هو الا شبكة من المكانات الاجتماعية • (فشبكة المكانات المتداخلة ، ونمط العلاقات المنظمة والدائمة بدرجة كافية هى البناء الاجتماعى لجماعة ما) (١) • (وهكذا يعتبر مفهوم المكانة الاجتماعية من أهم أدوات التحليل فى علم الاجتماع المعاصر)(٢)؛ (فكلمة مدرس هى عنوان ورمز اصطلاحى الذى يحدد ويميز مكانة ، ومركز فى بناء اجتماعى ، ولأنها عنصر أساسى فى البناء الاجتماعى تعتبر المكانة مفهوم محورى Key Concept فى علم الاجتماع •• والمكانة مستقلة عن أى شخص • فمكانة المدرس لا تعتمد على شغل زيد أو عمرو لها ، فالمدرس

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 166

2) Bierstedt : Op. Cit., P. 257

وحدة فى البناء الاجتماعى لنسق مدرسة · فتوحد المكانة حتى ولو كلنمجلس ادارة المدرسة يجد متاعب فى شغل المركز) (١) ·

(والمكانة والدور هما وجهان لظاهرة واحدة ، المكانة هى مجموعة من الامتيازات والواجبات ، والدور هو القيام بأعباء هـــذه الواجبـات وتـلك الامتيازات) (٢) · (الدور هو الوجه الديناميكى أو الســـلوكى للمـكانة الاجتماعية،فنحن نشغل مكانات، اما الأدوار فنحن نؤديها ، فالدور هوالحالة التى يملؤها فرد معين بأدائه لواجبات المكانة الاجتماعية ويتمتع بمميزاتهـا وحقوقها · فالدور هو ما يفعله العضو فى المكانة التى يشغلها) (٣) · فمن الواضح أن مختلف الأعضاء يفعلون أشياء مختلفة فى نفس المكانات ، ومن ثم فمفهوم الدور هو الذى نبهنا وجعلنا نأخذ فى الاعتبار هذه الاختلافات ، وهكذا أصبح مفهوم الدور له أهمية قصوى فى علم الاجتماع المعاصر وخاصة فى فهم وتحليل المكانات الاجتماعية التى تشكل عنصرا من أهم عناصر البناء الاجتماعى ·

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 166 — 167.
2) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 99.
3) Bierstetdt : Op. Cit., P. 262.

المــــكانة

STATUS

أهمية المكانة الاجتماعية

تبدو أهمية المكانة الاجتماعية فى أنه (بينما قليل من المعايير تنطبق على كل أعضاء المجتمع ، الا أن معظم المعايير تختلف طبقا للمكانات التى نملؤها. لأن ما هو صواب لمكانة ما ربما يكون خطأ عند غيرها) (١) ٠ وتزداد أهميتها اذا عرفنا أن معظم العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع فى المجتمعات المركبة ، ما هى الا تأثير متبادل بين المكانات الاجتماعيـة وليس تأثيرا متبادلا بين أشخاص ٠ فمثلا طالب الجامعة له علاقات اجتماعية مع العميد والأستاذ والحارس والخياط والحلاق ٠ ومن المهم جدا أن نعرف أن هذا الطالب محتمل جدا أن يكون له علاقات مع كل هؤلاء الناس دون أنيعرف أسماء بعضهم أو أى شىء عنهم سوى مكاناتهم الاجتماعية ٠ وبالمثل ليسهناك حاجة لدى هؤلاء الناس أن يعرفوا اسم ذلك الطالب أو أى شىء عنه ســوى مكانته الاجتماعية وهى طالب ٠ فمعروف أنه عندما يأتى الطالب لأول مرة الى الجامعة فهو لا يعرف أحدا فى الجامعة ، ولا يعرفه أحد ، وبالرغم من هذه اللامعرفة فهو يسجل مواده الدراسية ، ويشترى كتبه ويلتحق بفصلهالدراسى ويتلقى دروسه من أستاذ لم يره من قبل ٠

التسجيل نفسه وتعبئة عديد من الاستمارات ، هذه العملية الذىجعلها ممكنة هى المكانات الاجتماعية والمعايير المرتبطة بها ٠ وهكذا يتفاعل مئات بل وآلاف من الطلاب مع عشرات من موظفى الجامعة ، ولا أحد يعرف عن

---

1) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 99

شخصية الآخر الا القليل جدا · فى هذا الموقف لا تشكل أسماء الأفراد أى أهمية ، فالعملية الاجتماعية تقودها بدقة المكانات الاجتماعية والمعايير المرتبطة بها · أليس ذلك أمر عجيب حقا أن كل هؤلاء الناس الذين يعرفون القليل جدا عن بعضهم ، يقومون بعملية التسجيل المعقدة لفصل دراسى جديد بأسلوب دقيق ومنظم ! حقا انه أمر عجيب · انها أعجوبة البنـــاء الاجتماعى ، والذى جعل هذه الأعجوبة ممكنة بل وسهلة جدا هى المكانات الاجتماعية والمعايير المرتبطة بها ·

وهكذا فى كل المواقف الاجتماعية ، فيمكن أن تتصور نزولك فى فندق جديد لأول مرة فأنت تتعامل مع عديد من الأشخاص لا تعرف عنهم شيئا سوى أنهم يشغلون وظائف متعددة فى الفندق ، ويتم التفاعل الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية بينك وبينهم فى سهولة ويسر بفضل معرفة المكانة الاجتماعية لكل منكم والمعايير المرتبطة بها ·

(وهنا أحب أن أوضح نقطة هامة ، وهى أن علماء النفس يميلون عند الحديث عن العلاقات الاجتماعية الى وصفها فى عبارات تتحدث عن صفات وميزاج الأفراد ، ما يحبـــونه وما يكرهونه ، أعنى مركزين على شخصيات الأفراد · وهذا ربما يكون مناسبا طالما الحديث عن علاقات الجماعات الأولية، أى عندما يتفاعل الناس مع أصدقائهم المقربين لشدة وضوح شخصية كل منهما لدى الآخر · ولكن يختلف الموقف فى الجماعات الثانوية العديدة فى المجتمعات المركبة · فهنا المحدد للعلاقات الاجتماعية هى المكانات الاجتماعية للأفراد · وهذه المكانات الاجتماعية ليس لها علاقة مباشرة بصفات أو ميزاج الأفراد أنفسهم ،ولكن مكاناتهم الاجتماعية عناصر فى البناء الاجتماعى) (١)·

---

(1) Bierstedt : Op. Cit., P. 260.

ففى كل يوم نحن نتعامل مع أناس لا نعرفهم شخصيا ، ويقود هـــذا التفاعل الاجتماعى المكانات الاجتماعية والمعايير المرتبطة بها بدقة وكفاءة ، فمثلا عندما نشترى أى شيء ، أو نتفاعل مع رجال البريد أو التليفونات فنحن نتفاعل بكفاءة مع هؤلاء الغرباء بفضل أنهم أعضاء فى المجتمع ولكل مكانته الاجتماعية المعروفة لنا ٠

ويبدو هذا الأمر سهلا حتى أنه ليفلت من الملاحظة ، ولكن اذا أراد عضو من المجتمع أن ينكر فضل المكانة كعنصر أساسى فى البناء الاجتماعى وميسر للحياة الاجتماعية ، سيشعر فى التو واللحظة أن علاقاته الاجتماعية أصابها الاضطراب ٠ ولنضرب مثلا بموقف غابت فيه معرفة المكانة الاجتماعية ، فاذا دخل أحد محلا ليشترى شيئا ، ثم سأل أحدا عن سعر البضاعة ، فتبين له أن المسئول ليس هو البائع ولكنه أحد العملاء مثله ، فانه فى هذه الحالة يشعر بالحرج ، ولولا أنه هناك فى البناء الاجتماعى معيار يعالج هذا الأمر لساء الموقف ، وهذا المعيار هو الاعتذار بأنه يدخل هذا المحل لأول مرة ٠

التنشئة خــلال المكانة

لابد أن يتعلم كل شخص أن يشغل مكانات ويملأ أدوارا مثل طفل، وطالب وأب وموظف وعضو منظمة ، وعضو طبقة معينة ٠ يتضمن تعليم المكانة على الأقل ناحيتين :

١ ـ لا بد أن نتعلم انجاز واجبات المكانة والمطالبة بامتيازاتها ٠

٢ ـ لابد أن نكتسب الاتجاهات والمشاعر والتوقعات الملائمة للمكانة ٠

ومن هذين الوجهين يعتبر أهم وجه هو الأخير أى الاكتساب ٠ أى انسان سواء ذكر أو أنثى يمكن أن يتعلم بسرعة كيف يأكل ويستحم ، ولكن الشيء الذى لا يمكن تعلمه بسرعة هى الاتجاهات والمشاعر التى تجعل القيام بأى عمل

نشاط مشبع وسار • فان الانسان لا يستطيع أن يملأ دورا بسعادة ونجاح دون أن يكون قد نشيء على اكتساب ذلك الدور على أنه يستحق الاهتمام ومشبع وملائم • فمثلا تخيل مدى الصعوبة والبؤس لامرأة قد نشئت على شغل مكانة زوجة على أنها المكانة المجزية حقيقة لامرأة ، ولكن وجدت نفسها غير متزوجة وتعيش وحدها وتصارع من أجل الحياة فى عالم الرجال •

وفى الحقيقة أن التدريب على شغل المكانات بالنسبة لمعظم المكانات الهامة وكيفية أداء أدوارها يبتدىء مبكرا فى سن الطفولة ، عندما يبتدىء الطفل فى تكوين اتجاهات نحو هذه المكانات والأدوار • معظم التدريب على المكانات وأدوارها أمر مؤلم ولكنه يتم لا شعوريا ، فالطفل يلعب فى المنزل بالألعاب التى قدمت له فان كان أنثى فاللعبة هى عروسة تتدرب بها على مكانة الأم ودورها ، وان كان ذكرا فاللعبة عسكرى مطافىء أو جندى أو العاب هندسية ، وكلها تدريه على مكانات الرجال وأدوارهم • ومن ناحية أخرى يراقب ويساعد أمه ووالده ، ويقرأ ويسمع قصصا ويسمع ما يدور من حديث بين أفراد أسرته ويشارك فى أحداث الأسرة التى لا تنتهى • من كل هذه الخبرات يكون الأطفال تدريجيا صورة عن كيف يعامل الرجال والنساء وكيف يعامل الزوج والزوجة كل الآخر (١) •

المكانات الموروثة
Ascribed Statuses

(المكانات التى يولد فيها الشخص وتلك التى يوضع فيها تلقائيا بمرور الزمن والتى ليس له عليها أى ضبط أو ارادة تعتبر مكانات موروثة) (٢) •

---

(1) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 100
(2) Biesanz : Op. Cit., P. 177

وهكذا (تشتق المكانات الموروثة من عضوية العضو فى جماعة لا اختيارية . فمثلا مكانة العمر ومكانة الجنس واضح أن كلا منهما موروثة . فهذه المكانات ترتكز على الظروف البيولوجية ، وليس لنا قدرة على فعل شىء حيالها . وأيضا مكانات القرابة موروثة . فنحن لا نختار أقاربنا ، فلا نختار أخوتنا أو أبناء عمومتنا ، مما كانت القرابة تملى على الفرد دون أن يكون له خيار فى الأمر) (١) .

وبالمثل ليس للانسان اختيار فى مكان ولادته وبالتالى تصبح مكانته القومية موروثة ، وان كان يمكن تغيرها بعد ذلك ، الا أنه ليس هناك خيار أولى . وأيضا مكانة الفرد كعضو فى جماعة دينية معينة كمسلم أو مسيحى هى أيضا موروثة أوليا ، فنحن تبتدىء حياتنا بالمكانة الدينية لأبوينا ، وأيضا مكانة الطبقة هى موروثة أوليا ، فنحن عادة عند الولادة ننسب طبقيا الى مركز الأب الطبقى وليس لنا خيار فى ذلك ، وان كان أيضا يمكن تغيرها فيما بعد .

وتبدو أهمية مفهوم المكانة الموروثة فى علم الاجتماع بصفة عامة وفى تحليل وفهم البناء الاجتماعى بصفة خاصة . ذلك أنه اذا كان لمجتمع أن يقوم بوظائفه بكفاءة ، لابد أن ينجز الناس عددا كبيرا من الأعمال برغبة وسرور . وأبسط أسلوب للاطمئنان الى انجازهم هو ربط معظم الأعمال العادية فى المجتمع بسلسلة من المكانات الموروثة ، وتنشئة الناس لقبول مكاناتهم وملء أدوارهم الوراثية . ومن ثم فلابد أن تبتدىء عملية التدريب على المكانات والأدوار فى فترة مبكرة فى الطفولة ، وعلى هذا فلابد أن يتم تعين الأدوار الموروثة على أساس مقاييس تكون معروفة مسبقا . ولهذا نرى أن الجنس والعمر يستخدمان عالميا كأسس للمكانات الموروثة .

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 265

وفى الحقيقة كل حياتنا منذ لحظة الولادة يعتبر الجنس أول حقيقة نوصف بها . فتوليفة الكرومسمات التى تحدث عند لحظة التلقيح دون ارادة منا وليس لنا عليها سلطان ، تحدد أشياء كثيرة حول حياة الانسان فى المجتمع . فالجنس عادة لا يتغير أبدا ، وفى نفس الوقت يقدم تمييزا قاطعا تؤسس عليه المعايير الثقافية التى تحدد كثيرا من سلوك الشخص .

الفروق البيولوجية الوحيدة المعروفة بين الجنس هى القوة البدنية الأعظم للذكر فى الأمور التى تستدعى استخدام العضلات . هذه الفروق فى المجتمعات ذات التقدم التكنولوجى القليل . والى مدى معين فى كل مكان، تتطلب تقسيما للعمل يجعل المرأة مكانها المنزل وتنشغل فى أعمال روتينية تماما مثل الطبخ والتنظيف واعداد الطعام والخياطة وربما صنع الزبدوالخبز فى المناطق الريفية ، وهى فى نفس الوقت لا تتعارض مع الحمل والولادة وتربية الأطفال وهى تقوم بهذه الأدوار بكفاءة وسعادة لأنها تدربت منذ الصغر على مكانة زوجة وربة منزل وهى تعتبر أنها مكانة مشبعة وسارة . وبالمثل الرجل له واجبات معينة تتطلب قوة بدنية وفترات طويلة خارج المنزل ، فهو الصياد ، وصائد السمك ، والمحارب ، وراعى القطيع ، والعامل فى المصنع أو المتجر . وهكذا فالرجال والنساء قد تعود كل منهم أثناء عملية التنشئة الاجتماعية على قبول تلك المكانات الموروثة وعلى أنها الملائمة والصحيحة بالنسبة لهم .

ويلاحظ أن تحديد مكانات الرجال والنساء لا يتضمن فقط اختلافالأدوار، ولكن أيضا يرتبط بكل من المكانتين معايير معينة كثيرة بشأنالسلوك المناسب. فمثلا (عند الاستراليين الأصليين ، يعتبر الرجال والنساء أنه ليس من الصواب انجاز الأعمال الخاصة بالجنس الآخر . فلا يحق للمرأة أن تمسك حربة أو سهام الرجل خوفا من أن لمسة المرأة سوف تضعف أسلحتهم . والمرأة عليها أن تجلس على يسار النار والرجال على اليمين ، فاذا جلس أحد الرجال

فى ناحية النساء أو جلس مكان امرأة فانه يفقد قوته على الصيد ، واذاجلست المرأة مكان رجل فانها سوف تعانى من مرض خفى أسطورى · والرجل يلبس قبعة من الجلد مختلفا عن المرأة التى تلبس مسبحة من هياكل النعام · مثل تلك الأفكار عن السلوك الملائم لكل من الجنسين منتشرة عالميا ، ولا يجرأ الا قليل جدا من الناس على لبس الملابس الخاصة بالجنس الآخر) (١) ·

وفى الحقيقة تحديد مكانات الذكور والاناث خاضع لاختلافات متناهية وان كان لكل مجتمع نمط مقبول لديه والذى يتوقع من أعضائه أن يتبعوه · وقد يسمح للأفراد بالتغاضى أحيانا عن بعض أجزاء النمط فى أوقات معينة تحددها أيضا المعايير المرتبطة بالمكانة ، ولكن يغامر الأفراد بالاغتراب عن مجتمعهم ان لم يستطيعوا أن يوحدوا أنفسهم مع المكانات ومعاييرها المرتبطة بها والمتوقعة من جنسهم ·

ويقدم العمر أساسا آخر عالى للمكانات الموروثة · ولكن العمر يختلف عن الجنس فى أن العمر يتضمن الاستمرارية والتتابع وليس تقسيما ثنائيا كالجنس · فتميز كثير من المجتمعات الطفولة عن البالغين من كبار السن وتعاملهم كمكانات متمايزة والخطوط الفاصلة واضحة · والتحول من الطفولة الى البالغين سهل وتدريجيا فى مجتمع ما ، ويتم طبقا لبعض المعايير التى تتضمن طقوسا واحتفالات . فمثلا عند قبائل الماساى Masai فى أفريقيا يمر كل ذكر بثلاث مراحل واضحة الانفصال من طفل الى محارب الى كهل ، بينما فى المجتمعات المتحضرة مثل مصر والسعودية والدول الغربية سواء فى الولايات المتحدة أو أوربا ليس هناك تحديد قاطع للمكانات على أساس العمر ·

نسق القرابة أيضا عالميا يورث عددا من المكانات · ينمو الطفل ويتعلم سلسلة من الحقوق والواجبات فى علاقته بوالديه وأخوته · فى عدد من

---

1) Banton, Micheal: «Roles: An Introduction to the Study of Social Relatioship» New York: Basic Books 1955. P. 8.

المجتمعات يتضمن بناء القرابة عديد من الأقارب الآخرين ، وتحـــدد مكانة الشخص بالنسبة لكل القبيلة ، وتحكم معاييرها سلوكه نحوهم خلال كل حياته٠ فى مثل هذا النسق قواعد الزواج مرتبطة ببناء القرابة ٠ فقد تقرر تلك المعايير أن الفرد ليس له الا أن يتزوج أبناء عمومته ٠ وفى المجتمعات التوئمية تحـــدد المعايير الزواج من خارج القبيلة حتى لا يدنس خط القرابة ٠

الطبقة كمكانة اجتماعية قد تلقى على عاتق المولود الجديد ببساطة لأنها مكانة والديه ، فمثلا فى نسق الطبقة المغلق كما فى الهند حيث البناء الاجتماعى للطبقات يقوم على أساس اختلاف الدين ، فان الطفل يأخذ مكانة طبقة والديه طول حياته ، وهى بالتالى عادة ما تحدد ما يشغله من مهن ، كما تحدد وجوها أخرى كثيرة من حياته ٠ ولكن فى نسق طبقة مفتوح مثل معظم المجتمعات العربية والغربية يولد الشخص بمكانة والديه ، ولكن بعمله الشخصى يستطيع أن يصعد أو يهبط فى السلم الاجتماعى ٠

المكانة المكتسبة أو المنجزة
ACHIEVED STATUS

(تشـتق المكانات المكتســبة أو المنجزة من عضـــوية الفرد فى جماعة اختيارية) (١) ٠ (تلك المكانات التى يحصل عليها الشخص بمجهوده الذاتى هى مكانة مكتسبة) (٢) ٠ (المركز الاجتماعى الذى تأكد خلال اختيار الفرد ومنافساته يعرف على أنه المكانة المكتسبة ٠ فكما أن كل فرد يشغل عددا من الأدوار الموروثة التى قررت دون النظر الى قدرات الفرد أو انجازه ، أيضـا يشغل الانسان عددا من المكانات المنجزة التى حصل عليها خـــلال قدراته

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 265
2) Biesanz : Op. Cit., P. 171.

وانجازه ومحتمل أيضا خلال حظه الحسن أو السيء) (١) • والأمثلة على المكانات المكتسبة كثيرة ، فمكانة طالب جامعة رغم ما يتبادر الى الذهن أنه سهل الحصول عليها • فهى مكتسبة ، وليست موروثة ، وكذلك المدرس والناظر والطبيب • (فان تكون ذكر أم أنثى هى مكانة موروثة تحددت عند الولادة ، أن تكون زوج هى مكانة مكتسبة فهى لا تنتج تلقائيا من مجرد أن يولد الفرد ذكر ولكن تعتمد على سلوك الذكر نفسه فى المستقبل) (٢) • وهكذا تتطلب المكانات المكتسبة بعض القرارات والأفعال مثل عرض الزواج أى الخطبة ودفع المهر واقامة حفلة لاكتساب مكانة زوج أو زوجة ، ومكانة العمل أيضا منجزة فلا يصبح العضو طبيبا أو مدرسا بالوراثة ، فالمكانات المكتسبة لا تقرر عند الولادة ولكن تترك مفتوحة ليملأها الشخص الذى يكافح بنجاح أكثر من أجلها • ولهذا ففى (المجتمعات التقليدية تتحدد منذ الولادة معظم المكانات فهى موروثة ، وأيضا مهنة الفرد وموقفه الاجتماعى بصفة عامة ، بينما فى المجتمعات الصناعية يوجد مجال واسع من المهن يتطلب حراكا اكبر للعمال ويسمح بمجال أوسع للفرد لتغيير مكانته حلال جهوده الشخصية)(٣) • ذلك يرجع الى أنه (عندما يدخل التصنيع مجتمعا تقليديا فيه معظم المكانات موروثة ، ينفتح هذا المجتمع لعديد من المكانات المكتسبة ، وذلك يعزى الى وجود عدد كبير من المهن فى نسق الانتاج والتوزيع) (٤) •

(كيف يكتسب الانسان المكانة ؟ يتعلم الدور - المعايير العامة للمكانة ومعايير المنظمة لها - خلال التعليم والتدريب والخبرة • ثم يقنع الآخرين أنه يستحق المكانة ويمكنه انجاز الدور المرتبط بها بنجاح) (٥) •

---

1) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 103.
2) Young, Kimballa and Mack, R.W. : «Sociology and Social Life» American Book Company. New York, 1959. P. 160.
3) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 104.
4) Biesanz : Op. Cit., P. 173.
5) Ibid., P. 173.

وفى الحقيقة أن المجتمعات المركبة الحديثة تهتم اهتماما كبيرا بالمكانات المكتسبة ، وذلك لتحقق مرونة وقدرة على وضع أعضاء المجتمع كل فى المهنة الأكثر ملائمة لامكانياته ، أى فى المكانة الاجتماعية المشبعة والتى يؤدى مسئولياتها وواجباتها بأسلوب أحسن ويتمتع بامتيازاتها بأسلوب يدفعه الى مزيد من الأداء الأحسن لدور المكانة ·

ولقد ساهم علم الاجتماع فى هذا الموضوع الحيوى للمجتمعات المركبة الحديثة فدارت مناقشات حول أساليب دفع أعضاء المجتمع للتنافس حول شغل المكانات المكتسبة ، أى الارتفاع بمستوى الأداء لأدوار المكانات · ولقد وضع ديفز ومور Davis and Moor عدة ملاحظات حول هذا الموضوع وركزا على العلاقة بين المكافآت التى يمنحها النسق الاجتماعى والمساهمة التى يقدمها أعضاؤه · وناقشا أنه لانجاز مجموعة معينة من أهداف المجتمع أو أى نسق اجتماعى لابد أن يشجع أعضاؤه على القيام بواجباتهم بأسلوب يخدم تلك الأهداف · واعتبرا أن جزئيا جوهريا من ذلك التشجيع هو تخصيص مكافآت مناسبة لأهمية الوظيفة القائم بها المنجز · ذلك يعنى تحريك ودفع الأفراد للتنافس من أجل شغل مراكز معينة · ولسوف تختلف المكافآت المعينة لكل مركز أو انجاز اختلافا كبيرا حسب أهميته الوظيفية ، والتدريب والمهارات التى يتطلبها المركز ، وقدرة الأفراد ذوى تلك المهارات · ولقد تكون المكافآت أموالا أو مكانات اجتماعية أو كليهما (١) ·

فى هذا النموذج افتراض أساسى هو أن المراكز والانجازات لا تختلف بشدة فقط من ناحية المهارات والتدريب الضروريين لانجازها ، ولكن أيضا من ناحية وجود قوة بشرية مؤهلة سواء من ناحية ندرة المقدرة (النبوغ) والتدريب

1) Davis, Kings Ley and Moor, W. : «Some Principles of Stratification» American Sociological Review, April 1945.

والدوافع أو توليفة من هذه كلها · وتبعا لذلك المكافآت ليست ببساطة وسيلة لتميز مساهمة قيمة ، ولكن أيضا جزء من ميكانزم mechanism لتحريك ودفع الأفراد للانجاز · وأبعد من ذلك ، يفترض النموذج وجود عملية تنشئة اجتماعية التى تصنع مجموعة معينة من المكافآت المرغوبة جدا ، بل ولايمكن الاستغناء عنها · وفى كلمات أخرى ، صنع شـــهية معينة للمـــال والمـــكانة الاجتماعية هو شرط ضرورى وظرف هام للانسان لكى يتنافس من أجل المال والمكانة ·

وفى هذا النظام المكافىء ، الانجاز وكمية الثواب تميل الى أن تتكافأ مع مستوى العمل الذى يقبل كعمل مرضى ومرغوب بل ومضبوط · والمفروض أن يقبل كل فرد مكانته على أنها تعويض عادل للمستوى الذى دفعه اليه عمله· وفى هذه الحالة تقل الى أبعد الحدود حالات خيبة الأمل والاحباط والصراع الناتج عن نظام التمايز الطبقى والفروق الاجتماعية الناتجـــة عنه · فنظام للطبقات يقوم على مثل هذا النمط من نظام الثواب يمكنه أن يصبح مقياســـا للوحدة الاجتماعية ، طالما أن هناك اتفاقا اجتماعيا بين الأفراد على أن هذا النظام عادل · وحتما يكون هناك قليل من عدم الرضا عنــد بعض أعضـــاء المجتمع ، ولكن يعتقد الغالبية العظمى أنها مكافأة عادلة ومناسبة ، والانتقال الى أعلى يعطى بعض الأفراد مستوى أحسن من الحياة . ومكانة اجتماعية أكبر ومسئولية أكبر وكذلك دخلا أكبر عن ذى قبل · وبدون شك فى مثل هذا النظام يوجد بعض خيبة الأمل ، ولكن أولئك شواذ عن القاعدة ، فعند الجزء الأكبر من المجتمع ، كانت الفرص متاحة للارتفاع ·

والمنبع الرئيسى لعدم الاستقرار فى مثل هذا النموذج من أسس التمايز يقع على عاتق الاتفاق العام ، بمعنى أن نظام المكافأة نظام يطبق بعـدالة ، وعلى أن المساواة فى الفرص موجودة حقا · ومن ثم يصبح عدم المساواة فى المكافأة سواء الاقتصادية أو المكانة الاجتماعية ، مقبـولة على أنها نتيجـة

الاختلاف فى المهارات أو التدريب أى فى النجاح فى انجـــاز الدور المرتبط بالمكانة ، ولكن الفرص فى النجاح يجب أن يكون معلوما عند كافة أعضـاء المجتمع أنها متاحة للجميع وبشكل متساو · وعلى هذا تصبح أهمية الوراثة أو تاريخ الأسرة ليس لها أهمية ، وانما المهم هو ما يكتسبه الفرد ذاته من مهارات بمجهوده الذاتى (١) ·

وأيضا العلاقة بين المكافأة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية ليست دائما مناسبة ، فى مطلع القرن العشرين ، خريجى كلية وست برينت الحربية كانو يتمتعون بالمكانة الاجتماعية للطبقة العليا ، مع دخل اقتصادى متواضع · وحديثا أعطى المجتمع الأمريكى مقاما عاليا جدا للعلماء وأساتذة الجامعـات بالرغم من قلة ما يتقاضونه من مال · وكذلك (فى أمريكا السود ينالونأجورا أقل من البيض ، رغم أنهم يشغلون مراكز متشابهة وبنفس المستوى التعليمى · فمثلا متوسط دخل أسرة بيضاء سنة ١٩٦٤ التى رأسها مؤهل بشهادةالمدارس العليا كان دخله أعلى بمقـدار الثلث عن الأســـود من نفس الفئـة · وبين الجامعيين كان يحقق البيض ١٠٪ من الدخل أعلى من السود) (٢) ·

ويلاحظ أن بعض المكانات المنجزة فى مجتمع ما قد تكون موروثة فى مجتمع آخر · ففى مجتمعات القرون الوسطى المكانات الدينية والطبقيةوالعمل كانت موروثة ، وكان لا يمكن انجازها بل ولا يمكن تغيير المكانة الأصلية · وفى بعض المجتمعات تكون مكانة العمل نتيجة للعمر أو الجنس أو القرابة · وفى المجتمعات ذات البناء الطبقى المغلق تكون مكانة الطبقة موروثة ولايمكن تغيرها ، فهى نتيجة القرابة · وفى المجتمعات ذات الحراك الاجتماعى المرن حيث البناء الطبقى مفتوح نسبيا تصبح المكانات الطبقية ممكنة التغيير ·

---

(١) لمزيد من الاستفادة فى هذا الموضوع يرجع الى كتاب الأسرة والتصنيع ـ د · محمد فؤاد حجازى ـ مكتبة وهبة من ص ١٧٢ ـ ٢٠٠

2) Current Population Reports, Series P. 60, No. 47.

وهكذا تختلف المجتمعات فى نسبة وتركيب المكانات الموروثة والمنجزة التى يتضمنها بناؤها الاجتماعى ٠

الفـــرد ومكاناته الاجتماعية

يلاحظ أن كل فرد فى مجتمع مركب يشغل مكانات مختلفة خلال مجرى يوم واحد ، وعدد أكبر من المكانات خلال مجرى حياته ٠ فمثلا كثير من طلاب الجامعة ، هو طالب فى الجامعة ، ومدرس لعدد من تلاميـذ المدينـة أو فى مدرسة ، وهو ابن لوالديه ، وأخ لاخوته ٠ وقد يكون عضوا فى فريق رياضى ، وكل هذه الأشياء لا تستنفذ مكانته ، فهى فقط بعض المكانات التى يشغلها فى الوقت الحاضر ، فاذا أضفنا اليها المكانة التى كان يشغلها قبل ذلـك ، أو المكانات التى سوف يشغلها بعد تخرجه خلال مجرى حياته ، ســوف يكون عملنا بلا نهاية وخاصة فى المجتمعات المركبة ٠ وكلما كان المجتمـع صغيرا وبسيطا كلما قل عدد المكانات التى يشغلها الفرد ٠ ومن ذلك نرى (أن مكانات الشخص متعددة ، فالمدرس يمكن أن يكون أبا وأخا وابن عم واضح أن لهمكانة البالغين) (١) ٠

ويلاحظ أننا نولد فى مجتمع ونجده يحتوى فعلا على مكانات عديدة ٠ فنحن لا نصنع المكانات التى سوف نشغلها ، فهى فعلا جزء من بناء المجتمع ، فهى ظاهرة اجتماعية تساهم فى استقرار وانتظام المجتمع الانسانى ٠

ولقد ينشيء الأفراد أدوارا لم تؤد من قبل،وبعد قبولها اجتماعيا تتحول الى مكانات ٠ فبعض المكانات توجد فى فترات معينة من حياة المجتمع ، وكأى عنصر من عناصر الثقافة يمكن أيضا أن تختفى من البناء الاجتماعى ٠ ومع ذلك فالفرد يولد ويجد معظم المكانات التى سوف يشغلها مؤسسة فعـلا فى المجتمع الذى يولد فيه ٠

---

1) Biesanz : Op. Cit. P. 167

وغنى عن البيان أن بعض المكانات اكثر أهمية من الأخرى فى تحـــديد مركز الفرد فى المجتمع ، وأيضا يلاحظ أن المجتمعـات تختلف فى تقديرها لأهمية مكانة عن أخرى · ولهذا السبب قدم عالم الاجتماع هيلر E.T. Hiller اصـــطلاحا مفيـــــدا هو المكانة المحـــورية Kay Status · ففى المجتمـع الأمريكى أساس المكانة هو العمل الذى يشغله الفرد ، فهى المكانة التى يبدو واضحا أنها ذات أهمية · بل وتسود المكانات الأخرى ، بل يكاد هذا ينطبق على كل المجتمعات المركبة الحديثة ، فأول سؤال يتبادر الى الذهن عندما نقابل شخصا لأول مرة نحاول معرفة ماذا يعمل ، ذلك لكى نعرف مكانته الاجتماعية التى يشغلها حتى يمكننا التعامل معه · وفى مجتمعات أخرى قد تكون الأهمية للمكانة الدينية أو القرابية ، ومن ثم يصبح مفتاح فهم المكانة الاجتماعية (١)·

ويلاحظ أن بعض المكانات تتراكب ويتطلب بعضها البعض ، فمثلا مكانة أم ومكانة زوجة ومكانة ربة منزل هى متراكبة مع مكانتها كسيدة بالغة ، فانه فقط حسب معاييرنا سيدة بالغة هى التى يمكن أن تكون زوجة وأم وربة منزل . واذا كانت تشغل واحدة فهى تحب أن تشغل الثلاثة ·

تتابع المـكانات

كما رأينا ، المكانات كثيرة التنوع فى المجتمع المركب · وأيضا تبـدو المكانات وكأنها رتبت بطريقة ما ليشغلها الفرد بتتابع منظم ، وهكذا يبتدىء الفرد كطفل قبل أن يكون يافعا ، وزوجة قبل أرملة ، وهكذا · وأيضا المكانات فى أى جماعة منظمة تظهر هذا التتابع المنظم ، فالطالب فى الجامعة يبتدىء كطالب حديث قبل أن يكون طالبا فى السنة الثانية ، وطالب لم يحصل على المؤهل قبل أن يكون طالبا فى الدراسات العليا · ومراتب الكليـة بالنسـبة

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 266—267.

لأعضاء هيئة التدريس أيضا لها تتابع ، من محاضر ثم أستاذ مساعد ثمأستاذ مشارك ثم أستاذ ، وأيضا تقدم المراتب العسكرية موقفا مشابها فيبتدىء الانسان ضابطا ملازم ثم يتدرج من رتبة الى أخرى قبل أن يصل الى أعلى المراتب العسكرية • وعادة ما ، يعرف الفرد الخطوات أو المراتب التى عليه أن يقطعها ليصل الى المرتبة التى يأملها •

وفى بعض الحالات يكون الانتقال من مكانة اجتماعية الى أخرى يحتفل به باقامة شعائر المرور من مكانة الى أخرى ، وخاصة فى المكانات المتعلقة بالجنس والعمر • فحفلة الزفاف مثل واضح على الانتقال الى مكانة زوج • وفى الحقيقة فى كل المجتمعات التغير من الحياة الفردية الى الزوجية تصحبه شعائر واحتفالات لاعلان المجتمع الواسع . واعلان الزوجين عن شغلهما للمكانة الجديدة • وفى بعض المجتمعات لا يعتبر الشخص بالغا تماما الا اذا كان متزوجا •

وهكذا فى أى مكان فى المجتمع المركب هناك سلم من المكانات يعرفها الفرد منذ أن يضع قدمه على أول درجة من السلم ، ومن ثم يمثل طريق الفرد فى الحياة تقدما منظما من المكانات • فمنذ ولادة الانسان حتى مماته يتدرج فى المكانات الاجتماعية •

المكانات الخاصة والمكانات العامة

بالرغم من أننا قد نشغل مكانات عديدة تلقائيا ، ولكن نؤدى أدوارها بأسلوب غير متصل أى متقطع • فمثلا الذى يعمل سائق سيارة ، هو سائق فقط عندما يؤدى وظيفته وقبل ميعاد عمله وبعد انتهائه ، وفى عطلة الأسبوع وفى الاجازات لا يؤدى الدور المتصل بمكانته الوظيفية ، تلك هى الحالة بالنسبة لكثير من مكانات العمل فى المجتمع ، وتلك التى سماها ماكس فبر

Maxweber مكانات بمعنى تلك المكـــانة التى لهـــا علاقة فقط فى داخـل جماعة منظمة أو هيئة ٠

وبالعكس هناك مكانات أخرى تستمر كما هى فى المجتمع ولها علاقة بكل المواقف سواء فى هيئة أو غيرها ، حتى ولو كنا لا نؤدى الأدوار التى تتطلبها تلك المكانة ، ونميل الى تسميتها مكانات عامة Public Statuses عكس السابقة التى نسميها مكانات خاصة Private Statuses.

فمثلا مكانة ضابط البحرية مشتقة من عضويته فى هيئة وهى البحرية . وهى مكانة عامة له سواء داخل البحرية أو خارجها ، ولكنه داخل البحرية له مكانة خاصة تتبع الرتبة التى هو فيها فقد يكون ملازم على مركب أو قائد مركب ، ويظهر نفس الموقف فى جماعات أخرى ، فالمكانة العامة لأستاذ جامعى هى أستاذ ، ولكن داخل الجامعة هناك مكانات خاصة معينة ، كرئيس قسم أو سكرتير لجنة تخطيط البرامج أو عضو مجلس الجامعة أو عميد ٠

تضيف هذه المكانات الخاصة شرحا وتوضيحا لفكرة أن الفرد فى مجتمع مركب يشغل مكانات عديدة فى نفس الوقت ، ولو كان لا يؤدى كل الأدوار المتعلقة بها فى وقت واحد ٠

تعدد المكانات فى جماعة واحدة

ربما يقدم أعضاء جماعة صغيرة فى مجتمع عددا كبيرا من المكانات ، والعلاقات بين هؤلاء الأعضاء ربما تسلك فى بعض الأحيان فى اطار بعض هذه المكانات ، وأحيانا أخرى فى اطار مكانات أخرى ٠ لنرى كيف يمكن حدوث ذلك ، فمثلا فى جماعة صغيرة من عمال مصنع ما . لنفترض أنهم ثمانية رجال يعملون معا فى قسم واحد من أقسام المصنع الكبير ، يعمل هؤلاء الرجال تحت امرة رئيس عمال ، وهو كأى رئيس عمال ينتمى الى سلم ادارى مصنوع من تسلسل لنظام السلطة من العمال صعودا الى رئيس مجلس الادارة ٠

أولا الثمانية رجال هم ذكور بالغون وكلهم عمال فى مستوى واحد فى نفس المصنع ، وأيضا كلهم أعضاء فى نقابة واحدة ، كل هذه عبارة عن روابط اتحاد قوية وخاصة بسبب مكانة العمل لأنها أساس المكانة فى المجتمع • ولكن الى جانب هذا علاقات أخرى فمثلا هناك اثنان منهما يقطنان بجوار بعضهما فهما يذهبان ويعودان من العمل معا ، والجوار مكانة اجتماعية لها معاييرها أيضا • وهناك آخران أصلهما من بلدة واحدة فهما كثيرا ما يتقابلان خارج العمل وهذه مكانة اجتماعية لها معاييرها واثنان آخران عضوان فى فريق كرة القدم للمصنع ، وهذه مكانة اجتماعية لها معاييرها ، وأحدهم عضو فى النقابة العامة لعمال المهنة وهى مكانة اجتماعية أخرى • وهكذا نرى أن جماعات متعددة ظهرت فى هذه الجماعة الصغيرة •

وثانيا نلاحظ أن المكانات ترتب داخل الجماعة ، فكل مكانة تحمل معها نوعا معينا من المقام والمميزات والقوة فى علاقاتها بالمكانات الأخرى فى الجماعة • ففى معظم الجماعات المنظمة رسميا ، هناك نمط واضح أو سلم مكانات يبين من الذى له سلطة على من ، وبدوره لمن تكون طاعته • سلم المكانات Statuses Hierarchy فى الجيش هو خط مستقيم من السلطة • ومدير الجامعة يأخذ سلطته من مجلس الجامعة ، والمدرس له سلطته فى حجرة الدرس والطلاب عليهم طاعته •

وحتى فى الجماعة التى ليس لها بناء رسمى أو قواعد واضحة هناك نظام مقامات نابع من التأثيرات الشخصية • ففى دراسة لوليم فوت وايت Whyte بين أن عصابة الأحياء القذرة المسماة نورضونز وهم جماعة من ثلاثة عشر ايطالى فى سن العشرين كان لهم بناء اجتماعى واضح • وعن طريق بيان من يقترح الأفكار للنشاط العام للجماعة ومن يوافق قبل أن ينفذ الفعل ، استطاع وايت أن يرسم خطوط التأثير من القائد Doc وأصدقاء

حـــــــباه Mike and Dannyo ثم الى الأعضاء الآخرين ، استطاع وايت أن يضع كل شخص فى مركز محدد فى علاقته بالآخرين (١) ٠

فاذا كانت مكانات متعددة قد ظهرت فى هذه الجماعة الصغيرة ، فان هذا يصدق على كثير من الجماعات ، وباختصار أى موقفاجتماعى له بناء ، هذا البناء مكون من معايير ومكانات ، فاذا عرفنا هذه المعايير والمــكانات بصفة عامة ، فسنعرف الاجراءات التى يجب أن تتبــع . وليس بنا حاجة أن نعرف الأفراد المتضمنين فى الموقف ٠

رموز المـكانة

SYMBOLS OF STATUS

الناس فى تطلعهم للمكانة يمايزون أنفسهم عن الآخرين باستخدام رموز توضح مكانتهم ، وأهمية من يشغلونها ٠ فلقب على باب مكتب أو تحت توقيع خطاب يقوم بوظيفة رمز للمكانة ، ومكانة الزوجة يرمز اليها فى مجتمعنــا بخاتم الزواج ٠

ومكانات العمــل عادة يرمز اليها بأنواع مختلفــة من الرموز ، وهى تتراوح فى أساليبها من الملابس الرسمية الى علامات توضع على الصدر أو الكتف من نوع معين ٠ فمثلا رجل البوليس وضــابط وجندى الجيش يمكن تميزهم بسهولة عن طريق ملابسهم ورتب الضباط برموزها المعروفة ، وأيضا فى المستشفى الزى الرسمى الأبيض للطبيب أو المرضــة يجعل من السهل معرفتهم وعدم الخلط بينهم وبين المرضى أو الزوار ٠

---

1) Biesenz : Op. Cit., P. 168

ويلاحظ (أنه من السذاجة الاعتقـاد أن الهدف من اللبس هو ببساطة مجرد حماية الجسم ضد الجو · فالملابس فى معظم المجتمعات أصبحتمؤشرا ـ ان لم تكن رمزا رسميا ـ عن قدرة الانسان الاقتصادية على اللبس · وهكذا اذا كان نسق التدرج ليس متطابقا بشكل مناسب مع الفروق الاقتصادية أو الثروة ، فانه ما زال يمايز أعضاءه من خلال الرموز) · وهـــذا قد يكون رسميا تماما مثل حالات الملابس الرسمية التى لا يمكن لبسها الا بالسـلطة ـ الجيش ، البوليس ، الكنيسة ـ وهكذا فى الكنيســة الكاثوليكيــة الأزياء المختلفة لرجال الكنيسة تخدم كمفرق لراتب الأعضاء كل عن الآخر ومنناحية أخرى عن عامة السكان . ونفس الشىء صادق بالنسبة للجيش) (١) ·

(ويلاحظ انه فى الحالات التى لا يظهر فيها الزى الرسمى أو العلامات المميزة التى تبين مكانة الوظيفة للانسان ، فانه يظهر هناك أنواع أخرى من الرموز · وبالطبع تكون رموز المكانة هذه من أنواع أخرى من مواد الثقافة وسماتها ، فقد يكون صغر مكتب السكرتير عن مكتبالرئيس رمزا لكل منهما · وهكذا اذا تجول غريب فى شركة أو مؤسسة فانه من مواد الثقافة يمكن أن يتعرف على مكانة كل موظف بها من صغر حجرة المكتب أو كبرها أو أسلوب تأثيثها من ناحية الرفاهية · ومن ثم فمواد الثقافة كرموز للمكانة يمكن أن توجد فى كل مكتب فى المجتمع سواء كان المكتب فى مصنع أو مصلحةحكومية أو دار نشر أو مستشفى أو جامعة ·

وبصفة عامة رموز كل هذه المكانات واضحة تماما فى المجتمع المركب ، ونادرا ما ينشأ الاضطراب نتيجة تحريف المكانة · وتخدم ، كما رأينا ، أنواع المواد الثقافية المختلفة كرموز للمكانة فى كل المجتمعات المركبة ، وكلما كانت الثقافة غنية بموادهاكلما أعطت درجة عالية من الدقة فى تمييز المكانات)(٢).

---

1) Allyn : Op. Cit., P. 536.
2) Bierstedt : Op. Cit., P.

وتقودنا هذه النقطة الى فكرة تحديد المكانة The ditermination. of Status فتحديد عضوية انسان فى مكانة جماعة معينة أو طبقة معينة يمكن الوصول اليها اما ذاتيا أو موضوعيا • فيمكن عمل التحديد الموضوعى عن طريق المؤشرات الامبيريقية الخاصة بجامعة معينة • فى بعض المجتمعات هذه المؤشرات قد تكون ملابس رسمية مقصورة على كل جماعة أو طبقة ، ولكن فى المجتمعات الأكثر مرونة تكون الحالة أقل وضوحا • فمثلا لتبيان عضوية الطبقة فى المجتمع الأمريكى ، استخدم وارنر Warner المهنة ومصدر الدخل . ونمط المنزل ، ومنطقة السكن والتى اشير اليها على انها بيان مميزات المكانة • فى دراسة يانكى ستى Yankee City ثم أيضا مركب من مراتب الأفراد من خلال التعميم الذى ينالونه من اعضاء المجتمع ، وتقييم عضويتهم فى مختلف الجماعات ، وتمييزهم برموز طبقة معينة • وكذلك هولنجشيد Hollingshead فى دراسته لمدينة الما (Elmtown) استخدم مقياسا من مكان السكن ، والمهنة ، والتعليم الرسمى ، وسمى هذا المقياس بيان المركز الاجتماعى Index of Social Position (ISP) (١) ويمكن تحديد المكانة أو الطبقة ذاتيا بسؤال الذات ـ الانسان موضع السؤال ـ أن يضع نفسه فى البناء الطبقى •

علاقات المكانة

(المكانة دائما تكون علاقية أى تبادلية ، بمعنى أن لها معنى فقط فى علاقتها بمكانة واحدة على الأقل • فمكانة المدرس تصبح بلا معنى بدون الطلاب، وكذلك مكانة رئيس بدون مرؤوسعين ، وكذلك الطبيبوالمرضى . وأم وطفل ، وزوج

---

1) Holligshead, Augst : «Elmtown's Youth» John Wiley and Sons, Inc. New York. 1949.

وزوجة ، وصديق وصديق) (١) • وهكذا كثير من المكانات الاجتماعيــة في المجتمع تربط بين بعضها البعض علاقات دائمة • ففي المجتمعات المركبة الحديثة يوجد عدد كبير من المكانات الاجتماعية المتزاوجة ولها معاييرها • ولقد ذكرنا بعضها ويمكن اضافة البعض الآخر مثل أب وابن ، وأخ وأخت والمالكوالمستأجر والبائع والمشترى هذه القائمة يمكن أن تمتد الى صفحات عديدة اذا أردنا أن نذكر كل المكانات المتزاوجة فى المجتمع • ولكن السابق ذكره يكفى كدليل على الأهمية الاجتماعية لظاهرة المكانات • كما أن هذا يوضح أيضا أن هناك عدد كبير من العلاقات الاجتماعية التى تربطنا بعدد كبير من الناس فى المجتمــع المركب ، وهى علاقات مكانة اكثر منها علاقات شخصية ، وهذا لا يمنع أن تكون علاقة المكانة فى نفس الوقت علاقة شخصية ، كعلاقة الأب والابن هى عــلاقة مكانة وفى نفس الوقت علاقة شخصية •

ومن ناحية أخرى تلك المعايير التى تظهر فى المجتمع المركب ليست مجرد معايير بصفة عامة ، ولكنها معايير ترتبط بمكانات معينة • وتختلف المعايير طبقا لاختلاف علاقات المكانة • من أحد المعايير الهامة فى ثقافة المجتمع المركب هى عدم سؤال الآخرين عن ثروتهم ودخلهم فهو من المحرمات ، فلا يستطيعطالب أن يسأل أستاذه عن دخله أو راتبه ، هذا المعيار التحريمى قوى الى حــد أن الأصدقاء المقربين لا يسألون بعضهم هذا السؤال • ولكن يلاحظ أن هذا المعيار التحريمى لا يستخدم بالنسبة لكل المكانات • فهناك موظف رســمى (جامع الضرائب) ليس له أى علاقة شخصية بنا حتى اننا قد لا نعرف اسمه . ومع ذلك من حقه أن يسأل هذا السؤال ، ونحن أيضا علينا أن نجيب عليه اجابة صحيحة وصادقة ، فهى اذا علاقة مكانة التى أزالت هذا المعيار التحريمى الذى يكاد يكون عالميا • وبالمثل البنك الذى تريد أن تأخذ منه سلفة للبناء له نفس الحق

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 167.

فى أن يسأل هذا السؤال بل انه من واجبه أن يسأل هذا السؤال • وهنا نرى تأثير المكانة فى تغيير المعيار من تحريمى الى ايجابى ، فهنا نرى أن المعيـار تغير مع تغير المكانة • فنحن لا نعطى معلومات عن الدخل لأقرب الأصدقاء ، وتعطى للبنك عند اخذ السلفة •

هذه الأمثلة توضح أن المعايير مرتبطة بالمكانات ، وأن المعـايير تختلف باختلاف المكانات وهذا أحد صفات المجتمعات المركبة •

علاقات المكانة والعلاقات الشخصية

سـبق أن تحدثنـا عن أن العـلاقات الاجتماعية بين الناس تتم فى اطار المكانات ، وما نعنيه هو أن معرفة المعايير والمكانات تجعل من الممكن التفاعل بين الأفراد الذين لا يعرفون بعضهم بعضا • وهكذا تجعل من الممكن أيضا قيام المجتمـع المركب • ولكن النـاس عـادة يرغبون معرفة بعضهم البعض ، بـل ويحاولون تقييم بعضهم بعضا •

فعندما يشغل النـاس المـكانات ، فانهم يؤدون أيضا أدوارا فى هــذه المكانات ، وكل منهم يختلف عن الآخر فى أسلوب أدائه لدوره • وليست استجابات الناس رسميا فقط ، ولكن أيضا ميزاجيا وشخصيا • وينمى الناس اعجابهـم ببعض الأفراد ، وينمون العداء لآخرين أو على الأقل لا يرغبون فى صداقاتهم • وهنا نرى أن العلاقات الاجتماعية ليس لها الوجه الاجتماعى فقط فى اطار البناء الاجتماعى (المكانات ومعاييرها) ، ولكن أيضا لها وجه سيكولوجى فى حدود علم النفس الاجتماعى •

وفى الحقيقة لدينا فى مثل هذا الموقف ظاهرة لا يمكن تجاهلها اذا كنا مهتمين كدارسى اجتماع ، بالحصول على فهم كامل للعلاقات الاجتماعية • فمثلا علاقات الأبوة والبنوة ليست علاقات مكانة فقط ، ولكن علاقات تتضمن

كـل الشخصية ، الآباء عليهم واجبات ومسئوليات نحـو أبنائهـم ، وبدورهم يباشرون بعض امتيازات السلطة عليهم ويكونون فخورين بنمـوهم وتوليهـم مناصب مرموقة ، وبالطبع هم يحبون أبناءهم • العلاقة هى من النوع المشحون بالعواطف المركبة • فى هذا الموقف تتراجع الى الخلف خواص المكانة البحتة للعلاقة • وهكذا بالنسبة لعلاقات كثيرة فى المجتمع ، العلاقات بين الأزواج والأصدقاء ، والمعارف ، والجيران ، والقرابة وهكذا ، فى هذه العلاقات تأخذ الأخلاق والمزاج والشخصية أسبقية قبل المكانة •

ويلاحظ أنه فى هذا المقام نجد أنفسنا مهتمين بظاهرة أخرى : نريد أن تبين أن ما قد يكون علاقات مكانة فى البداية ، ربما يصبح بالتكرار علاقات شخصية • فمثلا التفاعل الأولى بين العميل والبائع هى علاقات مكانة ، ومن ناحية علاقات المكانة هناك معيار أن العميل دائما على حق • وبتردد هـذا العميل على ذلك البائع يبتدىء كل منهما معرفة الآخر شخصيا ، وبعد برهة يبتدىء كل من العميل والبائع تقييم كل للآخر شخصيا وذاتيا ، وهكذا يصبح العميل لديه بائع يفضله ، وكذلك البائع لديه عميل مفضل ، وهـكذا يبتدىء العميل تحية البائع باسمه وهو يرد التحية ، ويتمنى كل منهما للآخر الصحة الطيبة ، ثم يبتدىء البائع فى اختيار البضائع التى يرى أنها الأجود . وأيضا العميل بدوره يثق فى اختيار البائع ، بل يرفض الشراء من أى بائع غيره ، ومثل هذه الوقائع الاجتماعية تحدث فى كثير من علاقاتنا الاجتماعية •

وليس معنى ذكر هذه الأمثلة أن نجعل من هذا النوع من العلاقات أهمية اكبر من علاقات المكانة ، لأن الأساس فى بناء المجتمع هى علاقات المكانة ، اذ أنها العلاقات الأكثر دواما واستمرارا فى الوجود ، ومن ثم تستمر أهميتهـا وأيضا أهمية تطابق الأفراد للمعايير التى تتضمنها المكانة الاجتماعية • فمثلا البائع فى المثل السابق لا يتناول ثمنا أقل من العميل عما يأخذه من العمـلاء الآخرين • وبالمثل عندما مدير لشركة ما يبتدىء تفضيل بعض الموظفين على

الآخرين لمجرد علاقاته الشخصية بغض النظر عن أخطائهم ، فانه بالضرورة سينتهى بالفشل فى عمله ٠

وهكذا تبدو أهمية التطابق مع معايير المكانة وعدم طغيان العلاقات الشخصية وخاصة فى المجتمع المركب ٠ وكل ما أردنا الذهاب اليه هو أن العلاقات الاجتماعية فى المجتمع المركب هى مزيج من عوامل المكانة والشخصية، وأن العوامل الشخصية ليست غائبة كلية حتى فى أكثر الجماعات الرسمية تنظيما ، وأنه فى كل مثل هذه الجماعات تنشأ عادة جماعات لا رسمية الى جانب الجماعات الرسمية ، وأن هذه الظاهرة جذبت أنظار علماء الاجتماع ٠

تناقض المكانات

STATUS INCONSISTENCY

يشغل كل فرد عدد من المكانات فى نفس الوقت ، وبعضها قد يكون غير متوافق بعضه مع بعض ، (يسمى هذا الصراع باصطلاحات متعددة عند علماء الاجتماع ، مثل تناقض المكانات status iconsistency، وعدم التوافق status incongruity، وتباين المكانات status discrepancy وبينما يميل بعض علماء الاجتماع الى وضع تمايزات بين كل من هذه المصطلحات الا أنها جميعا تستخدم لتشير لأى نوع من التناقض بين مكانات الشخص المتعددة ٠ فقد يكون لمكانة اجتماعية مقام أعلى من الأخرى مثل رجل نبيل ولكنه فقير فتح محلا لبيع الأشياء الزهيدة ٠ أو قد تكون المكانات محددة اجتماعيا ولكنها غير ملائمة مثل عندما الشخص عمه أصغر منه بشكل واضح هنا مكانة العمر ومكانة القرابة متناقضة) (١) ٠

---

1) Horton and Hunt . Op. Cit., P. 105.

ماذا يحـدث لو أن شـخصا شغل مكانتين متناقضتى المعايير ، أى أنه عندما يتطابق مع معايير مكانة منهما فعليه أن يخالف معايير المكانة الأخرى ؟ هذا موقف معتاد فى المجتمع المركب وهو دائما يؤدى الى مشكلة فقد حدث أن أحد المدرسين فى مدرسة كاليفورنيا العليا قد فصل من مركزه لأنه انتقـد مجلس ادارة المدرسة ، وكان اساس الفصل أنه لا يحق للمدرس نقد أعضـاء مجلس الادارة ، بينما أى مواطن له هذا الحق ، والمدرس هو ايضا مواطن ، ورغم ذلك لم تنقذ هذه الحقيقة المدرس من الفصل · وهكذا فالميزات المرتبطة بمكانة ليست بالضرورة مرتبطة بالمكانات الأخرى التى يشغلها الفرد ، بل ربما تكون كل منهما متعارضة مع الأخرى ·

الغرض من هـــذا الشرح هو ابراز أن المعايير المختلفة ترتبط بمكانات مختلفة · فالفعل المسموح به فى مكانة ما قد يكون ممنوعا عند مكانة أخرى · وقد يكون نفس الفعل مسموحا به بل كواجب فى مكانة ما ، ومحرم كجريمة عند شغل مكانة اخرى · فلا يستطيع أحد غير الطبيب وصف مخدر لمريض ، بل قد يحاكم الطبيب بتهمة الاهمال اذا لم يوفق فى وصفه وكانت حالة المريض تحتاج المخدر · بينما يحاكم كل انسان آخر يصف المخدرات لأحد · وايضا مطلوب من الرجل العسكرى فى مناسبات معينة أن يلبس اللباس الرسمى بينما يحاكم أى رجل مدنى يسمح لنفسه بلبس اللباس العسكرى ·

وفى بعض الأحيان نجد محوا تاما لامتيازات وحقوق المكانة وواجباتها ، فيعتبر رئيس الولايات المتحدة على قمة تنظيم مسلسل،ومع ذلك يتلقى أوامر من ضابط المخبرات المكلف بحراسته · والادميرال يباشر الرئاسة الحربية على كل ضباط البحرية الذين يعتبرون تابعين له ويتضمن ذلك الضابط الطبيب ، وعندما يحدث أن يشغل الادميرال مكانة مريض تحت رعاية طبيب قد يكون مجرد ملازم، فهنا الذى يعطى الأوامر للادميـرال هو ذلك الطبيب الملازم · ومن هنا نرى بوضوح أن السلطة تحددها المكانة وأن نفس الأفراد قد يمارسون علاقات تمحو بعضها بعضا عندما يشغلون مكانات مختلفة ·

وهناك موقف اجتماعي يوضح أن المعايير السائدة فى المجتمع منذ فترة كبيرة يكون لها قداستها ومن ثم تكسب السيادة ، والمثل الذى يوضح هذا هو أن هناك معيارا فى الجيوش أن الضابط الأصغر رتبة يفتح الباب للضابط الأكبر ويسمح له بالمرور قبله ، وفى الحرب العالمية الثانية ، استخدمت الجيوش الأمريكية النساء ، وهناك معيار فى المجتمع الغربى أن يفتح الرجل الباب للمرأة ويسمح لها بالمرور قبله · ولكن غيرة رئاسة الجيش على التقاليد العسكرية أصدرت أمرا بأن تتبع المعايير العسكرية بغض النظر عن معايير المجتمع · ولكن الأوامر العسكرية لم تستطع أن تضغط على تقليد قديم ، تقليد ما زال المجتمع مستمر فى تأييده · وهكذا ساد معيار المجتمع على الأوامر العسكرية ·

ويلاحظ أن الفرد يعتاد المعيار الرئيسى لمكانته المحورية Key Status وليس من السهل دائما التكيف لمعايير المكانات الجديدة،والاضطراب هو النتيجة الطبيعية لتغير المكانات عند الفرد الواحد · ولهذا من الصعب لشاب قد اعتاد مكانة الحياة المدنية التطابق مع المعايير المطلوبة لمكانة جندى فى فترة قصيرة · وهذا هو السبب فى أن الجيش يأخذ وقتا فى تكيف الأشخاص الجدد لمكانة جندى أى غرس معايير المنظمة العسكرية فى شخصيته · وقد لا يفلح بعض الأشخاص فى التكيف التام لما هوفى الحقيقة يعتبر مجتمع جديد وثقافة جديدة · وأيضا العكس صحيح بالنسبة للرجال الذين يمضون حياتهم كضباط فى الجيش، فعند التقاعد والتحول الى مكانة رجل مدنى يجدون صعوبة كبيرة فى عملية التكيف لمعايير مكانة مواطن مدنى · فقد حدث أن ترأس أحد الجنرالات جامعة فى الولايات المتحدة ، وبعد أخذ الأصوات فى مجلس الجامعة على مسألة ما ، قال الجنرال السابق لسكرتير مكتبه (وزع الأوامر على كل من يعنيه الأمر) وهذا الاصطلاح يستعمل فى الجيش ، ولكن السكرتير نبه المدير الجديد الى أن التصويت لم يتضمن أى أمر وأن توزيعه من مكتب رئيس الجامعة ليس هو

الاجراء المناسب • وهذا يدل على صعوبة تكيف الجنرال السابق للمكانة الجديدة كمدير جامعة (١) •

نوع آخر من صراع المكانة وتناقضها عندما لا يشغل شخص المكانة التى يشعر أنه يستحقها ، فمثــلا جماعات الأجناس الصغيرة مثل زنوج الولايات المتحدة ، عادة يجدون أن مكانتهم الموروثة (زنوج) تحد من قدرتهم على الكفاح من أجل النجاح فى تحقيق مكانة مكتسبة عالية ، وبالمثل الوطنيون فى روديسيا أو جنوب أفريقيا وان كانوا غير أقليات وهم أصحاب البلاد الأصليين ، فمكانتهم الموروثة كوطنيين تحد من فرص حصولهم على مكانات مكتسبة عالية بسبب المستعمر الأبيض الذى يعتبر الوطنيين ذوى مكانة منخفضة عنهم •

(ولقد عملت دراسات عديدة عن سلوك الناس ذوى المكانات التى تتصف بصفة عامة أنها متناقضة ولكن ليس هناك اتفاق قاطع على نوع سلوك رد الفعل الذى يمكن توقعه كما قال هاتمان Hatman • ذلك يرجع الى أن الشخص الذى يقع فى تناقض المكانة قد يتبع أحد طريقين متناقضين من الفعل • النوع الأول طالما هم جزئيا محرومون من المكانة المرغوبة ، فقد يتوحدون مع الجماعات ذات المكانة المنخفضة ويأخذون على عاتقهم اتجاهات وميول وسلوك تلك الجماعة وهكذا قد يكون لديهم القدرة على كسب القيادة فى تلك الجماعة ، ويطالبون بالمساواة • ويحدثنا التاريخ عن عديد من أولئك الذين كانوا مفكرين كأعضاء فى مجتمعاتهم ، أى تجبرهم مجتمعاتهم على شغل مكانات أقل مما يستحقون أو يرغبون • فحركات التحرير التى قامت فى أفريقيا وآســيا وقادها زعمــاء وطنيون دليل على هذا النوع من السلوك •

والنوع الثانى من رد الفعل لتناقض المكانة هو انكار أى ارتباط بالمكانات غير المرغوبة ، ولكن يتوحد مع رموز المكانة المرغوبة ، بل ويكون أكثر تشددا من أولئك الذين يتمتعون بالمكانة المرغوبة منذ أمد بعيد • فمثــلا الغنــى ذو

---

1) Bierstedt : Op. Cit., PP. 271—274.

الأسلاف المتواضعين أو من أصل سلالى منخفض يثبتون انتسابهم الى المكانة المرغوبة ويروجون لقبولهم الاجتماعى فيها بالانغماس فى الافراط فى مظاهر الغنى لاثبات ثرائهم ، وقد يؤيدون ذلك بالانضمام الى الأحزاب السياسية ليؤكدوا هويتهم الايديولوجية كنافذة على الامتيازات ٠ وتلك العملية لوحظت منذ أمد بعيد بين مليونيرات البترول من تكساس ، والمهاجرون الذين عملوا ثروات ضخمة قد غيروا أسماءهم ليخفوا هويتهم الجنسية،بل ويقللوا احتكاكهم مع أولئك الذين من أجناسهم وأسلافهم) (١) ٠

وهكذا الانسان الذى يقع فى صراع المكانة ربما يسعى الى الاقلال من التوترات اما بالتوحد مع الوجوه المنخفضة او العالية لصفات المكانة ، ولكن بأسلوب أو بآخر يؤثر الموقف فى تحديد مكانته وسلوكه ٠

ولقد استعملنا هذه الأمثلة عن صراع المكانات وتناقضها ، اذ يمكن من خلال هذه المواقف رؤية أهمية المكانات والمعايير المرتبطة بها ٠ فبدون المكانات والمعايير المصاحبة لها يصبح تفسير السلوك الانسانى صعبا جدا وتصبح العلاقات الاجتماعية بين النـاس الذين لا يعرفون بعضهم بعضا غير ممكنة ، وبالتالى يصبح وجود المجتمع المركب مستحيلا وتتحطم العلاقات الاجتماعية اذا حدث خطأ فى معرفة المكانة ، كما تصبح العلاقات صعبة اذا كانت المكانات غير واضحة فى أذهان المتفاعلين ٠ ولكن من حسن الحظ أن معظم المكانات معروفة جيدا وواضحة المعالم . والفرد يعرف المعايير المرتبطة بكل منها لأنه تشربها أثناء عملية التنشئة الاجتماعية ، وأيضـا تشرب ثقافته التى تعتبـر المكانات ومعاييرها جزءا منها ٠

---

1) Horton and Hunt : Op. Cit., PP. 105 — 106

الـــدور

المكانة والدور

اذا تحدثنا تاريخيا، واضح أن الدور يأتى أولا فى أى لحظة معينة فى مجتمع مركب • فالأفراد والجماعات يقومون بوظائف مختلفة عندما يتفاعلون، كما أن التغير يؤدى الى صنع وظائف جديدة يحتاجها النسق ، وعندما تثبت حاجة النسق أو المجتمع الى هذه الوظيفة تثبت الوظيفة فى الثقافة وتسمى هذه الوظائف بالأدوار الاجتماعية ، ومن ناحية أخرى تقيم المجتمعات هذه الأدوار ، ولهذا تعتبر بعض الأدوار أكثر أهمية وأكثر قيمة من أدوار أخرى • وهــذا التقدير الاجتماعى لمختلف الأدوار الاجتماعية التى يقوم بها أعضاء المجتمع هو الذى أدى الى ظهور فكرة المركز والمكانة الاجتماعية • بمعنى أن المجتمع يقرن بدور معين مكانة معينة متناسبة مع أهمية الدور من جهة نظر المجتمع الذى فيه ذلك الدور • وعندما يعطى المجتمع هذه المكانة تثبت هى أيضا فى الثقافة ، ويصبح المكانة ودورها كوجهى العملة • (فكل مكانة فى البناء الاجتماعى تتضمن دورا ، أى حدا أدنى من نمط سلوكى متوقع وربما مطلوب من أى انسان يشغل المكانة ، فمفهومى المكانة والدور دائما مرتبطين) (١) • (فالمكانة والدور همـــا وجهـــان لظاهرة واحدة ، المكانة هى مجموعة الامتيازات والواجبات والدور هو القيام بأعباء هذه الواجبات وتلك الامتيازات) (٢) •

وهكذا أصبح مفهومى المكانة والدور لهما أهميـــة كبـرى فى العلوم الاجتماعية ، ولهذا علينا أن نعرفهما ونميز بينهما • المكانة ببساطة هى مركز

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 168.
2) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 99.

فى المجتمع أو فى جماعة ولكل مجتمع أو جماعة عدد كبير من هذه المراكز ، ويشغل كل عضو عددا من هذه المراكز بعدد الجمـــاعات التى ينتمى اليها ، وتختلف مكانة الفرد باختلاف الجماعة • فالمكانة الاجتماعية تعطيها الجماعة للفرد لانتسابه لها ولعضويته فيها ، أو نتيجة لتنظيم الجماعة ، ان المكانة مركز فى بناء الجماعة أو المجتمع انه تنميط ثقافى ، ومن ثم يصبح موجودا قبـل أن يأتى أى فرد معين ليشغله •

والدور هو الوجه الديناميكى أو السلوكى للمكانة الاجتماعية ، فنحن نشغل مكانات اما الأدوار فنحن نؤديها ، فالدور هو أداء فرد معين لواجبات المكانة الاجتماعية ويتمتع بمميزاتها وحقوقها • فالدور هو ما يفعله العضو فى المكانة التى يشغلها • وليس معنى هذا أن العضو فى أدائه لدوره مطلق الحرية، فالأدوار طالما هى أنماط ثقافية للفعل لملء مكانة معينة أى أن العضو يؤدى دوره فى ظل مكانة معينة ، والمكانة الاجتماعية كما نعلم مرتبط بها معايير توجه فعل شاغل المكانة وتنبىء عن توقعات معينة • ذلك أنه لا يمكن أن تنتظم الحياة الاجتماعية بدون توفر درجة معينة من الاتساق والتوافق ، وأنه لابد من وجود أنماط معينة من القواعد وأنواع معينة من المعايير تتحكم فى أنماط السلوك بحيث يمكن للفرد أن يتوقع من الآخرين سلوكا معينا بالذات فى موقف معين بالذات • لأن هذا السلوك تمليه تلك المعايير المرتبطة بهذه المكانة ولولا هذه المكانة وتلك المعايير لما أمكن الكلام عن البناء الاجتماعى • ومن ثم فأداء الدور هو محدد بهذه المعايير ، حتى أنه يذهب بعض علماء الاجتماع الى اعتبار أن (الدور يتركب من معايير، التى هى الأنماط المثالية للفعل والتفكير والشعور والفهم المتبادل بشأن الصواب والسلوك الصحيح فى مختلف المواقف ومستوى ما هو مقبول اجتماعى • فالمعايير تحدد التوقعات التقليدية التى يتمسك بهـا الناس بشأن سلوك الآخرين) (١) • ومن ثم (يتضمن مفهوم الدور مجموعة

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 168

من التوقعات عن سلوك الفرد نفسه وعن السلوك المتبادل للناس فى الموقف الاجتماعى) (١) ٠

ومن ثم فالدور هو حزمة من المعايير التى تحدد الصواب والواجبات والميزات لشخص يشغل مكانة معينة ٠ والمعايير ليست متوحدة معه شخصيا ، انما هى مرتبطة بالمكانة الاجتماعية ٠ فالأدوار هى عناصر الثقافة ، والمكانات عناصر البناء الاجتماعى ٠ ولهذا عادة يستخدم مصطلح المكانة لوصف كيف على الفرد أن يعمل عندما يشغل مركزا معينا فى البناء الاجتماعى ، بينما الدور يستخدم ليشير الى كيف واقعيا ينجز الفرد الدور ٠ وفى مثل هذا المحتوى توجد المكانات مستقلة عن الأفراد ، بينما الأدوار تفترض حضور فرد معين ٠ (وبعض المناقشات تقسم المحتوى لموقف اجتماعى الى ١ ـ الدور الذى يتعلق بواجبات المركز ٢ ـ المكانة التى تتعلق بالحقوق الممنوحة للمركز) (٢) ٠

(ولهذا منذ زمن طويل قد اشير الى الأدوار على أنها الوحدات الأساسية للسلوك الاجتماعى للأفراد ٠ وكان أحد المساهمات الكبرى لمدارس البنائية الوظيفية هى ابراز الأهمية الكبرى والناحية الديناميكية للأدوار على أنها أهم نقطة التقاء بين السلوك الفردى والوظائف الاجتماعية) (٣) ٠

ومن الواضح أن مختلف الأعضاء فى مختلف المجتمعات يفعلون أشياء مختلفة فى نفس المكانات، ومن ثم فمفهوم الدور هو الذى يجعلنا نأخذ فى الاعتبار هذه الاختلافات ، ولفهم ذلك التمايز بين الدور والمكانة بشكل أكثر وضوحا ، تخيل مكانة مدرس لجزء من البناء الاجتماعى لمجتمع كالسويد ومجتمع آخر كالصين الشعبية ، ثم اذهب الى مفهوم الدور ، ولسوف تتحقق أنه فى كل من

---

1) Horton and Hunt : Op. Cit., P. 100
2) Allyn : Op. Cit., P. 58.
3) Eisenstadt, S.N. : «Essays on Comparative Institutions» John Wiley and Sons, Inc., New York. 1965.

المجتمعين المعايير المرتبطة لمكانة المدرس فى كل من المجتمعين مختلفة جدا ، ومن ثم متوقع من كل من المدرسين تدريس أشياء مختلفة ٠

ولمزيد من الشرح لهذه المسالة نضرب مثلا برئيس الولايات المتحـــدة ، فرئاسة الولايات المتحـدة هى مكانة اجتماعية مرتبط بها معايير عـديدة ٠ فالانسان الذى يشغل مركز الرئيس أيا كان هو ، له واجبات ومسئوليات معينة، ومن ناحية اخرى يتمتع بمميزات معينة ٠ هذه الواجبات تتعلق بالمكانة وليست بالفرد ٠ وبالرغم من ذلك فكثير من هذه الواجبات اديت بأساليب مختلفـة ٠ فالدور الذى اداه روزفلت يختلف عن الدور الذى اداه جون كندى عن الدور الذى أداه نكسون ، مع أن المكانة الاجتماعية واحدة تقريبا فى كل الحالات ، ولكن ما اظهر هذه الاختلافات هو الدور ٠ وقد قلت أن المكانة الاجتماعية واحدة تقريبا لأن المكانة أيضا تتغير عبر الزمن ، فيضاف معايير جديدة أو تطمس معايير قديمة ، مثلما يمارس بعض الرؤساء سلطات استثنائية لظروف الحرب مثلا وآخرون لا يحدث فى عهدهم ذلك ٠ فالمكانة لرئيس الولايات المتحـدة هى نفسها بغض النظر عمن يشغلها ولكن شخصية الفرد لها اثر كبير فيما يتعلق بأداء الدور ٠ ولهذا فالمكانة هى المركز ذاته ، ولكن ما يفعله الفرد بهذا المركز هى مسالة اداء الدور ٠

ويلاحظ أن كلا من ظاهرتى المكانة والدور فى حالة تغير دائم فهمـــا ديناميكيان ٠ واضح أن الدور يتغير مع كل شاغل جديد للمكانة ، ولكن المكانة الاجتماعية تتغير فقط عندما تتغير المعايير المرتبطة بها ٠ فعبر الزمن قد تضاف مسئوليات وواجبات جديدة الى مكانة اجتماعية ما ، أو تزول معايير قديمـة مرتبطة بها ٠ وفى بعض الأحيان اداء الأدوار بقوة عقلية كبيرة قد تنمى وظائف المكانة ٠ وفى بعض الأحيان تلك الوظائف تتغير تحت ضغط حاجات النسق الذى تكون المكانة جزءا منه ٠ فمثلا عندما يزداد حجم اتحاد فقد يكتسب شاغل الادوار الرئيسية فيه واجبات جديدة ، أو قد تنشأ مكانات جديدة ، كما حدث عنـدما

توسعت الجامعة نشأت مكانات اجتماعية جديدة كثيرة • وهكذا عندما نقول ان الدور هو الوجه الدينامیکی للمكانة ، فنحن لا نعنی أن المكانة الاجتماعية ثابتة ، ولكن كلا من الدور والمكانة عناصر دینامیکیة فی حياة المجتمع ، ولكن الدور اكثر قابلية للتغير من المكانة الاجتماعية ، وهی بدورها اكثر ثباتا من الدور •

وعادة عندما نمايز بين شيئين مرتبطين فانه من المستحسن من اجـل مزيد من الوضوح أن نسأل ما اذا كان من الممكن أن يظهر أحدهما دون الآخر• الحقيقة أن كثيرا من علماء الاجتماع يقولون انه لا دور بلا مكانة ولا مكانة بدون دور • وبالرغم من أن المكانة والدور ظاهرتين يتعلق كل منهما بالآخـر فانه من الممكن وجود أحدهما بدون الآخر • فمكانة بدون دور هی بكل بساطة مركز فارغ فی هيئة ما ، فمثلا عندما يتوفى رئيس جمهورية فان نائب الرئيس يحل محله ويؤدی دوره ، ولكن تظل مكانة نائب الرئيس جزءا من نظام الحكومة ولكن تظل بدون دور حتى تملأ فی الانتخابات التالية ، وبالمثل اذا استقال مدير جامعة فان شغل منصبه عادة يأخذ وقتا للعثور على الرجل المناسب ،أی أن المكانة هنا تختفی، ولكن لا يتوقف أداء الدور، وقد يقوم نائب أو وكيل الجامعة، أو توزع واجبات الدور على عدد من العمداء ، المهم انه فی هذه الحالة يوجد دور ولا توجد مكانة •

تأسيس الأدوار
Institutionalization of Roles

(كثيـــر ما الأدوار تكون مؤسســـــة Institutionalized بمعنى أنها خاضعة لقواعد واضحة ومعلنة وضعتها السلطة القائمة فی حيثـــه او

العادات الاجتماعية التى لها قوة القانون · والتاسيس مسالة درجة ، بمعنى انها خاضعة للضبط الرسمى وغير الرسمى · فمثلا اهمال الآباء الشنيع لأدوارهم مثل عدم ارسال الطفل الى المدرسة أو الضرب الوحشى للطفل يستدعى جزاءا رسميا) (١) ·

وفى الحقيقة أن بعض الأدوار محددة بدقة ومتطلباتها من شاغليها واضحة جدا وثابتة · فى مثل هذه الحالات الواجبات تكون معلنة بوضوح ، وربما تكون مكتوبة فى دليل مختصر ، ومن ثم يتوقع من شاغل الدور اتباع القواعد ١ ، ثم ٢ ثم ٣ وهكذا ، بل فى الحالات التى لا يوضحها الدليل يطلب شاغل الدور تعليمات من رئيسه · وعادة مثل هذه الأدوار لا يسمح لشاغليها بالانحراف عن السلوك الموصوف ، ويقدم نظام الجيش مثلا واضحا لمثل هذه الأدوار الشديدة التحديد والبناء · وعلى أى حال كثير من الأدوار الشديدة البناء ، بينما تتطلب التطابق فى مواقف معينة تعتبر حساسة ، تميل أن تكون أكثر تسامحا فى مناطق أخرى · فضابط الجيش قد يجبر على الالتزام بشدة عند انجاز (أداء دور) خطة عسكرية كتحريك قواته من موقع الى موقع مثلا ، ولكنه عند تفاعله مع مساعديه من الضباط فى وقت التدريب اليومى يسمح له بنوع من المبادأة والانشاء ·

وفى نفس الوقت هناك كثير من الأدوار ليس فى تحديدها تلك الصرامة بل تكون محددة وفيها شىء من الحرية ، فقد لا تسمح فقط بل حتى تتطلب قدرا كبيرا من التعبير والتفسير الشخصى فى اثناء انجازها · وهذه الحالة تصدق على كثير من الأدوار المهنية مثل البحث العلمى ، ومراكز تنفيذ خطة تنمية مثلا حيث القرارات لا يمكن وجودها فى دليل ، وحيث الحلول للمشاكل الجديدة والمعقدة تتوقف على مهارة وذكاء وخبرة الفرد المنجز للدور ·

---

1 — Biesanz : op. cit., P. 170.

ويلاحظ أنه كلما كان النسق الاجتماعى ساكنا وتقليديا وكلما زاد نجاح أدواره فى حل مشاكله وتحقق أهدافه ، كلما كانت الأدوار فيه محددة بدقة أكثر ومؤسسة بشكل يدل على أنها ذات بناء متين · ومثل هذا النسق يرفض السماح بالتغير فى الأدوار أو حتى أن يجعلها أكثر مرونة ولو كانت العواقب وخيمة وحتى لو كانت مدمرة ، وهذا أحد أسباب عدم قدرة الجيوش فى بعض الأحيان التكيف مع مشاكل حربية جديدة ومن ثم تخسر الحرب وكذلك أحد هذه الأمثلة هو افلاس بعض الصناعات فى بعض الأحيان ·

ومن ناحية أخرى النقص النسبى فى التأسيس التى تتصف بها بعض الأدوار فى الانساق غير التقليدية ، أو فى نسق اثناء عمليـــة التغيير ليست بالضرورة نتيجة تكيف رشيد لمشاكل ومواقف جديدة ، ولكن ، ربما يعزى ذلك النقص النسبى جزئيا أو كليا الى الاضطراب الذى غالبا ما يصاحب انهيار التقليدية والتغير الاجتماعى ·

ويمكن شرح هذا عن طريق الأدوار التى تحدث فى الأسرة · ففى المجتمع التقليدى،دور الزوجة، والأم ، والأب، والزوج ، عادة يكونون ماسسين بصلابة ومن ثم محددين بوضوح ، واصبحت الأدوار نفسها منغرسة فى التقاليد ، وقد تتغير قليلا جدا على مدار عدة أجيال ، ولكن بالنسبة لجيل واحد هنـاك اتفاق قوى داخل المجتمع بالنسبة للحقوق والواجبات والأعمال · فلا تعانى المرأة من أى اضطراب حول التوقعات والمتطلبات التى يضعها على عاتقها دور الزوجة والأم ، كما أنها ليس لديها ادنى شك فيما يختص بمحتوى دور زوجها وبالمثل دور حماتها · فالمجتمع يصف ويرسم تلك الأدوار بوضوح · بينما فى المجتمع الأمريكى المعاصر يوجد أقل اتفاق · فالزوجة الصغيرة ليس لديهـا فقط تخيل غير واضح عن دور الزوجة والأم ، ولكن الفكرة التى قد تكون لديهـا ربما تختلف بشكل كبير عن الفكرة التى لدى زوجها · وربما يكون الزوج فى نفس المأزق ، وبالاضافة الى ذلك قد يكون بينهم اتفاق قليـل على نوع الدور

الذى على الحماة أن تؤديه ٠ أو ربما يكون لدى كل من الزوج والزوجة فكرة صلبة عن دور الزوج والزوجة والأم والأب والأبناء والبنات ، ولكن كل من الفكرتين) فكرة الزوج وفكرة الزوجة) مختلفتين ومتباعدتين كثيرا أو قليلا ٠ وهكذا يعتبر عدم تأسيس الأدوار وبالتالى عدموضوحها أحد خواص المجتمعات اللامتجانسة ، تلك المجتمعات التى تنهار فيها التقاليد ، وتلك المجتمعات التى تعانى من وطأة التغير ٠

على أى حال ، التحليلات الحديثة تبين أن الأدوار تتركب من عناصر عدة ـ انماط سلوك واجبات الدور ـ تماما مثل أهدافها ومعاييرها وعـــلاقاتها بالأدوار الأخرى ٠ ولو أن بعض العناصر تعمل معا ، الا أنها أيضا يمكن أن تستقل ، ومن ثم لا بد من دراستها من وجهة النظر هذه ٠ فكل من هذه العناصر عادة خاضعة لتاثيرات مستقلة ومن ثم يمكن أن تشكل بؤرة تغير تؤثر فى الدور ككل بأساليب مختلفة وبدرجات مختلفة ٠ ولهذا لا يجب أخذ الدور كنمط من السلوك أو تحديد معيارى للسلوك وضـــع وثبت فى البنـــاء النظامى Institutional Structureللمجتمع ، والذى يجب على الفرد أن يكيف نفسه له خلال التنشئة الاجتماعية وخلال التفاعل مع الناس الآخرين ٠ وبالأحرى تشكيل أى دور معين ومكونات أهدافه ، وتبلور عناصره ومن ثم تاسيسه هو نتاج قوى اجتماعية متباينة ومتعددة ، أو ميكانزمات تصنع التبلور والتأسيس المعين لمختلف عناصر الدور ٠ ومن ثم عناصر أى دور من المستحسن دراستها طبقا لدرجة التاسيس فى كل دور ، أو طبقا لما اذا كان كلها أو بعضها أصبح مؤسسا فى أى لحظة معينة ٠

وبالمثل تأسيس مختلف الأدوار ربما بدوره يؤثر فى تطور البناء النظامى للمجتمع ٠ وتحدث عمليات صنع وتأسيس مختلف الأدوار باستمرار فى كل المجتمعات وحتى اذا كان فى بعض الحالات التأسيس والتحديد الأســـاسى للدور ثابت لمدة طويلة من الزمن ، فان التاكيد النسبى على مختلف واجبات

الدور سوف يختلف طبقا للمواقف والقوى المختلفة التى تتفاعل معه ، وهكذا بدلا من أخذ خريطة الأدوار Role-map, لمجتمع معين على أنها ثابتة تماما، فانه يجب أخذها على أنها فى حالة اعادة تأسيس دائمة ، وخاصة فى المجتمعات التى تعانى من وطأة التغير · ويتضح ذلك أكثر اذا درسنا العلاقة بين الفرد ودوره التى سنتجه اليها فى الفقرة التالية :

وفى الحقيقة فان الانسان يحتاج بشدة الى الأدوار المؤسسة والمحددة بدقة وعندما يوضع فى الأدوار التى تتصف بالتفكك أو التى تكون زائدة المرونة فقد يتعرض الى قدر كبير من القلق والاحباط ، وبدلا من الترحيب بالحرية التى تسمح بها الأدوار ، فان التعليمات الغامضة أو الناقصة تؤدى الى احبـــاط الشخص كلية ·

الفـــرد والدور

يؤدى كل فرد أدوارا عديدة خلال فترة حياته بالرغم من اختلاف أنماط الأدوار باختلاف المجتمعات · ويتميز المجتمع الصناعى الحديث بشبكة كثيفة ومعقدة من الأدوار المتاحة لعدد كبير من الأفراد · فقد يكون الشخص أبا ، ورجل مطافىء،وقائدا لفرقة كرة قدم وعضوا فىجمعية خيرية،ومخبرا لصحيفة كل هذه الأدوار فى نفس الوقت ، وهذا كله لا يستوعب عدد الأدوار التى قد يكون منشغلا بها · وبصفة عامة عضوية الشخص فى أى نظام (نسق) نفترض دورا واحدا محددا ، ولكن ليس بالضرورى أن يكون الأمر كذلك ، فقد يشغل أكثر من دور واحد فى نظام معين ، فمثلا اذا كان عضوا فى جمعية خيرية فقد يكون عضو مجلس ادارة ، ومعلما لأبناء الجمعية ، وقائد فرقتها الرياضية ، وكذلك فى نظام الأسرة قد يكون زوجا وأبا واذا كانت والدته تعيش معه فسوف يظل دور الابن له معنى ·

وفى الحقيقة ينظر رجال الاجتماع الى الانسان على أنه كائن منجـــز للأدوار فى مختلف الجماعات والمواقف التى هو جزء منها · وفى الحقيقة يمكن النظر الى المجتمع ككل أو أى نظام اجتماعى هو الكم الكلى للأدوار المنتشرة فى داخله · وتحدد النظم معايير الأدوار التى تتضمنها · فدور رئيس الكتبة أو رئيس العمال تحددها المنظمة المعينـــة التى تحتوى هـــذه الأدوار · فى المجتمعات الحديثة ، تحدد المعايير التشريعية Legal Norms الحقـــوق والواجبات للمواطن فى مجال واسع سواء فى السياسة أو الاقتصـــــاد أو الاجتماع · ولكن المواطن ليس مواطنا فقط ، ومن ثم فهناك أيضا أدوار أخرى تختلف فى بعض الأحيان بالنسبة للصغار والبالغين ، وبعض الأحيان عن طريق اختلاف الجنس والنوع · ونحن نحب أن نفكر فى أن الأدوار الأبوية يحددها عند المستوى المحلى الآباء والثقافة التى يتمثلونها سواء أكانت ثقافة بدوية أو ريفية أو حضرية سودانية أو مصرية أو سعودية ، أو طبقة عليا أو متوسطة أو أيا كانت الثقافة · وان كان هذا حقيقة تماما ، الا أنه فى نفس الوقت تحدد الحكومة أنواع الأعمال التى تحرم فيها تشغيل الأطفال ، وتأمر الآباء بارسال أبنائهم الى المدارس ، وتصر الحكومة على أن يجنب الآباء أطفالهم السلوك اللاأخلاقى والحكومة فى فعلها ذلك تحدد أدوار الآباء والأمهات ·

ويلاحظ أن اصطلاح الدور يشير الى دور آخر على الأقل ، مثل الأستاذ والطالب ، والزوج والزوجة ، ورئيس العمال والعامل · وعندما يتفـــاعل شخصان فى محتوى مثل هذه الأدوار ، فسلوك كل منهما تحدده الأدوار على الأقل جزئيا ، فيتوقع من كل منهما مراعاة بعض القواعد الأساســـية التى يوضحها دوره ويشير اليها دور الشخص الآخـــر والموقف ، كمـــا أن كلا منهما يطلب من الآخر احترام هـــذه القواعد · ولقـــد تختلف حقوق وواجبـــات كل منهما ، ولكن مفترض بأسلوب ما أنهـــا معروفة لـــكل منهما ومقبولة من كل منهما · وهكذا عندما يعطى ضابط بوليس مواطنا تذكرة مخالفة ، فان سلوك كل منهما متوقع أن يراعى حدودا معينة قد حددتها المعايير

المرتبطة بالأدوار ، فمثلا متوقع من رجل البوليس أن يعطيه تذكرة عن مخالفة قانونية ، ومتوقع من المواطن أن لا يستخدم لغة نابية •

(واضح أن الدور قد يتضمن أكثر من دور آخر ، وفى الحقيقة يظهر فى العلاقات الاجتماعية تجمع ، أو مجموعات أدوار ، فشخص طبيب ومدير مستشفى قد يوضح مجموعة أدواره فى احتكاكه بعمله كالآتى : مدير ، وأطباء آخرون ، وممرضات ، وفنيون ومرضى وحرفيون آخرون •) (١) ، فاصطلاح الدور يستخدم ليشير الى أنه قد يكون لمكانة ليس مجرد دور واحد ، ولكن عددا من الأدوار المتحدة المتلائمة معا •(٢) فمثلا زوجة هى أيضا ابنة وقريبة ومواطنة ، ومحتمل أن تكون أما وطاهية وربة منزل وعاملة • وهكذا مجموعة دورها تتضمن مجموعة من الأدوار المترابطة ، وان كان بعضها يتطلب أنماطا متباينة من التكيف • وليس من الضرورى أن ينجح الفرد فى كل مجموعة أدواره ، فقد يكون هناك أستاذ عالم ناجح ولكن يفشل فى دور مدير جامعة • انجاز الدور بنجاح غالبا يتطلب التوافق مع عدد من أنماط السلوك المرتبطة به•

هذا التعدد فى الأدوار قد يؤدى الى بعض مؤثرات الدور ، ولكن ليس بالضرورة ، لأنه يمكن أن يؤدى بنفس القوة الى زيادة قدرة الانسان علىملىء أدوار متعددة بنجاح •

انجـاز الأدوار
Role Performance

بمجرد أن نعرف البناء الاجتماعى لجماعة وشبكة المكانات الاجتماعية والأدوار والمعايير المرتبطة بهما يمكن أن نرسمالنمط العام للتفاعل فى داخل

1 — Allyn : op. cit., P. 61.
2 — Horton and Hunt : op. cit., P. 100

الجماعة بدون الاشارة لأى فاعلين معينين ومسئولياتهم الخاصة · وهكذا نستطيع أن نصف مباراة كرة سلة فى عبارات من مركز كل لاعب ودوره والقواعد العامة للعب ·

ولكن انجاز الأدوار هو الذى يعطى الحياة لمباراة كرة السلة أوالمسرحية اهتمامنا فيما يدور حولنا سواء بتمثيلية أو مسرحية أو التغير الاجتماعى ، كل هذا له جذوره فى الاختلاف الواسع فى انجاز الأدوار الذى يمكن أن يحدث فى داخل المكانات المحددة ثقافيا على أنها ذات شكل واحد · فالأدوار هى التى تشكل التفاعل الاجتماعى الجارى لأى جماعة · ونحن نرى فى انجاز الأدوار الأداء الديناميكى للمكانات والشخصية · ولكن أى دور مهما كانت المعايير المرتبطة به فانه لا يمكن أن يكون أكثر من مرشد لسلوك المنجز ، لأن الدور لا يمكن أن يصف الاختلافات الدقيقة لسلوك دور شخص معين · فدور جديد يأخذه شخص على أسس من طموحه أو كنتيجة حقيقية لاكتسابه مكانة جديدة · فان مثل هذا الشخص يعمل على تحليل اتجاهات وسلوك نفسه واتجاهات وسلوك الآخرين عنه · واضح أن الذات لا تظل بلا تغير بعد هذا النوع من الخبرة · فامرأة لم تكن متزوجة ثم تزوجت ، واضح أن مكانتها قبل الزواج تختلف عن مكانتها ودورها كمتزوجة ، ومن ثم بأساليب عديدة تبدو شخصا آخر ، بمعنى أن هناك تأثيرا متبادلا بين الشخصية والدور · وهذا يبدو واضحا فى الأدوار المهنية حيث تنتج تغيرات فى الشخصية ، وأيضا تغيرات فى انجاز الأدوار · فقد يعتذر البروقراطى عن القرارات الجبرية التى عليه تنفيذها على العاملين بأن القواعد تتطلب منه مثل هذا السلوك ، ولكن من الممكن فى وقت ما يصبح واقعيا أكثر بيروقراطيا فى اتجاهاته ومشاركاته، وحتى يصبح أكثر صلابة مما يحتاجه الدور ·

شخصية معينة تفضل أداء أدوار معينة ، وتلك الأدوار بدورها تميل الى

تنمية وتقوية الصفات الشخصية التى تكون ملائمة للدور • فهناك كمية كبيرة من الهجرة الاختيارية لأدوار معينة • فعادة يميل وينجذب الأفراد نحو الأدوار التى تقابل احتياجاتهم العاطفية ومهاراتهم ، ولسوف يكون لهذا منفعة لكن من الدور والشخصية •

ويلاحظ أن انجاز الشخص للدور يتأثر أيضا بأسلوب الآخرين فى الموقفوهم يؤدون أدوارهم المتزاوجة ، وأيضا درجة تأييدهم للجزاءات • فمثلا اذا كانت مدرسة لا تعتنى بانجاز تلاميذها لأدوارهم (أعمالهم المنزلية) سواء أكانوا يؤدونها جيدا أم لا ، فهى سوف لا تمارس أى تأثير يؤدى الى الانجاز الجيد فيما يختص بالتلاميذ • ومن ناحية أخرى حتى اذا كانت المدرسة لاتبالى حقا بمدى مذاكرة تلاميذها ، ولكن تريد أن تعتبر نفسها مدرسة جيدة عند رؤسائها ، وتحافظ على عملها فسوف تشجع التلاميذ على الأداء الجيد • هذا الضغط من الجزء الثالث (الرئيس) فى الموقف يعمل كضبط اجتماعى قوى • ماذا يقول ناظر المدرسة اذا رسب التلاميذ ؟ • وهكذا كلما كان الجزء الثالث فى الموقف أكثر قربا وتخصصا وتأييدا للجزاءات ، كلما كان أكثر تأثيرا فى تأييد انجاز الدور • وهكذا قد يباشر الناظر ضغطا على كل من المدرسة والتلاميذ •

ولأن الأدوار متزاوجة فانها تميل الى تأييد كل للأخر • فالفاعل الذى يفشل فى انجاز دوره يجعل من الصعب على الشخص المقابل اداء دوره • وهكذا نظرا لتزاوج وترابط الأدوار فان النجاح أو الفشل فى أداء دور يؤدى الى نتائج مماثلة فى الدور الآخر • فالطالب الذى يفشل فى أداء دوره فيرسب ، ويؤثر فى أبويه ومدرسه بأن كلا منهما يحزن •

كما أن هناك أبوارا بطبيعتها تجعل الفرد المنجز متفردا فى انجازه ومتميزا ذلك لأن الدور بطبيعته يسمح بمجال واسع من التفسير عن الأدوار الأخرى •

من بين تلك الأدوار الفضفاضة التى تستخدم لعديد من المواقف مقارنة بالأدوار التخصصية لمهنة خاصة • فمثلا علاقات وتفاعل الأصدقاء والأقارب فى معظم المجتمعات يحكمها معايير فضفاضة جدا ، تسمح للمنجز بأداء دوره بأسلوب يكاد يكون متفردا أى خاصا به جدا ، فاذا فوضعنا الدور السابق ، فى مقابل الدور الضيق والمحدد بدقة لمهنة مثل طبيب رمد أو ضابط جيش ، يتضح لنا تماما أن أسلوب الانجاز يختلف تماما فهو لا يسمح بذلك المجال الواسع لتفسير واجبات الدور •

كما أن الأدوار الجديدة ، وغير المحددة من قبل أى التى لم تتأسس بعد ، تتيح للفرد أسلوبا فى الانجاز حرا من كل قيود ، الا قيود المعايير العامة فى المجتمع ، مثل منتج تليفزيونى فى مجتمع لم يكن فيه تليفزيون من قبل ، فهنا يضع الفرد تفسيرا ينشئه هو انشاءا ، فهو يضع حدود الدور وواجبـــاته ومسئولياته • ومن ثم يصبح لديه مجال واسع جدا فى انجاز الدور • ذلك ينطبق أيضا على انجاز الأدوار التى فيها التفاعل مع الآخرين يحدث نادرا ومن ثم فالتوقعات المتبادلة قليلة جدا ، فمثل هذا الدور لم يتأسس بعد ولم تحدد بدقة مسئولياته وواجباته لعدم استخدامه الا نادرا ، ومن ثم يصبح الفرد المنجز للدور حرا فى انجازه ولديه مجال واسع لتفسير الواجبات حسب الموقف الاجتماعى الحادث •

توترات الـــدور
Role Strain

من الممكن أن يكون هناك فرد مستغرق فى دوره (١) • ومثل هذا الفرد يعتبر فى نظر علماء الاجتماع أنه استدمج دوره ، وتسمى هذه الظاهرة بظاهرة استدماج الأدوار Internalization of Roles ويحدث استدماج الدور

---

1 — Allyn : Op. Cit., p. 66.

كجزء من عملية التنشئة الاجتماعية والتى تكون أكثر تركيزا فى الطفولة ، ولكنها تستمر خلال كل الحياة كتعليم وعقاب وثواب. وعندما يستدمج الدور يصبح الفرد متقبلا لمعايير الدور على أنها الصواب ، ومتميزة بين المعايير بأسلوب عام يتصف بالنسبة للفرد بالسهولة واليسر ، ويشعر الفرد عاطفيا بما يوجه الى القيم الخاصة بالدور . ومن ثم يمكننا القول ان الدور استدمج تماما عندما يشعر الشخص بأنه مذنب أو غير مرتاح اذا لم يتطابق مع معايير الدور ، ومن ثم يشعر باثم عاطفى لعدم توفيقه فى انجاز الدور ، هذا الجزاء الداخلى القوى يميل الى تأمين وتأكيد انجاز الدور . (وأعظم أمنية لأى نسق أن يجعل أفراده يتمثلون معاييره حتى تصبح المعايير لب ضميره الأخلاقى ، وهكذا يؤمن تطابق الأعضاء) (١) . وحتى اذا كان الدور أقل استدماجا ، فقد يظل الشخص متطابقا طالما هو يريد تجنب نتائج عدم التطابق وهى الجزاءات التى وضعها أولئك الذين فى علاقات متبادلة معه .

وهكذا عندما يشغل الفرد دورا ما فهو يكون متميزا ومتفردا ، وهذا يتضمن نوعا من التكيف بين شخصيته والدور فتبدو بعض الأدوار متطابقة مع أصحابها وكأنها فصلت لهم . ولكن فى بعض الأحيان ، والأكثر وجودا فى الواقع أن هناك تفاعلا بين الفرد والدور ، ومثل هذا التفاعل قد يكون مناسبا، أو قد يكون مؤلما ومولدا لضغوط وتوترات كثيرة . فقد يشعر الفرد ان الدور يجبره على تعريض نمط أخلاقه للخطر ، أو قد يعانى وطأة توترات زائدة عن الحد لأنه ببساطة لا يستطيع الوفاء بمتطلبات الدور فى حدود مهارته أو الوقت والجهد المطلوب لأداء الدور . وبعض الأدوار يمكن أن تضع على عاتق الأفراد متطلبات متطرفة ، فقد يطلب دور من شاغله سلوكا قد يجده الفرد تشمئز منه النفس أو يستحيل عمله تحت أى ظرف من الظروف . عمل حمام أو الباس مريض ذكر غريب بالنسبة لفتاة تشغل دور ممرضة ربما لا يكون فقط ممكنا بل

---

1 — Ibid., p. 23

عملا آليا ، ولكن يصبح عملا دنيئا فى ظل ظروف أخرى • وهكذا نجد أن بعض الأدوار ربما تتصارع بشدة مع حاجات وقيم الفرد حتى أنه لا يحدث أى تكيف ، حتى ولو استمر الفرد فى شغل الدور • وهذه الظاهرة من اللاتكيف من الدور والشخصية يسمى صراع الدور والشخصية • Personal—Role Conflict

وفى الحقيقة انه مبدئيا على الأقل ، هناك عادة دور وشخصية وكل جديد على الآخر والفترة الأولى تتميز بعملية تكيف وتطابق بين الدور والشخصية• ذلك يعنى تكيفا للدور أو الشخص أو لكل منهما ، وتعتمد هذه العملية على مرونة وصلابة كل منهما (الدور والشخصية) • فى بعض الأحيان يمكن لشخص قوى صهر الدور ليلائم حاجاته ، وبعض الأدوار غير قابلة لمثل تلك المعالجة ، وهنا يمكن أن يقع الصراع • والعكس صحيح اى أن الشخص بامكانياته ومهاراته وقدراته وقيمه لا يمكنه الوفاء بمتطلبات الدور ، وهنا أيضا يقع الصراع • ويلاحظ أن الهروب ممكن ومحتمل سواء كان مثل الطلاق أو هجر العمل •

شكل آخر من توترات الدور هو صراع الدور Role Conflict، وهو صراع بين دورين أو أكثر التى يؤديها فرد واحد • (١) (وفى الحقيقة يمكن النظر الى بناء مجتمع كمجموعة من الأدوار وأى منالأدوار يجبأن تكون متصلةوأيها تكون منفصلة • ولكن لأن الظروف تتغير أكثر سرعة من الأدوار ، فانه عادة يحدث أن يؤدى الأفراد دورين أو أكثر غير مؤتلفة جيدا • صراع الأدوار كان المادة المأساوية منذ الأيام المبكرة للمؤلفات الروائية) (٢) • وعادة يقع صراع الأدوار فى حالة اذا كان اشباع دور يكون ممكنا فقط على حساب عدم اشباع الأدوار الأخرى ويعطى مجتمعنا شواهد قوية على أن ذلك أحد المنابع الدائمة والهامة لتوترات الأفراد • الزوجة العاملة ، تلك التى تعمل خارج منزلها قد

---

1 — Ibid., p. 66
2 — Baton : op. cit., P. 161.

تكابد صراع الدور ، فمثلا المدرسة الأم قد تكون سعيدة لأن جداولها الدراسى متطابق مع جداول أبنائها الذين فى سن المدرسة فهى تخرج معهم وتعود معهم ولكن اذا مرض أحدهم وبقى فى المنزل فانها تشعر أنها ليست أما حسنة اذا تركته فى المنزل بدون رعاية لتؤدى دورها كمدرسة ، واذا بقيت فى المنزل لرعاية ابنها ستشعر انها ليست مدرسة جيدة ، ومن ثم فقد لا تحسن انجاز أى من الدورين • أو قد يكون لرجل بوليس شهادة ضد أحد أقاربه فى فعل اجرامى •

وقد يحدث صراع الأدوار من التحديدات المعيارية لمختلف الأدوار ، وقد يكون هناك اتفاق عالمى كبير حول أن الصراع منغرس فى أى محاولة لانجاز مثل تلك الأدوار فى وقت واحد ، ولذلك معظم تلك الأدوار قد حدد الفصل بينها بالقانون أو بمعايير أخرى حيث لا يمكن الجمع بينها مثل لا يسمح لطبيب أن يمتلك صيدلية ، أو موظف حكومة لا يسمح له بالعمل فى شركة تورد للمكان الذى يعمل فيه •

ويمكن أيضا أن يكون صراع الدور ناجما عن التفسير الذاتى للأدوار ، فقد يكابد بائع صراعا كبيرا لأن غيابه عن المنزل يجعل من المستحيل عليه انجاز دوره كزوج وأب كما يحب هو وزوجته • وبائع آخر قد لا يكابد مثل هذا الصراع ، فزوجته وأطفاله قد يهيئون له ببساطة الجو الملائم لاشعاره بأن وظيفته تمكنه من أن يكون زوجا وأبا حسنا وعمله أيضا يمكنه من توفيرمستوى من العيش المرتفع له ولزوجته وأبنائه ، وفى نفس الوقت يتمتع بالحرية والممارسات التى يؤديها أى انسان كزوج وأب بتنظيم وقت العمل ووقت الفراغ •

صراع المكانة والدور

تؤثر المكانة المتحدة بالدور بشكل واضح فى انجازنا وردود أفعالنا للدور

ورد فعل بعض الناس ربما يتوقف عند مسافة الدور ، والبقاء فى الدور ، أو تحطيم الدور ، وتلك ثلاث مفاهيم وضعها ارفينج جوفمان Erving Goffman

مسافة الدور Role Distance

تدل مسافة الدور على أن فردا يحافظ على مسافة بينه وبين الدور الى المدى الذى يجعل واضحا عند مشاهديه أنه وان كان يشغل الدور الا انه لا يريد أن تعرف ذاته وهويته بهذا الدور ، أى أنه يرفض مكانة هذا الدور الذى يشغله · وفى كلمات جوفمان (تشير مسافة المدور الى أنماط السلوك التى تحكى أن الفاعل محتمل لديه درجة من السخط على الدور ، ومقاومة ضد الدور) (١) · تماما مثل عندما يكون طالب جامعة يعمل بائعا فى محل ثم يدخل الى المحل بعض زملائه ، فيتصرف بأسلوب كأنه ليس بائعا فى المحل ، أو أن يستأذن من صاحب المحل ليذهب الى دورة المياه · فهو فى الأسلوب الأول يظهر سخطه على مكانة الدور وفى الثانى هو يرفض أن تعرف مكانته على أنه شاغل لهذا الدور · ونوع آخر من هذا الصراع يحدث عندما يكونالشخص لديه القدرة الكافية للوفاء باحتياجات الدور بل وقادر على انجازه بأسلوب جيد جدا ، ولكنه يشعر بأنه سيفقد مكانته أثناء شغله لذلك الدور ، فمثلا قد يطلب من مهندس المساعدة فى قسم الرسم الهندسى مؤقتا على أن لا يترتب على ذلك أى خفض فى أجره ، وقد يكون رساما ماهرا ، وأيضا قد يكون واقعيا يستمتع بهذا النوع من العمل ، ولكنه دائما يجعل واضحا لكل فرد وخاصة لرئيسه أنه لا يستسيغ اداء هذا الدور ، وقد يرجع ذلك ببساطة الى الخوف من فقد مكانة مهندس وتحوله الى مكانة رسام وهى فى نظره مكانة أقل ، وأيضا قد يعكس هذا استراتيجية عاقلة التى تقول انه اذا استقر فى هذا الموقف سوف يترك فيه ويفقد مكانة مهندس · وكذلك الطالب الذى يشقطريقه

1 — Goffman, Erving : «Encounters» New York. Bobbs-Merrill Com. Inc., New York, 1961. P. 108.

فى المدرسة ، وفى نفس الوقت هو يعمل كاتب بقالة ويؤدى عمله بطريقة حسنة جدا ، ولكن بطريقة أو أخرى يسعى فى التوضيح لكافة الناس أنه ليس مجرد كاتب بقالة (مكانة) ولكنه شخص قادر على عمل أشياء فى الحياة أكبر من ذلك بكثير ، وهذا النوع من مسافة الدور يمكن أن يولد استياءا كثيرا ، ذلك أن الفرد يجد أن عليه أن ينجز الدور بل وبتوفيق لكى يعيش من مكافأة الدور ٠

ومن ناحية أخرى قد تكون مسافة الدور عبارة عن رد فعل دفاعى(سواء كان عن وعى أو بدون وعى) يعكس عدم ملاءمة الفرد لانجاز الدور ٠ مثـــل التلميذ المشاغب فى المدارس المتخلفة ، ربما يتحمل آلاما شديدة ليبين أنه يستحق الاهتمام ، ويصبح المنظر متضمنا المدرس والتلميذ أضحوكة كبيرة ، وحتى لو كان هذا التلميذ يريد حقيقة أن يتعلم أكثر مما تسمح به قدراته ، بمعنى أن يحاول بكل قوة الاتحاد مع دور الطالب ليحصل على مكانة طالب ، فان انجازه لن يكون ضعيفا فقط ولكن أيضا سيفقد معه المكانة التى حصل عليها من أدائه دور التلميذ المشاغب ٠ وأيضا كالرجل الذى جمع ثروة فى منطقة ما وانتقـل الى منطقة أخرى لكى يدخل الطبقة العليا فى هذه المنطقة ، فان أنماط سلوكه مثل اظهار الغنى الزائد والاهتمام بالرموز الاجتماعية الدالة على الثراء يمكن أن يفسر على أنه رد فعل دفاعى لاحساسه بمسافة الدور الذى يريد أن يشغله والمكانة التى يريد الحصول عليها المرتبطة بالدور ٠

تصـــــــدير

لاستكمال دراستنا عن بناء المجتمع لا بد أن ندرس بتفصيل ظاهرة لهــا أهمية كبيرة فى علم الاجتماع بصفة عامة وفى دراسة البناء الاجتماعى بصفة خاصة تلك هى ظاهرة الجماعات المنظمة التى اتفق علماء الاجتماع على اطلاق مصطلح المنظمات عليها ٠

ولقد رأينا فى الفصول السابقة أنه من الممكن للناس فى المجتمـــع أن يتفاعلوا معا بنجاح رغم أنهم لا يعرفون بعضهم بعضا • فمثلا رأينا كيف يمكن لطالب فى الجامعة أن يأتى الى الجامعة ويأخذ مسكنا ويسجل نفسه فى المواد الدراسية ، ويحضر الدروس ويستخدم المكتبة ، وحتى يتسلم شيكات دون أن يعرف أسماء الناس الذين اشترك معهم فى كل هذه العلاقات • وأيضا رأينا اننا كلنا نشغل مكانات معروفة فى المجتمع ، وأن هذه المكانات مـــع المعايير المرتبطة بها تساهم فى تنظيم وتيسير حياتنا اليومية وحياة تجمعاتنا •

ووجدنا أن (البناء الاجتماعى هو نسيج العلاقات المنظمة بين الأفراد والجماعات التى تحدد وتعرف الحقوق والمسئوليات المتبادلة) (١) • (وتشكل المنظمات المركبة (الجماعات المنظمة) أحد أهم العناصر التى تصنع النسيج الاجتماعى فى المجتمعات الحديثة) ••• ذلك أن أعضاء المجتمعات الحديثة يحصلون على جزء كبير من اشباعاتهم المـادية والاجتمـاعية والثقافية من المنظمات الكبيرة • فدراسة الانسان الحديث ومجتمعه الذى يعيش فيه تقود الى دراسة المنظمات المركبة) (٢) •

والمنظمة ما هى الا جماعة قد نظمت نفسها لتحقيق هدف معين ، لذلك رأيت أنه من أجل مزيد من الايضاح ضرورة دراسة مفهوم الجماعة ، اذ أنه دون دراسة هذا المفهوم لا يمكن فهم الجماعات المنظمة أى المنظمات بصفـــة خاصة والبناء الاجتماعى بصفة عامة • ذلك أن الجماعة تعتبر أحد أهم مكونات البناء الاجتماعى ، بل ان بعض علماء الاجتماع يعتبرون المجتمع ما هو الا جماعة •

---

1 — Biesanz : Op. Cit., P. 76

2 — Etzioni, Amitai : «A Sociological Reader on Complex Organizations» Second Edition, Holt, Rinehart and Winston, Inc., New York, 1969, P. VII.

الفصل الثالث

الجماعات المنظمة

التنظيمات

الجمـــــاعات

- في معنى الجماعة
- شكل ومضمون الجماعة
- الجماعات الأولية والثانوية
- الجماعات الداخلية والخارجية
- الجماعات الاختيارية والاجبارية
- الجماعات الكبيرة والصغيرة
- الجماعات المنظمة وغير المنظمة

المنظمـــــات

- المنظمات الرسمية
- أهمية التنظيم
- استمرارية التنظيم
- مقاييس التنظيم

المنظمات اللارسمية

- العلاقة بين المنظمة الرسمية واللارسمية
- لماذا تنشأ المنظمة اللارسمية
- مساوىء المنظمة اللارسمية



فى معنى الجماعة

أ ـ الانسان اجتماعى بطبعه :

لا يعيش أى انسان طبيعى وحيدا،اذ لا يستطيع أى كائنبشرى أن يعيش فترة كبيرة دون أن يكون عضوا فى جماعة والا تصبح الحياة مشـــكلة ، اذ أن استمرارية الشخصية يعتمد كلية على العضوية فى جماعة ٠ فقد لاحظ علماء الاجمتاع والانثروبولوجيا أن أطفالا تركهم ذووهم فى أحراش استراليا والهند التى يقطنها بعض الأقوام البدائية ، فنشأ هؤلاء الأطفال بعيدا عن أى وسط انسانى ، فتعهدتهم بعض الحيوانات بعاطفتها الولادية وهؤلاء الأطفال هم الذين يطلق عليهم الأطفال الذئاب ، مثل طفل كامبالا الذى وجد فى أحراش الهند ، وهؤلاء الأطفال ينشأون بين حيوانات فأصبحت عاداتهم هى عادات الحيوانات، فلم يروا غير الحيوانات يكتسبون منها عاداتهم وأساليبهم فى الأكل والنوم ، ولغتهم أشبه بأصوات الحيوانات والطيور المحيطة بهم ٠

وهكذا لا يعيش أحد منا وحيدا ، اذ أننا نعيش فى جماعات ، بل وفى أنواع متعددة من الجماعات ، فكلنا أعضاء فى أسرة ، وكلنا لنا أصدقاء ، ونعيش فى مكان معين ، وفى شارع معين ، وبين جيران معينين ، وفى مدينة معينة ، وفى منطقة معينة ، كل هذه تعتبر أنواع من الجماعات ٠ والناس سواء رجال أو نساء ، كبار أو صغار كلهم ينتمون على الأقل الى جماعتين على أساس بيولوجى أى من ناحية الجنس والسن ، ونحن نعمل فى مكان أو لنـا حرفة أو نوع من النشاط ومن ثم فنحن نشترك فى اتحاد مع أولئك الذين لهم نفس الاهتمامات ، والفصل المدرسى نوع من الجماعات والجامعة أيضا نوع

من الجماعات ، وبالمثل كل طلاب الجامعة جماعة ، وكل الذين يدينون بدين واحد جماعة ، والذين يحيون علما واحدا جماعة (١) ٠

ب ـ المجتمع والجماعة والمجموعة : Society, Group and Community

ولكن الجمع الانسانى يتخذ أشكالا مختلفة ، فركاب سيارة ما ، وطلبة الكلية والأسرة ، والمتجمهرون حول حادث والجيش ، وأمة كالأمة العربية ، والأمة الاسلامية ، كل هذه تكون جموعا بشرية مما يدعونا الى الوقوف برهة لمعرفة الفروق بينها وتعريفها ٠

(بالرغم من أن اصطلاح الجماعة يعتبر من أهم المفاهيم فى علم الاجتماع الا أنه ليس هناك اتفاق تام حول مفهوم وحيد ٠ وهذا الاضطراب لا يرجع الى عدم قدرة علماء الاجتماع الى اختراع مفهوم جديد ، ولكن يرجع ذلك الى أن معظم مفاهيم علم الاجتماع لم تخترع ، ولكن معظم الاصطلاحات الاجتماعية هى كلمات سبق استخدامها منذ مدة طويلة فى الاستعمال العـــام ، والتى استخدمها علماء الاجتماع ولكن بمعنى معين ٠ وهكذا بعض المصطلحات استمر استخدامها بأكثر من معنى واحد ، لأنه لكى تخترع مجموعة من الكلمات الجديدة كلية لتغطية المعانى المختلفة سوف يكون هذا مسببا لاضطراب أكثر ، ولهذا كان هناك معانى متعددة لاصطلاح جماعة) (٢) ٠

هناك عدد من المعانى لاصطلاح جماعة فى علم الاجتماع النظرى ٠ فى أحد استعمالاته يشير المصطلح الى أى تجمع بدنى من الناس مثل جماعة من الناس ينتظرون ركوب طائرة مثلا ، فى هذا الاستعمال لا تحتاج الجمـــاعة أن تكون متشاركة فى أى شىء وليس بينها شىء غير التقارب البدنى ٠ وكثير

---

1 — Bierstedt : Op. Cit., pp. 288—291
2 — Horton and Hunt : Op. Cit., p. 48

من علمـــــاء الاجتمـــاع يسمون مثـل هذا التجمع من الناس تجمعـا aggregation والحشد Crowd جماعة من الناس تجمعوا حول حادث مثلا أو بعد الخروج من المسرح ويتميز مثل هذا الجمع المسمى حشدا أو جمهرة بأنها مؤقتة ، والتفاعل بين أفرادها مؤقت وليست له صفة الاستمرار الموجود بين أفراد الجماعة .

واستعمال شائع عند علماء الاجتماع هو أى عدد من الأشخاص يشتركون فى عضوية وتفاعل واع ، وبهذا التعريف شخصان ينتظران سيارة لن يكونا جماعة ، ولكن يصبحان جماعة اذا ابتدءا حديثا أو أى نوع من التفاعل ، وعلى هذا سوف يكون أى عدد من الناس يسيرون فى الشارع مجرد تجمع وليس جماعة ، ركاب سيارة أجرة لن يكونوا جماعة لأنه ليس لديهم وعى من التفاعل كل مع الآخر ولكن بكل بساطة حدث بالصدفة أن كانوا فى نفس المكان وفى نفس الوقت ، فجوهر الجماعة ليس فى التقارب البدنى ولـكن فى الـوعى عن الارتباط التفاعلى بينهم (١) .

فالجماعة Group عند علماء الاجتماع هى جمع من الناس يقوم بين أفراده تفاعل وتأثير متبادل ، ويقوم هؤلاء الأعضاء بأعمال مشتركة منظمة بغرض الوصول الى أهداف خاصة بوسائل محددة .

والجماعة تتميز عن الفئة الاجتماعية Social Category فالفئة الاجتماعية هى جمع من الناس يمتاز أفراده بصفة معينة ، تجعل المجتمع ينظر اليهم نظرة خاصة ، وهذه الصفة تؤدى الى تفرقة هذا الجمع عن غيره من الجموع الأخرى ، فأرباب المعاشات والأيتام والأرامل ، كل هؤلاء يمثلون فئات اجتماعية . والفئة بهذا الوصف تختلف عن الجماعة فى أنه لا يوجد بين أفرادها التفاعل والتأثير المتبادل بنفس القوة التى يوجد بها بين افراد الجماعة

---

1 — Ibid., p. 48

(ولهذا يعتبر اصطلاح فئة أكثر ملاءمة ولكن عادة يستخدم علماء الاجتماع اصطلاح جماعة حيث يكون أصطلاح فئة أكثر دقة) (١) ٠

ولكن ما الفرق بين الجماعة Group والمجتمع Society والمجموعة Community ، هناك اضطراب فى استخدام هذه الاصطلاحات ، فكثير من علماء الاجتماع وخاصة الفرنسيين والامريكيين يستخدمون الثلاث مصطلحات السابقة فى معنى واحد ، وبعضهم يفرق بين هذه التعبيرات تفرقة غير واضحة ، ولكن كلمة مجتمع عند معظم علماء الاجتماع تطلق غالبا على جمع من الناس ، يتفاعل أفراده ويتعاونون على تحقيق أهداف خاصة بوسائل محددة ، فى بقعة محددة ويتصرفون وفق نظم يخضعون لها للوصول الى حل مشاكلهم ولاستمرار بقائهم ونموهم ٠ فالمجتمع قد يشتمل على عدد كبير من الجماعات تعمل كل منها لصالح المجتمع ٠

ويذهب البعض الى التفرقة بين المجتمع والجماعة على أساس أن المجتمع أحد شروطه الأساسية بقعة أرض توجد عليها الجماعة أو الجماعات،. وفى الحقيقة أن هذه النقطة ما زالت موضع خلاف بين علماء الاجتماع ، فهناك فريق منهم لا يشترط وجود أرض معينة ثابتة لقيام المجتمع ، فقد يكون المجتمع مكونا من قبائل مترحلة وراء الكلأ ، ولا مكان محددا لها ٠ وهكذا يتبين أنه اذا كانت الأرض المعينة ليست شرطا ضروريا للجماعة فانها كذلك ليست شرطا أساسيا لتكوين المجتمع ، وهذا ما جعل بعض علماء الاجتماع يستخدمون اصطلاح الجماعة والمجتمع كمرادفين ٠

أما عن المجموعة أو المجتمع المحلى Community فهى تستخدم كمرادف للمجتمع ، ولكنها أحيانا تطلق على قرية أو مدينة خاصة أو حى ، وعند ذلك تسمى المجتمع المحلى أوالمحلة ، أو قد تطلق علىأمةخاصة كأمة العرب،ويعرفها

---

1 — Ibid., p. 48

أحد العلماء بأنها عبارة عن جماعة من الناس يعيشون متجاورين فى منطقة جغرافية ولهم مراكز مشتركة لنشاطهم ومصالحهم ، ويعملون سويا فى انجاز المشروعات الضرورية لحياتهم ·(١)

شكل ومضمون الجماعات (٢) Form and content of Groups

سنحاول فى هذه الفقرة أن نميز بين الشكل الاجتماعى للجماعة والمضمون الاجتماعى لها ، اذ يعتبر كل من الشكل والمضمون حقيقتين متمايزتين · فمثلا يمكننا أن نسأل ما اذا كانت جماعة معينة كبيرة أو صغيرة ؟ مثل هذا السؤال واضح أنه يتحدث عن الشكل · كما أنه يمكننا أن نسأل ما هو الهدف أو الوظيفة أو النشاط الرئيسى للجماعة ؟ مثل هذا السؤال تتحدث اجابته عن المضمون الاجتماعى للجماعة · فمثلا يمكن فى الاجابة على السؤال الأول أن نكتشف أن هذه الجماعة صغيرة أو كبيرة ، كما أنه فى الاجابة على السؤال الثانى يمكن أن نكتشف أن الجماعة جماعة عمل أو جماعة ترفيهية · ومن خلال هذا التمييز بين الشكل الاجتماعى والمضمون الاجتماعى يمكننا أن نقدم على دراسة الجماعات بأسلوب يمكننا من معرفة خصائصها ·

أولا : ستتحدث عن المضمون الاجتماعى للجماعة ، تلك الخاصية التى يستخدمها عادة المتخصص وغير المتخصص فى عملية تصنيف الجماعات · وهنا نريد أن نعرف ما اذا كانت الجماعة جماعة لعب وأى نوع من اللعب فهل هى جماعة كرة قدم أو جماعة كرة سلة ، أو جماعة عمل ، وأى نوع من جماعات العمل ، جماعة عمال كهرباء ، أو بناء ، أو هى جماعة لعمل الخير العام ، أو الخير الخاص بأبناء منطقة مثلا ·

---

١ ــ د · حسن سعفان : « أسس علم الاجتماع » ــ دار النهضة العربية · القاهرة ١٩٧٢ ص ١٢٧ ·

2 — Bierstedet : Op. Cit., pp. 301—302

هذا التميز بالطبع له أهميته ، اذ يذهب بعض علماء الاجتماع الى أن وظيفـــة Function أو غرض Purpose أو مضمون Content الجماعة هى أهم صفة ، وفى نفس الوقت يعتبر عامل للممايزة بين جماعة وأخرى • وحقيقة أنها صفة لا يمكن تجاهلها •

وعلى أى حال نريد أن نعرف ما اذا كانت هذه الخاصية (الوظيفة أو الغرض أو المضمون) **أولا** ذات أهمية قصوى أم أنها احدى الخصائص المتعددة للجماعات ؟ **ثانيا** أن هذه الخاصية وحدها لا يمكن أن تستوعب كل احتمالات التحليل الاجتماعى ، بمعنى أن هذه الخاصية ليست كافية لفهم الجماعة •

وغنى عن البيان أن الناس عادة يشكلون الجماعات لانهم يريدون عمـل شىء ما ، شىء لا يستطيع أحد منهم انجازه بمفرده • فمثلا لا يستطيع أحـد بمفرده أن يلعب مباراة كرة قدم ، أو يصنع سيارة ، أو يدير جامعة ، عادة مثل هذه الأنشطة تحتاج تعاون المجهودات أى الى مجهود جمعى ، ومن ثم فهى الباعث على وجود الجماعات •

ويلاحظ ان الجماعات قد توجد أو تشكل لأى غرض أو وظيفة • فاذا أردنا أن نصنف كل الجماعات فى فئات حسب المضمون،فسوف نقيد أنفسنا بعدد من الفئات القليلة العدد ولكن الواسعة أى تشمل جماعات كبيرة وشاملة • ومن وجهة النظر هذه سوف يكون لدينا الأنواع الآتية من الجماعات ، وكل منهـــا له أهميته فى المجتمعات المركبة الحديثة : وهى جماعة القـــرابة ، الأسرة ، الحكومة ، اللغة ، الدين ، المسكن ، الطبقة ، العمل الترفيهى ، القوميـــة ، التربوى ، وهكذا • وهكذا قد وضعناها فى آخر القائمة ــ عن قصد ــ رغم أننا قد ذكرنا عددا من أنماط الجماعات الهامة ، لأن مثل هذه القائمة لا يمكن أن تكتمل كلية • وهذه الجماعات التى ذكرت تعتبر اهم الجماعات فى المجتمعات المركبة الحديثة • فيلاحظ أن الأسماء التى تصفها توضح مضمونالجماعات ، تلك الخاصية التى يجب أن تكون أول شىء عن أى جماعة •

ولكن هذه المعرفة ، كما سبق أن بينا ، لا يمكن بأى شكل ما أن تستوعب كل التحليل الاجتماعى ، بمعنى أن دراسة الجماعات عن طريق مضمونها فقط لا يعطينا كل المعرفة الاجتماعية عنها ٠ فالجماعة أيضا لها خصائص هامة وهى الشكل ، وأنه فقط بمساعدة هذه الخاصية يمكننا تقديم بعض المبادىء الهامة عن نظرية الجماعة فى علم الاجتماع المعاصر ، وفى حالة كل من هذه الخصائص نجد مجموعة من الفئات الثنائية التى سوف نناقشها فيما يلى :ـ

الجماعات الأولية والثانوية :

لقد قدم شارلز كولى Ch. Cooley مفهوم الجماعة الأولية فى علم الاجتماع الامريكى ٠ وقد كان كولى يعنى بهذا المفهوم تلك الجماعات ذات العلاقات الشخصية الحميمة أى وجها لوجه Face-to-Face التى نجد فيها أصدقاءنا وزملاءنا وأعضاء أسرتنا والذين نتعامل معهم طوال اليوم ويوميا ٠

فالجماعات الأولية هى تلك الجماعة التى نعرف أعضاءها الآخرين عن قرب كشخصيات منفردة ، ونحن نفعل ذلك من خلال الاحتكاك الاجتماعى الحميم والشخصى والكلى ، بمعنى الاحتكاكات التى تتضمن أجزاء عديدة من حياة الشخص ٠ وفى الجماعات الأولية مثل الأسرة أو جماعة الأصدقاء تميل العلاقة الاجتماعية لأن تكون غير رسمية ومريحة ٠ فكل عضو يهتم بالآخر كشخص ، فهم يواجهون معاً الآمال والمخاوف ويتشاركون فى الخبرات ويشعرون بالحاجة الى العلاقات الانسانية الحميمة) (١) ٠

وهؤلاء الناس هم الذين نستمتع معهم بأكثر أنواع العلاقات الاجتماعية وديا ، وليس أولئك الذين نعرفهم معرفة سطحية ، ولكن أولئك الذين لنا معهم علاقات اجتماعية وثيقة ٠ وقد قال ماكيفر وبيج MacIver and Page

1 — Horton and Hunt : Op. Cit., p. 155

فى كتابهما المعنون (المجتمع) (أبسط وأول وأكثر عالميا من كل أنواع التجمعات هى تلك الجماعة التى يتقابل فيها عدد صغير من الأشخاص وجها لوجه من أجل الصحبة والتعاون المتبادل ومناقشة بعض المسائل التى تهمهم جميعا ، أو تنفيذ بعض المسائل ، وتعتبر جماعة الوجه لوجه (الجماعة الأولية) هى نواة كل التنظيمات• وهى توجد بشكل ما فى داخل أكثر المجتمعات تركيبا وتعقيدا ، فهى الخلية الأولية للبناء الاجتماعى • فالجماعة الأولية فى شكل الأسرة تجهزنا بمبادىء المجتمع ، انها الأرضية الأولى لمعاييرنا ، انها الأساس الأول لاشباع حاجاتنا الاجتماعية) (١) •

واصطلاح وجها لوجه يجب تناوله بشىء من الحذر ، اذ هناك علاقات وجها لوجه مع أناس ليسوا أعضاء فى جماعتنا الأولية • فمثلا سائق التاكسى الذى نركبه أو الحلاق أو الترزى أو البائع فى متجرهى علاقات وجها لوجه • وليست بالضرورة مع اناس ممن لنا معهم علاقات جماعة أولية،رغم أننا نراهم وجها لوجه • ومن ناحية أخرى قد نظل على اتصال عن طريق المراسلة بأسرنا رغم أننا قد لا نراهم وجها لوجه لمدة شهر أو أكثر • ومن ثم فالمهم هى درجة المسافة الاجتماعية أكثر من المسافة المكانية، التى تحدد الجماعة الأولية • وباختصار الجماعة الأولية هى جماعة شخصية ، أى ذات علاقات اجتماعية شخصية ، أما الجماعة الثانوية فهى لا شخصية وذات علاقات مكانة •

وأيضا يلاحظ أن الجماعة الأولية للشخص تتغير ، بمعنى ، أننا عندما نكون أطفالا تكون جماعتنا الأولية هى الأسرة ، ولكن عندما نكبر وننفصل عن أسرنا ،تتكون جماعات أولية أخرى قد تكون من العمل ، أو السن ، أو خريجى الكلية (الزملاء) ، أو الاهتمامات • ولكن المهم أننا دائما نعيش فى جماعة

---

1 — MacIver and Page : «Society, An Introductory Analysis» Holt, Rinehart and Winston, Inc., New York, 1949. pp. 218—219

أولية ، وأننا نجد الدفء الاجتماعى فى الجماعة الأولية · فعلاقاتنا مع أعضاء جماعتنا الأولية هى شخصية وذاتية ، وعلاقاتنا مع جماعتنا الثانويـــة هى لا شخصية ولا ذاتية ، بمعنى أننا فى الجماعة الأولية نحن نقيم الناس ذاتيا فى حدود صفاتهم الشخصية ، بينما فى الجماعة الثانوية نحن نقيم الناس لا ذاتيا أى فى حدود الفئات الاجتماعية أو المكانات الاجتماعية التى يشغلونها · فمثلا اذا أردنا أن ننشىء علاقات مع جماعة من الزملاء فى الكلية ، فأنت تسأل من أى نوع من الناس هو ، وما هى اتـجاهاته ، واهتماماته ، فهى عملية تقييم تتعلق بذات الشخص · ولكن عندما تتعامل مع الجماعة الثانوية فيكفى أن تعرف مكانته الاجتماعية وتتعامل معه ، فهو موظف فى الكلية أو سائق تاكسى أو بائع فى محل ، كل هذه مكانات اجتماعية من خلال معرفتها يتم التعامل مع أعضاء الجماعات الثانوية ·

هذا التمييز بين الجماعة الأولية والجماعة الثـــانوية ، بين علاقات الجماعة الأولية وعلاقات الجماعة الثانوية تظهر فى شكل أو آخر فى كتابات كل علماء الاجتماع · فكل منهم عنده هذا التصنيف وان كان يأخذ عنـــد بعضهم أسماء أخرى · فمثلا عند كولى Cooly الجماعة الأولية والجماعة الثانوية ، وعند سوركين Sorokin جماعة المحبة Familistic والتعاقدية Contractual وعند دوركايم Dorkhiem (عالم فرنسى) التمـاسك الآلى Mechanical Solidarity ـ والتماسك العضوى Organic Solidarity بالتضامن الميكانيكى هو مثل الموجود بين أفراد المجتمعات البدائية ، فالأفراد متضامنون لأنهم متشابهون فى صفاتهم الانسانية ، وما يحدث لواحد يؤثر فى الآخر على أساس المشاركة الوجدانية · بينما فى المجتمعات المركبـــة حيث تضعف المشاركة الوجدانية ، ولكن التضامن والتماسك الاجتماعى يقوى بين أعضاء المجتمع المركب نتيجة التخصص · فكل فرد فى المجتمع يتقن مهنة يعتمد عليه المجتمع فيها ثم هو يعتمد فى بقية حاجياته على المجتمع ، فالتخصص فى العمل يوجد نوعا من الاعتماد المتبادل بين الأفراد وبالتالى تضامنا عضويا

لأن المجتمع يكون كالجسم الانسانى كل عضو فيه يؤدى وظيفة معينة يعتمد عليه المجتمع فى أدائها ، ثم هو يعتمد على االمجتمع فى الوظائف الأخرى ٠٠٠ أمـا تونيـز Tonnies (عالم المانى) فعنده المجتمع المحلى والمجتمع العام فى مقابل الجماعة الأولية والجماعة الثانوية (١) ٠

وقد وصل الاهتمام بهذا التمييز بين علاقات الجماعة الأولية وعلاقات الجماعة الثانوية حتى أنه تردد عند كل علماء الاجتماع ، بل وصل الحد الى أن بعض علماء الاجتماع فسر وشرح كل العلاقات الاجتماعية التى تدور فى المجتمع من خلال هذه الفكرة ٠

والغريب أن نمو العلاقات الاجتماعية للجماعات الثانوية فى المجتمعات المركبة الحديثة لم تمح الحاجة الى الجماعة الأولية أو حتى تقلل من عدد أعضائها ٠ ومهما كان كبر عدد الجماعات الثانوية التى نكون أعضاء فيها ، ومهما كانت ما عليه من درجة عالية من التنظيم ، فسوف دائما نصل الى معرفة بعض الأشخاص أكثر شخصيا من الآخرين ، ومن ثم يصبح البعض أصدقاء ، أى سوف يصبح البعض أعضاء فى جماعة أولية ، فالحاجة الى الألفة والمودة، أى الحاجة الى الجماعة الأولية لن تتوقف ، انه فى الجماعة الأولية نشعر بالانتماء وبالمعية ، حيث تفنى شخصية الفرد فى شخصية الجماعة ، فمثل هذه الجماعة يمكن أن تسمى جماعتنا We group ، فهى جماعة تقوم على عواطف نشأت اجتماعيا عن طريق المشاركة الوجدانية وينتهى بها الأمر الى أن تصبح روحا مشتركة ٠

الجماعة الأولية لديها كل الشروط الهامة لحياتنا الاجتماعية ، انها تغذى آراءنا وترشد عواطفنا وتؤثرفى أفعالنا، فاهمية الجماعة الأولية لا يمكن

---

(١) لمزيد من الاستفادة فى هذه النقطة يرجع الى كتاب علم الاجتماع المعاصر تاليف الدكتور عبد الله الخريجى ص ٤٠٢ الى ٤١٤ ٠

تجاهلها ، فانها ليست الجماعة التى مجرد أننا نلعب أو نعمل معها ، ولكنها الجماعة التى نعيش فيها ونجد فيها بشريتنا · وليس معنى ذلك ان الجماعات الثانوية ليس لها أهمية ، بالعكس فمعظم علاقاتنا الاجتماعية فى المجتمع المركب هى علاقات اجتماعية من نوع الجماعات الثانوية ، ولهذه العلاقات أهمية كبرى ·

وحمادى القول أنه فى الجماعات الثانوية الاحتكاك الاجتماعى يكون لا شخصى impersonal ونفعى utilitarian وجزئى segmental ، ولا يهتم الواحد بالآخر كشخص ولكن كقائم بوظيفة ويملأ دورا · وفى مثل هذا الاحتكاك تصبح نوعيات الأشخاص ليس بأمر هام ، انما المهم هو الانجاز الذى يتعلق بجزء من كل الشخصية المتضمنة فى أداء الدور · وهكذا فاصطلاح أولى وثانوى يصفان نمطا من العلاقات الاجتماعية متمايزا عن الآخر · فالجماعة الأولية قد تخدم وظائف موضوعية مثل تقديم الطعام والملابس فى الأسرة ، ولكن عند الحكم عليها وتقييمها لا يحكم عليها بكفاءتها فى انجاز بعض الأعمال ، ولكن يحكم عليها بالاشباع العاطفى الذى تقدمه لأعضائها ·

الجماعات الأولية والثانوية مهمتان لأن المشاعر والسلوك فى كل منهما مختلف · ففى الجماعة الأولية تتشكل الشخصية ، وفيها يجد الانسان الولاء والمواساة والمشاركة المريحة فى عديد من الاهتمامات والمناشط · بينما فى الجماعة الثانوية يجد الانسان ميكانزم مؤثر كفء لانجاز أغراض معينة ، ولكن غالبا بثمن هو كبت مشاعر وعواطف الانسان الحقيقية ، مثلا البائع لا بد أن يكون مرحا ومؤدبا حتى ولو كان يعانى من صداع شديد ، أو كان العميل فظا غليظ القلب · وهكذا فالمفهومان مهمان لأن كلا منهما يصف سلوكا مختلفا ·

جماعة داخلية وجماعة خارجية Ingroup — Outgroup

الجماعات الداخلية والجماعات الخارجية ليس لها حجم معين ، ومن ثم يمكن أن تكون الجماعة الداخلية صغيرة كأسرة أو كبيرة كبر العالم ·

والجماعة الخارجية هي بكل بساطة هي كل انســــان ليس فى الأسرة أو من العالم ، حسب الحالة التى تكون عليها الجماعة الداخلية .

هناك جماعات انتمى اليها ، أسرتى ومهنتى وجنسى وأمتى وأى جماعة تلك هى الجماعة الداخلية ذلك لأننى أشعر أننى أنتمى اليها . كما اننى لا انتمى للأسر الأخرى أو الديانات الأخرى ، وتلك هى الجماعة الخـــارجية ، لأنى خارجها .

(المجتمعات البدائية تعيش فى جماعات صغيرة معزولة هى عادة قبائل أقارب . فقد كانت القرابة هى التى تحدد طبيعة الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية ، وعندما يتقابل شخصان غريبان ، كان أول شيء يعملانه هو اقامة علاقة قرابة ، فاذا كان يمكن اقامة قرابة اذن يكونان أصدقاء وكل منهما عضو فى جماعة داخلية ، اذا لم يمكن اقامة تلك العلاقة ، فانه فى كثير من المجتمعات يصبحون أعداء ويسلكون طبقا لذلك) (١) .

وغنى عن البيان أن المجتمعات الحديثة تقوم على أساس علاقات كثيرة الى جانب علاقات القرابة ، ومن ثم أصبح تحديد مفهوم الجماعة الداخليـة والخارجية مهما جدا لفهم شبكة العلاقات الاجتمـاعية وبالتالى البنــــاء الاجتماعى .

الجماعة الداخلية هى جماعة النحن We group والجماعة الخـــارجية هى جماعتهم they group فالجماعة الداخلية تتضمن أنفسنا وكل ما نعنيه من أشخاص عندما نقول (نحن we) . وبالعكس الجماعة الخارجية تتضمن كل شخص آخر لم تضمه كلمة (نحن) .

عندما نقول (نحن) فقد نعنى أسرتنا ، وفى هذه الحالة يكون أعضاء الاسرة هم الجماعة الداخلية وكل ما عداهم من أشخاص هم الجمـــــاعة الخارجية . وقد تعنى (نحن) طلاب فصل دراسى فى الكلية ومن ثم يكونون هم الجماعة الداخلية ، ويصبح ما عداهم جماعة خارجية ، وهكذا حتى يمكن

---

1 — Horton and Hunt : Op. Cit., p. 151

أن تشمل كلمة (نحن) العالم ويصبح سكان الكرة الأرضية جماعة داخلية ، وسكان الكواكب الأخرى على ما يعتقد البعض الجماعة الخارجية • وباختصار الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية ليستجماعات حجمها محدد فى الواقع الاجتماعى ، ولكن نحن نصنعها عندما نستعمل كلمة (نحن) و (هم) •

فالجماعة الداخلية والجماعة الخارجية مهمان لأنهما يؤثران فى سلوكنا وفى علاقاتنا • فنحن نتوقع من زملائنا فى العضوية فى جماعة داخلية الولاء والمساعدة، ومن الجماعة الخارجية تتباين توقعاتنا مع نوع الجماعة الخارجية ، فنتوقع من الجماعات الخارجية العداء أو المنافسة غير المحبوبة سواء أكانت قليلة او كثيرة • ولهذا نحن لا نشعر بمسافة اجتماعية متساوية مع كل الجماعات الخارجية • ولقد نمى بوجاردس Bogardus وآخرين اصطلاح المسافة الاجتماعية لقياس درجة التقارب أو القبول التى نشعر بها نحو الجماعات الخارجية •

فالتمييز بين الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية له أهميته فى التحليل الاجتماعى لأنه يمكننا من بناء مبدئين اجتماعيين هامين : ـ

١ ـ المبدأ الأول هو ان أعضاء الجماعة الداخلية يميلون الى وضع أو اعطاء أولئك الذين يعتبرونهم الجماعة الخارجية طابعا معينا أو نمطا معينا ، أى أن جميع أعضاء الجماعة الخارجية متشابهون ، فمثلا الصينيون هم جماعة خارجية بالنسبة للأمريكيين ، ومن ثم يصبح الصينيون جميعا متشابهون لا فرق بين أحدهم وآخر ، فنحن نعامل أعضاء الجماعة الداخلية كأفراد ولكن أعضاء الجماعة الخارجية كفئة اجتماعية أو طبقة اجتماعية •

٢ ـ المبدأ الثانى الذى ينبع من التميز بين الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية ، هو أن أى تهديد سواء كان حقيقيا أو تخيليا ، من الجماعة الخارجية يؤدى الى تركيز التماسك والتضامن عند الجماعة الداخلية •

ولنضرب مثلا بأسرة ، ففى الأسرة قد يتشاجر الأخ مع أخيه أو أخته ، ولكن اذا ما جرؤ أحد أن يوجه اهانة الى أحد أفراد الأسرة فسرعان ما تتحد الأسرة لمسح الاهانة وفاعلها · وقد يحدث هذا أيضا بين أعضاء المجتمع الواحد مثل جماعة العمال وجماعة أصحاب الأعمال ، أو جماعة أبناء جنس وجماعة أبناء جنس آخر كما فى الولايات المتحدة بين البيض والسود ، مما يسبب النضال والتنافس بل وأنواع الصراع والحرب الداخلية بين أفراد المجتمع الواحد ·

وعلى المستوى الدولى تعتبر كل دولة نفسها جماعة داخلية وبقية الدول الأخرى جماعة خارجية وهذا هو سبب تلك الحروب التى تنشأ بين الدول ، فعلى حين تسود العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع أى الجماعة الداخلية، روح الود والتعاطف ، تسود علاقات أفراد المجتمع الداخلى بالمجتمع الخارجى النزاع والنضال والعداوة والخوف ·

الجماعة الاختيارية والجماعة الاجبارية
Voluntary group-Involuntary group.

الجماعة الاختيارية هى الجماعة التى ينتمى اليها الانسان برغبته وارادته مثل جماعة كرة قدم أو جماعة هيئة خيرية · أما الجماعة الاجبارية هى الجماعة التى يجد الانسان نفسه فيها دون ارادة منه مثل الأسرة التى يولد فيها الفرد ، والطبقة عند الولادة وفى الصغر ، وقد تتغير كلما استطاع ذلك الفرد بجهده ، أما الطبقات التى ينتمى اليها الانسان بحكم مولده أو ديانته كما فى الهند فهى جماعة اجبارية ·

وأهمية هذا التقسيم تتضح اذا علمنا ان الجماعات والهيئات الاختيارية تلعب دورا هاما فى الحياة السياسية والاقتصادية والدينية فى المجتمعات الصناعية الحديثة ، حتى ان بعض علماء الاجتماع يسمون هذه المجتمعات

بمجتمعات المتواصلين أى الذين يصـــــلون ما بين بعضهم بعض عن طريق الجماعات الاختيارية · وهذه الظاهرة لها أهميتها فى دراسة الاجتمـــاع الحضرى ·

الجماعات الكبيرة والصغيرة

يمثل حجم الجماعة أحد خصائص الشكل للجماعة ، فبعض الجماعات تكون صغيرة وبعضها كبيرا ، ويترتب على هذا نتائج اجتماعية هامة · اذ يحدث أشياء كثيرة هامة أثناء نمو جماعة فى الحجم أو أثناء صغر جماعة فى الحجم ، فهذا أو ذاك يؤدى الى تغير فى التنظيم الأساسى للجماعة ويعمــل على احداث تغيرات سواء فى بنائها أو وظيفتها ·

أولا انه كلما كبر حجم الجماعة كلما زاد تقسيم العمل بها · ففى مجتمع صغير جدا ، فان أعضاء هذه الجماعة ينجزون نفس الوظائف ويشتركون معا فى جميع أنواع النشاط · ولكن فى الجماعات الكبيرة تختلف وظائفهم وتتفرد مناشطهم ويسود التخصص أعمالهم · فمثلا فى مدرسة عليا صغيرة ، فنفس الأفراد قد يقومون بتدريس التاريخ والجغرافيا والرياضة واللغات ، وقـــد يديرون المدرسة فى نفس الوقت · ولكن فى مدرسة كبيرة هذه الأنشطة تتطلب أعدادا كبيرة من الأفراد ، ومنهج اللغة العربية ينقسم الى انشاء وأدب ونحو، والتاريخ الى تاريخ حديث وتاريخ قديم ، والرياضة الى هندسة وجبر ، وهكذا نرى تقسيم العمل قد زاد مع زيادة حجم المدرسة وساد التخصص بدلا من التشابه · مثل هذه الملاحظات تنطبق على جماعة كبر حجمها ، كما ينطبق على المجتمع ، عندما كان صغيرا كان جميع أعضائه متشابهين فى وظائفهم وكانوا يقومون بكل الأنشطة معا ، ولكن عندما كبر المجتمع وجد تقسيم العمــل · وأصبح أحد أهم الفروق الاجتماعية بين المجتمعـات الكبيرة والمجتمعـــات الصغيرة هو تقسيم العمل المركب والمعقد الذى تتميز به المجتمعات المركبـــة

الحديثة · وقد بنى دوركيم نظريته الاجتماعية عن تطور المجتمعات على أساس هذه الحقيقة زيادة حجم الجماعة تتضمن زيادة تقسيم العمل ·

ثانيا : عندما يتزايد حجم الجماعة ، يصبح بالضرورة بناؤها أكثر صلابة ، لأنه تتزايد الحاجة الى مزيد من التنظيم الدقيق ومزيد من المعايير · ففى الجماعات الصغيرة يمكن انجاز كثير من الوظائف بأسلوب غير رسمى · ولكن فى الجماعات الكبيرة تصبح الحاجة الى التخصص ماسة · فمثلا جريدة يومية كبرى هى بالضرورة تحتاج الى تنظيم أدق وأكثر فاعلية من جريدة صغرى تصدر كل أسبوع ·

ثالثا : وكنتيجة للنقطتين السابقتين ، تصبح العلاقات الاجتماعية فى الجماعات الكبيرة أكثر رسمية وأقل شخصية ، أى علاقات أولية أقل عما هى عليه فى الجماعات الصغيرة · اذ تأتى الزيادة فى حجم الجماعة بزيادة فى عدد علاقات المكانة أو الثانوية ، ولا زيادة فى عدد العلاقات الأولية أو الشخصية ، وفى الحقيقة تتناقص العلاقات الأولية بزيادة حجم الجماعة ·

الجماعات المنظمة وغير المنظمة :

ومن أشهر هذه التصنيفات فى هذا الموضوع تصنيف سوروكن وهو يقوم على تقسيم الجماعات الى :ـ

١ ـ جماعات غير منظمة أو نصف منظمة ، مثل الجمهور والجمهرة أو الحشد والمظاهرة ·

٢ ـ الجماعة المنظمة ، وهى :

أ ـ جماعة ذات رباط واحد وهذا الرباط قد يكون حيويا كجماعة سلالة واحدة أو سن واحد أو جنس واحد · وقد يكون رباطا ثقافيا اجتماعيا مثل رباط اللغة أو الدين أو السياسة أو المهنة ·

ب ـ جماعة ذات أربطة متعددة مثل الأسرة والعشيرة والقبيلة والأمة ٠

والجماعات المنظمة قد تكون كبيرة الحجم أو صغيرة ، معقدة التنظيم أو بسيطة التنظيم تسودها المركزية أو اللامكرزية ٠

وهذا التقسيم الذى ذكرنا خطوطه الرئيسية مضطرب فهو يستخدم عـــدة أسس مختلفة لتصنيف المجتمعات مما جعله غير واضح ، فالجماعة غيـــر المنظمة كالحشد قد تكون كبيرة أو صغيرة وقد تستمر لوقت طويل أو قصير، أى أن التصنيف الذى قصره المؤلف على المجتمعات المنظمة ينطبق أيضا على الجماعات غير المنظمة مما يجعل تصنيف سوروكين مهلهلا مضطربا (١) ٠

رغم أن تصنيف سوروكين هذا لم يصادف قبولا من كثير من علمــــاء الاجتماع ، الا أن هذا لا يقلل من أهمية هذه الخاصية ٠ فهى من أهم خصائص الجماعات من ناحية الشكل ٠ ويلاحظ أولا أننا هنا لا نتكلم عن تنظيم المجتمع نفسه ، ولكننا نتكلم عن تنظيم الجماعة أى تنظيم الجماعات فى داخل المجتمع، وهذه تعتبر وجهة نظر كثير من علماء الاجتماع ظاهرة هامة وخاصـــة فى المجتمعات المركبة ٠

فى مثل هذه المجتمعات المركبة ، عدد كبير من العلاقات الاجتماعيـــة والتفاعلات الاجتماعية بين الناس تمارس فى جماعات منظمة ٠ انه عامـــل التنظيم الذى يمكن الناس الذين لا يعرفون بعضهم شخصيا أن يتفـــاعلوا بأساليب لا حصر لها لتحقيق هدف مشترك ٠ انه عامل التنظيم الذى يصنع السلطة والذى يحدد أن بعضا فى الجماعة سوف يأمرون والآخرون يطيعون ، البعض يضع القرار والبعض ينفذ ٠ انه عامل التنظيم الذى يمنح الدوام لبعض الجماعات وغيابه من الجماعات الأخرى يجعلها وقتية ٠ انه عامل التنظيم الذى يجعل وجود المجتمعات المركبة أمرا ممكنا ٠ انه عامل التنظيم هو الذى

---

(١) د ٠ حسن سعفان : المرجع السابق ذكره ص ١٥٢

يميز بين المجتمعات الحديثة الكبيرة التكنولوجية من تلك المجتمعات البدائية التى تعيش فى جزر البحار الغربية وفى الغابات ٠

وهذه التفرقة بين الجماعات المنظمة والجماعات غير المنظمة تعتبر من اهم خصائص الشكل للجماعات وتحتل عند كثير من علماء الاجتماع أعلى درجة من الأهمية ٠

والآن وقد انتهينا من تصنيف الجماعات من ناحية خاصية الشـــكل ، يلاحظ أن فئات الشكل التى ذكرناها تتشابك مع فئات الخاصية الثانية للجماعة وهى المضمون بمعنى أن أى جماعة مصنفة من ناحية المضمون ربما يكون لها من ناحية الشكل أى من الأشكال السابق ذكرها ـ فمثلا جماعة عمل أو جماعة دينية أو جماعة ترفيهية يمكن أن تكون من ناحية الشكل جماعة صغيرة أو كبيرة ، أو داخلية أو خارجية ، منظمة أو غير منظمة وهكذا الى آخر أنواع الشكل ٠ ومن أجل هذا السبب درسنا التمييز بين المضمون الاجتماعى والشكل الاجمتاعى للجماعات ٠

ونفس المبدأ يمكن أن يعمل فى الاتجاه الآخر ، بمعنى أن أى جمـــاعة مصنفة من ناحية الشكل ربما يكون لها من ناحية المضمون أى من المضامين ، فمثلا الجماعة الداخلية يمكن أن تكون جماعة الحى أو جماعة العمل ، أو جماعة الناطقين بلغة الضاد وهكذا ٠

وهكذا لدينا الآن أسلوبان مختلفان فى النظر الى الجماعة ، احدهما فى حدود المضمون أو الغرض أو الوظيفة ، والآخر فى حدود شكل الجماعة ٠ وبوضع هذين الأسلوبين معا يمكننا تحليل أى نوع من الجماعات ، وأيضـــا يكون لدينا أسسا للمقارنة بين الجماعات ٠

المنظمـــات

ORGANIZATIONS

المنظمات الرسمية Formal Organization

المنظمات والحياة الحضرية عمليا متوازيان ، فبدون المنظمات لا يمكن أن توجد المدنية • وبسبب الأهمية العميقة والضرورية للمنظمات ، فان دراستها تبرر هذا الانتباه الجاد لدراستها •

منذ أن استخدم علماء الاجتماع كلمة منظمة Organization ، وخاصة فى أى محاولة لشرح بناء المجتمع ، فبعضهم يسمون هذه الجماعات منظمات والبعض الآخر اتحادات Associations والاتحاد هو ببساطة جماعة منظمة (وكل من المفهومين الاتحاد والمنظمات هما مترادفان بدقة •) (١) • كما أن المصطلحات المستخدمة لوصف الوجوه الهامة للمنظمات اختلفت فى كل من الدراسات النظرية والعملية) (٢) • وللحصول على رؤية أولية لدراســـة المنظمات ، فقد يكون مما يساعد على ذلك هو اختيار المصطلحات المتعلقـــة بالموضوع • وسنحاول شرح ماذا يعنى التنظيم بدقة وكيف أن جامعة مثـــلا تختلف عن جماعة عمر أو جماعة أصدقاء • واضح أن جامعـــة هى جماعة منظمة ، وكذلك شركة أو فرقة موسيقية أو فريق كرة قدم • ومع ذلك ليس كافيا القول بأن هذه الجماعات هى منظمات لمجرد أنها جماعة منظمة ، فبما أن مثل هذه الجماعات تؤدى دورا هاما فى أى مجتمع مركب فنحن فى حاجة ماســة لمعرفة خواصها •

---

1 — Bierstadet : Op. Cit., p. 320

2 — Hicks, Herbert G. and Gullett C. Ray : «Organizations : Theory and Behavior» McGraw-Hill Book Company, New York 1975. p. 3.

أهمية التنظيم :

ببساطة يظهر التنظيم فى المجتمع لأن كثيرا من الأشياء التى نعملها لا يمكن عملها بدون التنظيم وأشياء أخرى أكثر يمكن عملها أحسن اذا استخدمنا التنظيم • دعنا نبحث هذه الحقائق • أى لعبة تتضمن أكثر من لاعب لا تكون ممكنة بدون تنظيم ، وبالطبع لا يمكن أن نلعب كرة قدم أو كرة سلة مع أنفسنا • فلا يمكن أن توجد جامعة أو حكومة بدون تنظيم • فالتنظيم يجعل من الممكن لأعضاء المجتمعات المركبة المشاركة معا فى مناشـــط مركبة • وحتى لو كنا كأفراد قد تشربنا ثقافتنا كاملة ، سوف نظل غير قادرين على انجاز أشياء كثيرة بدون تفاعل منظم organized inleraction مع زملائنا •

يستطيع الانسان وحده أن يكتب كتابا ، فالكتابة هى نوع من النشاط الفردى ، ولكن عادة لا يمكن للانسان أن يكتب كتابا وأيضا ينشره وحده ، بمعنى أن الانسان الذى يكتب أصل الكتاب لا ينشره ولا يصنع الورق الذى يطبع عليه الكتاب ولا عملية الطبع والتجليد ، ولا نقل الكتاب من المطبعة وبيعه، كل هذه عبارة عن مناشط منفصلة • وهكذا الكتاب فى شكله النهائى هو عبارة عن انتاج أفراد كثيرين يعملون معا بأسلوب منظم • الغذاء الذى نأكله ، مواد الثقافة التى نستخدمها فى عملنا ، الصحف التى نقرؤها ، السيارات التى نسوقها ، كل هذه وملايين أخرى من الأشياء هى نتاج مناشط منظمة مترابطة • بدون التنظيم سوف لا يتم انتاج الا القليل من هذه الأشياء •

وهكذا بدون التنظيم يستحيل لعب كرة القدم ، فليس بالضرورة أن أحد عشر فردا يشكلون فريقا لكرة القدم ، ولكن فريق كرة القدم هو جماعة منظمة، وانها اكثر قوة بكثير فى قدرتهم على تحريك الكرة على أرض الملعب وعبور خط الهدف ، من أحد عشر شخصا غير منظمين • ومن ثم احد عشر رجلا ولو كانوا فى حجم وقوة هرقل ويزن الفرد منهم ١٥٠ كيلو جراما لن تكون لهمفرصة

النجاح أمام فريق · فليس هو حجم الفرد أو قوته التى تصــنع فريق كرة القدم ، ولكنه النشاط المنظم المتعاون ، وبهذا يستطيع فريق كرة قدم أن يهزم أحد عشر رجلا تحت ظل أى ظروف·فأحد عشر شخصا لن يستطيعوا أن يلعبوا كرة قدم معا بدون تنظيم، فبالتنظيم يكونون فريقا ، أى جماعةمنظمة ، ولنفس هذا السبب يمكن لجماعة صغيرة منظمة من رجال البوليس توجيه جمهرةكبيرة من الناس · عدد صغير من الناس يشكلون جماعة منظمة فى شكل مجلس ادارة يمكنهم ادارة شركة كبيرة واسعة ويعينون ويرتبون واجبات آلاف بل وعشرات الآلاف من الموظفين ·

ولذلك يمكن القول أن (التنظيم هو العملية التى بها يصنع بناء المنظمة ويحافظ عليه · فهذه العملية تتضمن تحديد المناشـــط النوعية الخـــاصة والضرورية لاتمام أهداف المنظمة ، وتجميع تلك المناشط طبقا لنمـط منطقى ، وتحويل هذه المناشط المجمعة الى مراكز مسئولية أو أشخـــاص مسئولين ، وبسبب أن هذه المناشط عادة يفعلها مدير أو منظم تعتبر وظيفة ادارة· فالبحث حول موضوع المنظمات غالبا ما يوصف بأنه دراسة نظرية المنظمات أو نظرية التنظيم) ·

استمرارية التنظيم

The Continuum of Organization

عادة تكون الجمهرة غير منظمة · بينما تكون الشركة منظمة ، التضاد يكون واضحا فى هاتين الحالتين ، ومن السهل ملاحظته حتى قبل أن نعرف بدقة ما هو التنظيم ، انه لشىء سار حقا لعلم الاجتماع اذا كان يستطيع الانسان أن يقول بسهولة ان هذه الجماعة منظمة أو غير منظمة ، لأنه عند ذلك سوف يكون فى قدرتنا تصنيفها فى فئتين منفصلتين بدون اضطراب · ولكن للأسف الموقف ليس بهذا الشكل من الوضوح والسهولة · حقيقة ان الجمهرة غيــر

منظمة والشركة منظمة ، ولكن ما قولنا عن الأسرة مثلا ، أو عصابة ، جماعة من الرجال يتقابلون كل يوم خميس بعد الظهر لتمضية بعض الوقت معا ، فى مثل هذه الحالات ، وحالات كثيرة أخرى ، يصبح الموقف غير واضح تماما ٠ ولهذا نحن نقترح أنه ليست المنظمة وغير المنظمة فئتين متمايزتين تمـــاما ، ولكن بالأحرى ظاهرة تلقى ظلالها حول كل منهما ٠ التنظيم هو استمرارية مع كل من الجماعات غير المنظمة فى طرف والجماعات العالية التنظيم فى طرف آخر ٠

قد نرتب الجماعات نفسها عند أى نقطة على خط هذه الاستمرارية ، وكثير منها يمكن وجوده عند منتصف هذه الاستمرارية أو قريبا منه ، ومثـــل هذه يمكن أن نطلق عليها منظمة جزئيا ٠ فهناك درجات من التنظيم، وباختصار التنظيم هو استمرار واضطراد أكثر منه متغير قائم بذاته منفصل ٠ وأكثـــر الجماعات علوا فى التنظيم هى تلك الجماعة التى تستطيع أن تغير أعضاءها ١٠٠٪ وتستمر فى الوجود ، وبعض هذه المنظمات تستمر لمدة قرون ٠ هــذه المنظمات طالما أنها مستقلة عن أعضاء هيئتها (لأنه ان لم يكن هناك أعضاء ، ما كانت هناك منظمة) ٠ الا أنها مستقلة عن أى عضو بعينه ٠ (فالمنظمـــــات تتشكل لأن الأفراد لديهم أهداف يمكن اتمامها أفضل من خلال النشاط المنظم ، ولكن بمجرد تشكيل المنظمات ، فانها تنمى شخصيات خاصة بها وأهـــدافا مستقلة عن تلك التى للأشخاص الذين أقاموا المنظمة) (١) ٠ بينما الجماعات الأقل تنظيما هى أكثر اعتمادا على أعضاء معينين ، وبالطبع الجماعات غير المنظمة تعتمد كلية على الأعضاء المكونين لها ٠ فالجماعة غير المنظمة ليس لها بناء يستطيع حفظها خلال تغير هيئة أعضائها ٠ وسوف نشير الى هذه الظاهرة مرة ثانية ، ولكن هنا نحن نريد أن نضع الأساس أو المبدأ وهو (أن اعتماد جماعة على هيئة معينة يتناسب عكسيا مع درجة تنظيمها) (٢) ٠

---

1 — Hicks and Gullett : Op. Cit., p. 41

2 — Bierstedt : Op. Cit., p. 323

مقاييس التنظيم
Criteria of Organization

لنتجه الآن الى مناقشة مقاييس التنظيم ، تلك العوامل التى تمايز جماعة منظمة من جماعة غير منظمة ، ونبين خواص مميزة للمنظمة فى مقـــابل كل الجماعات الأخرى · هذه العوامل هى :

١ ـ هدف أو وظيفة خاصة ·

٢ ـ معايير المنظمة ·

٣ ـ مكانة المنظمة ·

٤ ـ السلطة ·

٥ ـ اختبارات للعضوية

٦ ـ ممتلكات ·

٧ ـ اسم ورموز هوية ·

١ ـ وظيفة خاصة : تشكل كل جاعة منظمة (منظمة) لمتابعة اهتمام أو نشاط خاص، وليس هناك عمليا حدود لما قد يكون عليه هذا النشاط ولا حتى أى خيال يمكن أن يحيط بامكانياته · فهناك منظمة لحفظ السلام ، وهنـــاك منظمات لمنع سلب الاختراعات الى مالا نهاية من المنظمات التى قد لا تطرأ على خيال · وفى الحقيقة أى هدف معقوليمكن أن تخدمه منظمة خيرا كان أو سيئا ·

المنظمات لا يحدها وظيفة واحدة ، فى بعض الأحيان تشتمل عـــدد من الوظائف ، وفى بعض الأحيان هذه الوظائف قد تكون كلها أهدافا كبيرة ، وهذه الحالة نادرة نسبيا مثل منظمة هيئة الأمم المتحدة · لأن معظم هذه المنظمات عادة يكون لها نشاط أو وظيفة رئيسية واحدة ، ثم بعد ذلك عدد من الوظائف أو المناشط الفرعية · الوظيفة الرئيسية للمسجد هى العبادة ، ولكنه ربما ينشغل أيضا بمتابعة النواحى الأخلاقية والتربوية · الجامعة التى وظيفتها الرئيسية التعليم لها أى فريق كرة قدم فهى منشغلة أيضا بالنواحى الرياضية · وفى

بعض الأحيان يصبح من الصعب على الانسان تحديد ما هى الوظيفة الأساسية للتنظيم وما هى الوظائف الفرعية·وفى الحقيقة (أى نسقتعاونى هو مركب من عناصر فريقية وشخصية واجتمـــاعية التى تكون فى علاقة خاصة منســقة (منظمة) من أجل تعاون اثنان أو أكثر من الأشخاص من أجل على الاقل هدف واحد · مثل هذا النسق (تنظيم) واضح أنه وحدة فرعية من انساق أكبر من ناحية ، وأنه نفسه قد يتضمن انساقا فرعية من ناحية أخرى · النســق المتضمن في عبارة تعاون شخصان أو أكثر يسمى منظمة organization (١)

وهكذا نرى فى مجتمعنا عددا كبيرا من الجماعات المنظمة (تنظيمات) التى تباشر اهتمامات أعضائها تلك الاهتمامات التى قد تكون دينية أو تربوية أو اقتصادية أو ترفيهية أو أعمال خيرية أو الأعمال الاجتماعية · ويلاحظ أنه لا يمكن للانسان وحده مباشرة أى من هذه الاهتمامات باستثناء النشاط الدينى

وفى كلمات أخرى الاهتمامات من هذا النوع يمكن القيام بها فقط لأن الناس يمكنهم بالفعل أن يعملوا فى منظمة مع زملائهم · ويلاحظ أن الاهتمامات من هذا النوع ذات أصل فى المجتمع ويمكن فقط أن تنمو فى مجتمع · وحتى تلك المناشط التى يمكن للفرد انجازها بمفرده يمكن أن تنجز بشكل أفضـــل وبكفاءة اكثر فى اتحاد مع الآخرين · وينطبق هذا حتى على النظام الدينى ، فالصلاة فى جماعة افضل وذكر الله فى جماعة أفضل فهى تنشط العضـــو وتجعله أكثر قدرة وانتباها للعبادة · وهنا نجد السبب الأساسى لماذا تنشـــأ الجماعات المنظمة (المنظمات) فى المجتمعات ·

ولهذه الخاصية الأولى للمنظمات وهى الوظيفـــة وهى الاهتمـــــام الرئيسى ، وان كان هناك اهتمامات فرعية يتابعهـــا اعضاؤها · انها تلك الخاصية التى تمايز بين جماعة منظمة وأخرى ، مثل جيش وحزب سياسى ،

---

1 — Barnard, Chester : «Organization as Systems of Cooparation.» in Etzioni, Op. Cit., p. 15

ومكتبة عامة ومخزن ، وهكذا فى كل المنظمات فى المجتمع ٠ هذا الاهتمام ، أو تلك التوليفة من الاهتمامات هى خاصية سبق أن أشرنا اليها عند الحديث عن الجماعات ألا وهى مضمون الجماعة ٠ المضمون يصبح وظيفة فى الجماعة المنظمة (المنظمة) ٠

٢ ـ معايير المنظمة Norms of Organization

الخاصية الثانية للمنظمة أن لها معايير خاصة بها ، ومن ثم فمسموح بأنماط تتناسب مع كل موقف ، فمثلا فى حجرة دراسة فى الجامعة أو فى مصنع أو مستشفى أو مكتب حكومى أو فى وحدة جيش، فالطلاب والمدرسون ، ورئيس العمال والعمال ، ونائب الرئيس والوزراء ، والمدير والكتبة ، والأطباء والمرضون ، بالنسبة لكل منهم عليهم أن يراعوا فى تفاعلهم المعايير التى لها أصولها فى المنظمة نفسها أو التى نفسها اذا اتبعت فى منظمة أخرى يمكن أن تؤدى الى سلوك غير مناسب ٠ لأنها تنتمى الى منظمة أخرى ٠

اجراءات (معايير) معينة تتأسس فى المنظمة ، وتلك المعايير تمايز بين منظمة وأخرى ٠

ويلاحظ أن الناس المتفاعلين فى أى منظمة وليكن مثلا جامعة أو مصنع، يتبعون أيضا المعايير العامة فى المجتمع ، بمعنى ، معايير الأدب مثلا ، فهى ليست خاصة بأى من المنظمات ولكنها تعمل فى كل مكان فى المجتمع ٠ ومن ثم فليس كل المعايير الملاحظة فى منظمة هى معايير المنظمة ، ولكن بعض المعايير خاصة بالمنظمة وفريدة فى ذلك ٠ وهكذا تظهر أشكال معينة من السلوك وأشكال معينة من الاجراءات فى داخل المنظمة ٠ فمثلا فى الجامعة اجراءات تسجيل المواد ، واجراءات اعطاء الدرجات ، واجراءات الامتحانات ، وما الى ذلك تشير الى معايير الكلية والجامعة ، ولا يوجد شىء من هذا بنفس الشكل تماما فى أى مصنع أو مكتب ، وهذه المنظمات الأخيرة لها معاييرها الخاصة بها ٠

وأيا كانت هذه المعايير فكل منظمة لديها معاييرها وهى خاصة بالمنظمة نفسها • معايير المنظمات المتشابه بمعنى المنظمات التى ولو أنها منفصلة الا أنها لها نفس الوظائف والأهداف تميل للتشابه فى المعايير أيضا • هذه الملاحظة تقودنا الى نوع آخر من الظواهر وهى النظم التى سوف نناقشها فيما بعد •

٣ ـ مكانات المنظمة وادوارها :

اذا كان للمنظمة معاييرها الخاصة ، فان لها أيضا مكانات المرتبطة بها المعايير • فمثلا الجناح الأيمن هى مكانة فى فريق كرة سلة ، الذى هو منظمة، ولا يمكن وجودها فى أى نوع آخر فى المجتمع • مكانة رئيس فى مؤسسة للانتاج هى بالمثل مكانة منظمة ، مكانة خاصة بهذه المنظمة ، وليست كالأب أو الزوج مثلا • أنها تلك المجموعة الخاصة من المكانات التى تشكل التنظيم لمنظمة ، والتى تحدد وتعرف العلاقات الاجتماعية التى بين كل عضو والآخر فى المنظمة •

واضح أن الانسان يمكن أن يذكر قائمة أطول من مكانات المنظمة ، أى من المراكز المختلفة التى تساعد فى تكوين بناء الجماعات المنظمة والتى لها معنى فقط فى داخل هذه المنظمات • وكلما زادت منظمة فى الحجم والتركيب فان عدد المكانات ينمو أيضا حتى يصل فى المنظمات الكبيرة مثل الجامعات الى عدد كبير جدا •

رأينا الآن أن بناء المنظمة يتكون جزئيا من معايير خاصة ومكانات خاصة • هذا التخصص يبين ظاهرة اجتماعية غاية فى الأهمية هى تقسيم العمل • تقسيم العمل هام جدا حتى أنه يوضح بدرجة كبيرة الاختلافات بين كل من الجماعات المنظمة والجماعات غير المنظمة ، والاختلاف بين المجتمعات البسيطة والمركبة • فتقسيم العمل هو خاصية لكل التنظيمات ، وبمعنى آخر التنظيم هو مواز وملازم لتقسيم العمل • انها ظاهرة لها نتائج بعيدة الأثر فى سلوك الانسان فى الجماعات وفى المناشط الجمعية Collective activity انها تجعل من الممكن انجاز أهداف معينة لا يمكن انجازها بدونها •

فمثلا لا يعقل أن يتكون مطعم من طباخين فقط ، ولا حكومة من رجـــال البوليس فقط ، ولا جامعة من عمداء فقط · الفعل المنظم Organized Action في هذه المنظمات ممكن فقط لأنه يوجد تقسيم عمل ، لأن بعض الناس يفعلون بعض الأشياء وأفراد آخرون يفعلون أشياء أخرى · فجامعة مثلا هى مجموعة من الأشخاص منظمين لتحقيق هدف معين · فالمكانات فى الجماعة المنظمة قد رتبت لتكمل وتساند كل الأخرى · ولنأخذ فى الاعتبار مثلا مستشفى علاجية حديثة ، فقد رأينا فى مجتمعنا فى خلال العشر سنوات الخاليـــة تزايد فى التخصص فى ممارسة الطب ، فالأيام التى كان يسمى فيها الطبيب ممـــارسا عاما قد ولت وحل محلها موقف أصبح فيه كل طبيب متخصصا فى فرع من الطب · وهؤلاء المتخصصون يمكن رؤيتهم فى المستشفى كيف يعملون معا كل واحد يكمل معرفة ومهارة الآخر · وحتى هذا النوع من تقسيم العمل يبدو بسيطا اذا قورن بتقسيم العمل فى مؤسسة بترول كبيرة مثل مؤسسة البترول السعودية ، أو احدى الوزارات · فعقد التنظيم فى كل هذه المؤسسات هو وراء احاطة أى فرد ، حتى الفرد الذى يعمل بها لا يمكنه الاحاطة بتفاصيل تقسيم العمل (١) ·

ونحن قد عرفنا أن الوجه الديناميكى للمكانة الاجتماعية هو الدور ، وفى الحقيقة يمكن النظر الى الأدوار على أنها الوسيلة لتقسيم العمل والمسئولية ، سواء فى منظمة حربية أو صناعية · فالأدوار هى التى جعلت من الممكن نشأة فكرة المنظمة عن طريق توزيع المسئوليات والسماح بتكاثر التخصص ، بينما هى فى نفس الوقت تؤسس ميكانزم لعمل كل الأجزاء معا · ببساطة جعلت الأدوار من الممكن التنبؤ بالسلوك ، ويلاحظ أن معظم المنظمات تحب الاعتقاد أو على الأقل تتوهم ، أن انجاز الادوار مستقل عن بناء الشخصية للفرد ، اذ

---

1 — Bierstedt : Op. Cit., pp. 325—328

يتوقع منه أن يكبت ميوله الشخصية وأن يلتزم بما يقرره الدور ، وواضح أن مدى التزامه بما يقرره الدور يعتمد على كيفية تحديد الدور بدقة ، والجزاءات المناسبة للانحراف عن المحتوى المقرر للدور ، وعلى رغبة التطابق التى لدى مشاغل الدور . وهذا هو السبب أن سلوك الرجل البيروقراطى يمكن التنبؤ به بوضوح ، وأيضا لماذا يمكننا الاطمئنان على هذا المزيج من العلاقات المركبة والتى تتضمن أفرادا ذوى شخصيات مختلفة ، كما أنها تمنح أنساق الاتصالات والنقل القدرة على التنبؤ ، وجعلت من الممكن وجود مثل هذه الكمية الهائلة من الأوامر التى تميز معظم البنية الاجتماعية .

وغنى عن البيان أن الأدوار جعلت من الممكن ظهور البروقراطيات كبيرة الحجم . فالمشاريع التجارية والصناعية وحتى الحرفية فى المجتمعات الحديثة لديها شبكة من الأدوار Role Network حيث قسمت الأفعال بأساليب عديدة ويعتمد كل دور على الآخر فى نظام علاقى معين . تقسيم العمل فى الطب قد ولد شبكة من الأدوار تتضمن الأطباء والبحاث والمرضات والفنيين ، والاداريين ، والأخصائيين الاجتماعيين فى مختلف التخصصات (١) .

٤ ـ السلطة : Authority

نحن عادة نلحق مفهوم السلطة بالحكومة . وفى الواقع تظهر السلطة فى كل المنظمات وليس فقط فى تلك التى وظيفتها الحكم . ويمكن القول ان كل منظمة مهما كانت صغيرة لها حكومتها الخاصة بها . وان كان لا يمكن تناول موضوع السلطة بأسلوب عميق فى هذا الصدد ، الا أنه سنحاول الحديث باختصار عن قضية السلطة كأحد خواص كل المنظمات .

فى الحقيقة يصنع التنظيم السلطة ، فحيث لا تنظيم لا يوجد سلطة ، وحيث لا سلطة لا يوجد تنظيم . ومن ثم السلطة أحد أهم عناصر البناء لأى

1 — Allyn : Op. Cit., p. 60—61.

منظمة · انه التنظيم الذى يعطى أعضاءا معينيين السلطة ، فمثلا لتحديد موعد لاجتماع والدعوة الى الاجتماع ، أو توقع شيك ، أو تزيد مرتبات ، أو توظف أو ترقى موظفين ، أو تشير بواجبات لآخرين ، أو تضع امتحانات أو تعطى درجات للطلبة كل هذه وآلاف أخرى هى مظاهر السلطة وهى التى جعلتهـــا ممكنة · انه من السهل رؤية أن عدد الأفعال الاجتماعية من هذا النوع تفوق الحصر فى مجمتع مركب·وأيضا يمكن رؤية أن كل هذه عبـــارة عن مواقف تمارس فيها السلطة ، والتى لا يمكن أن تنشأ الا حيث يوجد تفاعل منظم · فلا يمكن ممارسة أى هذه السلطات فى جماعة غير منظمة ففى مثل هـــذه الجماعة غير المنظمة لا يوجد شيء مثل السلطة ·

انه أيضا من المهم معرفة أن السلطة هى دائما متعلقة بالمكانات والأدوار، وليست أبدا متعلقة بالأفراد ، وأن ممارسة السلطة هى وظيفة للمعايير التى هى نفسها متعلقة بالمكانات · فالفرد يمارس سلطة مكانة فقط طالما هو يشغل دور المكانة ، ويتوقف عن ممارستها عندما يتوقف عن أداء الدور أو يستقيل أو يتحول الى مكانة أخرى · فالضابط فى الجيش مثلا ، فى الحقيقة لا يعطى الأوامر باسمه ولكن بالأحرى بفضل السلطة المتعلقة بمكانته ·

ونقطة أخرى هامة لا بد من معرفتها ، وهى أن ممارسة السلطة ليست بالضرورة تعنى التفوق الشخصى · فمدير فريق لكرة السلة ليس بالضرورة أحسن من اللاعبين الذين يحركهم · وقد يكون محام أكثر علما بالقانون من القاضى الذى يحكم فيما يقول المحامى · وقد عبر عن ذلك ماكيفر بقوله : (ان الرجل الذى يعطى الأوامر قد لا يكون أعقل ولا أقدر ، أو لا يكون بأى معنى أحسن من مستوى رفاقه ، فى بعض الأحيان بكل المقاييس الدقيقة ، قد يكون أدناهم ، هنا يكمن سحر الحكم) (١) · وهنا يمكننا أن نضيف ، وتلك سحر كل التنظيمات الاجتماعية ·

---

1 — MacIver, R.M. : «The Web of Government» The Macmillan Comp. New York. 1947. P. 13.

وأخيرا أحب أن أوضح أن السلطة والقيـــادة ظاهرتان مختلفتان . السلطة ظاهرة اجتماعية وموطنها فى بناء الجماعات المنظمة ، ومن ناحيـة أخرى القيادة ظاهرة تميل الى علم النفس الاجتماعى وتجد معظم قسماتها فى سمات الشخصية للفرد . السلطة هى علاقة مكانة ، القيادة هى علاقة شخصية، وقد لا يشغل القادة المكانات العليا دائما فى سلم المكانات فى المنظمات ، كما أن أولئك الذين مكاناتهم تؤيدهم وتمدهم بالسلطة ليسوا دائما قادة . وان كان للسلطة والقيادة علاقة ببعض ، الا أن هذا لا يمنع أنهما ظاهرتان متمايزتان .

وغنى عن البيان أن القادة يميلون الى كسب مراكز السلطة فى المنظمات بسبب منافستهم أو بسبب مؤهلاتهم، وتاثيرهم على أعضاء المنظمة قد يكون له شأن ، ولكن التأثير لا يعنى السلطة ولا يستطيع أى قائد مهما بلغ تأثيره أن يمارس السلطة الا اذا أصبحت مكانته رسمية فى بناء المنظمة . وقد تمارس القيادة فى أى موقف اجتماعى ، ولكن السلطة تستمد شرعيتها من معـــايير المنظمة . السلطة عنصر من عناصر المكانة التى يشغلها الانسان ،القيادة دور قد يؤديه الانسان أو قد لا يؤديه فى عمره كله .

وهكذا يمكن القول أن السلطة عنصر لا يمكن فصله عن التنظيم ، طالما أن كل تنظيم فى المجتمع مهما كان صغره له حكومته الخاصة ، المكانات ليست فقط خاصية ولكن أيضا متدرجة stratified عندما تتدرج المكانات ، بمعنى ترتب كل منها من أعلى الى أدنى فى علاقات رئيس ومرءوس ، ترتب مهم وأقل أهمية ، ومن ثم ترتبط السلطة بالمكانات الأعلى وتضيق كلما انخفضت المكانة فى السلم حتى تختفى السلطة من المكانة الأدنى . المكانات التى تتطلب معاييرها ممارسة السلطة هى دائما قليلة فى العدد فى أى تنظيم عن تلك التى لا تتطلب ممارسة السلطة ، فى كلمات أخرى ، بناء أى تنظيم هرميا ، فهناك دائما مكانات قليلة فى القمة وعديدة عند السفح .

هذه الملاحظات الأولية والأساسية توجه الانتباه الى أحد أهم خصائص

الجماعات المنظمة وتوضح الطبيعة الأساسية لبناء المنظمات وتفسر طبيعة وسيادة السلطة ·

٥ ـ اختيار الأعضاء :

يلاحظ أن من السهل الانضمام الى بعض الجماعات المنظمة ومن الصعب الانضمام الى أخرى · تتطلب كل التنظيمات مؤهلات معينة ـ مهما كانت قليلة ـ من أولئك الذين يطلبون الانضمام الى عضويتها · فى الحقيقة كل المنظمات بدون استثناء هى نسبيا مغلقة · فكلها لديها اختبارات للعضوية · وقد تكون هذه الاختبارات بسيطة جدا وسهل أداؤها، أو ربما تكون معقدة جدا وصعب أداؤها ، ولكن هناك فى كل الحالات نوع من الاختبارات · انه من السهل الانضمام الى الجيش ، ولكن من الصعب الانضمام الى الجامعة · ولكن لا منظمة مفتوحة كلية · ومن هنا يمكننا رؤية كيف أن جماعة يمكن أن تكون اجبارية ومغلقة فى نفس الوقت ·

ويلاحظ ايضا أن المنظمة العضوية فيها دائما متجزة ، ونادرا ماتكون موروثة · وكل انسان ينضم الى منظمة لا بد على الأقل أن يوافق على التطابق مع المعايير ، بمعنى مكاناتها وقواعدها وتنظيماتها ، والفشل فى أداء ذلك يؤدى الى فقد العضوية وهو الجزاء الذى يحمل العضو على التطابق · ومن ثم تعتبر الموافقة على الانضمام نفسها اختبارا ، وهذا الأمر وحده يمنع من تصنيف المنظمة كجماعة مفتوحة تماما ، بل هناك بعض المنظمات لها شعائر وطقوس يؤديها العضو والجماعة للانضمام الى عضويتها ·

٦ ـ الممتلكات : Property

كل المنظمات لها ممتلكات خاصة بها · فالاشتراكات مثلا ، التى تجمع لا يملكها احد سواء أمين الصندوق أو أى عضوفيها ، ولكن تملكها المنظمة نفسها ، وتنفق هذه الأموال باسم ولأجل المنظمة · وهذه الممتلكات قد تكون أى

شىء من علم صغير للكشافة الى ممتلكات ضخمة مثل ممتلكات بنك الرياض ٠ وقد تتضمن كل أنواع عناصر الثقافة المادية ، فكما لكل منظمة معـــاييرها الخاصة بها ، فلها مواردها الخاصة بها ٠

عندما نذكر أن كل منظمة فى المجتمع لها معاييرها الخاصة ولها موادها المنفصلة المميزة ، فانه يمكن القول أن كل منظمة لها ثقافتها ، وأن كل منظمة تمثل درجة ما ثقافة فرعية من الثقافة الكلية ، ومن ثم تعتبر كل منظمة مجتمعا متفردا ، مجتمعا فى داخل مجتمع كبير ٠

٧ ـ اسم ورموز تعريف :

ونختتم مناقشتنا عن الممتلكات الرسمية Formal properties للمنظمـة بالاشارة الى أن كلا منها له اسم سواء أكانت حكومة دولة أو جامعة وأيضـا لكل رموز لتعريف هويته ٠ غالبا المنظمات العالية التنظيم تبين اسم المنظمة فى أول جملة فى قانونها أو ميثاق تنظيمها ، وليس فقط المنظمات الكبيرة التى تعرف باسم ، ولكن كل لجنة حتى ولو كانت تابعة لمنظمة لها أيضا اسم ، وعادة ذلك الاسم يبين الهدف من تكوينها مثل لجنة فحص الطعون فى مصلحـــة الضرائب أو لجنة الامتحانات فى الجامعة ، أو الادارة التجارية فى مصنع ٠

بالاضافة الى الاسم ، قد يكون هناك رموز أخرى للتعريف ، مثلا ألوان وشارات أو حتى أناشيد ، أو علامات تجارية مسجلة ، ونمو الاعلان أدت الى زيادة أهمية الرموز من هذا النوع ، فكل مصنع وكل شركة تجارية لهـا بالاضافة الى اسمها علامة مميزة على كل مراسلاتهاوسياراتها وكل ممتلكاتها٠

ويلاحظ أننا عندما عرضنا خواص الجماعات المنظمة ، فانه يمـــكن مشاهدة أن بعض هذه الخواص تتعلق ببعض ، فمثلا تقسيم العمل هو وظيفة لاختلافات المكانات والأدوار ، والسلطة هى وظيفة لتدرج المكانات ، والملكية هى

وظيفة لائتلاف المعايير والمواد · ولقد ناقشنا كل هذه الخواص على حدة من أجل التوضيح والشرح ، ولكن كل هذه الخواص تعمل معا فى داخل بناء المنظمة أى طبيعة المنظمة ذاتها · (فالنسق هو عبارة عن مجموعة من الوحدات أو العناصر ذات العلاقات النشطة والتى تعمل بأسلوب كوحدة مترابطة) (١)·

---

1 — Baker, Frank : «Organization as Open Systems», in Bake, F. Editor «Organizational Systems-General. Systems Approaches to Complex Organizations», Richard D. Irwin, Inc., Illinois 1973. P. 4.

المنظمات اللارسمية

INFORMAL ORGANIZATION

● العلاقة بين التنظيم الرسمى والتنظيم اللارسمى

سبق أن ذكرنا عند الحديث عن الجماعات الأولية والجماعات الثانوية ، أنه وان كانت الحياة الاجتماعية الحديثة أى فى المجتمعات المركبة تقوم على اساس علاقات المكانة ، ذلك يرجع الى أن معظم المناشط فى المجتمعات المركبة يتم اشباعها عن طريق الجماعات الثانوية • الا أنه (فى الجماعات الثانوية يكون الاحتكاك الاجتماعى غير شخصى ونفعى وجزئى ، ولا يهتم الواحد بالآخر كشخص لكن كقائم بوظيفة ويملأ دورا • فنوعيات الأشخاص ليس أمرا هاما ، المهم الانجاز الذى يتعلق بجزء من كل الشخصية (١) •

وقلنا أيضا انه رغم أن معظم المناشط تتم عن طريق الجماعات الثانوية فان هذا لا يمنع من ظهور الجماعات الأولية حتى فى أشد الجماعات الثانوية تنظيما ، ذلك يرجع الى أن الجماعات الأولية هى تلك التى تعرف الناس الآخرين عن قرب كشخصيات منفردة ، ونحن نفعل ذلك من خلال الاحتكاك الاجتماعى الحميم والشخصى والكلى ، فكل عضو يهتم بالآخر كشخص ، فهم يواجهون معا الآمال والمخاوف ويتشاركون فى الخبرات ويشبعون الحاجة الى العلاقات الاجتماعية أى الى الدفء الاجتماعى •

وفى الحقيقة أن العلاقات بين أعضاء أى منظمة التى قد تكون فى أول الأمر علاقات مكانة خالصة ، تظهر تدريجيا العلاقات الشخصية ، وهكذا ينشأ الى جانب التنظيم الرسمى للمنظمة نوع آخر من التنظيم الذى يمكن أن نسميه

---

1 — Horton and Hunt : Op. Cit., P. 151.

التنظيم اللارسمى · فعندما (يتفاعل الموظفون كل مع الآخر عندما تجمعهم معا المنظمة الرسمية · وازدياد التفاعل يبنى مشاعر محببة نحو أعضاء جماعة الزملاء ، وبالتالى تصبح هذه المشاعر أساسا لمزيد من مناشط مختلفة ، وكثير منها لم تحدده مواصفات الوظيفة ، وخاصة ترتيبات الأخذ والعطاء والحرب مع أولئك الذين خارج الجماعة ، وتزيد هذه الأشياء فرص التفاعل وتبنى روابط قوية لتعريف الذات · ومن ثم تصبح الجماعة أكثر من مجرد تجمع ناس · فهى تنمى أسلوبا معتادا لفعل الأشياء مجموعة من الصفات المستقرة التى تصبح من الصعب تغييرها ، انها تصبح منظمة فى ذاتها) (١)

وهكذا (فى كل منظمة فى المجتمع ، نجد نوعين مختلفين من التنظيم ، التنظيم الرسمى والتنظيم اللارسمى · ويتكون التنظيم الرسمى من علاقات مكانة ، والتنظيم اللارسمى من العلاقات الشخصية) (٢) · ويمكن النظر الى المنظمة اللارسمية على أنها ظل المنظمة أى يمكن رؤيتها على أنها خيال المنظمة الرسمية ، اذ تنشأ المنظمة اللارسمية فى داخل المنظمة الرسمية ، وانه بدون المنظمة الرسمية لا يمكن أن توجد المنظمة اللارسمية · والمنظمة اللارسمية لها خصائص تختلف تماما عن المنظمة الرسمية · فبينما تتميز المنظمة الرسمية بالبناء والأهداف النظامية والعلاقات التى رسمتها الادارة ، فان المنظمة اللارسمية تميل الى التنظيم المرن وغير المحدد · ذلك أنه لا يمكن عادة تحديد أعضاء المنظمة اللارسمية والتفاعل بين أعضائها يحدث دون هدف مخصص · فى كلمات أخرى فليس لأعضاء المنظمة اللارسمية أى أهداف نظامية محددة أو متفق عليها مسبقا) (٣) ·

---

1 — George Strauss and Leonard R. Sayles : «Personnell : The human Problems of Managment,» Prentic-Hall, Englewood Cliffs, New Jersy 1972. P. 75.

2 — Bierstedt : Op. Cit., P. 333.

3 — Hicks and Gullett : Op. Cit., P. 107.

وعادة التفاعلات الاجتماعية لأعضاء المنظمة ليس لها علاقة بمعايير المنظمة ، بمعنى أنها لا تتطابق بدقة مع المعايير المرتبطة بالمكانات التى تشكل بناء المنظمة الرسمى ، فدائماتتدخل العوامل الشخصية • معرفة هذه النقطة هى التى مكنتنا من التمييز الذى سوف نراه من خلال مناقشتنا لكيف تنشأ المنظمة اللارسمية • ولنأخذ مثلا شركة صناعية جديدة فانه من الضرورى وضع عدد من الأفراد لتشغيلها ، أى هيئة المنظمة الذين قد يكونون لم يروا بعضهم بعضا من قبل ، وطبعا لا بد من شغل مكانات فى التنظيم المعروف نمطه عند رجال الصناعة • فأحد هيئة المنظمة سيوضع فى مكانة رئيس مجلس الادارة ، وآخر فى مكانة مدير التنفيذ ، وآخر فى مكانة كبير المهندسين ، وهكذا خلال لائحة التنظيم المعروفة عند الصناعة • وعندما يقوم هؤلاء الناس بواجباتهم سيتفاعل كل مع الآخر بدون اضطراب من خلال حدود وشروط المكانات التى سبق وأن عينوا فيها رسميا • وهكذا ليس هناك أسلوب آخر غير التفاعل من خلال المكانات كى يمكن لمثل هذا المصنع ذى الهيئة أن ينتج سلعة ما • هذه العملية كما سبق أن أكدنا عليها هى معجزة التنظيم الاجتماعى الرسمى •

ولكن بعد فترة يبتدىء أعضاءهيئة المصنع التعارف بعضهم مع البعض، يبتدىء المرؤوسون فى معرفة أساليب رؤسائهم،وهم بدورهم يبتدئون فىمعرفة شخصياتهم • بمعنى أن أعضاء المصنع لا يبتدئون فقط فى اختبار معدات المصنع ، ولكن فى اختبار بعضهم بعضا ، أخلاق وعادات كل منهم • بعض هؤلاء الأفراد تظهر عندهم سمات القيادة بعيدا عن مراكزهم الرسمية أو مكاناتهم فى المنظمة ، وبعض آخر بالرغم من مكاناتهم التى تتطلب ممارسة السلطة ، قد يظهرون رفضهم لأداء دور قيادى • وسوف يقيم أعضاء هيئة المصنع بسرعة رئيس مجلس الادارة ، هل هو من النوع الشديد التمسك بالقواعد ومدقق فى المحافظة على الرسميات ، أو هو انسان متساهل ، هل

سيدير المصنع ولن يسمح بخطأ أبدا ، أم هل سيختفى وراء رتبته ويسلم كل شيء لوكيله ؟ . من من المهندسين بغض النظر عن مكانته فى التنظيم الرسمى سوف يحظى باعجاب وحب العمال ؟

وبعد فترة سوف يعرف كل فرد من أفراد هذه الهيئة الآخر شخصيا ، ويقيم كل منهما قوة الآخر وضعفه ، ومميزاته وعيوبه ، ولسوف يقدم بعض الرجال النصائح للآخرين وسوف تحترم آراؤهم وتدين الجماعة لهم بالطاعة . ويتجنب الرجال البعض ويلتفون حول الآخر ويتخذون منهم أصدقاء ورفقاء وفى كلمات أخرى سوف ينشأ فى مثل هذه المواقف شيء يمكن أن نسميه تنظيما لارسميا بين هيئة المصنع ، تنظيما قد يتطابق أو لا يتطابق مع التنظيم الرسمى الذى وضعته الصناعة . (وهكذا لا يكون للادارة خيار فىأن تتشكل أو لا تتشكل هذه المنظمات اللارسمية . ولذا ليست المنظمة اللارسمية خاضعة للادارة بنفس الأسلوب الذى تخضع له المنظمة الرسمية . ونتيجة لذلك لا تستطيع الادارة منع المنظمة اللارسمية من التكوين ، وكذلك لا تستطيع ازالتها اذا تكونت) (١) .

ومثل ما حدث فى المثل السابق يحدث أيضا فى أى منظمة فى المجتمع ، وأننا نجد فى جميعهم تنظيما رسميا موجودا فى آن واحد مع تنظيم لا رسمى . وكما سبق أن تحدثنا أن عملية احضار الناس معا فى منظمة رسمية سوف بالضرورة يؤدى الى نشأة المنظمة اللارسمية ، فعندما يتحد الناس معا تنمو العلاقات الاجتماعية وتستمر . هذه العلاقات الاجتماعية التلقائية واللابنائية تشكل المنظمات اللارسمية ، وهى توجد فى كل مستويات المنظمة اللارسمية .

ونستطيع الآن أن نتقدم لمناقشة هذا التمايز فى لغة التحليل الاجتماعى . ليتكون التنظيم الرسمى لمنظمة ما من المكانات الرسمية المعروفة للأعضاء طبقا

---

1 — Hicks and Gullett : Op. Cit., P. 108.

للمراتب والمراكز التى يشغلونها مع القواعد التى تحدد الواجبات والامتيازات والمسئوليات لتلك المراكز ٠ مكانات الأعضاء الذين لا يتقلدون مراكز مثـــل أعضاء جمعية خيرية ، واجباتهم وامتيازاتهم ، هى أيضا جزء من التنظيم الرسمى ، رسمية لأنها معرفة رسميا ومتفق عليها كشرط للعضوية ٠ وتتم العلاقات الاجتماعية بين الأعضاء رسميا فى حدود تلك المكانات فى تطابق مع المعايير المتضمنة ، فى التنظيم الرسمى المكانات لها مقامات مختلفة مستقلة عن الأشخاص الذين يشغلونها ٠ وطالما هذا الاستقلال صعب ان لم يكـــن من المستحيل المحافظة عليه فى ديناميكية حياة المنظمة ، وهكذا ينشأ تنظيم لا رسمى الى جانب الرسمى ٠ ويتكون التنظيم اللارسمى من الأدوار بدلا من المكانات ، لأنه يعتمد على العلاقات الاجتماعية الشخصية ، كما يتكون التنظيم اللارسمى من أنماط السيادة dominance والاذعان submission والحب affection والكراهية hostility ، أو الاختلافات التى تحدث بين الأعضاء طبقا للتقييم الشخصى كل للآخر ٠

انماط الأدوار تلك قد تتفق أو لا تتفق أو تتطابق أو لا تتطابق مع سلم المكانات فى التنظيم الرسمى ٠ ولكن فى التنظيم اللارسمى تحدث العلاقات على أسس التقدير الذى لدى كل عضو عن الآخر بعيدا ومستقلا عن مكاناتهم ٠ باختصار تسير العلاقات الاجتماعية فى حدود مقام المكانة وطبقا لمعايير المنظمة المتضمنة فيها ، فى التنظيم اللارسمى تسير العلاقات الاجتماعية فى حدود تقدير الأشخاص بعضهم لبعض وطبقا للمعايير الاجتماعية المتضمنة فيها ٠ وهكذا نرى أن المقام مرتبط بالمكانة ، ولكن التقدير مرتبط بالأشخاص ، فالمقام عنصر من التنظيم الرسمى أما التقدير عنصر من التنظيم اللارسمى ٠

(فى بعض الأحيان يكون فى بعض المنظمات اتفاق متقارب بين التنظيم الرسمى واللارسمى ، وقد يكون هذا التوافق دائما نسبيا ٠ فى مثل تلك الحالات يشغل المكانات ذات المقام العالى الأشخاص الحائزين على أعلى تقدير من

الأعضاء الآخرين • ومن ناحية أخرى قد تكشف منظمة عن فرق واسع بين تنظيمها الرسمى واللارسمى ، وفى هذه الحالة تستمر المقامات مرتبطة بالمكانات ولكن يكون التقدير محروما منه الأشخاص الذين يشغلون المكانات ، وبناء على ذلك يصبح الرئيس صورى ، أى غير مسموع الكلمة ، فصاحب المنصب فى هذا الموقف له السلطة الرسمية لمركزه ولكن ليس له التأثير اللارسمى الذى يؤيده التقدير) (١) • ومن ثم يبدو واضحا أن المنظمة تقوم بوظائفها على الوجه الأحسن عندما يؤيد ويعضد التنظيم اللارسمى التنظيم الرسمى ، وأنه عندما يصبح التناقض بين النمطين من التنظيم كبيرا يصبح استمرار وجود المنظمة فى خطر وخاصة أن الادارة ليس لها ضبط على المنظمة اللارسمية • وعادة ما يكون هذا مصدر احباط للمديرين وخاصة عندما تبتدىء المنظمة اللارسمية فى مقاومة انجاز أهداف المنظمة الرسمية) (٢) •

يمكننا الآن أن نضع ملاحظتين حول العلاقة بين التنظيم الرسمى واللارسمى • الأولى أن التنظيم الرسمى مهما كان معقولا سوف لا يفى بالحاجة لصنع منظمة ناجحة الا اذا تلقى تأييدا وتعضيدا من التنظيم الرسمى ، بمعنى أن أكفأ بناء لا يؤدى تلقائيا الى ادارة ناجحة للمنظمة اذا لم يكن لدى الأعضاء علاقات حسنة كل مع الآخر ، فاذا كان هناك كراهية شخصية بمعنى اذا كان كل عضو لا يحب الآخر وبينهما علاقات اجتماعية منفرة ، فمن ثم لا يمكنهما أن يتعاونا • وممارسة السلطة فى مثل هذا الموقف الاجتماعى المشحون بالعداء لا تؤدى الى شىء غير مزيد من الاستياء ، والاستياء بدوره يجعل التفاعل بين الأعضاء صعبا ان لم يكن مستحيلا ، وفى الحالات المتطرفة من هذا النوع السلطة نفسها تختفى ولا يبقى شىء غير العنف المدمر للمنظمة •

الملاحظة الثانية ، تدور حول الموقف العكسى ، بمعنى أن أكثر النوايا الحسنة فى العالم لن تكون كافية لنجاح نشاط منظمة اذا كان التنظيم الرسمى

---

1 — Bierstedt : Op. Cit., P. 336
2 — Hicks and Gullett : Op. Cit., P. 108.

غير كفء وعاجز . ومن أجل هذا السبب يعتبر غير مرغوب تقسيم المسئولية عند القمة أى عند منطقة صنع القرارات ، مثل أن يكون هناك شخصان محدد لكل منهما سلطة مماثلة فى صنع القرارات النهائية عن المسائل المؤثرة فى المنظمة حتى ولو وضع صديقان حميمان فى مثل هذا الموقف فسرعان ما يصبحان أعداء ، لأن الصراع بينهما أى بين علاقات مكانتهما لا يمكن تجنبه .

ومن ثم تصبح أحسن منظمة كفاءة هى تلك التى فيها التنظيم الرسمى يكون مؤيدا ومعضدا بالتنظيم اللارسمى . وعندما يصبح التباعد بينهما كبيرا تصبح المنظمة معرضة لخطر التفكك والانحلال .

وملاحظة أخيرة ، تنبع من هذا التمييز بين التنظيم الرسمى واللارسمى . اذ أنه من الواضح أنه عند حديثنا عن الدولة نحن نتحدث عن التنظيم الرسمى للمجتمع ، وعندما نتحدث عن المجتمع المحلى نحن نتحدث عن التنظيم اللارسمى للمجتمع . فالقوانين هى معايير المنظمات التى تنتمى الى التنظيم الرسمى ، بينما الأساليب الشعبية والأعراف هى معـــايير مجتمعية تنتمى الى التنظيم اللارسمى . وكذلك المناصب الحكومية سواء بالتعيين أو الانتخاب تشـــغل مكانات فى التنظيم الرسمى ولكن القادة الاجتماعيين يؤدون أدوارا فى التنظيم اللارسمى .

لماذا تنشأ المنظمة اللارسمية

نحن نعرف أن الأفراد لهم حاجات يرغبـون فى اشـــباعها عن طريق اشتراكهم معا فى منظمة رسمية على أمل اشباع بعض هذه الحاجات ، وتلك علاقة متبادلة ومنطقية التى فيها يساهم الفرد بوقته ومجهوده فى مقابل اشباع حاجات معينة لديه . وبالرغم من أن المنظمة الرسمية تشبع كثيرا من حاجات انسانية معينة وهامة . ومن ثم فاذا كان لدى الفرد حاجات معينة لم تستطع المنظمة الرسمية اشباعها ، فانه بالضرورة يبحث عن اشباعها من منبع آخر . هذاهو التفسير الأولى لنمو المنظمات اللارسمية فى داخل المنظمات الرسمية -

وهنا يتبادر الى الذهن ما هى تلك الحاجات المعينة التى عادة ما تشبعهـــا المنظمات اللارسمية ؟

سنتكلم فيما يلى عن بعض هذه الحاجات :

١ ــ اشباع الحاجات الاجتماعية : **Satisfaction of Social Need**

السبب الأساسى لترابط الأشخاص فى منظمات لا رسمية هو اشـــباع الحاجات الاجتماعية · فالرغبة فى الاندماج والحاجة الى العلاقات الاجتماعية مع الآخرين تعتبر احد أهم دوافع الانســـان · فنحن نرغب بشدة التفـــاعل والقبول من الناس الآخرين · ونتيجة لذلك ، عندما يرتبط الانسان مع منظمة رسمية ، أحد أهم أغراضه الصحبة companionship أو المعية · فاذا أسس علاقة مناسبة وملائمة مع زميله فان ذلك يشبع حاجاته الاجتماعية ، فاذا لم يجد الصحبة يشعر بالعزلة والنبذ ostracize ، وعادة يكره مركزه · وفى أحد بحوث التون مايو ذكر (أن الموظفين فى مصنع نسيج الذين يعملون فى وظائف منعزلة كان لديهم احباط شديد ، وبصفة دائمة يفشلون فى الارتفاع الى مستوى الانتاج المطلوب · وعندما سمحت الشركة لهؤلاء الموظفين باخـذ فترات راحة يمضونها كجماعة زاد كل من الانتاج والرضا) (١) · يعتبر الفرد بالنسبة للمنظمة الرسمية مجرد عامل من عوامل الانتاج ، ولـــكن بالنسبة لأعضاء منظمته اللارسمية يعتبر عضوا ينتمى الى جماعة،ومع هؤلاء الأصدقاء يجد نفسه ويستطيع أن يعبر عن مشاعره الحقيقية ·

٢ ــ الاحساس بالانتماء وتحقيق الذات :

الاتحاد مع منظمة لا رسمية يعتبر أكثر من مجرد صداقة ، انه احساس بالانتماء · والانتماء هو شعور بالراحة الشخصية فى علاقات اجتماعية التى تسمى فى بعض الأحيان بالتماسك والتكامل الاجتماعى والأمن الاجتماعى ·

---

1 — Elton Mayo : «The Human Problems of Industrial Civilization» Harvard, Cambridge, Mass. 1946. PP. 42—52.

ومن خلال هذا الاحساس بالانتماء يشبع الفرد حاجته الى تحقيق الذات مع تلك الجماعة • وتحقيق الذات وادراك من نحن يتاثر جدا بهذا الاتصال الاجتماعى • ويبحث كل شخص عن تحقيق الذات ، وهكذا يفى التنظيم اللارسمى بحاجة أساسية بتقديم وسيلة لتحقيق الذات وأيضا تحقيق الذات مع جماعة لا رسمية ربما تشبع أيضا رغبة الفرد فى مكانة اجتماعية ، لأنه بسبب البناء المحكم الأصم للمنظمة الرسمية فالفرد ذو المركز المنخفض لا يكون له الا فرصة ضئيلة جدا فى الحصول على مقام أبعد من المسئولية والسلطة المرسومة لوظيفته • ولكن نفس هذا الشخص قد يكون له فرصة غير محدودة فى جماعته اللارسمية للقيادة والتاثير والأهمية •

٣ ـ معرفة السلوك المقبول :

خدمة قيمة أخرى تقدمها المنظمة اللارسمية لأعضائها بمساعدتهم فى معرفة السلوك المقبول والسلوك غير المقبول • عندما يدخل فرد فى موقف جديد، فهو بصفة عامة يكون غير متأكد عن ما هو السلوك المتوقع منه ، فمثلا عند دخول طالب الجامعة لأول مرة فانه يشعر بحاجته الى زملاء ليقودوه لمعرفة ما هو السلوك المقبول وما هو غير المقبول عند منظمة الجامعة • وفى منظمات الأعمال حيث القواعد مؤسسة ، فالفرد يصبح فى حاجة الى معرفة اى القواعد عليه اتباعها بدقة متناهية ، وأى القواعد ذات المرونة • وهكذا فعندما يحتاج الفرد أن يسلك بأسلوب مقبول فى مكان لم يعرفه من قبل ، فهو يعتمد على زملائه فى جماعته اللارسمية لقيادته •

٤ ـ فرص التاثير والابداع :

وكما قال أريجريس Arygris (قوة الادارة الرسمية مشتقة أساسا من جعل العاملين يعتمدون على الادارة من أجل مكافآتهم وتوجيههم ومراكزهم) (١) • ولهذا خلال المنظمة الرسمية يستطيع العاملون تقليل

---

1 — Arygris, Chris : «Personality and Organization» Harper and Row, New York, 1957. P. 103.

اعتمادهم على المنظمة الرسمية بسلب سلطة الادارة الرسمية ووضعها تحت سلطان ضبطهم ، ذلك يرجع الى أن الانسان يفضل أن يكون له رأى فى تحديد قدره ، وتساعد المنظمة اللارسمية الفرد بتأثير كبير يتيح أن يكون له بعضا من الرأى فى تحديد مصيرة ٠

عندما تحدد المنظمة الرسمية الأعمال ، فعادة تظهر أنها جامدة وقاسية٠ وغالبا لم يشارك الأفراد المسئولون عن تنفيذ الأعمال فى تحديدها ٠ ولهـذا خلال جماعة العمل اللارسمية ، يكون للعاملين فرصة لتعديل موقف العمل ليكون أكثر مناسبا ومحببا لهم ٠ وهكذا كثير من الأعمال التى تبدو لرسميتها كئيبة ورتيبة يمكن جعلها أكثر حسنا بالابداع الفـــردى ، ومن ثم تشجعها وتحميها المنظمة اللارسمية تلقائيا ٠

وبالاضافة الى ذلك تقدم المنظمة اللارسمية الحماية لأعضائها سـواء فى مواجهة رئيس أو أى قوى خارجية ٠ وأحد الأساليب لحماية الأعضاء هو ضبط المعدل الذى عنده يحدث التغير فى المنظمة الرسمية ، فمثلا اذا كرهت المنظمة اللارسمية قرارا وضعته المنظمة الرسمية ، يمكن لأعضاء الجمـاعة اللارسمية التعبير عن استيائهم بالتوقف المتعمد عن العمل وقد يصل الحد الى تخريب العمل ، وتلك البدائل تحدث بحذر شديد حتى أنه يصبح من الصعب تحديد المسئولية وعلى من يقع اللوم ٠

٥ ـ المشاركة الوجدانية والمواساة :

يصطدم الفرد يوميا باحتياجات ومؤثرات فى عمله ، ومن ثم يبحث الفرد عن أحد يفهمه ويشاركه وجدانيا ويواسيه ٠ ومن خلال المنظمـــة اللارسمية يستطيع الفرد أن يجد أصدقاء يشاركونه وجدانيا ويواسونه، وخاصة أن هؤلاء الزملاء غالبا ما يكونونقد مروا بمثل هذه الخبرات ، ولهـــذا يمكنهم فهم متاعبه ٠ فانه من الصحة النفسية أن يستطيع الفرد التعبير عن متاعبهللأخرين

وخاصة اذا كان هؤلاء الآخرون يشعر نحوهم بالانتماء • وهذه الخدمة هى كصمام الأمان ، وتعاون الفرد على مواجهة بيئته • وعندما يؤيد الفـــــرد بالمواساة والمشاركة ، ويعلم أن الآخرين قد مروا بنفس التجارب ، فانه يستطيع الاحتفاظ بثقته فى نفسه • ومن ناحية أخرى اذا لم يجد الفرد وسيلة للتعبير عن أحزانه ، فقد يشعر أنه الوحيد الذى لديه تلك المشاكل وتبعا لذلك فقـــد يفقد الثقة فى قدراته •

٦ ـ تأييد القيم الثقافية وديمومتها :

خدمة أخرى تنجزها المنظمة اللارسمية هى تأييد وديمومة القيم الثقافية للجماعة • فخلال فترة وجود المنظمة اللارسمية تميل الجماعة الى تنمية قيم ثقافية يعتبرها الأعضاء مرغوبة ، ويعمل الأعضاء على ديمومتها • فمثــلا قد تكون الجماعة رغبت فى حفظ مستوى تعليمى معين لوظائفهم • فاذا كان مثلا هناك قسم لرجال المبيعات درجاتهم العلمية جامعية فانهم يعارضــــون ويقاومون تشغيل رجل مبيعات لديه مؤهل مدرسة ثانوية فقط •

٧ ـ الاتصال والأخبار :

جماعة العمل وسيلة جيـــدة فى نشر المعلومات والأخبار • فيرغب العمال فى كل مستويات المنظمة فى معرفة ماذا يجرى فى منظمتهم وأثر ذلك عليهم • وعادة تكون المنظمة ضنينة بالمعلومات •ولهذا تنمى الجماعات أنساقا وقنوات للاتصالات • الحقائق والاشاعات تنقل بواسطة الكلمة المنطوقة بسرعة عظيمة • ويعلم أعضاء الجماعة بالأخبار ، ومن ثم تتاح لم فرصة التكيف معها •

مساوىء المنظمات اللارسمية

وان كان للمنظمات اللارسمية فوائد كثيرة كما سبق أن بينا ، فان لها أيضا بعض المساوىء ، نذكر طرفا منها فيما يلى :

١ ـ الاشاعات : Rumors

سبق أن تحدثنا عن أن معظم أعضاء المنظمة يرغبون فى معرفة ما يدور حولهم وأن المنظمة الرسمية هى احدى وسائل الاتصال ومعرفة أعضاء الجماعة لما يدور فى منظمتهم الرسمية فيجرون التكيفات المناسبة ، ولكن ايضا هناك مضار تنشأ عن هذا الطريق ، لأنه قد يؤدى الى نشر معلومات غير كاملة أو غير مناسبة أو غير دقيقة أو حتى مدمرة ، وهذه هى ما نطلق عليها اصطلاح الاشاعات ٠

وتعيش الاشاعات فى ظل عدم وجود الحقائق الكاملة أو الدقيقة عن موقف أجتماعى ، اذ أنه فى هذه الحالة يلجأ أعضاء المنظمة اللارسمية الى تخيل أفكار يكملون بها معلوماتهم الناقصة ، وهذه المعلومات عادة ما تميل الى العواطف أكثر من المنطق ، ونظرا لأنها صادرة من احد أعضاء الجماعة الداخلية فهى صادقة عند جميع أعضاء الجماعة ، ومن ناحية اخرى هذه الاشاعات عادة تخفى عن الادارة ٠ وفى بعض الأحيان يلجا اعضاء المنظمة اللارسمية الى الاشاعات لرفع مكانتهم الاجتماعية ، أو مجرد ملء فراغات فى الأحاديث الاجتماعية ، أو تجنب القلق والحيرة بالنسبة لحدث هم يتوقعون حدوثه ٠

ويلاحظ أن الاشاعات تحدث فى كل المنظمات ، ولكنها عادة تزداد حدة فى المنظمات التى فيها وسائل الاتصال الرسمى ضعيفة وغير كافية ، اما اذا كانت المنظمة الرسمية لديها نسق اتصالات جيد يعمل على توصيل المعلومات بسرعة ودقة فسوف تنقص الاشاعات الى حدها الأدنى ٠

٢ ـ مقاومة التغير :

قلنا ان أحد أسباب نشأة المنظمات اللارسمية هى ديمومة القيم الثقافية وفى هذا الشأن تشجع المنظمة اللارسمية تلك القيم الثقافية التى تعتبرها مرغوبة وتتمسك بها • هذا الأمر يؤدى الى المحافظة على الحالة الراهنة أى يؤدى الى ثبات الموقف الاجتماعى وتجمده عند وضع معين • وفى هذه الحالة يميل أعضاء الجماعة الى مقاومة التغير بقوة • فمثلا قد يقاوم أعضاء المنظمة اللارسمية أى ميل عند المنظمة الرسمية لتغيير المؤهلات العلمية والخبرات العملية المطلوبة لشغل مكاناتهم ، أو يعارضون أى تغيرات فى نسق الأسبقية بينهم • تترابط الجماعة اللارسمية بالمعتقدات والعادات الاجتماعية ، ولسوف تقاوم تلك التغيرات التى تبدو من وجهة نظرهم أنها تهدد هذه المعتقدات أى تهدد أمنهم •

٣ ـ التطابق مع الجماعة :

سبق أن عرفنا أن المنظمة اللارسمية تؤسس معايير للسلوك وأن عضو الجماعة عليه أن يتطابق معها ، ويمثل هذا أحد مكاسب المنظمة الرسمية اذا كانت مستويات السلوك هذه من النوع الملائم للعمل أى معايير ايجابية نحو العمل وعلاقات العمل • ولكن اذا كانت هذه المعايير سلبية أو عدائية بالنسبة للمنظمة الرسمية وللعمل فان ذلك سيكون مدمرا للمنظمة ، لأن عضو المنظمة اللارسمية يستجيب الى معايير جماعته بغض النظر عن معايير المنظمة الرسمية • وقد يؤدى ذلك الى اطالة وقت العمل المحدد لانجاز عمل معين ، أو اطالة وقت الراحة للغذاء ، أو حتى قد يتوقف عن العمل • وفى هذه الحالات تصبح معايير السلوك مدمرا للمنظمة الرسمية •

الفصل الرابع

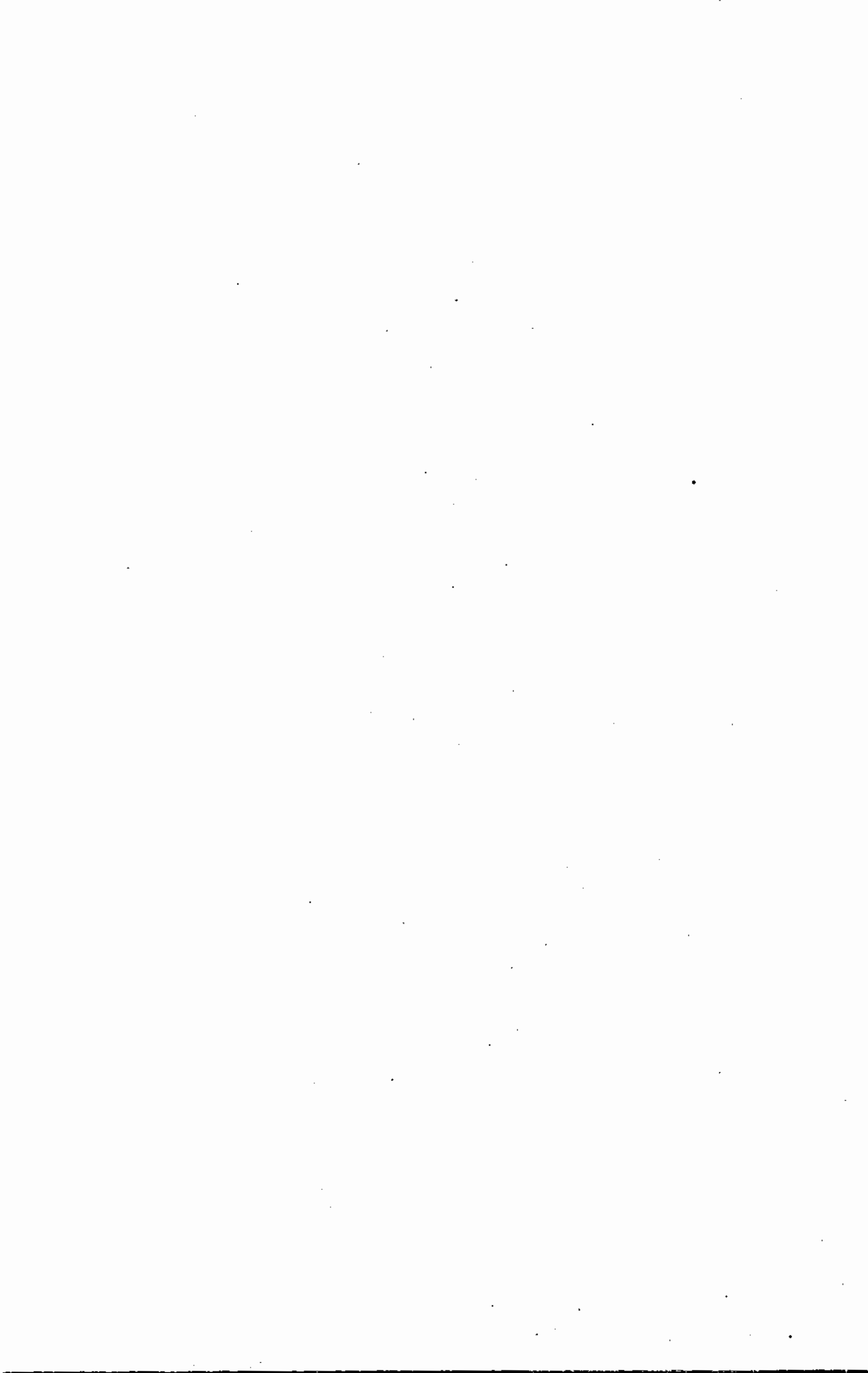
النظم الاجتماعية

- في معنى النظام الاجتماعي
- وظيفة النظام
- بناء النظام
- التصنيف
- هدفي النظام
- النظام الرائد

أ ـ فكرة الترتيب

ب ـ في معنى النظام الرائد ٠

- بناء النظام الرائد ٠
- هدفي النظام الرائد
- العلاقات بين النظم
- الصراعات
- الانسجام



النظم الاجتماعية

SOCIAL INSTITUTIONS

فى معنى النظام :

يعتبر مفهوم النظام الاجتماعى من أهم المفاهيم فى الدراسات والبحوث الاجتماعية،حتى أن دوركيم Durkheim اعتبر (علم الاجتماع هو علم الوقائع الاجتماعية والنظم الاجتماعية (١) · وأيضا جنزبرج Ginsberg (علم الاجتماع بمعناه الواسع هودراسة التفاعل والعلاقات المتبـــــادلة بين البشر وظروفهم ونتائجها · وعمليا أصبح واضحا أنه اذا حاول علم الاجتماع التعامل مع كل النسيج للعلاقات البشرية فى تعقدها اللانهائى سوف لا يصنع الا تقدما ضئيلا · وطبقا لذلك قصر علم الاجتماع نفسه على دراسة العلاقات الاجتماعية كما هى متجسدة أو محددة فى أشكال معروفة أى نظم اجتماعية · ومن ثم كان تعريف آخر لعلم الاجتماع أنه علم النظم الاجتماعية) (٢) ·

وبالرغم من هذه الأهمية الكبيرة لمفهوم النظام الاجتماعى، (فللأسف فان استعماله وتعريفه بعيدا جدا عن الاطراد،وفى ذلك يقول هوبهوس Hobhouse فى الحقيقة مصطلح النظام الاجتماعى يستعمل بدرجات كبيرة من الاختلاف الى درجة من المشكوك فيه ان له معنى واحدا عاما بالنسبة لكل استعمالاته)(٣) بل ان (بعض علماء الاجتماع اعتبر النظام الاجتماعى مجموعة من الناس فى

---

1 — Timasheff, N.S. : «Social Theory, is nature and growth» Random House. N. York, 1955. P 1.17.

2 — Ginsberg, Morris : «Studies In Sociology», Methuen and Co. Ltd. London, 1932. P. 23.

3 — Nadel, S.F. : «The Foundation of Social Anthropology». Cohe and West Lté. London. 1953. P. 108.

تفاعل منظم ، وبهذا التعريف فأى أسرة أو ناد أو مصلحة أو سجن أو حكومة هى نظام · ونحن نفضل أن يعنى مصطلح النظام مجموعة من المعايير تتكامل حول وظيفة اجتماعية كبرى) (١) ·

على أى حال سنحاول أن نعرف كيف نشأت النظم الاجتماعية ، وأعتقد ان مثل هذه المحاولة قد تقودنا الى معرفة منظمة وأفضل لمفهـــوم النظـــام الاجتماعى ·

فالنظم الاجتماعية نشأت فى البداية دون وعى ، أى دون جهد متعمد من الانسان ، اذ كان الانسان فى هذه الفترة المبكرة من حياته يعبر تلقائيا عن دوافعه فى الحياة ، فالانسان لديه حاجات أساسية مثل الأمن والمأكل والملبس والمأوى ، وهو يسعى لاشباع هذه الحاجات · وربما تكون الحاجات رغبات داخلية ، ولكن اشباعها هو أمر خارجى ، فالانسان الجائع يرغب فى الأكل ولاشباع هذه الحاجة عليه أن يبحث فى الخارج عن مادة من بين المواد التى تتيحها له البيئة لاشباع هذه الحاجة ، أى لا بد أن يأتى فعلا ، مثل هذه الأفعال تتكرر طالما أن الحاجة تتكرر · ليس هذا فقط ، بل الأفعال التى نجحت فى اشباع الحاجة تتكرر بنفس الأسلوب ، أى أن هذه الأفعال تؤكد نفسها · وأكثر من ذلك تصبح هذه الأفعال عامة عند الأفـــراد فى بيئـــة معينـــة ، اذ أنهم يقابلون نفس العوامل البيئية أثناء البحث عن اشـــباع حاجاتهم ، واشباع الحاجات بأسلوب واحد معروف يجعلها سهلة · ومن ثم يجد الانسان أن هذه الأفعال قد يسرت له الحياة وعاونته على التكيف سواء مع البيئة الطبيعية أو مع أخيه الانسان ، ومن ثم يحتفظ بها فى ذاكرته كأدوات ميسرة للحياة ، ومن ثم تصبح هذه الأفعال **انماطا سلوكية** اجتماعية لاشباع الحـــاجات ، وهى اجتماعية لأنها أصبحت عامة عند أعضاء المجتمع ·

---

1 — Young, K. and Mack, R. : «Systematic Sociology.» Affiliated East-West press. Ltd. 1972. P. 323.

(فمناشط جمع الغذاء وصنع الأدوات والنوم والمأوى لم تفعل مرة واحدة ، ولكنها تكررت ، واختيرت الأساليب التى اعتبرت أحسن ، وأصبح الأفراد المشتركون منظمين خلال التكرار للفعل الجمعى ، ومن ثم يمكن القول أن الرغبات العامة للجنس البشرى سببت مناشط متتابعة اتخذت لنفسها أنماطا اجتماعية) · (١)

وعند هذه النقطة أحب أن أوضح أن أنماط السلوك الاجتماعية أو العادات الاجتماعية أو الأفعال الاجتماعية المنبعثة من الاشباع المعتاد للحاجات ليست بالضرورة تمت عن وعى ، وبالرغم من ذلك فهى اجتماعية ، اذ يعتبر فيبر Weber الفعل اجتماعيا عندما يوجه الى سلوك الآخرين (٢) · وفى الحقيقة ان أفعال أعضاء الجماعة تؤثر عادة فى المحيطين بهم أو المحتكين معهم فى أى نوع من الاحتكاكات ، سواء كان يقصد الانسان مثل هذا التأثير أم لا يقصده · ولهذا فلا يوجد فعل غير اجتماعى طالما هو صادر عن فرد يعيش فى جماعة اجتماعية ، أوله احتكاك أيا كان مع رفقائه ، فما يفعله انسان يعيش فى جماعة لا بد أن يكون له انعكاس اجتماعى سواء يعلمه هو أو لا يعلمه · فسلوك أى فرد فى جماعة بالضرورة فعل اجتماعى ، ولكن ليس بالضرورة عن وعى ، فليس كل التنظيمات الاجتماعية هى نتاج المجهود الواعى ، فقد يوجد كثير من التنظيمات دون أن تكون قد خططت بوعى لأى هدف · فيمكن أن تنمو درجة عالية من التنظيم بلا وعى ، وأصدق مثل على ذلك قواعد اللغة ، فكثير من الشعوب لا تعرف حتى أن للغتهم قواعد ، وأيضا بالمثل نظام الأسرة نمى بدون أى تخطيط واع) (٣) ·

---

1 — Ogburn, W. and Nimkoff : «A Hand Book of Sociology» Routledge and Kegan poul Ltd London 1953. P. 365

2 — Weber, Max : «The Theory of Social and Economic organization». Oxford, New York, 1947. p. 112.

3 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 365.

ولقد كان يوما مشهودا عندما اكتشف الانسان أن الأهـــداف التى انجزتها افعاله تمت بشكل احسن عندما امتزجت مجهوداته مع مجهـــودات الآخرين من أعضاء المجتمع ، أى أن تعاونهم أدى الى قدرة أكبر على اشباع حاجاتهم بل واسرع واسهل • فهناك منجزات كثيرة لا يستطيع الانسان اتمامها بمجهوداته الفردية ، فهو لا يستطيع أن يقوم وحده بصيد حيوان مفترس كبير ولكنه يمكنه اخذ نصيب اكبر من هذه الأشياء مما يستطيع الحصول عليه بجهده الفردى • ولكن بتعاونه مع الآخرين حصل على نصيب أكبر وبجهد أقل على شريطة أن يسمح لهم بأخذ نصيبهم مثله •

كما أن الحاجات الفردية تتصارع فى نفس الوقت ، فمثلا قد يطلب رجلان نفس الفريسة أو نفس المرأة أو نفس المأوى ، مثل هذا الصراع يهدد اشـباع الحاجات الأساسية بل وجود المجتمع ذاته ، ومن هنا نشأت الحاجة الى أفعال تنظم المنافسة فى داخل هذا النسق الكبير من التعاون ، هذه الأفعال تتخذ الصفة الاجتماعية عندما تصبح مشبعة لحاجة الامن عند أعضاء المجتمع ، هـــذا الاشباع يعطيها تصديقا من أعضاء المجتمع ، ومن ثم تتكرر وتتأسس لمنـــع اندلاع العنف وتصبح انماطا للسلوك الاجتماعى •

وهكذا عمليتى التعاون والصراع أدت الى نشأة أنماط من الســلوك الاجتماعى التى تأسست تدريجيا وتجريبيا كأساليب ناجحة لاشباع الحاجات ثم تجسدت فى أفعال اجتماعية • وهكذا أصبحت النظم الاجتماعية كما يقول الوود Ellwood (النظم الاجتماعية هى ببساطة العادات الاجتماعية التى نسقتها ونظمتها واسستها الجماعات وما زال ملتصقا بها تحريمات قوية •• ومن ثم يمكن تعريف النظم الاجتماعية كأساليب اعتيادية للحيـــاة قوتهـــا بالجزاءات ونسقتها وأقامتها سلطة المجتمعات) (١)

1 — Landberg : «Foundations of Sociology». The Macmillan Comp. 1956. P. 376.

ويمكننا الآن أن نتحدث بتفصيل أكثر كيف نشأت النظم الاجتماعية من الأفعال الاجتماعية ، لقد رأينا كيف أن دوافع الانسان الأساسية وحاجاته أجبرته على أن يفعل ويعبر : أولا كان يفعل بطريقة تلقائية أو ما يمكن أن نسميه المحاولة والخطأ، فاذا كان هذا الأسلوب كافيا لحفظ وديمومة الحياة فالجماعة تقبله وينتقل من جيل الى جيل ، ومن ثم يصبح عادة اجتماعية ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع أن يسميه أساليب شعبية Folkways • وعندما تثبت الأساليب الشعبية ، فهى تنمو راسخة متماسكة وتصبح ذات هيبة وقوة • وعندما تصبح الاساليب الشعبية قهرية آمرة ، والتحول عنها يعزل الفرد عن الجماعة ، وفى نفس الوقت يناله عقوبات شديدة ، عند ذلك تكون قد نمت فى شكل عادة اجتماعية Custom وبالرغم من أن العادات الاجتماعية هى ضبط قوى على سلوك الانسان ، فعادة لا يشعر بها الانسان أثناء عملها ، اذ أنها تؤخذ على أنها مضمونة الصواب • فى نفس الوقت بعض العادات الاجتماعية تصبح موضوعا للتفكير العقلى اذ تقرر أحسن اشكال السلوك المعروفة فى مواجهة حاجة معينة • مثل هذه العادات الاجتماعية تعرف بما يسمى معايير Norms • وعندما تنشأ قواعد محددة وتنظيمات وقوانين وبناء اجتماعى لتقوى وتديم المعايير ، تصبح نظما اجتماعية •

ومعنى ذلك انه لا الأساليب الشعبية ولا العادات الاجتماعية ولا المعايير يمكن أن نسميها نظما اجتماعية ، بل هى بالأحرى ظواهر اجتماعية ، والشيء الذى يجعل من هذه الظواهر الاجتماعية نظما اجتماعية هو ترابطها وتشابكها بعضا مع بعض لتؤلف نسقا واحدا متكاملا ذا درجة عالية نسبيا من الاطراد والرسمية والعمومية (ويكفى أن نكرر اننا نعنى بالنظام نمطا من سلوك جماعة بشرية ونحن نقتصر ونحدد هذا الاصطلاح على بعض الأنماط ، اعنى ، المستقر والرسمى والعمومى نسبيا ، فى مقابل اللامستقر واللارسمى التى سبق أن ميزناها كأساليب شعبية أو عادات أو موضات) (١) • من ذلك يتضح أن الخط

1 — Landberg : «Foundations of Sociology» The Macmillan comp. 1956. p. 376.

الفاصل بين النظم الاجتماعية وسائر أنماط السلوك الاجتماعى هو بالدرجة الأولى درجة عالية من الاستقرار والدوام والاطراد والرسمية والعمومية ۰ فكل مجتمع ينظم السلوك النظامى بأسلوب رسمى أكثر من أنماط السلوك الاقل أهمية وان كان مسموحا بها ۰

ذلك يعنى أن أعضاء المجتمع أثناء مباشرتهم لحياتهم اليومية ينشأ بينهم أنماط من السلوك ، وذلك هو ما نراه ونلاحظه فى المجتمع ، وكلما كان نمط السلوك هاما بالنسبة لأوجه الحياة فى المجتمع ، ازداد السلوك تنميطا وتقنينا (رسميا) ، ويزداد أيضا غرسه فى كل أو معظم أعضاء المجتمع (عمومية) ، وتتناقله خلال التراث الاجتماعى (استمرارا) ، وهنا يمكن تسمية هذا النمط من السلوك بالظاهرة الاجتماعية فاذا تجمعت مجموعة من هذه الظواهر الاجتماعية حول موضوع معين واكتسب درجة عالية من الخصوصيةوالتماسك الداخلى ، انه عادة يعتبر علماء الاجتماع هذا التجمع نظاما اجتماعيا۰ وذلك يقودنا الى ملاحظة هامة ، وهى أن عملية الانتظام Institulization هى مسألة درجة ، بمعنى أن هناك نظما أخرى تقلل كثيرا أو قليلا فى عمومتها أو رسميتها أو اطرادها ، فمثلا هناك فرق كبير بين نظام الأسرة الذى يتمتع بنسبة عالية من العمومية والرسمية والاطراد ، وبين نظام الثأر الذى تتضاءل عموميته فيقتصر على جزء صغير من المجتمع ويستهجنه معظم أعضاء المجتمع العام ، وان كان يطلق على كل من الأسرة والثأر نظام اجتماعى ۰

فالنظم الاجتماعية هى أنماط من السلوك تتجمع حول الحاجات الرئيسية للكائنات البشرية ، وفى تحليلنا للتفاعل الاجتماعى اعتبرنا الأساليب الشعبية والسنن والقوانين والتوقعات المعيارية التى تنشأ من حياة الجماعة تأخذ درجات مختلفة من الاهمية ، وأنها تتكرر ويورثها أعضاء المجتمع للأجيال التالية أى تنقل فى التراث الاجتماعى ، فمعظم هذه الأشكال من السلوك المقننة التى تتجمع حول حاجات بشرية معينة ، توجد فى كل المجتمعات تقريبا ، وهى

ضرورية لتنظيم الحياة الاجتماعية ، وهذه الضرورة تجعلها تتمتع بالاستمرار والاستقرار ، وتعمل هذه الأشكال من السلوك كمرشد للسلوك الانسانى ، ولهذا فالنظم الاجتماعية هى أنماط اجتماعية تقود السلوك المنظم للكائنات البشرية لانجاز أهدافهم ومناشطهم اليومية ٠

فحين يتكلم علماء الاجتماع والانثروبولوجيا عن النظام الاجتمـــاعى فانهم يقصدون على العموم أنماط العمل أو الفعل الاجتماعى التى تحـــدث بطريقة منظمة ورتيبة والتى ترمى الى تحقيق هدف محدد بالذات ، على أساس أن كل نمط من أنماط السلوك له نوع محدد من الأهداف ، وكل هذا يتبلور فى النهاية فى وجود درجة من الاطراد والتقنين فى السلوك الاجتماعى تجعـله يتواءم ويتفق مع المعيار الذى يوجه الناس فى حياتهم وفى أعمـــالهم (١) ٠ ولذلك يعتبر روز Rose أن (النظم الاجتماعية هى الانساق المعيارية التى تنظم السلوك وتحدد العلاقات الاجتماعية فى مختلف وجوه الحياة) (٢) وفى كلمات هملتون Hamilton (النظام الاجتماعى هو رمز لفظى ، وللحصول على وصف أحسن وأوضح هو تجمع لعديد من العادات الاجتماعية وهو يتضمن أسلوبا للتفكير أو العمل ذا تأثير قوى ودائم) (٣) (فما سمى بالنظم هى فى صميمها وأعماقها ليست ببساطة اقساما من المجتمع ، ولكن شبكة من الافكار تتعلق بوجوه معينة من الحياة الاجتماعية قادت كثيرا من علماء الاجتماع المحدثين الى تعريف النظم كأنساق معيارية Normative Systems تجمع من الطرائق الشعبية والمعايير والقوانين ، أو أساليب للفعل تنظم السلوك وتعمل

---

(١) د ٠ احمد ابو زيد : البناء الاجتماعى ، الجزء الاول ـ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٢٦ ٠

2 — Rose, Peter J. : «The Study of Society» Rondom House Inc. N. Y. 1967. P. 523.

3 — Walton H. Hamilton : «Eucyclopaedia of the Social Sciences» Vol. 8., The Macmillan Company N. Y. 1954. P. 84.

على تنظيم وتحديد العلاقات الاجتماعية فى مختلف المجالات (١) · ولهذا اعتبرت النظم أهم عنصر من عناصر البناء الاجتماعى ·

وظيفة النظام
FUNCTION OF INSTITUTION

فالنظم تقدم أساليبا مقننة لأشباع الحاجات المتكررة مثل التناسل والغذاء والمأوى والحماية المتبادلة · ومن ثم يصبح دور النظام هو اشباع هذه الحاجات المتكررة ، وهذا الدور هو مايطلق عليه علماء الاجتماع وظيفة Function النظام (اننى أعنى بوظيفة النظام الجزء الذى يؤديه فى النسق الكلى للتكامل الاجتماعى الذى يعتبر النظام جزءا منه وباستخدامى لعبارة التكامل الاجتماعى ، فاننى أقول ان الوظيفة للثقافة ككل هى أن توحد أفراد الكائنات البشرية فى بناء اجتماعى مستقر قليلا أو كثيرا ، أعنى انساق مستقرة تعرف وتنظم علاقات هؤلاء الأفراد كلا مع الآخر وتقدم ملاءمة مع البية الطبيعية ،، ومواءمة داخلية بين الأفراد أو الجماعات المكونة للمجتمع لتوفير حياة اجتماعية منظمة) (٢) ·

وان كانت الحاجات الانسانية الأساسية هى بواعث النظم الاجتماعية وتقبع وراءها ، فليس معنى ذلك أن كل حاجة اجتماعية يقابلها نظام اجتماعى أى انه لا يمكن ولم يوجد ذلك المجتمع الذى فيه حاجاته الأساسية تتطابق مع نظمه الاجتماعية · ذلك يرجع الى أن الحاجة الاجتماعية الواحدة يمكن أن يشبعها أكثر من نظام ، فمثلا حاجة التربية ليس للنظام التعلمى عليها سيادة،

---

1 — Rose : Op. Cit., P. 524.

2 — Radecleff, A.B. : «The present position of anthropologieal studies» British Association for the advancement of science, Centenary Meating, London 1931. Section H.P. 13.

فهو لا يقوم باشباعها وحده ، ولكن أيضا النظام الأسرى يشبع هذه الحاجة ، وكذلك النظام الدينى بل وأيضا النظام الترفيهى ٠

وبالمثل النظام الاجتماعى وان كانت أنشأته حاجة اجتماعية ، فانه بعد انشائه يخرج من سيطرة هذه الحاجة ، ويصبح له ذاته المستقلة ومن ثم يتجه لوظائفه فى المجتمع دون ما قيد عليه من الحاجة الاجتماعية التى تطلبت انشاءه أو حتى من الناس الذين يمارسونه ، ومن ثم (لا يمكن الادعاء بأن نظاما اجتماعيا ينجز وظيفة واحدة ٠ واضح أن الوظيفة الرئيسية والخاصة للأسرة هى حفظ علاقات عاطفية خاصة بين الناس الأقارب طبقا لعادات اجتماعية معينة ، ولكن الأسرة بدرجات وأساليب مختلفة تعتبر نظاما اقتصاديا ٠ وفى بعض المجتمعات تجهز الأسرة البناء المقبول للرعاية الدينية ، وهى أيضا نظام تربوى حتى أن المربين المهنيين عادة يرجعون فشل التربية الرسمية الى قصور الآباء) (١) ٠

وغنى عن البيان أن المناشط الانسانية كثيرة وعظيمة التنوع ، والرغبات الانسانية غير محدودة ومتجددة ، فاذا أنجز كل نظام اجتماعى وظيفة واحدة فقط ، فمعنى ذلك أنه يستزم عددا كبيرا جدا من النظم لاشباع الحاجات الانسانية ، بينما الملاحظ فى الواقع الاجتماعى أن نظاما اجتماعيا واحدا ينظم أصلا لانجاز وظيفة ما ، ولكنه بعد ذلك يتجه الى انجاز وظائف متعددة ومتنوعة سواء عن قصد أو غير قصد ، وهذه الحقيقة تتميز بها النظم الاجتماعية الكبيرة ، فالنظام الدينى هو أصلا نظام للعبادة ، ولكنه أيضا ينظم الأخلاق وينظم كثيرا من الأمور الصحية ، وتباشر بعض مؤسساته التدريس ٠

ذلك يرجع الى أن (النسبة الكبيرة من النظم الاجتماعية ذات طبيعة مركبة ٠ وتعبر عن أهداف متعددة وسلسلة كبيرة من النظم الاجتماعية

---

1 — Hughes, E. CH. : «Institutions». In Alfered Lee, «Prencipal of Sociology. P. 230.

التفصيلية · هذه النظم ذات الطبيعة المركبة يمكن تحليلها الى عنـــاصرها الجزئية التى تعبر كل منها عنأحد أهداف النظام · ومن ثم يمكن تحليل نظام الزواج فى مجتمع معين من المجتمعات البدائية الى هذه العناصر : الصداقة ، والمهر ، والاحتفالات ، والعلاقات الجنسية ، والمحرمات ، وتقسيم الملكية ، والترمل وأخيرا الطلاق ··· العناصر فى أى نظام اجتماعى تتماسك معـــا بطريقتين ، أن كلا منها تحتاج الآخر عمليا Pragmatically وذلك لتحقيـــق أهدافها المتعددة ، ولهذا فانها تقع فى وحدة وظيفية · وأنها أيضا كجزء من الأفعال تلائم وتعين اتجاها قصديا شاملا يبدو ملتصقا بالنظام) (١) ·

وهذا يوضح فكرة التداخل فيما بين النظم الاجتماعيـــة ، أى أن النظم متشابكة الى حد يتعذر معه على الدارس أن يقرر لأول وهلة وبصفة قاطعة ، ما اذا كان هذا النمط أو ذاك من السلوك هو خاص بنظام معين ، وليس له علاقة أو أثر من نظام آخر،مما يؤكد أنه لا يمكن دراسة نظام ما بعيدا عن سائرالنظم، ومن ناحية أخرى يؤكد ان المجتمع ما هو الا بناء اجتماعى وحداته النظـــم الشديدة التداخل والتشابك · وهذا ما دعى هيوز Hughes الى القول (بأن لا نظام ، مهما صنف يمكن فهمه فى عزلة ، فالكنيسة ، نحن نقول ، هى نظام دينى ، ولكن يعتمد وجوده على نظم أخرى ، وعلى أجزاء غير رســـمية من ثقافتنا ، فالاتجاهات الدينية التى تتبناها الكنيسة ليست لاهوتا فقط · ولكن أيضا كمواضيعلها ملامح من النظام الاقتصادىوالنسق السياسىوالأسرة)(٢) ·

ولا يعنى ذلك أن كل نظام ليس له وظيفة رئيسية ينجزها ويكون مسئولا عنها فى المجتمع بالدرجة الأولى · وهذه الوظائف هى التى تعطى النظـــام اسمه فى المجتمع · وعادة يسمى علماء الاجتماع هذه الوظائف الرئيســـية

1 — Nadel, S.F. : The Foundations of Social Anthropology» Cohen and West, L.T.D., London, 1953. P. 107.
2 — Hughes : Op. Cit., P. 231 — 232.

للنظم بالوظائف الظاهرة للنظم فالنظام الدينى وظيفته الرئيسية هى العبادة ، والنظام التربوى هى تربية أعضاء المجتمع والنظام الأسرى هى تقديم الأعضاء الجدد للمجتمع (الأنسال) ، والنظام الاقتصادى انتاج وتوزيع واستهلاك السلع ، والنظام القانونى هو توفير الأمن لأعضاء المجتمع ، ورغم ذلك ، فكل من هذه النظم تشبع حاجات متعددة ، كما أن كل حاجة اجتماعية كالعبادة ، أو التربية أو الأمن تشبعها أكثر من نظام . وهذا ما جعل مالينوفسكى Malinowski يقول : (ان الوحدات الحقيقية لعناصر الثقافة التى لها درجة عالية من الدوام والكلية والاستقلال ، هى الأنساق المنظمة للمناشط الانسانية وتسمى نظما . وكل نظام يدور حول حاجة أساسية ، وباستمرار توجد جماعة من الناس فى عمل تعاونى ، ولهم مجموعة خاصة من المعتقدات والأساليب الفنية، وليست النظم مرتبطة ببساطة ومباشرة بوظائفها ، فقد لا تنال احدى الحاجات اشباعا واحدا من نظام واحد . ولكن النظم تظهر اندماجا واضحا للوظائف)(١)

مثل هذه الاعتبارات قادت علماء الاجتماع أمثال دوركيم وشابين Chapin وميرتون Marton الى التمييز بين الوظائف الكامنة Laten والوظائف الظاهرة Manifest . فتشير الوظائف الظاهرة للنظم الى النتائج المقصودة والمعروفة للنمط السلوكى ، وتشير الوظائف الكامنة الى النتائج غير المقصودة وغير المعروفة . واذا أردنا التدقيق فى التمييز بين الوظائف الظاهرة والكامنة ، فان ذلك يتضح اذا استخدمنا المثل الذى ضربه ميرتون ليوضح لنا ما يعنيه بالوظيفة الظاهرة وتلك الكامنة ، فيقول (اذا أراد باحث أن يدرس الوظائف الظاهرة فلا بد عندما ينظم تجربة من أجل غرض خاص أن يحدد : هل أنجزت التجربة فى الحقيقة هذا الغرض . مثلا سوف يبحث ، هل أنجز نظام جديد من دفع الأجر أغراضه المقررة من تقليل لانقلابات العمال أو زيادة الانتاج . سوف يسأل هل نجحت حملة دعاية حقيقية فى تحقيق موضوع زيادة

1 — Malinowski, B. : «Culture» Encyclopaedia of the Social sciences, 1931. P. 626.

الرغبة فى الحرب أو الرغبة فى شراء سندات الحرب(١)· مع التسليم بمفهوم الوظائف الكامنة يتابع ميرتون حديثه ان الباحث لا يختبر فقط الخبرات الاجتماعية المعتادة ، ولكن يقول ميرتون (ان نتائج برنامج حملة الدعايةليس تضخيم الغرض المقرر ، وهو اثارة الحماس الوطنى ، ولكن أيضا جعل عدد كبير من الناس يأبون مناقشة عقولهم عندما تختلف آراؤهم عن السياسة الرسمية (٢) وميرتون يقصد هنا أن الوظيفة الظاهرة لحملة الدعاية ليس هى اثارة الحماس الوطنى لزيادة الرغبة فى الحرب أو شراء سندات الحرب، ولكن الوظيفة الكامنة هى منع عقول الناس من مناقشة شرعية الحرب التى قررتها الهيئات الرسمية ·

ويذهب ميرتون الى أن التمييز بين الوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة يؤدى الى تحقيق أهداف هامة فى البحث الاجتماعى · اذ أنه يساعد على تحليل الأنماط الاجتماعية التى تبدو للباحث أنها خرافية وغير منطقية ، كما يساعد على تفسير كثير من العادات والتصرفات الاجتماعية التى تصدر عن الناس دون هدف واضح لها · ويظهر هذا واضحا فى المجالات التى يحاول فيها بعض الباحثين الوصول الى تفسير منطقى مقبول لبعض العادات غير المألوفة لهم فيصفونها بأنها أمور خرافية أو أنها مجرد بقايا ومخلفات من الماضى البعيد · فمثلا تمارس قبائل اللوبى بعض المراسم والطقوس لاستنزال المطر ، ولقد يكتفى بعض البحاث الغرباء عن المجتمع بأنها مجرد مسائل خرافية دون محاولة البحث عن تفسير مقنع لها ، بينما باستخدام فكرة الوظيفة الكامنة فى تفسير هذا النوع من السلوك يعاون فى البحث عن الوظيفة التى تؤديها هذه الشعائر للمجتمع ، اذ يرى ميرتون أن مثل هذه الطقوس والشعائر تعمل على زيادة قوة شخصية الجماعة فهى تعمل على تجمع أعضاء المجتمع المبعثرين بقصد أداء هذه الشعائر ، ذلك يعنى أن فكرة الوظيفة الكامنة قد أعطت لنا شرحا للسلوك الذى كان يبدو غير معقول لأول وهلة ·

---

1 — Merton, R. K. : «Social Theory and Social Structure», The Free Press, 1957. P. 65—66.
2 — Merton : Op. Cit., P. 65 — 71
Marton : Op. Cit., P. 65—71.

كما يذهب ميرتون الى أن البحث عن الوظيفة الكامنة يقتضى من الباحث التعرف على ما اذا كان النظام أو النشاط الاجتماعى الذى يمارسه افـــراد المجتمع للوصول الى غرض معين قد حقق هذا الغرض ·

ويذهب ميرتون الى القول بأنه فى اللحظة التى ينقل فيهـــا الباحث الاجتماعى اهتمامه وتفكيره من مستوى الوظيفة الظاهرة الى مستوى الوظيفة الكامنة يكون قد حقق أهم جانب فى رســـالة العلم · اذ يؤدى البحث عن الوظائف الكامنة الى وظائف ملموسة فى معلوماتنا الاجتماعية، فكثيرا مايؤدى البحث عن الوظائف الكامنة عن وجود وظائف للسلوك الاجتماعى تتناقض تماما مع الآراء الشائعة والمعروفة بين الناس ، مما يعنى أن الوظائف الكامنة قد تناقض الوظائف الظاهرة (١) ·

وقدم أرنولد روز Rose شرحا للوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة· فالوظيفة الظاهرة هى التى تظهر وكأنها وظيفة النظام المقصود عمدا · ويعتبر أن الوظائف الكامنة هى نتائج مطردة لمناشط النظام ولكن غير مشعور بها ، اذ عادة لا يشعر الممارسون للنظام بهذه الوظائف ، ولـــكن يدركهـــا فقـط الملاحظون من خارج النظام والذين يشاهدون الآثار المتكررة لنشاط الجماعة ، وان كانت ليست واضحة فى المناشط المقصودة للجماعة أو المعلن عنها ·

ويضرب أرنولد لذلك مثلا بالمدرسة كنظام اجتماعى ، فيعتبر أن المعانى المتضمنة فى المدرسة هى تعريف بالكتب وسبورة وامتحان للانتقال من سنة دراسية الى أخرى ، فبينما القيم المفروض أن يعرفها الطالب لينتقل من سنة الى أخرى ، هى الاحترام الواضح للمدرسين والمشاركة فى مناشط دراسية اضافية · والنظام ككل هو أداة لانجاز بعض القيم العالية والمنتشرة والتى وظائفها واضحة · فالوظيفة الظاهرة للمدرسة هى تقديم مهارات أساسية معينة

---

(١) د · احمد ابو زيد : المرجع السابق ذكره ص ١١٣ ـ ١١٧

لكل الأشخاص وتمد الأطفال بالمعلومات التى ستجعل منهم مواطنين أذكياء عندما يصبحون بالغين ، وتعاون فى التدريب المهنى ، واستمالة بعض الصغار للشغف بالعلم الذى سيجعل منهم فى المستقبل علماء • وبينما الوظائف الكامنة للمدرسة من الصعب مشاهدتها أو اثباتها أو الحديث عنها ، طالما أنها بطبيعتها الذاتية خفية بعض الشيء • ولقد تكون احدى الوظائف الكامنة للمدرسة هى تنمية أنواع من الولاء عند التلميذ لاتجاه أو فكرة معينة •ولقد يقال ان المدارس العامة لها وظيفة كامنة وهى وضع الأطفال من مختلف الجماعات الجنسية والمستويات الاجتماعية الاقتصادية فى احتكاك كل مع الآخر (١) •

وقد يتوافق هذان النمطان الى درجة كبيرة ، فاذا كان كذلك ، يحتمل أن يكون هناك درجة عالية من التكيف تظهر الى الوجود فى الأمور التى تحكمها هذه الأنماط ، ومن ناحية أخرى قد يكون النمطان عمليا متبادلا المنع ، أى يمنع كل منهما الآخر عن أداء وظيفته ، اذا حدث هذا ، قد تكون النتيجة صراعا واضحا عندما يشرع كل من النمطين فى أداء وظيفته أوركودوجمود أحد الأنماط لحساب الآخر • مثل هذا الجمود اذا حدث للنمط الكامن قد يصل به الى حد الطمس المؤقت أو الدائم • أما الجمود اذا حدث للنمط الظاهر يعنى ان هناك بناءا مستمرا فى الوجود ولكنه توقف جوهريا عن أداء وظيفته ، ولكن مستمرا مظهريا فى المناشط الرسمية والحفلات ، هذه الأنماط النائمة أو التى لا تؤدى وظائفها تمثل قنوات النشاط السابقة التى تكون ساكنة نسبيا أو تفككت، فهى مثل القنوات التى لم يعد النهر يجرى فيها ، أو يجرى فيها قليلا جدا ، أو بصفة غير دائمة ومتقطعة ، وغالبا هى نظم قائمة ، ولكن لا تؤدى وظائف (٢) •

---

1 — Arnold Rose : «The study of Huaman Reletions». 3ed Ed., Alfred A. Knopf, N. Y. 1969. P. 155—156.

2 — Lundberg : «Foundation of Sociology». P. 379—380.

واحب ان أزيد الوظيفة الكامنة تفسيرا وايضاحا الى جانب التفسيرات التى سبق أن عرضتها · وانطلاقا من مفهوم النظام الاجتماعى وما اتفق عليه علماء الاجتماع من أنه مجموعة من الأنمـــــاط السلوكية التى أشبعت حاجة اجتماعية فاكتسبت التصديق والقبول من أعضاء المجتمـــــع فتكررت وسنت ووضعت لها القواعد والجزاءات وأصبحت ضرورية للحياة الاجتماعيـــة · ولهذا فكل الوظائف التى يؤديها النظام هى اشباع لحاجات انسانية أساسية اجتماعية ، ومن ثم فهى وظائف ظاهرة عند مؤسسى النظام ، ولكن بمــــرور الزمن وتوارث الأجيال للنظام ، تختفى تدريجيا الفكرة الأساسية التى أنشىء من أجلها النظام باختفاء مؤسسيه والجيل التالى الذى عاشرهم ،وتصـــبح الأجيال التالية تمارس النظام دون أن تدرك السبب الحقيقى لذلك النظام ، فمثلا فى النظام الطوطمى الذى يدعو الى الزواج من الخارج ، والوظيفـــة الكامنة لنظام الزواج من الخارج كما يقول ميرتون هى انشاء علاقاتاجتماعية واقتصادية بين الجماعات الاجتماعية · وأصبحوا يمارسونه اعتقادا منهم أنه اذا تم الزواج من الداخل فيه اغضاب للطوطم وتحل بهم نقمته ، أى ألصق الرجل البدائى بنمط السلوك تحريما دينيا ليضمن مؤسس النظام عدم خروج الأجيال المتعاقبة عليه ، وأصبحت الوظيفة الظاهرة وهى العمل على انشاء علاقات اقتصادية واجتماعية مع الجماعات المجاورة هى الوظيفة الكامنة ، وأصبح ارضاء الطوطم هو الوظيفة الظاهرة ، ذلك لأن هذه الأجيال لم تر الصراعات بين الجماعات التى أوحت لأجدادهم الأوائل بانشاء هذا النظام ·

تغير الوظيفة :

وتقودنا هذه النقطة الى فكرة تغير وظائف النظام ، فوظائف النظـــام ليست جامدة طالما أن النظام جزء من المجتمع الدائم التغير فهى أيضا يجـرى عليها ما يجرى على الكل من تغير · فقد تنقص وظائف النظام أو تزيد ، أو تأخذ

شكلا جديدا تماما ، أى يمارس النظام نشاطا يختلف تماما عما كان يمارسه من قبل ٠

فمثلا من ناحية تناقص وظائف النظام ، فالأسرة فى المجتمعات القديمة والمجتمعات البدائية حيث لم يكن هناك فى المجتمع الا النظام الأسرى والنظام الدينى ، ومن ثم كان على النظام الأسرى أن يشبع كافة حاجات أعضـــــاء المجتمع ٠ ولهذا كان النظام الأسرى يقوم بكل الوظائف ـ من تربوية واقتصادية وسياسية وحتى حربية ـ وبتطور المجتمعات وكبرها وزيادة التخصص ، لم يعد النظام الأسرى فى قدرته اشباع حاجات هذه المجتمعات الكبيرة ، فمن ثم نشأت نظم أخرى لتقوم بالوظائف التى عجزت الأسرة عن أدائها مثل الوظيفة الاقتصادية (المصانع) الوظيفة التربوية (المدارس) الوظيفـــة السياسية (الحكومة) الوظيفة الحربية (الجيوش) ، وأصبحت وظيفتها الرئيسية فى المجتمعات الحضرية هى التنشئة الاجتماعية والأنسال أى مد المجتمع بالأعضاء الجـــــدد ٠

أما من ناحية تزايد وظائف النظام ، فالنظام الصناعى عند نشأته فى القرن الثامن والتاسع عشر كانت وظيفته هى انتاج السلع ، ولكن سرعة التغير التكنولوجى والمنافسة بين الصناعات فى القرن العشرين جعـــلت كثيرا من المصانع الكبرى تتولى وظيفة البحث العلمى ، فأنشأت مراكز للبحث العلمى تتبعها ، وأيضا كثير من المصانع تقوم الآن بالوظيفة التربوية أيضا ، فأنشأت فصولا لمحو الأمية ومراكز للتدريب المهنى ٠

أما من ناحية تحول النظام تحولا كليا عن وظيفته التى أنشىء من أجلها الى وظيفة أخرى مختلفة تماما ٠ فنظام الطوائف المهنية الذى نشأ فى روما القديمة أنشأه الامبراطور ليقضى على التناحر بين القبائل التى كانت تتكون منهم روما ، بمعنى أن يتجمع الحدادون مثلا من جميع القبائل فى طائفة الحدادين حتى يتناسوا التقسيم الجغرافى الاقليمى والنعرة القبلية وبذلك تتوحد روما ،

وبعد أن تم توحيد روما واتسعت الدولة الرومانية أصبحت روما مجتمعـــا واحدا ، ومعنى ذلك أن وظيفة النظام توقفت ، وكان على النظام أن يزول بزوال وظيفته لأن الحاجة التى كان يشبعها زالت فلم يعد المجتمع فى حاجة اليه (١)٠ ولكن بناء النظام ما زال موجودا فبحث لنفسه عن وظيفة أخرى ، وهى رعاية مصالح أبناء الطائفة الواحدة ، بمعنى أن طائفة الحدادين ترعى مصــــالح الحدادين وهكذا ٠

ذلك ما جعل أوجبرن Ogburn يعتبر أن أحد المظاهر الهامة للتطور الثقافى هو التعديل لوظيفة نظام بينما بناؤه يقاوم ٠ فعادة البنـــاء لا يتغير مثلما تتغير الوظيفة ٠ وربما يوضح هذا صعوبة عمل أو اختراع بناء اجتماعى جديد ٠ وتسمى هذه الظاهرة فى بعض الأحيان القصور الذاتى الثقافى ، أو قوة الاستمرار الثقافية Culturalinertia ٠وان كان هناك قوة استمرار أيضا فيما يختص بتغير الوظيفة ، الا أنه غالبا يتغير البناء أقل بسبب أن هناك حاجة أقل الى تغييره لأن نفس البناء يمكن عادة أن يخدم أغراضا كثيرة (٢) ٠

مثلهذه الاعتباراتقادت عالم الاجتماعلندبرج Lundberg الى اعتبار (أن كلمةالبناء Structure تستعمل لوصف الوجه المستقر والثابت نسبيا للنظام والوجه الديناميكى يسمى الوظيفة ، فىكلمات أخرى البناء هو وظيفة ثابتة ، والوظيفة هى سلسلة من بناءات سريعة التغير) (٣) ٠

وفى الحقيقة أنه عندما ندرس النظام ، نحن ندرس (أ) أنماط سلوك اجتماعى ، بينما من أجل الأغراض التحليلية ربما ندرس (ب) البناء والوظيفة منفصلين، فالكلمتان تشيرانفقط الى مظهرين لنفس الظاهرة ، فكل من البناء

---

(١) ــ د ٠ حسن سعفان : أسس علم الاجتماع ٠ دار النهضة العربية ، القاهرة ٧١ ــ ١٩٧٢ ص ٧١ ــ ٨٠ ٠

2 — Ogburn and Nimkoff : «Hand Book of Sociology» p. 493.

3 — Lundberg : «Sociology» P. 523.

والوظيفة هما الحالة التى يكونان عليها فى أى موقف معين بسبب ظروف الحياة (طبيعية أو اجتماعية) التى من أجلها وبسببها يحيا النظام · وربما ظهور اصطلاح (بناء ــ وظيفة) فى علم الاجتماع صمم ليؤكد هذه الحقيقة وهى انهما وجهان لشىء واحد تطلبته الحياة · ان كان كذلك فهذا يؤكد ويوضح أن أى دراسة علمية فى علم الاجتماع هى بالضرورة بنائية وظيفية (١)
. Structural fanctional

1 — Ogburn and Nimkoff : «Hand Book of Sociology» P. 493.

بنـــاء النظـــام

STRUCTURE OF INSTITUTION

وبناء النظام الاجتماعى له اهمية قصوى فهو الذى ينفـــذ الوظائف النظامية . ولقد اختلف علماء الاجتماع حول ماهية بناء النظام ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته عناصر النظام أى العناصر التى يتكون منهـــا بناء النظام ، الا أن معظم علماء الاجتماع اتجهوا الى الاخذ بوجهة نظر عالم الاجتماع سمنر Sumner الذى يرى أن بناء النظام يتكون من هيئة Personnel ومعدات أو أدوات Equipment وتنظيم Organaization وشعائر Ritual (1) ويعرض عالم الاجتماع أوجبرن وجهة نظر سمنر فى الكلمات الآتية (نعنى بالهيئة الأعضاء الاكفاء للجماعة ، بمعنى أولئك الذين تعرفهم الجماعة على أنهم المنتمين للنظام وكمعارضين للخارجين ، فكرة الشرعية بينما تســـتعمل بصفة عامة فيما يتعلق بالأسرة الا أنه واقعيا يستمسك بها من أجـــل النظم الأخرى أيضا ، لأن كل النظم تميز بين الأعضاء الشرعيين وأولئك الذين هم غير شرعيين ، وقصد سمنر بالمعدات ، الأجهزة والآلالات Opparatus التى يستخدمها الاعضاء فى أداء وظائفهم ، فهى كل ممتلكات الجماعة ، كل من المادى واللامادى . فمثلا فى حالة الأسرة المعدات المادية قد تتضمن الأرض والمنزل ، والأدوات المنزلية ، وتختلف الممتلكات المادية باختلاف الثقافات . قد تشتمل الممتلكات اللامادية للأسرة على اسم الأسرة وسمعتها ومكانتها . وتنظيم نظام ما ، هو الحالة التى رتبت فيها هيئته ومعداته ، مثـــل الأسرة البطرياركية يسود فيها الاب والأسرة الأمومية تسود فيها الأم.وأخيرا الشعائر لنظام اجتماعى تتكون من عاداته والقواعد والحفلات التى تنظم المســـلوك

---

1 — Summer : Folkways, P. 53.

النظامى للأفراد، فمثلا هناك شعائر محددة لتشكيل أسرة مثل حفلة الزواج ، كما أن هناك طقسا خاصا لفك الزواج وهو الطلاق) (١) ·

والآن نتكلم بالتفصيل عن كل عنصر من عناصر النظام :

هيئة النظام
PERSONNEL

نعنى بهيئة النظام أولئك الأفراد الذين يمارسون عمليات النظام وينتسبون اليه اجتماعيا ، فالمدرس مثلا ينتسب الى النظام التربوى ، ولذا يحمل اسم دور رئيسى فى النظام وهو المدرس · فالمناشط الأكثر تخصصا فى نظام ما يقوم بها الممارسون Functionaries الذين يشغلون المناصب Offices فى النظام ، والمنصب النظامى يتكون من مجموعة محددة من الحقوق والواجبات فهو مكانة اجتماعية ودور يضع على عاتق شاغله واجبات معينة وفى نفس الوقت يعطيه الحق فى مباشرة بعض الوظائف ،وهى ثابتة لشخص شاغل المنصب ، ولكن لها قابلية النقل لشخص آخر ببعض الأساليب المقبولة اجتماعيا · هذا لا يعنى أن أبا مثلا فى النظام الأسرى يمكن أن يحل محله أب آخر فى الأسرة بسهولة أو تماما لأن الاتصال الشخصى والعلاقات العاطفية تصبح عظيمة فى مثل هذا النظام · ولكن فى نظم أخرى يمكن أن يتغير الممارسون بسهولة أكثر ، مثل المدرس فى النظام التربوى ممكن أن يحل مكانه مدرس آخر ، وهذا يحدث فى معظم النظم الأخرى ·

ولهذا ينظر الى المناصب فى النظم على أنها لا شخصية من ناحيتين : الأولى أن المنصب اقدم من الفرد الملقى على عاتقه القيام به كما انه متوقع أن يعيش المنصب بعد الشخص · ثانيا ، كل من ألقى على عاتقه الدور يتوقع منه أن يسلك داخل حدود معينة كما كان يفعل سابقوه · ويلاحظ أن المناصب الشعائرية Ritual Offices هى لا شخصية أكثر ، اذ يتكلم الملقى على عاتقه

---

1 — Ogburn : Op. Cit., P. 265—366.

مثل هذا الدور بعبارات موضوعة ليس حرا فى تغييرها ، مثل رجل الدين • ويحكم على الشخص شاغل المناصب بتوقعات المنصب ، فطالما هو متطابق معها فهو بعيد عن النقد الشخصى •

ولا يعنى ذلك أن تلك الأدوار أو المناصب ليس لها الوجه الشخصى على الاطلاق ، ولكن فى الحقيقة هناك ناحية شخصية تظهر فى هذه المناصب ، اذ أن ملء المناصب يتطلب اثبات الذات الواعية للدور، فالمنصب هو جزء من خبرات الشخص ، كما أنه قد تتحد مع الدور عواطف عميقة ، كما أن الشخص قد يغير صفات المنصب بأسلوبه فى أدائه لدوره (فليس كل شخص ممارس فى بناء اجتماعى لنظام ما له نفس السلوك مثل كل شخص آخر يؤدى نفس الدور ، فمعظم حياته الاجتماعية تقع خارج السلطة المباشرة لنظام اجتماعى واحد ••• وهكذا كل منا يحضر شخصيته فى أى جماعة يشارك فيها • فكلنا قد نتطابق مع سنن النظام الرئيسية ، ولكن سلوكنا قد يختلف فى كثير من طرائقه الصغرى • فمن الواضح أن امرأتين كوالدتين قد تسلكان سلوكا مختلفا تماما خلال هذا الدور) (١) •

كما أن هذه الأدوار (المناصب Offices) تختلف من ناحية الفرصة التى تتيحها للممارسين من ناحية المبادأة الشخصية، وأيضا فى كمية المسئولية الملقاة على عاتق الممارس لتحقيق النتائج • فمثلا يتمتع ملك انجلترا بمقام كبير ، ولكنه لا يضع السياسات للدولة ، بينما رئيس الوزراء له مقام أقل ولكن يتوقع النظام السياسى منه أن يحقق نتائج هامة للنظام • وان كان كل من الملك ورئيس الوزراء يعتبران من هيئة النظام السياسى •

وعند هذه النقطة أحب أن أقدم تمييزا هاما آخر ، فهناك نموذجان من الأفراد يعملون فى النظم ويتأثرون بها ، هؤلاء هم المنتجون والمديرون • حيث يعمل المنتجون عمل النظام ، بينما يدير المديرون النظام متضمنا المنتجين •

---

1 — Young and Mack : Op. Cit., P. 339.

ويلاحظ أن هناك طبقات فرعية كثيرة تحت كل من هاتين الطبقتين ، والمنتجون هم العلماء المتخصصون ، أما المديرون فهم المراقبون أو رؤساء العمل . أما الطبقات الفرعية تحت المديرين فهم من السكرتيرين الى السعاة ، وهذا ما يسميه فبر Weber الرئيس وموظفوه الاداريون . هذه الطبقات هى نتيجة احتياجات العمل ، ومن ثم فهى اقتصادية ، اذ أن بعض المهارات نادرة عن الأخرى ، ولهذا فلا بد أن تكون مكافآتها أحسن .

المنتجون هم الرجال المهنيون ، منهم الفنانون والعلماء والأطباء والمهندسون ، أولئك الذين بتدريب مهنى ينجزون بعض الأعمال التخصصية المطلوبة ، وفى معظم الحالات لهم خبرات فنية عالية . بينما يشكل المديرون تلك الطبقة التى أصبحت ذات ميزة كبيرة حديثا فقط : فهم الرجال النظاميون تماما . فهم يديرون النظام أكثر من انجاز وظائفه ، فمثلا مدير المستشفى لا يعمل على علاج المرضى ، ورئيس الجامعة لا يدرس ، وعضو مجلس الادارة فى شركة لصناعة السيارات لا يصنع السيارات . ولكن أصحاب هذه المناصب Offices بدونهم لا يمكن أن توجد العلاقات المتداخلة المحكمة الدقة فى النظم الكبيرة فى المجتمعات الحديثة المعقدة .

مما يساعد على فهم النموذجين من رجال النظام أن نقابلهم ببعض : المنتجون أو المهنيون مرتبطون بأعمالهم . فهم لا يمكن استبدالهم بغيرهم ، كما أنهم لا يستطيعون عمل شىء آخر ، ولكنهم بالطبع لا يقدرون بثمن ، (فهم يستمدون مستقبلهم وحياتهم من النظام ، ويفسرون معنى حياتهم فى مفاهيم من قيمة النظام للمجتمع ، ويحملون الجسم الرئيسى من التقاليد والأساليب الفنية) (١) . فالجوهر الضرورى لجامعة كبيرة هم المنتجون الأذكياء أى المعلمون ، وقلب المستشفى هو الطبيب الماهر .

ولكن لنتأمل ، فى مقابل هؤلاء الرجال وأدوارهم : المديرون الذين هم

1 — Hughes : Op. Cit., P. 262.

الرجال النظاميون فهم الى حد كبير قابلون للاستبدال • فرئيس نظام ما يمكن أن يدير نموذج آخر من النظم • فمثلا رئيس جامعة لن يجد صعوبة كبيرة أو وقتا طويلا لادارة مستشفى • لأن المشاكل سوف تتشابه الى حد كبير وبعيد • فهيئة الادارة تراقب الميزانية ، وتقود عملية المحافظة على المبانى والاضاءة بكفاءة • هذه الوظائف لا تتغير كثيرا من نظام الى نظام • ولكن ليست الحالة كذلك بالنسبة للمنتجين والمهنيين ، فعمليات الانتاج تختلف من نظام الى نظام• أى أن المنتجين محددون بالنظام بينما المديرون يمكنهم التنقل بين النظم ، ولا يعنى ذلك أن دور المديرين ليس ملتصقا بالنظام ، بل على العكس فدور المدير هو أكثر التصاقا بالنظام ، بل لو أمعنا الفكر أكثر لتبين لنا أن دور المدير هو من صنع النظام • فعندما كانت الثقافات غير معقدة ولم تكن تقدمت الى هذه النقطة التى نمت عندها النظم نموا عظيما لم تكن هناك حاجة الى دور المدير ، فلم يكن هناك ما يسمى رجل نظام • هذا الدور وهذه الطبقة نشأت كنتاج لتعقد وتضخم النظم ولم تكن موجودة قبل ذلك •

وعلى هذا الأساس فانى أعتبر أن هيئة النظام هى فقط أولئك الأفـــراد الذين يكسبون حياتهم منه والذين يعطونه أكبر جزء من وقت عملهم ، والذين ينتسبون الى النظام اجتماعيا • (وأى تغير أساسى فى أى فئة من هذه الفئات من الأشخاص سوف تؤدى الى تغير فى النظام) (١) •

وعند هـــــذه النقطـــــة يلزم التمييز بين رجل النظام الضرورى أى الممارس Functionary ورجل النظام الطارىء أى المشارك Participant ولقد عرفنا الممارسين فى الفقرة السابقة ، أما رجـــــل النظام الطارىء أو المشارك ، وهو الذى حدث وان كان النظام ــ لسبب أو لآخر ــ ميدانالاهتمامهم• اذ كثيرا ما (تشارك فئات عديدة من الأشخاص فى نظام أو على الأقل لهم علاقات احيانا مع النظام) (٢) فمثلا المدرس هو ممارس فى النظام التربوى

1 — Hughes : Op. Cit., P. 262
2 — Ibid., P. 261.

ولكن مشارك فى النظام السياسى عندما يدلى بصوته فى الانتخابات أو عندما يتابع عمل الحكومة عن طريق وسائل الاعلام ، وبالمثل المهندس ممارس فى النظام الصناعى ومشارك فى النظام القضائى عندما يكون له قضية مطروحة فى المحاكم ، وايضا يكون مشارك فى النظام التربوى عندما يكون له أبناء فى المدارس ، ومشارك أيضا فى النظام السياسى • وهذه النقطة توضح أيضـــا مدى التشابك بين النظم ، اذ أن عضو المجتمع ولو أنه ممارس فى نظام من النظم الا أنه مشارك فى معظم النظم الأخرى ، أى أن عضو المجتمع قد يؤدى أكثر من دور فى أكثر من نظام •

وهذه النقطة توضح لنا الطبيعة التجريدية لفكرة هيئة النظـــام فعندما نتحدث عن هيئة النظام بالطبع يكون فى عقولنا الأفراد البشريين ولكن ليس كل الفرد البشرى وانما فقط قدرة معينة فيه ، أى وظيفة معينة فيه والتى قد تطلب أولا تنمية • فهيئة النظام هى اصطلاح تجريدى تماما مثل اصطلاح النظام نفسه • وما يؤيد هذه النظرة هو عدد النظم التى يعد فيها نفس الكائن البشرى من بين الهيئة العاملة ، فمثلا يمكن أن يكون رجلا معينا مهندسا فهو ممارس فى النظام الصناعى ، ودافع ضريبة ، وعضو فى مجلس ادارة جمعية خيرية وأب ، فهو مشارك فى هذه النظم جميعا .

وهكذا عمل الانسان كجزء من هيئة نظام معين ، هو وجه واحد فقـــط لمناشطه المختلفة • ذلك يعنى أن هناك نظاما ينتمى اليه الانسان أوليا ويصبح هذا النظام نظامه وينتمى اليه اجتماعيا ويشعر بعضويته فيه عن أى نظـــام آخر ، ويعمل له أكثر من أى نظام ، ويكون ولاؤه لهذا النظام وله معه علاقات عاطفية • أما عضويته فى النظم الأخرى فهى مشاركة عرضية
Occasional participation

وهناك نوعآخر من المشاركة تعرض حالة أقوى لمعنى التجريد وهى المشاركة الغائبة • قد يكون رجل مديرا لعدد من المؤسسات ، ولو أنه لا يكون حاضرا

فى أى منها · أو قد يكون مالكا اساسيا لمؤسسة ولكن لا يعمل فيها ، فى كل من الحالتين ينجز هذا الانسان وظائف فى النظام ·

وهكذا نحن نعنى بهيئة النظام أولئك الأفـــراد البشريين الممارسين لعملياته ، والذين يؤثر فيهم النظام وينتسبون اليه اجتماعيا وبينهم علاقات عاطفية وروابط من الولاء للنظام ولقادة النظام ، لم تكن موجودة بينهم لولا أنهم أعضاء فى النظام · كما انهم يشعرون انهم أجزاء من بناء هذا النظام ، وتتأثر به اتجاهاتهم وسلوكهم ·

المعـــــدات
EQUIPMENT

كل نظام على حده له نوع خاص من المعدات والأدوات التى يستخدمها فى أداء وظائفه : والمعدات فئة كبيرة تتضمن كل شىء صنعه أو يســـتعمله الانسان · فكل الثقافات يمكن النظر اليها كتجمعات من قطع المعدات النظامية Institutional Equipments ، ولهذا علينا أن نضم سطح الأرض بل وأيضا مسافة أعلى ومسافة تحتها ، اذ يجلب البترول من أميال تحت سطح الأرض ، وكذلك الهواء على مسافة أميال فوق الأرض · ذلك ان الاستخدام الاجتماعى لأى قطعة من المواد يحيلها الى معدات للنظام · يندفع البترول الى سطح الأرض فى بعض المناطق تلقائيا ، ولكنه يصبح معدات لنظام عندما يستخدمه الانسان وكذلك الجو يصبح قطعة من معدات النظام عندما يستعمل لطيران طيـــارة ليخدم أغراض النقل ·

المعــــــدات هى مـــــادة النظام وممتلكاته ، وهى دائمـــــا بناءات مادية Matirial Structure وذلك لا ينطبق فقط على الحالات الواضحـــة مثل البنايات والأدوات ولكن أيضا للأمثلة المادية الأقل وضوحا مثل اللغة ، مادة اللغة هى المعانى التى تحملها رموزها ، ولكن هذه الرموز لا بد ان تكتب

أو تنطق حتى تصبح معدات للنظام · ولهذا تنشأ استخدام الورقة والقلم أو المواد الكتابية الأخرى ، أو حتى الموجات الصوتية · ومن ثم فهناك دائما عنصر مادى حتى فى المعدات النظامية الأسرع زوالا ·

المصنوعات البشرية المعتبرة معدات للنظم لها علاقات عــــديدة · فرغــم أنهـــا معـــــدات لنظام معـــين الا أنه فى نفس الوقت لهــــا علاقات خاصة بها مع النظم الأخرى وسوف أستخدم من أجل الشرح مثلين ، سوف أختار نظريات علم الجمال والنظام التشريعى ·

المعدات لها ناحية جمالية ، بل ان بعض المعدات تكون مصممة لهــذا الغرض الخاص أى تتضمن أشياء فى داخل نظام الفن ، فمثلا أثاث الأسرة هو اصلا معدات النظام الأسرى ، ولكن تصميمه يتضمن أشياء كثيرة من نظام الفن ، ويوضع تحت النقد الجمالى ، وقد يوافق عليه الجماليون أو لا يوافقون فكل ثقافة لها مستويات ذوق خاص بها ، وأيضا الشكل الخاص لمعداتها .

والمعدات من ناحية أخرى لها ناحية تشريعية ، أى لها علاقة بالنظام التشريعى ، فأثاث الأسرة ، عندما نتحدث عنه على أنه ملك للأسرة فنحن نتكلم عن علاقة قانونية ، ويلاحظ أن معظم المصنوعات الانسانية مملوكة فمن ثم لها علاقة بالنظام القانونى · كما أن بيعها او استبدالها وحمايتها من المعتدين كل هذه علاقات قانونية · فالمعدات مثل أعضاء هيئة النظام من ناحية أنها خاصة بنظام ما ولكن لها علاقات بالنظم الأخرى ·

ويلاحظ انه كلما زاد الضبط على البيئة المباشرة كلما زادت المعدات ، وبالتالى زادت نظم المجتمع ، وكلما زادت نظم المجتمع زادت قوته وحجمــه ، فما جعل التنظيمات الاجتماعية الاكبر ممكنة هو زيادة كمية وتعقد المعدات المادية · فالدول الكبرى والمتقدمة ما جعلها كذلك الا زيادة معداتها ، وكان لا يمكن ان تصل الى هذا المستوى من التقدم بدون المعدات الحالية مثل الذرة والالكترونيات ومختلف أنواع الطيران ·

الاجــراءات Procedures

المقصود بالاجراءات « فعل مطابق لنمط » ، أو طريقة معينة للسلوك الانسانى وتعتبر العادات الاجتماعية والسمات والسنن والشعائر والحفلات والتقاليد أى المعايير من هذا النوع من الفعل طبقا لنمط ، أى من الاجراءات النظامية ·

وسوف نستخدم هذا العنوان الشامل (الاجراءات) لكل الاســاليب النظامية للسلوك Institutional ways of behaviour ، لنميز بينهــا وبين الاســاليب الشــعبية Folkways التى تعتبر أســاليب ثقافية للسلوك · ولقد كان اصطلاح السنن Mores هو الاصطلاح الاجتمــاعى الاقدم الذى وضعه سمنر لهذا النمط من الأفعال ، اما الاساليب الشعبية فهى تعتبر اصطلاحا انثروبولوجيا · اما الاجراءات التى لمختلف النظم فهى خاصة بهذه النظم ، ويمكن اختبارها بحقيقة بسيطة وهى انها غير قابلة للتبادل فيما بينها · فما يحدث فى الأعمال التجارية يتاسس كخبرة مقبولة فى التجارة ، ولكن لا يمكن استخدامها مطلقا فى ممارسة الطب مثــلا ، لأن القوانين الاخلاقية فى المهنتين مختلفة تماما · وكذلك ما يمكن أن يكون حسنا فى الطب قد يكون سيئا فى التجارة ·

اجراءات النظام هى الأساليب التى بها ينفذ النظــام العمليات التى تتطلبهــا وظــائفه الضرورية · فالاجــراءات القــانونية موضوعة لانجــاز القانون ، وتعــلم المدارس الطبية ما هو متوقع مــن الطبيب فى المستشفى وهكذا ، أعنى بالاجراءات الاساليب المعتادة لعمل النظام · وسنجد أن هذه الاجراءات لها على الأقل ثلاث تاثيرات متمايزة على أعضاء النظام ·

أولا : تقوى الاجراءات النظــامية الاعتقاد ، اذ تجعل من الحــــركات الفيزيقية (الجسمية) نتائج تتبع منطقيا من القبول لقضية معينة ، فالسجود او الركوع فى الصلاة هو تذكرة جسمية للاعتقاد فى الله · فانجاز هــذه الافعال بالاضافة الى الافصــاح عن حقيقــة أن هــذه القضية مقبولة ، فهى فى نفس الوقت تعمل على تقوية الاعتقاد فى القضية ·

ثانيا : اتباع اجراءات مؤسســة تدمج وتستغرق الفرد فى الاطــار الاجتماعى ، فالاجراءات النظامية هى بالطبع اجتماعية ، اذ أنه قد اتبعها الآخرون ، فعندما يأخذ فرد بالحركات الموصوفة فهو ينضم للتأييد الجمعى ، اذ يحصل بمثل هذا الفعل على التماسك أو الخضوع أو الموافقة عمــا يفعله الآخرون ، وهم بدورهم يؤيدونه · وهكذا باتباع اجراءات النظام يصــبح الفرد عضوا فى جماعة ويدمج نفسه أكثر فى مجتمعه · يبدو أن السنن تقول افعل كما نفعل وبهذا تصبح واحدا منا · وفى بعض النظم مثل الديانات المؤسسة تعتبر الشعائر علامة مميزة للعضوية ، فالعــادة الاجتمــاعية أو الشعائر هى اعلان واضح من فرد عن عضويته فى جماعة ·

ثالثا : يعطى اتباع الاجراءات شكلا للفعل ، اذ تكون هذه الاجراءات دائما عقلية ، بمعنى أنهــا اتبعت لأســباب ، وحتى عنــدما تكون قد نسيت الأسباب يظل شكل الفعل كما هو فغالبا ما تكون القصة الكامنة وراء الأسباب غير حاضرة فى الذهن · وهكذا تمــكن الاجراءات النظامية أولئك الذين يتبعونها من مباشرة حياة منظمة ، حتى ولو كان منطق مثل هذه الاجراءات غير مفهوم كلية · فكم من أولئك الذين يتبعون ارشاداتنا القانونية يعــرفون أى شىء عن « لماذا يتوقع الناس منهم ان يفعــلوا باسلوب معين » · واذا نظرنا الى المسألة من ناحية أخرى ، نرى أن العادة الاجتماعية ليست قانونا مسنا · فالتحية العسكرية والسلام اليدوى الاجتماعى وخبرات لا حصر لها لا يمكن تفسيرها بالدقة على الاطلاق ، حتى لو سالنا الملايين الــذين يأتونها يوميا ، ولكنهم يستعملون النمط للحياة الاجتماعية كما هو وكمــا رأوا أسلافهم يأتونه ·

اعطاء الشكل للفعل بواسطة الاجراءات النظامية تحول المجرد والمبهم الى متماسك وملموس · هذه النقطة وان كانت غير مختلفة كثيرا عن السابق ذكره الا انها تستحق شيئا من التفصيل ·

فعلاقة النظرية بالتجريب واضحة جدا فى الاجراءات النظامية · ما نحن معتادونه يفيدنا ، كما أنه منغرس جدا فى طبيعة الاشياء ، ولهذا أعضــاء

ثقافة معينة يعتبرون خبراتهم الثقافية معايير وكل ما عداها مبتذل أو حتى انحرافات لا اخلاقية · ولهذا عندما يصبح نظام معين قديما فهو يباشر ثقلا معينا من التأثير على الأفراد الذين يقعون فى دائرته ، ذلك بفضل حقيقة ان نفس الافعال قد أوتيت لمدة طويلة بنفس الطريقة · عندما نستخدم اصطلاح (قدستها التقاليد) ما نعنيه هو أن الفعل بهذا الشكل صالح لأنه قبل لمدة طويلة وهو صادق لاعتقاد أجيال كثيرة فيه · فمثلا فى انجلترا اشتق القانون من التقاليد الاجتماعية · وهكذا تكون النظم قوية جدا عندما تصبح قديمة جدا ·

وعندما تكون المهارة أو الشكل متضمنا فى الفعل الاجتماعى ، فان ذلك يعنى تحول التقاليد الى الوسائل الفنية · هناك مفهوم يعتبر ان كل التقاليد ما هى الا صياغات ، بمعنى ان كل الآراء يمكن أن تصبح افعالا ، ولهذا تتضمن التقاليد أصلا وأساسا تلك الآراء التى كانت أكثر نجاحا فى العمل والتى استخدمت فى العمل بنجاح أطول مدة واحتفظت بها معظم الاجيال ·

التنظيم Organization

التنظيم لنظام هو الاسلوب الذى يضعه معا جماعة من الاشخاص مع ادواتهم وقواعدهم للسلوك ليتمكنوا من العمل نحو هدف رئيسى · فمثلا اذا اعتبرنا النظام هو النظام السياسى مثلا ، فهو بناء من الرجال والاجراءات والمواد ويقصد انتاجا معينا وهو : رخاء المجتمع ، وبالمثل اذا اعتبرنا النظام مصنعا فهو بناء من الرجال والمواد والاجراءات بقصد انتاج سلعة معينة · فليس المهم ما اذا كان الانتاج شيئا ماديا أو معنويا (لا مادى) · كنا نتكلم عن المعدات ، والآن يمكن أن نعنى بها الآلات والخامات المادية فى المصنع وكنا نتكلم عن الاجراءات والان يمكن ان نعنى بها لوائح المصنع وعملياته وكنا نتكلم عن الهيئة والان يمكن ان نعنى بها العاملون · ويمكننا أن نضيف كلمة وصفية لمصير الانتاج النهائى وهو التوزيع · الشىء المراد التأكيد عليه هو أن التنظيم لنظام ما لا يمكن ان يوجد حيث لا سبب هناك يدفع عناصره

للعمل معا ، والسبب دائما هو هدف النظام ، وهذا الهدف يقع دائما وراء النظام نفسه ، لأن النظام بأسلوب ما يخدم المجتمع الذى هو جزء منه ٠

واحد المهام الرئيسية لتنظيم النظام مثلا ، هو العدد الأنسب من عناصر النظام ، وان كان نظريا يقال ان هذا العدد يقرره دور ووظيفة النظام ، ولكن النظم الحديثة معقدة الى حد أن هذه المسالة أصبحت الشغل الشاغل للمنظمين والدارسين ، فكل نظام لابد ان يكون له حجم طبيعى ، عدد أمثل من الهيئـة وايضا من المعدات والاجراءات التى تشكل النظام ٠ وتنظيمه ، ولكن اى تنظيم ، فمثلا فى مصنع هل الانسب جعل عملية صيانة المعدات فى مكان واحد او توزيعها على عنابر الانتاج اى يكون لكل عنبر ورشة صيانة خاصة به ٠ هل الأنسب جعل الادارة التجارية والادارة المالية معا ام كل على حده ؟ مثل هذه المشاكل هى وظيفة التنظيم للنظام بهدف الوصول الى التنظيم الأنسب لتسهيل العملية الانتاجية اى تحقيق وظيفة النظام ككل ٠

ومن ناحية اخرى كيف تسلك العناصر معا عندما يكون كل منهم يؤدى وظيفته ؟ يتوقف التنظيم فى داخل نظام على انساق مجسمة من الافكار ، ولكن انساق الافكار لا تخرج تماما كما يتوقع المخططون ولهذا يغيرون بعض الشىء فى الشكل عند تطبيق الافكار ، ولكن لماذا ؟ ذلك يرجع الى اجزاء ومكونات البيئة الداخلية للنظام وتاثيراتها ، تاثيرات من العسير عزلها أساسا بسبب انها ببســاطة لا توجـد فى انعـزال فهى قيم استدعتها الى الوجـود وظيفة العناصر ٠ ومن ثم فهناك فى النظام صفات البيئة الداخلية ، ويمكننا ان نذكر بعضا منها ، الأمن والولاء والتسهيل للعملية ، فمن الضرورى ان يكون الميكانزم لترتيب هذه المتغيرات مبنيا بحزم ودقة فى التنظيم للنظام ٠

كما ان النظام يتكون من اجزاء ، وعمل التنظيم هو احداث هذا التوافق، وكلما حسن التوافق بين اجزاء النظام كلما اتصفت العناصر بالتنظيم ككل ووصل النظام الى حالة من الاستقرار والثبات ، فكل من الثبات والاستقرار يعتمد على حسن تنظيم وظائف الاجزاء فى الكل ٠ فالاســتقرار هو صــفة الأنساق ٠ ككل وليس صفه لأى جزء منها ، فقد يتضمن الثبات لبعض العناصر

تغيرا للآخرين • فالنظام نسق من المتغيرات يعتمد استقراره على حفظ مثل هذه المتغيرات فى داخل حدود ممكنة وتلك وظيفة التنظيم • وهكذا يـكون النظام متوائما بمعنى محاولة البحث عن تلك الحدود فى داخل البيئـة ، وهذا معنى التوافق بين عناصر النظام ، فمن ثم لابد لعناصر النظام أن تكون ذات مـرونة كافية لتؤمـن الحفظ للمتغيرات الضرورية اللازمة فى داخـل حدودها الممكنة •

التصنيف

وقبل أن أختم حديثى عن النظم الاجتماعية أحب أن أعرض احدى المسائل التى مازالت تعتبر من أهم مشاكل علم الاجتماع والانثروبولوجيا وهى مسألة تصنيف النظم الاجتماعية • ورغم أهمية التصنيف للدراسات العلمية اذ أنها احدى العمليات التى تدفع بالعلم قدما ، الا ان علماء الاجتماع والانثروبولوجيا حتى الان لم يتفقوا بعد على تصنيف للنظم الاجتماعية • ومن ثم فمازالت هذه المسألة احدى المشاكل التى يواجهها علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، والتى لم يتعرض لها الا القليل ممن حاولوا وضع تصنيف للنظم ، وما عرضوه لم يصادف قبولا عاما عند دارسى الاجتماع والانثروبولوجيا ، اذ وجهت الى هذه الدراسات كثير من سهام النقد •

وفى الحقيقة ان مشكلة التصنيف فى كل علم من المشاكل التى تحتاج الى جهد فائق وعمل متصل فى دراسات جادة متعمقة حتى يمكن للباحث الوصول الى تصنيف قد يصادف قبولا • وهذا مادعى كثيرا من علماء الاجتماع الى الميل نحو اما ترك هذه المشكلة كلية ، أو اللجوء الى الأسلوب الذى اتبعه سمنر Sumner رائد هذا الاتجاه ، مع اختلاف وجهات النظر حول الأسس التى قامت عليها تلك الثنائية •

وقد أقام سمنر ثنائيته على أساس أن النظم الاجتماعية (اما أن تنمو أى تتزايد Crescive أو تسن أى تشرع Enacte تكون نامية عندما تأخذ شكلها فى المعايير ، وتنمو عن طريق المجهودات الفطرية التى ولدت ونتجت بها المعايير ، حيث تصبح المجهودات خلال الاستعمال الطويل محددة ومخصصة • الملكية والزواج والدين أهم النظم الأولية ، لقد بدأوا فى الاساليب الشعبية • ثم أصبحت عادات اجتماعية ، ثم نمت الى معايير عن طريق اضافة شىء من فلسفة الرفاهية مهما كانت فجة • ثم ازدادت تحديدا وتخصصا للقواعد والافعال المقررة واستعملت المعدات فأنتج ذلك بناء واكتمل النظام • أما النظم المسنة فهى نتاج الاختراعات العقلية والانتباه وهى تنتمى الى الحضارات الراقية) (١) •

---

(1) Sumner : Folkwaye. P. 45.

ويلاحظ أن سمنر فى خلال حديثه عن النظم النامية أى غير المقصودة أطلق عليها اصطلاح آخر اذ سماها بالنظم الأولية ، ولقد استخدم هذا الاصطلاح كثير من علماء الاجتماع فى التصنيف على ما سنرى ، وايضا فى ثنايا حديث سمنر عند التفرقة بين النظم والمعايير استخدم اصطلاحا آخر اتخذه بعض علماء الاجتماع ايضا أساسا للتصنيف الثنائى ، وهى فكرة الاختيارية والجبرية فهو يقول (الفرق الكبير هو أن النظم الاجتماعية والقوانين لها صفة ايجابية بينما المعايير غير محددة . هناك فلسفة متضمنة فى الأساليب الشعبية وعندما تصبح جلية واضحة تصبح فلسفة عملية ... أما الأفعال فى ظل القانون والنظم الاجتماعية يشعر بها الفاعل ويؤديها بوعى واختيارية ولهذا فهى لها صفة الضرورة ، وفى ظل الأساليب الشعبية الافعال دائما بلا وعى وغير اختيارية) (١) .

ولقد استخدم هيوز Hughes فكرة الاختيارى والاجبارى فى تصنيفه للنظم (فالنظم الاختيارية هى تلك النظم التى يكون الشخص فيها حرا فى المشاركة أو لا كما يختار . النظم الأخرى الاجبارية يتوقع من الشخص المشاركة فيها أو يجبر على ذلك . يكون الطفل بالضرورة جزءا من الاسرة ، ولقد يتبرأ منها فيما بعد أو يهجرها وان كان بثمن عاطفى باهظ . المدرسة نظام اجبارى عند فترة معينة . يدين كل الأشخاص بالولاء وبعض الواجبات للدولة . وبعض النظم تكون اختيارية بأسلوب معين . فقد لا يشارك فيها الانسان ، ولكن ممارسته لهذه الحرية قد تكون باهظة التكاليف اجتماعيا . ليس على الناس أن يعملوا فى المصانع ولكن قد لا يكون هناك أسلوب آخر للحصول على الغذاء ، ورجل أعمال حر فى أن يتجاهل الواجبات الأخوية والنوادى والكنائس ، ولكن فى فعله ذلك قد يعرض موقفه للخطر . وهكذا ممارسة الحرية بالنسبة للنظم تخضع لكثير من الجزاءات) (٢) .

ولقد استخدم ميرل Merrill أيضا فكرة الاختيارية فى تصنيفه للنظم ولكنه هنا أقامها على مبدأ حقوق النظم على الأفراد وهو يعنى به مدى

---

(1) Ibid., p. 56.

(2) Hughes : Op. Cit., 257.

ولاء الأفراد للنظم ، (فالنظم الاجتماعية تختلف فى حقوقها على الأفراد بعض النظم اجبارية ، بمعنى أن الشخص ليس له خيار فى عضويته فيها ، والاسرة الأبوية أصدق مثل على النظام الاجبارى ، لأن الطفل ليس له خيار فى مشاركته . ومن ناحية أخرى النظام الاقتصادى له صفة اختيارية ، فالفرد حر فى اختيار مهنة أو عمل ما أو صناعة ما ، داخل حدود ، فليس له قوة الابتعاد عن الانماط الاقتصادية الواسعة فى مجتمعه ، مثلا ، لا يستطيع الفرد استعمال الشيوعية فى مجتمع راسمالى . المشاركة فى الحكومة ايضا هى اجبارية ، والشخص له حقوق معينة وعليه واجبات نحو الدولة التى ولد تحت علمها . المشاركة فى النظم الاساسية اجبارية اكثر منها اختيارية ... وحقوق النظم علـى أعضـائها تعرف أيضـا باسم الولاء ، وللافراد اتجاهات مختلفة نحو مختلف النظم فى بيئتهم الاجتماعية ، فعادة الولاء للأسرة قوى) (١) .

اما بارنز Barns فقد أخذ عن سمنر فـكرة النظم الأولية Primary Institutions والنظم الثـانوية Secondary Institutions فهو يعتبر (النظم الاجتمـاعية الأسـاسية أو الأوليــة هى بدائيـة وتلقـائية فى اصولها ونموها متبعة العمـلية التى وصفها سمنر . هذه النظم هى مثـل الاسرة والملكية والحرف الأساسية والحكومة . وبنمو الحضارة نمت النظم الثانوية بصفة متعمدة . وهذه عادة نظم فرعية فى داخـل الحقـل الكبير للنظم الاجتماعية الأولية . فمثلا الحكومة نظام اجتماعى اولى نشأ تلقائيا ، ولكن الجمهورية هى شـكل عمـدى من الحكومة ونظـام اجتماعى ثانوى . والملكية نظام اجتماعى اولى له تراث تطورى طويل بينما طريقة التركات نظام ثانوى) (٢) .

ولقد استخدم شابين Chapin أيضا فكرة الثنائية فى التصنيف ولقد اقامها على أساس مبدأ آخر وهو مدى انتشار النظام ، أو بمعنى آخر على أساس فكرة المنطقة الاجتماعية Sociological Zone ــ ١ ــ نظم نووية Nucleated Institutions التى لها موضع محدد ومخصصة فى منطقة .

(1) Merrill : Op. Cit., p. 336—337.
(2) Barns : Op. Cit., p. 32.

مثل حكومة محلية ، وتنظيم سياسى محلى ، واى اسرة تعيش معا واى مدرسة معينة ، واى هيئة رفاهية محلية ، ـ ٢ ـ نظم رمزية منتشرة Diffused-symbolic Institutions التى تناقض المحلية السابق ذكرها • وتشير الى رموز لها تنظيم عالى من التجريد ، ويتميز بمثل هذه الكلمات الفن والعلم والقانون) (١) •

ويقول نادل : للحديث بدقة عن التصنيفات ، ليس هناك صواب او خطأ ، ولكن فقط اقل او اكثر ملائمة • هذا يعنى (اولا) عمليا ، التصنيف سوف يعنى أن هناك ما هو اكثر او اقل اقتصاديا • فاذا كانت فئاتى واسعة جدا (اقتصادية ـ سياسية ـ قانونية) ، سأقدم تقسيمات فرعية ، والتى لهذه الأسباب سأشرحها بعناية ، واذا كانت فئاتى ضيقة جدا سأعمل حساب العلاقات الرابطة للظاهرة التى فصلتها • (ثانيا) يمكن ان تستفيد التصنيفات من السمات التى تؤكد انها أكثر او اقل اهمية او خطورة بمعنى انها يمكن ان تنظم مادة الموضوع فى نسق على أساس السمات • فى كلمات اخرى الحكم على المطابقة أو السداد المتصف به اى شكل من التصنيفات يبرهن على مدى ثرائه اكثر او اقل عند العمل به لكشف او شرح العلاقات المتداخلة بين الظاهرة • ولهذا كل التصنيفات متعمدة وتعسفية وتلمسية • هنا انا لا اشير الى اكتشاف حقائق جديدة قد تجبرنا على تنقيح فئاتنا ، ولكن بالأحرى اشير الى الأساليب الجديدة للنظر الى الأشياء •••

كل التصنيفات بهذا المعنى تكون عملت بحق الشفعة ـ اى أن اقترابها أو تضمنها لجزء من الظاهرة يعطيها حق ضمها لفئتها ـ بذلك نكون اكتشفنا نظرة جديدة الى الاشياء ، وهذه كما قلت قد تكون هامة فى تنظيم وفهم مسائل موضوع التصنيف • ولكننا لا نكشف طبيعتها الحقيقية (لأنه ليس هنا شيء كهذا) •

هذه هى قائمتى للنظم الاجتماعية • ولقد قلت ما فيه الكفاية عن طبيعة التصنيف ، ولا ارمى الى مقارنة قائمتى مع الأساليب المختلفة فى تصنيف

---

(1) Chapin F. S. : «Contemporary American Institutions», Harper, 1935 p. 16.

النظم التى اقترحها غيرى من الدارسين • ولهذا يلزم اضافة ملاحظة وهى أن معظم الاصطلاحات هى شروح ذاتية •

النظم التنظيمية Regulative		النظم العملية Operative
		جسدى Somatic
		اقتصادى Economic
		ترفيهى ــ جمالى Recreational-aesthetic
		علمى Scientific
دينى Religious		
تربوى Educational		
سياسى Political		
قانونى Legal		
قرابى Kinship		

اصطلاح جسدى Somatic قصد به توضيح كل نماذج العمل المقننة التى تعمل أهدافها خاصة على نواحى وحقائق الوجود الفيزيقى (الجسمى) مثل الجنس والعمر ومعالجة الأمراض والختان وما شابه ذلك • كل من الاصطلاحين العملى Operative والتنظيمى Regulative لا يمليان تقسيما حادا بين فئتان من النظم الاجتماعية ، ولكن انتقالا تدريجيا من واحد الى الآخر • اى فئة Class من النظم الاجتماعية هو فقط أكثر أو أقل عمليا أو تنظيما (١) •

وهناك بعض المصطلحات تسمى بها النظم الاجتماعية ، وقد يتبادر الى الذهن أنها نوع من التصنيفات ، ولكنها فى الحقيقة مصطلحات تتعلق بأنواع النظم أو بصفة من صفاتها ، فمثلا هناك نظم عامة فى المجتمع يمارسها كل أعضاء المجتمع كالنظام الاقتصادى والنظام السياسى ، بينما هناك نظم اجتماعية تسود فى مناطق محدده من المجتمع ولذلك تسمى نظم محلية كنظام الثأر فى بعض القرى النائية ويلاحظ أن هذه التفرقة تقوم على أساس مدى عمومية النظام ، وهناك نظم تقوم التفرقة بينها على أساس ممارستها أما

(1) Nadel : Op. Cit., p. 129—136.

بصفة دائمة أو بصفة مؤقته فمثلا النظام الاقتصادى يمارس بصفة دائمة على مدار السنة ، بينما هناك نظم لا تمارس الا فى أوقات محددة من كل عام ، فاذا حل هذا الموعد ظهر النظام وممارسته هيئته مثل الموالد والمواسم الدينية ، ولذلك تسمى نظم دورية أو تكرارية لأنها تتكرر فى نفس الموعد من كل عام • وهناك نظم تظهر على فترات غير منتظمة ولا محددة ، بل تظهر اذا ماالكتملت عناصر النظام، مثل نظام الزواج ، فبمجرد التقاء الشريكينوالاتفاق على الخطبة يبدأ نظام الزواج فى الظهور ويمارس حتى تتم بقية العناصر وهى المهر والخطبة والحفلة ، فيكون النظام قد أدى وظيفته ، ويعود مرة ثانية الى الكمون بمعنى أنه لا يزول من المجتمع ولكنه موجود ومعترف به من المجتمع ، ولكنه يكمن فى انتظار الظروف والملابسات التى تتيح ممارسته مرة ثانية وهكذا ولهذا تسمى نظم كامنة أو عارضة •

ويلاحظ أن هذا التقسيم ليس جامدا • (فالفرق بين النظام العارض والنظام الدائم مثلا يعتمد على وجهة النظر • فمثلا المحكمة فى المجتمع الحديث يمكن ان يقال انها تمارس بصفة دائمة بالنسبة لكل المجتمع ، وذلك باستمرار قيامها بالعدالة ، ولكنها بالنسبة لأولئك الذين يدخلون المحكمة فى حوادث قانونية يكون النظام عارضا بالنسبة لهم • ونظام مثل نظام الكنيسة ربما يعرض كل هذه الأنواع • فالكنيسة تعتبر منظمة تشرف على الاخلاق والمسائل الروحية وهى بهذا تعتبر نظاما دائما ، وبعض عملائها يعتبرون عارضين فى حالات الصلاة أو الاعتراف ، بينما الآخرون يعتبرون تكراريين مثل صلوات الأحد والأعياد •

ويمكن ان يعتبر النظام عارضا بمعنى آخر ، ذلك عندما يكون الأفراد أحرارا فى استعمال النظام أو عدم استعماله حسب رغبتهم ، ومجتمعنا مملوء بكثير من هذه النظم • ويمكننا ان نطلق عليها النظم البديلة او النظم الحرة ، فى مقابل النظم الأخرى التى يطلق عليها نظم اجبارية) (١) •

بل ان النظام الواحد قد يعرض كل هذه الأنواع أيضا عن طريق عناصره فالمعروف أن نظام الزواج مثلا يتكون من عناصر ، (بعضها عارض

(1) Nadel ; Op. Cit., p. 120.

ولهذا يظهر عدم انتظام فى الحدوث مثل العناية بالنسل او الطلاق ، وبعضها تكرارى مثل الزيارات الدورية للأقارب المطلوبة من الزوجين فى مناسبات معينة كالأعياد وكذلك بعضها دائم مثل العلاقات الجنسية وتقسيم العمل)(١) ·

الهدف الأولى للنظام

THE PRIMARY PURPOSE

لقد عرفنا أن النظم الاجتماعية هى اساليب فى التفكير والعمل شيدت لاشباع الحاجات الأساسية لأعضاء المجتمع · وفى الحقيقة أن ما يحفز المجتمع لانتاج هذه الأساليب هى المشاكل التى يصعب حلها ، وهكذا تشيد النظم فى المقام الأول للتعامل مع المخاطر التى يواجهها المجتمع ، والتى تؤدى الى الاحساس بضرورة الحصول على اسلوب ما ليعمل على ايجاد حل · وبقبول تلك النظم كحلول تأخذ تدريجيا مكان المشكلة غير المحلولة ، ولهذا تختفى المشكلة نفسها ، او على الأقل تبدو وكانها قد حلت ·

وهكذا يمكن القول أن الغرض الأولى للنظم هو مساعدة الكائنات البشرية فى التعامل مع مشاكلهم الصعبة الحل او غير المحلولة · ولا يتبادر الى الذهن أن المسألة قاصرة على النماذج العليا من المشاكل ، ولكن تمتد الى معظم أساسيات نسيج الحياة الاجتماعية وحتى فيما يظن أنه أبسط أنماط نسيج الحاجات الأساسية ، ففى معظم المجتمعات الأكل هو خبرة يومية ، ولكن تظهر المشكلة فى تقرير ما يؤكل وفى أى كيفية ، وكيف ؟ ومتى ؟ وأين ؟ والدليل على ذلك أن الاجابة على كل من هذه الأسئلة يختلف من مجتمع لمجتمع ومن زمان لزمان فى نفس المجتمع الواحد ، ولا شىء حول الأكل مستقر فيما عدا أنه يحدث بأسلوب ما · ويمكن أن يتضخم المثل اذا ذهبنا الى المشاكل الكبيرة فى المجتمع ، فمثلا اذا كانت المجتمعات تعرف بصدق الحل للمشاكل الاقتصادية ، مثل مشاكل الانتاج والتوزيع ، سوف لايكون هناك نظما اقتصادية متعددة

(1) Ibid. p. 125.

ولكان هناك نظام واحد فقط • ولكن المجتمعات لا تعرف الحل بصـــدق مطلق ، ولهذا يوجد حلول كثيرة أى نظم كثيرة للانتاج والتوزيع تختلف من مجتمع لمجتمع ومن زمـــان لزمـــان ، وهذا هو سبب الصراع بين اســاليب تلك المجتمعات فى حل المشكلة الاقتصادية لأنهم اعتمدوا على عقولهم البشرية التى تحركها وتغيرها اختلاف مصالحهم وأهوائهم ، وهكذا مع كل النظم نرى اختلافا بين تلك المجتمعات فى معاملتها لنفس المشكلة من مجتمع لمجتمع ومن ثقافة لثقافة •

نحاول الآن أن نجرد الوظيفة المتضمنة فى كل تلك الحالات السابق عرضها ، تلك الوظيفة التى تفصح عن نفسها حيث يكون هناك مشكلة غيـــر محلولة تتعامل معها الكائنات البشرية ، اذن يتضح بجلاء أن هذه الوظيفة هى مساعدة الكائنات البشرية على حل هذه المشكلة • وهكذا يمكن القول أن الهدف الأولى للنظام هو التسهيلات الواضحة ، ونعنى بهذا الاصطلاح مساعدة الكائنات البشرية لاتمام اهدافهم بقليل من العناء ، فالتسهيلات الواضحة تعنى الاقتصاد سواء فى الفكر او العمل ، كما تعنى ايضا عدم الاحســـاس بالزام النظام ووطأته على أعضـــاء المجتمع أثناء تقديمه تلك التسهيلات • أى تصبح تلك التسهيلات انماطا وأساليب فى التفكير والعمل لاياتيها أعضاء المجتمع بيسر فقط ولكن أيضـــا تكون محببة الى النفس فمثلا تقدم المدارس التربية ، وتقدم الطرق الجوية النقل ، وتجهز التليفونات الاتصالات ، والنظم تقدم تلك التسهيلات والخدمات دون أن تبرز نفسها فى الصورة الا بأقل قدر ممكن فلا يشعر بوطأتها أعضاء المجتمع •

وهكذا يكون النظام ككل موجها لهدف معين أى لإنجاز وظيفة معينة أولية ، وهذه الناحية من النظام تصل وتضع بصماتهـا على كل جزء من أجزاء النظـام ، ومن ثم لايوجد اجراء ولاجزء من المعدات ولا عضو فى الهيأة لم تلمسه هذه الناحية من النظام ، هذا الوجه يمكن أن نطلق عليـه اصطلاح الوظيفة الرئيسية للنظام السابق الحديث عنهـا فى فقرة وظيفة النظم • أى أن الهدف الأولى هو الغرض الذى أنشىء من أجله النظام •

الأهداف الثـانوية

THE SECONDARY POROSES

نحن نعـرف أن معظم النظم الاجتمـاعية تتكون من عناصر وأنسـاق فرعية ، وأن هذه العناصر وهذه الانساق الفرعية الى جانب اشتراكها معا فى أداء الوظيفة الرئيسية للنظام ، تؤدى وظائف فرعية ٠ ولهذا رأينا أن للنظام وظائف فرعية الى جانب وظيفته الرئيسية ٠ وكذلك علمنا أن الوظيفة الرئيسية أو ما اصطلحنا فى هذه الفقرة على تسميتها الهدف الأولى للنظام لا يمكن أن ينجزها الا النظام ككل بجميع أنسـاقه الفرعية وعناصره ومن ثم فهى خاصية من خصائص النظم الاجتماعية وليست خاصة بنظام معين ٠

وتتعلق الأهداف الثـانوية بتلك الانسـاق الفرعية التى تتركب منهـا معظم النظم الاجتماعية وهكذا رأينا أن معظم النظم تستطيع أن تنجز وظائف فرعية عديدة غير وظيفتها الرئيسية ، ولكن من بين هذه الأهداف الثانوية هدفان ، وان كانا ثانويين الا أنهما مثلهما مثل الوظيفة الرئيسية لا يمكن أن ينجزها الا النظام ككل أى بجميع عناصره وأجزائه ، ومن ثم فان هذين الهدفين الثانويين يتعلقان بخصائص النظام كنظام ، أى أنهما هدفان ثانويان لكل نظام اجتماعى ٠

وهذان الهدفان الثانويان هما الحياة كنظام والنمو ٠

هدف الحيـــاة كنظام

وغنى عن البيان أن أى نظام لا يستطيع انجاز أى من وظائفه ان لم يكن موجودا ، ومن ثم يصبح الاهتمام الرئيسى عند أولئك الذين يقودونه فى المجتمع وبين النظم الأخرى ، أن يتأكدوا من عدم زواله ٠ وهكذا يصبح الاهتمـام الأول لهيأة النظام وخاصة مديرو النظـام أن يعملوا جاهدين على أن يستمر النظام فى الحياة ، ومن ثم عندما تظهر أى تهديدات لوجود النظام ، لابـد أن يتحد مديرو النظام بقوة للدفاع عنه ، وهذا هو الدور الرئيسى للمديرين ٠

ولكن السؤال الهام الآن ، ما هى تلك القوى التى تهدد النظام ؟ ينبع هـذا التهديد من مصدرين الأول من داخل النظام والثانى من خارجه ٠

أولا ـ التهديد من الداخل :

يرجع التهديد لحياة النظام من الداخل الى سببين الأول الضعف فى أحد عناصر النظام والسبب الثانى عكس الأول وهو الافراط فى القوة لأحـد عناصر النظـام ٠

أ ـ من ناحية الضعف :

١ ـ التهديد من الداخل يمكن أن ينبعث من الضعف فى هيأة النظام ، كأن يقوم أعضاء هيأة النظام فى حكومة أو مصنع بعدم أداء أدوارهم على الوجه الأكمل ، أو أن يستغلوا النظام لتحقيق مصالحهم عـلى حسـاب مصلحة النظام ٠ ولازالة هذا الخلل ، اما أن يجبر هؤلاء الأعضـاء على العودة الى النهج السليم ، أو أن يطردوا من النظام ٠

٢ ـ وكذلك يمكن أن ينبعث الضعف من معـدات النظـام ٠ فالجيوش التى معداتها بالية تخسر الحرب ، وكذلك المصانع ذات المعدات القديمة تخسر السوق ، والمعدات البالية فى نظام النقل كالطيران أو السكة الحـديد تهدد الأرواح ٠

٣ ـ كما يمكن أن ينبعث الضعف فى الاجراءات ، كعدم معرفة أعضاء النظام باجراءاته ففى فريق كرة القدم ينهزم اذا كان أعضاؤه لا يعرفون قواعد اللعبة ، وفى نظـام الحـكومة تتعثر المشاريع ، وفى نظام اقتصـادى كمصنع يحقق خسارة كبيرة ، وهنا لابد من اعادة تدريب الأعضـاء بقوة ، أو أن يؤكد على ضرورة اتباع اجراءات النظام عن طريق تشديد العقوبة على الخارج عن الاجراءات ٠

٤ ـ كذلك يمكن أن يعلن الضعف عن نفسه فى التنظيم ٠ وفى هذه الحـالة لابد من اعادة تنظيم النظام ، فمثلا الاضطراب فى التنظيم فى أى جيش

يمكن بسهولة أن يكون المسئول عن هزيمته كما حدث فى سنة ١٩٦٧ فى مصر ، وكما حدث فى الامبراطورية الروسية فى الحرب العالمية الأولى . وتكمن سلامة التنظيم فى العلاقة الصحيحة والسليمة بين الأجزاء فى الكل ، ولابد من الاقتراب من ذلك حتى لا يتهدد النظام من الداخل . فمثلا أى قسم من أقسام مصلحة أو مصنع لابد أن يوائم نفسه للأقسام الأخرى وهذه بدورها توائم نفسها له ، فمثلا اذا حدث تجديد فى أى قسم فى نظام ما ، فلابد من اعادة تكييف الاقسام الأخرى لاعطاء التوازن لكل النظام ، وهذا يتطلب تنظيما قويا ، ومن دواعى قوة التنظيم هو ارساء قواعده ، بمعنى أن يشعر المحكومين بقواعد التنظيم بجبرية والزام تلك القواعد وهنا نقول أن القواعد قد تاسست

كما ينشأ أيضا التهديد لحياة النظام من الداخل عندما يحدث ضعف فى بعض أجزائه أو بمعنى آخر أنساقه الفرعية ، ولا تستطيع الانساق الأخرى السيطرة Control على هذا الضعف وازالته . أى كما أن الضعف فى أى عنصر من عناصر بناء النظام يهدد حياة النظام كله ، كذلك الضعف فى أى نسق فرعى من الأنساق الفرعية للنظام يهدد النظام كله بالموت ، وسبب هذا هو التساند المعقد والمركب للعناصر والأقسام فى كثير من النظم . فاذا أخذنا مثلا شركة كبيرة لبيع المنتجات ، فعندما تقوم كل أقسامها بوظائفها الفرعية على الوجه الأكمل يمكن أن يكون عمل الشركة ناجحا أى تحقق وظيفتها الرئيسية ، فيمكن أن تشارك فى توزيع السلع على المستهلكين بربح معقول فتشبع حاجة المستهلكين ، ومن ناحية أخرى تشبع حاجة مصانع منتجاتها كمنفذ لسلعها ، وتشبع حاجة موظفى الشركة فى مستوى معيشة لائق ، وتشبع حاجة أصحاب رأس المال فى تحقيق عائد مجزى لأموالهم . ولكن عندما يفشل أحد أقسام الشركة فى القيام بوظيفته فان نجاح المشروع كله يتهدده الخطر . فمثلا اذا كان البائعون لا يجيدون بيع السلع فمن ثم لا يبيعون كميات معقولة ، اذن يفشل المشروع فى أن يحقق أغراضه ، وكذلك الأمر صحيح بالنسبة لقسم الحسابات الجارية اذا توسع فى البيع بالنسيئة

لاناس لا يدفعون فواتيرهم فان المشروع لا يحقق النجاح لرأس المال · واذا كان قسم المشتريات لا يشترى سلعا جذابة للمستهلكين ، فسيمتنع المستهلكون عن الشراء فيفشل المشروع ، أو لا تشترى أقسام المشتريات الا السلع التى يدفع منتجوها عمولات للموظفين بغض النظر عن جودتها أو هناك طلب عليها ، وأيضا بأسعار مرتفعة ، فان كل ذلك يسبب فشل المشروع · وهذا المثل يوضح أن النظام بالضرورة يعتمد على تساند أجزائه ، وأن ذلك يتطلب تنظيما يحقق هذا التساند لتحقيق وحدة الكل وهو النظام ·

ب ـ الافراط فى القوة :

١ ـ النمط الثانى من التهديد من الداخل لحياة النظام ، يمكن أن يأتى ليس من الضعف ولكن بالعكس من الافراط فى القوة لأحد عناصر النظام · اذ أن القيام السليم بالوظائف لأجزاء النظام يتطلب أن لا يفرط أحد من الأجزاء فى الحجم أو الأهمية لمكانه بين الاجزاء الأخرى · ولكن اذا حدث الافراط فى أحد الاجزاء فان ذلك يشكل تهديدا للكل ، تماما كما يحدث عندما يفشل أحد الاجزاء فى اتمام وظيفته نتيجة للضعف ·

٢ ـ التهديد من الداخل لحياة النظام يمكن أن تنبعث من الافراط فى قوة الهيأة · وأوضح مثل على ذلك فى النظام الحكومى عندما يتحول الى دكتاتورى ، فان هذا التحول هو نتيجة افراط قوة رئيس الدولة ، وما علينا الا أن نتذكر هتلر فى المانيا ومسولينى فى ايطاليا ، فهم أخذوا على عاتقهم كل وظائف الحكومة ، ونتذكر الى جانب ذلك مدى الخطر والتهديد الذى شكله كل منهم لهدف حياة النظام · ومثل آخر يمكن أن يؤخذ من مديرى المؤسسات الكبيرة عندما يستغل أحدهم منصبه لتحقيق أغراضه الشخصية ، وهنا يبدو واضحا أن مثل هذا المدير كلما زادت قوته كلما زاد استغلاله للمؤسسة فى تحقيق أغراضه الشخصية مما يشكل تهديدا خطيرا لحياة النظام نفسه ·

٣ ـ التهديد من الداخل يمكن أن ينبعث أيضا من الافراط فى قوة المعدات ، يمكن للنظم أن تبدو منتفخة كثيرا ، اذا حدث أن المنتجين فى داخل

نظام أتوا بانتاج يهدد حياة النظام ، بسبب أن النظام ليس لديه القدرة الكافية لاحتواء هذا الانتاج ، وهنا يبدو واضحا ضرورة وقف مثل هذا الانتاج ٠ فمثلا اذا حدث فى معامل البحث فى مؤسسة صناعية كبرى اختراع أو اكتشاف انتاج قد يهدد نجاح منتجات أخرى تصنعها المؤسسة وتربح منها ، فان ذلك السر يغلق عليه فى الخزائن وينسى ٠ الاختراع الزائد والمفرط يمكن أن يكون مميتا للمؤسسة اذا كان ينقصها مثلا رأس المال الكافى لالغاء الآلات القديمة واحلال الآلات الجديدة طبقا للاختراع الجديد ، فان مثل هذا الاختراع يغلق عليه ٠

٤ ـ التهديد من الداخل لحياة النظام يمكن أيضا أن ينبعث من الافراط فى قوة الاجراءات ٠ فمثلا فى مؤسسة كبيرة ، اذا كانت مطالب المجاملات تتدخل فعلا بعلاقات اجتماعية ذات قوة مؤثرة فى سير العمل مثل تعيين الموظفين غير الاكفاء لمجرد أنهم أقرباء مدير المصنع أو أحد كبار الموظفين فيه ، أو تتوقف توقيع العقوبات على المهملين فى أداء أدوارهم لصلاتهم القرابية بكبار الموظفين ، فان ذلك كله بالضرورة يهدد نجاح المؤسسة كنظام ٠

٥ ـ التهديد من الداخل يمكن أن ينبعث من التنظيم المفرط فى القوة ، مثل تضخم وكثرة السجلات والاعمال الكتابية الذى يؤدى الى التعقيد من ناحية ومن ناحية أخرى الى زيادة عدد موظفى المؤسسة عن الحد الأنسب الملائم للمشروع ، كل هذه تعتبر دلائل على التنظيم السيء ٠

ثانيا : التهديد من الخارج :

قد يأتى تهديد حياة النظام من الخارج أيضا فى شكل تأثيرات تنبعث من عوامل خارجية وتنصب على عنصر من عناصر النظام فتؤدى الى ضعفه أو افراطه فى القوة ٠

أ ـ من ناحية الضعف :

١ ـ قد يحدث التهديد من الخارج فيؤدى الى ضعف حياة النظام ، فمثلا الفساد والتعفن بين قواد الرومان أضر كثيرا البلاد التى كانت تحكمها

الامبراطورية فى القرون المتأخرة من حياة الامبراطورية فهدد حياتها كنظام ، فهذا النوع من الضعف أدى الى تغير جوهرى فى الامبراطورية كنظام اجتماعى ، فبعد أن كانت كثير من البلاد تدخل طواعية فى حماية الامبراطورية ، أصبحت الثورات تقوم فى كثير من البلاد ضد الامبراطورية للتخلص من حكامها المتعنتين • وكان هذا أيضا سببا فى انهيار النظام العثمانى •

٢ ـ وأيضا قد يكون التهديد من الخارج لحياة النظام يأتى فى شكل ضعف الاجراءات • مثل عندما يحدث تغيرات فى البيئة المحيطة بمؤسسة صناعية كبرى ولا تستطيع أن تغير من اجراءاتها لتتواءم مع التغيرات الحادثة حولها ، كأن تنخفض ساعات العمل فى المجتمع التى توجد فيه المؤسسة وتظل هى على ساعاتها الزائدة فيهرب منها العمال الى غيرها من المؤسسات ، أوأن ترتفع الاجور فى المؤسسات الموجودةحولها فى البيئة ولا تستجيب الاجراءات لتلك التغيرات • ومثل آخر فى النظم السياسية ، عندما دخل الروس دول شرق أوربا ، وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والمانيا فى غرب أوربا ، ودمروا النظم التى كانت هناك ولم يستطيعوا أن يقدموا نظما ذات اجراءات مشبعة فأدت الى دمار هذه المجتمعات وتخلفها وفقرها ، فهم دمروا أكثر مما بنوا •

٣ ـ كذلك التهديد لحياة النظام يمكن أن يأتى فى شكل ضعف المعدات ، بمعنى أن الظروف الخارجية لا تؤدى الى المحافظة مثلا على سلامة معدات النظام • فلقد هدد اليابانيون فى بداية الحرب العالمية الثانية نجاح الحلفاء ضد المحور عن طريق اغلاق امدادات المطاط للولايات المتحدة من جزر الهند الشرقية • وفى وقتنا الحاضر محاولة الروس الوصول الى مصادر البترول ، أو حتى التمكن من منع وصول امدادات البترول عن الدول الغربية وأمريكا عند الحاجة لاضعاف معدات النظام فى العالم الغربى عند نشوب الحرب •

٤ ـ التهديد من الخارج يمكن أن ينصب على اضعاف التنظيم ، مثل قيام مؤسسة كبرى فى مجتمع تقليدى ذى علاقات شخصية وأولية قوية

تتدخل بشكل فعال فى عمل المؤسسة مما يؤدى الى ضعف التنظيم ، اذ ان التنظيم الصناعى او فى اى مؤسسة اقتصادية يتنافى مع العلاقات الشخصية ، فمن الأسس المعروفة ان العلاقات التعاقدية هى اساس العمل والتنظيم الناجح فى تلك المؤسسات ٠

ب : من ناحية الافراط فى القوة :

وهذا المظهر يبدو فى حالة تهديد حياة النظام من الخارج اكثر وضوحا من حالة الضعف ٠

١ ـ فقد يحدث التهديد من الخارج لحياة النظام فى شكل الافراط فى قوة الهياة ٠ تعتبر العبقرية المتفردة عادة تهديدا للنظم المؤسسة (١) فمثلا هددت نظريات جاللیو Galilleo عن الفلك عقائد الكنيسة الرومانية حتى ان الكنيسة طالبت باعدامه ٠ كما ان كل نبى جديد ظهر هدد حياة النظم الموجودة بالزوال ، رغم انه عادة يكون مكسبا كبيرا للمجتمع ٠ وايضا ينطبق هذا على الجماعات الاجتماعية التى تقوم بنفس الدور ، فقبائل الجرمان التى هاجمت الأمبراطورية الرومانية الغربية هددت نظم الامبراطورية بالزوال ، وكذلك قبائل التتار شكلت تهديدا للنظم الاسلامية عند غزوها للدولة العباسية الثانية ، وكانت سببا فى سقوط هذه الدولة ٠

٢ ـ وقد يكون التهديد من الخارج فى شكل قوة المعدات ٠ فالنظام هو مؤسسة تتضمن معدات معينة لعمل الأشياء ، وعادة هذه المعدات ذات عمر طويل ، فاذا ظهر فى المجتمع اختراع لآلة تؤدى ذلك العمل بتكاليف اقل ووقت اقصر فانها تهدد معدات المؤسسة لأنها تعنى خسارتها لأن المؤسسة لا تستطيع الاستغناء عن معداتها ذات العمر الطويل والاثمان الباهظة ٠ وبالمثل ايضا لم يستطع الهنود الحمر بالأسهم والأقواس

---

(١) راجع الفقرة الخاصة بالموهبة عند فبر فى كتاب التغير الاجتماعى للمؤلف ـ الناشر مكتبة وهبه

وهى معدات الدفاع فى نظامهم ، مقاومة قوة النيران التى اتى بهـا الأوربيون ، فزالت نظم الهنود وأجبروا على تغيير نظمهم ولبســــوا الملابس الغربية ٠

٣ ـ التهديد من الخارج لحياة النظم قد يأتى أيضا عن طريق قوة الاجراءات، ففى بعض الاحيان يحدث أن الأمم التى هزمت واحتلتها الدول الأقوى ، يتغلبون على هازميهم من خلال تفوق اجراءات السلم ٠ فمثـلا فيليب المقدونى بعد غزو اليونان أخذ أرسطو مدرسا لابنه الاسكندر ، وهكذا سمح لثقافة اليونان أن تسود وزالت النظم المقدونية ٠ وحدث أثنـــاء احتلال البريطانيين للهند أن أصبح كثير من المديرين الانجليز مسلمين٠

٤ ـ كذلك التهديد من الخارج لحياة النظام قد يأتى فى شكل قوة التنظيم ، عندما الثقافة الأوربية مع صناعتها وتنظيماتها انفتحت على بلاد غرب آسيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، القابلية للتنظيم عند اليابانيين وقدرتهم الكبيرة على التمثيل للأنماط الوافدة ، عن طريق التقليد ، أدت بهم الى الوصول الى مرحلة التصنيع فى فترة قصيرة وأخذوابالنظم الجديدة ، بل كان فى قدرتهم ليس فقط الوقوف فى وجه الغرب ولكن أيضا تهديد النظم الاقتصادية الأوربية رغم هزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية ٠

هدف النمو

كما تميل النظم الى الحياة هى أيضا تميل الى النمو ، ونعلم أن المجتمع يتكون من مجموعة من النظم الاجتماعية · فاذا كان النمو هو من الأهداف الثانوية لكل نظام ، معنى ذلك أن ذلك الهدف يدفع النظام الى الدخول فى منطقة المنافسة بين النظم ، لأنه من الواضح أنه اذا نمى نظام واحد فى مجتمع ثابت الحجم ، فان ذلك النمو بالضرورة سيكون على حساب النظم الأخرى ، ومن ثم ينتج الصراع بين النظم ، وعلى أى حال سنناقش هذه النقطة فى فقرة قادمة عند الحديث عن صراع النظم · وما يمكن قوله هنا هو أن النظم لديها ميلا لزيادة حجمها ومجال تاثيرها وهو ما نسميه بالنمو · فاذا كان المجتمع كله فى حالة نمو ، ذلك يعنى أن كل النظم فى حالة نمو ومن ثم لا يحدث الصراع ، انما يحدث الصراع فقط فى حالة الثبات النسبى للمجتمع ، حيث يصبح نمو نظام واحد هو على حساب النظم الأخرى ·

وغنى عن البيان أن هياة النظام وخاصة الرجال النظاميون (المديرون والمنتجون) ينظرون الى نظمهم على أنها النظم الاكثر اهمية ، وهذا أمر منطقى يتطابق مع طبيعة الولاء للنظام ، ومن ثم يشعرون أن نظمهم هى الأحق بأن تؤدى دورا أكبر فى المجتمع ، ومن ثم يصبح الهدف الثانوى للنظام هو أن يزداد وينمو · ويمكن أن يحدث نمو النظم عن طريق نمو أى عنصر من عناصره مثل الهياة أو المعدات أو الاجراءات أو التنظيم ، أو نمو أكثر من عنصر او كل العناصر ·

١ ـ تنمو النظم بزيادة عدد هياتها ، ففى القرن التاسع عشر كان الجيش الأمريكى فى وقت السلم قليل العدد ، ولكن وصل الرقم الى الملايين فى القرن العشرين · وهنا نذكر القارىء بأن زيادة عدد الهياة أو قلتها فى أى نظام عن العدد الانسب لحاجة النظام أو الظروف المحيطة بـه يؤدى الى ضعف النظام ، كتكديس عدد العمال بما يزيد عن حاجة المؤسسة مثلا فان ذلك يؤدى الى خسارة المؤسسة والعكس صحيح

فان قلة عدد العمال عما يتطلبه العمل فى المؤسسة يؤدى أيضا الى ضعف النظام ٠

٢ ـ تنمو النظم بزيادة معداتها ، تزيد الحكومات معداتها فى حالة الحرب مثلا ، وبعض الدول تزيد معداتها عن طريق التوسع على حساب الحكومات الأخرى (الاستعمار) ، وتنمو النظم الاقتصادية عن طريق زيادة راس المال للتوسع فى نشاطها أو انشاء فروع لها فى مناطق جديدة ٠

٣ ـ وتنمو النظم أيضا بزيادة اجراءاتها ، ومن أغرب أنواع النمو فى الاجراءات فى النظم ذلك الذى حدث فى روسيا السوفييتية ، حيث مد النظام السياسى اجراءاته لتشمل نظم الفنون والعلوم ، مدعية أن فى قدرتها أن تقرر ما هو أصلى وأحسن مما أوقع الصراع بين النظام السياسى وكثير من العلماء والفنانين ٠

٤ ـ وأخيرا تنمو النظم بزيادة أو كثافة تنظيماتها ٠ ابتدأت الديموقراطية فى المذهب الحر بنوع من الحكومات يعتبر أقل الحكومات تدخلا فى شئون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية وذلك طبقا لمفهوم تقديس حرية الفرد ، ومن ثم أصبحت وظيفة الحكومة هى حماية المواطن فى الداخل أى عدم اعتداء بعضهم على بعض ، وحمايته من الخارج ٠ ولكن فى العصر الحديث ازدادت كثافة تنظيمات الحكومة ، ونمت نموا عظيما نتيجة الظروف التى دفعتها للتدخل فى كثير من شئون الحياة الاجتماعية لتوفير الاستقرار للمجتمع ٠ ومثل آخر معظم المؤسسات الانسانية ، وأيضا نظم البحث العلمى ابتدأت كمنظمات خيرية ، وانتهت كمصالح مهمة ذات تنظيمات كثيفة ٠

كما أن النمو فى ضبط وسيطرة النظام على معداته وهيأته حتى يكونوا خاضعين تماما للنظام ، يعد نوعا من التطرف للتنظيم ٠

ويلاحظ انه يوجد اتجاهان للنمو فى حياة النظم ، الاتجاه الأول يمكن أن نسميه النمو فى القوة ، والثانى النمو فى الامتداد ٠

الاتجاه الأول ، ألا وهو نمو قوة النظام يأتى عن طريق احساس أعضاء النظام بأنهم يحملون رسالة ، ونعنى بالاحساس بالرسالة ، ليس مجرد اعتقاد أعضاء النظام عن أهمية الهدف المراد انجازه ، بل أيضا الاحساس بأن عدم انجاز هذا الهدف معناه تدهور المجتمع ، فمثلا يعتبر الجيش نظاما ، ذلك الجيش فى حالة الحرب حاملا لرسالة ذات هدف محدد ومختصر جدا وهو النصر ، لأنه اذا هزم معنى ذلك أن الأمة التى يدافع عنها تكون معرضه للانهيار . وكذلك كان يشعر المسلمون الأوائل أن الدين الاسلامى هو للعالمين كافة (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) ومن ثم جاء الأمر الربانى (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل . وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) فجعل سبحانه وتعالى النظام الاسلامى يحمل رسالة على المسلمين ابلاغها للعالمين ، ومن هنا كان الجهاد بالنفس والمال فى الاسلام عنصرا أساسيا وفريضة ، وهكذا نمى النظام الاسلامى وأزال عبادة الأوثان ، وحرر الانسان من العبودية لغير الله فى كل صورها فى مشارق الأرض ومغاربها .

والاحساس بالرسالة التى يتضمنها النظام تؤدى الى نمو روح الجماعة بين أعضاء النظام ، (وروح الجماعة هى فى ذاتها الفهم والاحساس الذى يكون لدى الناس عن انتمائهم لبعض وعن كونهم متوحدين كل مع الآخر فى تناغم تام قد ركب أساسه وشكله حالة من الوفاق مثل هذه الظروف من الاحساس بالمشاركة المتبادلة والاستجابات الواضحة العلنية تؤدى الى السلوك المتماسك) (١) .

فعادة تشكل الجماعة الاجتماعية القوة الانسانية man power للنظام ، وما يحدث التماسك القوى بين أعضاء تلك الجماعة هى الروابط العاطفية ، فهم يشعرون أنهم منجذبون الى بعض لأنهم يشاركون فى هدف مشترك هو رسالة النظام الذى ينتمون اليه كأعضاء ، والذى يشعرون نحوه

---

1 — Blumer : Op. Cit., P. 206.

بالولاء الذى قد يدور من مجرد تنبيه صغير الى قمة شامخة من الولاء قد تصل الى حد الرغبة الحارة فى التضحية بالنفس كما فى الاستشهاد فى الاسلام ·

ويلاحظ أن نمو روح الجماعة هى شيء يمكن أن يحدث عن تدريب مقصود · فالوقائع الاجتماعية تكشف لنا عن أن الرجال يمكن أن يدربوا بسهولة للعمل والتفكير معا ، بل يعتبر ذلك احد خصائص الجماعات الاجتماعية · ليس هذا فقط بل انه ايضا يمكن تدريب الجماعة ليس فقط على العمل معا فى كل مناسبة ، ولكن ايضا الشعور بأن المحافظة على مثل هذا الاسلوب المشترك هو شيء هام جدا لحياة الجماعة ونموها · وهناك امثلة كثيرة فى التاريخ تدل على أن روح الجماعة يمكن أن تعلم وتغرس فى اعضاء الجماعة ، فهناك مثلا تجارب نظام أسبرطه القديمة ، واصدق مثل النظام الاسلامى الذى آخى بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وجعل منهم جماعة واحدة ·

اما الاتجاه الثانى لنمو النظم الا وهو الامتداد فقد يأخذ أسلوبين الأول فى الزمن أو الديمومة ، والثانى فى المجال ·

وهناك امثلة عديدة عن النظم ذات الحياة الطويلة ، مثل النظام الاسلامى فقد عاش اربعة عشر قرنا ومازال ، وكذلك اليهودية والمسيحية ، ويلاحظ أنه لا يوجد نظام يطاول النظم الدينية فى أعمارها ، مما يدل على أن الديانات هى أكثر النظم ديمومة ·

اما من ناحية الامتداد فى المجال فالنظام الاسلامى امتد من الجزيرة العربية حتى شمل معظم انحاء العالم ، ومازال يمتد وينتشر فى بيئات جديدة ·

ويعتبر الأفراد والجماعات من أهم العوامل التى تساعد على نمو النظم · ونعنى بالأفراد أولئك الأفراد غير العاديين ، أو ما أطلق عليهم فبر Weber الموهوبين Charismatic (١) ، مثل الأنبياء أو الزعماء السياسين

---

١ ـ لمزيد من الاطلاع فى هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب التغير الاجتماعى للمؤلف ـ الناشر مكتبة وهبة ·

والحربيين او العلماء ، اى اولئك الذين يقدمون مساهمات يمكن ان تنمى النظم سواء في القوة او الامتداد • فالأنبياء قدموا نظما نمت سواء فى القوة او الديمومة أو الامتداد فى المجال ، مثل المسيحية والاسلام ، كذلك العلماء قد قدموا اكتشافات واختراعات ساعدت على نمو النظم التى تمت فى داخلها الاختراعات مثل النظام الصناعى ونظام النقل ، ونظام التعليم •

ويلاحظ انه ليس كل الاختراعات تعمل على نمو النظم ، ذلك ان الاختراع قد يكون متوافقا مع الصورة النظامية ، أعنى التصورات الفكرية التى يتمسك بها المجتمع ، ففى هذه الحالة يعمل الاختراع على نمو النظام كاختراع السيارة أو الطائرة فى نظام النقل ، فالهدف الأولى لنظام النقل هو تسهيل عملية النقل ، اى الاقتصاد فى الجهد والوقت والنفقات ، ومن ثم فاختراع السيارة أو الطائرة متوافق مع الصورة النظامية ، ولهذا ادى الى نمو النظام • والعكس صحيح بمعنى قد يكون الاختراع غير متوافق مع الصورة النظامية ولا يجرى فى قنواتها ، ومن ثم يصبح عاملا مزعجا ومناوئا للنظام ، كما حدث فى ادخال التكنولوجيا الحديثة فى النظم الاجتماعية التقليدية (ريفى – قبلى – صيد) فى مجتمعات غرب ووسط افريقيا ، حيث أدى الى انهيار كثير من تلك المجتمعات ، بينما مجتمعات اخرى لم يحدث فيها تلك الانهيارات كما حدث فى مجتمع المملكة العربية السعودية ، وفى الحقيقة أنه فى مثل هذه الحالة الأخيرة تكون العملية الاجتماعية نوعا من الاختبار لعظمة النظام عندما يستطيع بكفاءة ونجاح احتواء هذه التجديدات • وعادة يتوقف ذلك على النظام الرائد فى المجتمع وما يتضمنه من تصورات فكرية تؤيد أو ترفض هذه التجديدات ، وسنزيد هذه النقطة ايضاحا فى الفصول القادمة ان شاء الله •

كما أن الجماعات لها دورها فى نمو النظم ، وذلك عندما تنمو قيم وروح مثل هذه الجماعة ، فمثلا تعتبر ثقة الجماعات فى قادتها عامل هام فى التقدم اى النمو ، بينما فى أوقات اخرى ، قد ترفض الجماعات اعطاء ثقتها لهم لأسباب مبهمة • حقيقة ان هناك حالات لا تفهم فيها الجماعات قادتها ورغم ذلك يتبعونهم عن طيب خاطر ، ولكن هناك ايضا حالات اخرى

عندما لا تفهم الجماعات قادتهم فترفض اتباعهم ، ومن ثم تتوقف النظم التى هم أعضاؤها عن النمو ·

لننظر مثلا الى نظام كالأسرة من ناحية النمو · يقاس منحنى الاسرة كنظام عن طريق رد فعل الشباب لأوامر الاسرة الشرعية · تحدث ثورة الشباب فقط عندما لا تقدم الأسرة أى اطار من الأمان للشباب · فالثورة ضد الآباء تعنى أن يأخذ الشباب موقفا معارضا لاتجاهات آبائهم ، ولكن فى الثقافات ذات النمو الحسن حيث الأسرة مستقرة ، ومن ثم فانها تستطيع اشباع واحتواء احتياجات الشباب النامية ، ولهذا لا يحتاج الشباب للثورة على الآباء ، بل انهم يتابعون النمو فقط ·

ويلاحظ أن نمو النظم يتطلب مددا وانعاشا مستمرا بانضمام أعضاء جدد الى هيأة النظام · وقد يكون هذا الامداد عاما ، بمعنى على causal ومؤقت temporary مثل العضوية فى نادى اجتماعى ، فانضمام العضو هنا له أسباب ، وأيضا وقتى وليس دائما · كما قد يكون الامداد لهيأة النظام ثابتا Fixed ولا رجعة فيه ودائما مثل عضوية نظام الاسرة · كما قد يكون الامداد فى بعض النظم قهريا ، كما هو فى الجيوش عند بعض الدول التى فيها نظام الجندية اجبارى أو يكون الامداد اختياريا ، كما هو فى نظام الاعمال الحديثة مثل الصناعة والبنوك ·

ومن ناحية أخرى بعض النظم مفتوحة ، بمعنى أن ينضم أى فرد لعضوية النظام طالما يرغب فى ذلك · أو قد تكون النظم مغلقة بمعنى انه لا يمكن الانضمام لهيأة النظام الا بدعوة من الهيئة · أو قد تكون النظم فى مجتمعات متقدمة مما يعطيها أفضلية وميزة فى انعاش ونمو النظم عن تلك المجتمعات التى تتميز بالصلابة كما يلاحظ فى المجتمعات البدائية ·

النظام الرائد

THe LEADING INSTITUTION

فكرة الترتيب

تعتبر فكرة الترتيب من أهم عوامل البناء الاجتماعى ، فيرى راد كليف براون أن كلمة بناء تشير بالضرورة الى وجود نوع من التنسيق والترتيب بين الأجزاء التى تدخل فى تكوين الكل الذى نسميه بناء (١) ، وفكرة النسق نفسها تتضمن وتشير الى معنى الترتيب ، فالنسق هو ترتيب الأجزاء بأسلوب ما فى كل بحيث يحدث التساند الوظيفى ، فيذهب ريموند فيرث الى أن فكرة البناء توحى الى الذهن معنى العلاقات المنظمة بين الأجزاء والكل ، وكذلك الترتيب الذى ترتبط تبعا له عناصر الحياة الاجتماعية كل بالأخرى باعتبار أن البناء الاجتماعى نسق متكامل (٢) ويلاحظ أن مفهوم علاقات منظمة يتضمن بالضرورة معنى الترتيب ، فما التنظيم الا ترتيب من نوع ما للأجزاء فى هذا الكل ، ولذلك وجدنا أن من أهم عناصر البناء الاجتماعى هى فكرة التنظيم التى تعتبر ترتيبا ، ولذلك نجد فيرث رغم انه قرر أن فكرة البناء تتضمن معنى العلاقات المنظمة فانه عاد ليؤكد ويبرز فكرة الترتيب ليبين مدى أهميتها ٠

فالنسق هو ترتيب الأجزاء بأسلوب ما فى كل ، وهذا الترتيب يجعل لدى الناس القدرة على قيادة افعالهم ، اذ طالما أنهم يعرفون ذلك الترتيب فهم يوجهون سلوكهم طبقا له ، وكذلك يؤدى هذا الى معرفة ردود أفعال الآخرين ، طالما الترتيب معروف للجميع ، ومن ثم يمكن للعلاقات الاجتماعية أن تسير فى سهولة ويسر ، ويقل الصراع ، فامكانية التنبؤ بالوقائع الاجتماعية ، وما هو متوقع من كل عضو يقوم على أساس ترتيب العضو

---

١ ـ رادكليف براون (فى البناء الاجتماعى) المرجع السابق ص ٢ ٠

2 — Firth : Op. Cit., P. 82.

سواء فى سلم مكانات أو سلم جماعات أو سلم طبقات ، ذلك ما يمكن أى عضو فى المجتمع من أن يوجه سلوكه وأيضا يرتب حياته بما يتفق مع ما يعرفه من ترتيب للأعضاء الآخرين ٠ ذلك ما جعل ايفانز بريتشارد يعتبر (أن البناء الاجتماعى هو مجموعة العلاقات التى تقــــوم بين الزمر الاجتماعية التى تتمتع فى العادة بدرجـــة عاليـــة من القــدرة على البقــاء والاستمرار فى الوجود) (١) ٠

ونفس فكرة الاستمرار فى الوجود تتضمن فى طياتها فكرة الترتيب ، فما يسمح بالقدرة على الاستمرار فى الوجود ، هو أن الأجـــزاء رتبت أى أصبحت ثابتة فى نظام معين ، فمفهوم الترتيب الذى يستخدمه علماء الاجتماع والانثرويولوجيا عند الحديث عن البناء الاجتماعى ، هو بالدقة أن الاجزاء رتبت أى أصبحت ثابتة طبقـا لنظام معين فى داخل الكل أى المجتمـــع ، واستمرار هذا الترتيب كدليل وموجه للعلاقات الاجتمـــاعية التبـادلية بين الاجزاء ٠ ويعتبر أحد عوامل التغير فى المجتمـع ، هو تغير هذا الترتيب أى عدم استمراره أو عــدم ثباته ٠ وذلك ما جعـل رد كليف براون يقول (أن مسألة الاستمرار تعتبر من أهم مسائل البناء الاجتماعى فالأمة والقبيـلة والعشيرة والمنظمات الكبرى يمكن أن تسـتمر فى البقاء باعتبارها ترتيبـا للأشخاص رغم كل مايحدث للوحدات التى تدخل فى تركيبها من تغيرات) (٢) ويؤكد فورتس هذه الفكرة اذ يعتبر أن البناء الاجتماعى هو أجزاء يقــوم بينها نوع من الترتيب المنظم فى الزمان والمكان ، وأن مهمة الباحث البنــائى هى الكشف عن المبادىء التى تحكم الترتيب البنائى (٣) ٠ فاذا أضـفنا الى هذه الحقيقة فكرة بلالوك Blalock عن البناء الاجتماعى حيث يعتبر

---

١ ـ ايفانز تريتشارد : المرجع السابق ذكره ص ٤٢

2 — Radcliff-Brown : Op. Cit., P. 10

3 — Fortes : Op. Cit., P. 55

(أن اصطلاح البناء سواء فى العلوم البيولوجية أو الطبيعية او الاجتماعية يشير الى ترتيب عناصر النسق ، وأن الاصطلاح يستخدم كأداة لوصف العلاقات بين عناصر النسق) (١) • وهنا يظهر لنا معنى جديد وهو أن وصف العلاقات بين الاجزاء فى الكل هو معرفة ترتيب هذه الأجزاء فى الكل أى فى النسق ، وهكذا يصبح احد مهام دارس البناء الاجتماعى هو معرفة الترتيب الذى يتضمنه البناء الاجتماعى أى ترتيب الاجزاء المكون منها ذلك الكل المسمى المجتمع •

لنتجه الآن لدراسة صفة هذا الترتيب فى الواقع الاجتماعى ، وليس معنى هذا أن الترتيب له صفة واحدة ، ولكن ما نعنيه هو الاجابة على سؤال ما هى اهم الصفات لهذا الترتيب فى الواقع الاجتماعى ؟ وعادة نحن نعتبر أن أهم الصفات فى تلك الصفة التى نراها فى جانب كبير من الوقائع الاجتماعية بمعنى أنها تتكرر من ظاهرة لأخرى •

وفى الحقيقة نلاحظ فى الواقع الاجتماعى أن صفة الترتيب البارزة فى مختلف الظواهر الاجتماعية هو ذلك التدرج أو السلم الاجتماعى الذى يمكن رؤيته بوضوح فى كثير من الوقائع الاجتماعية فالمعايير والقيم مثلا نراها تتدرج فى سلم للقيم أو سلم للمعايير ، فنجد أن هناك قيما فى القمة وتتدرج القيم الى ادنى حتى تصل الى اشياء عادية جدا • فنجد مثلا فى المجتمع الاسلامى فى قمة سلم القيم (لا اله الا الله) وتتدرج القيم حتى تصل الى أسلوب فى الطهى يتميز به مجتمع عن مجتمع ، وكما ورد فى الحديث الشريف ما معناه أن الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، فالايمان سلم من القيم متدرج • ويمكن فى هذا الصدد رسم خريطة لهذا السلم القيمى مسترشدين بالجزاءات المرتبطة بكل قيمة أو معيار ، فنجد أن أشد الجزاءات الاعدام وهو للخارج على القيم العليا فى المجتمع • وتدرج الجزاءات فى سلم العقوبات يمكن رسمه بسهولة فالقيمة الأعلى عقوبتها أشد والقيمة الأدنى عقوبتها أخف ،

1 — Blalock : Op. Cit., P. 69.

وهكذا طبقا لهذه القاعدة البسيطة يمكن رسم خريطة للسلم القيمى فى المجتمع • وكذلك يوضح ما سبق أن درسناه فى فصل المعايير أن هناك الأساليب الشعبية والأعراف ثم القانون ، ويتضمن القانون تلك المعايير أو القيم التى يشعر المجتمع بأهمية عدم الخروج عليها فيضع لها جزاءات مادية الى جانب الجزاء الاجتماعى ؛ مما يدل على علو هذه القيم أو المعايير ، وهكذا فالسارق تقطع يده والقاتل يعدم ذلك يعنى أن قيمة عدم الاعتداء على النفس أعلى من قيمة عدم الاعتداء على الملكية •

كذلك اذا اتجهنا الى الجماعات الاجتماعية نجد أن المجتمع يرتب الجماعات فى سلم اجتماعى ، فالجماعات عندما تقوم بوظائفها فى المجتمع ، وعندما تثبت هذه الوظائف المختلفة فى نموذج يحدد الموقف الاجتماعى لشخص معين بشغل هذا الوضع ، فاننا نسمى هذه الوظائف بالادوار الاجتماعية • ولما كان المجتمع عبارة عن تنظيم من عدة جماعات تقوم بأنواع مختلفة من النشاط ، فاننا نتوقع نتيجة لهذا وجود أدوار اجتماعية كثيرة والملاحظ أن المجتمعات تماين بين أعضائها على أساس الأدوار ، ومن ناحية أخرى تقيم المجتمعات هذه الأدوار ، ولهذا تعتبر بعض الأدوار اكثر أهمية واكثر قيمة من أدوار أخرى • ويتبع ذلك أن المجتمع يقدر أولئك الذين يشغلون أدوارا مهمة من وجهة نظره • وهذا التقدير الاجتماعى المختلف للأدوار الاجتماعية ، هو الذى أدى الى ظهور فكرة المركز ، ولذلك ينظر الى المركز على انه الرتبة التى تقرنها الجماعة بدور معين أو مجموعة من الأدوار ، ولذلك تسمى العملية التى عن طريقها يرتب المجتمع الجماعات فى سلسلة متدرجة من المراكز بالترتيب الطبقى أو التدرج الطبقى • والتدرج الطبقى ظاهرة اجتماعية وجدت فى كل المجتمعات الانسانية وقامت على أساس اختلاف أدوار الناس ومراكزهم فى الحياة الاجتماعية • وفى هذا الصدد يقول لندبرج Lundborg ان أساس العضوية فى جماعة هو القيام بسلوك معين متوقع من هذه الجماعة ، ويسمى نمط السلوك المتوقع بالاضافة الى وظيفة معينة (الدور) ويطلق على مبلغ الأهمية المرتبطة بهذا الدور اسم (المركز) ، ولهذا يمكن مقارنة مراكز الأدوار من حيث علوها

أو توسطها أو قلة أهميتها ، ويقول ان كلا من القرن والجماعة لهما مركز كما لهما ادوار ، ولذلك تسمى مثل هذه الجماعة طبقة اجتماعية والترتيب الطبقى هو صلة الطبقات كل بالأخرى (١) ٠

وفى فصل المنظمات الاجتماعية (٢) وجدنا أن المنظمة هى مجموعة من المكانات المرتبة وأن أهم صفة فى هذا الترتيب هى أن هذه المكانات متدرجة فى سلم مكانات ٠

ويلاحظ أن معظم المفاهيم الاجتماعية الرئيسية فى علم الاجتماع الحديث تقوم على أساس من هذه الفكرة ، أعنى فكرة الترتيب فى سلم متدرج ٠ فمثلا مفهوم السلطة Authoroty فى المجتمع يعنى حقا مؤسسا لصنع القرار وتوجيه افعال الآخرين ٠ ومعنى ذلك أن هناك أشخاصا يأمرون وأشخاصا يطيعون ، ذلك يعنى أن الآمر فى ترتيب أعلى من المأمور ، ويتضح هذا بجلاء فى محاولة فبر Weber تصنيف السلطة فهو يعتبر أن السلطة فى المجتمع على ثلاثة أنواع،الأولى السلطة البيروقراطية القائمة على المناصب الرسمية ، والثانية السلطة التقليدية القائمة على الاعتقاد فى معايير أو تقاليد مقدسة من ثم يجب على الانسان طاعة هذه السلطة مثل سلطة الأب أو الزوج ، والنوع الثالث سلطة الرجل الموهوب وهى سلطة شخص فوق العادى يطاع بسبب موهبته مثل حكمته الواضحة ٠ كل هذه الأنماط من السلطة تقوم على أساس شخص أو أشخاص أعلى ، وآخرون أدنى ، أى على أساس سلم اجتماعى لمستويات السلطة ٠ ولهذا يعتبر ميرتون Merton (أن السلطة هى قوة الادارة والضبط المشتقة من مكانة محددة ومنغرسة فى المنصب وليست فى الشخص الذى ينجز الدور الرسمى ٠ وعادة تحدث الأفعال الرسمية فى داخل اطار العمل المكون من قواعد المنظمة الموجودة مسبقا ٠ ويتضمن نسق العلاقات المرسوم لمختلف المناصب درجة معينة من الرسمية ويحدد بوضوح مسافة اجتماعية بين

---

1 — Lundburg : Op. Cit., P. 415.

٢ ـ يمكن الرجوع الى ذلك فى الفصل الثالث ٠

شاغلى هذه المراكز) (١) • وهذه المسافة الاجتماعية هى الفرق بين درجة فى سلم السلطة وبين درجة أخرى •

بل يعتبر بعض علماء الاجتماع أن فكرة السلطة القائمة على ترتيب معين لأعضاء الجماعة فى شكل سلم اجتماعى لمستويات السلطة هو حجـــر الزاوية فى بناء الجماعة (٢) • اذ يعتبرون أنه لابد من سلطة لتنظيم التفاعل بين أعضاء الجماعة الواحدة وبين الجماعات الداخلة فى تركيب المنظمة ، وعند ذلك فقط يصبح الموقف لــه بنــاء ، بمعنى تصــبح المكانات متمــايزة وواضحة ، وتصبح الأدوار المصاحبة لها معروفة بوضوح ، وينبعث من كل هذا نظام متدرج للسلطة • وخاصة اذا كانت الجماعة تتكون من جماعتين فرعيتين أو أكثر (مثل المنظمات فى المجتمعات المركبة الحديثة ـ حـكومة ـ مصنع ـ شركة) فان بناء السلطة يصبح متدرجا فى شكل يشبه الهرم كثيرا أو قليلا ، يوجد عند القمة شخص أو جماعة صغيرة ثم مستويات من السلطة تتدرج الى أسفل فى شكل خط مستقيم • ذلك يرجع الى أن القوة العــاملة فى أى مؤسسة هى بالضرورة منظمة فى شكل متدرج لأن العمل الجمــاعى يحتــاج الى كل مــن المدير والمدار ، فمختلف المهــارات يختــلف تقييمهــا ومكافآتها •

ويرتبط بفكرة السلطة مفهوم اجتماعى آخر أصبح أساسيا أيضا فى علم الاجتماع الحديث هو مفهوم البيروقراطية Bureacracy ،وقد أصبح له أهمية كبرى فى دراسة المنظمات الاجتماعية فى المجتمعات الحــديثة . والبيروقراطية هى هرم من هيئة المنظمة تتولى ادارة العمل فى المنظمة ، فهى سلسلة من الأدوار المتدرجة لتحديد السلطة والمسئولية • البيروقراطية تقوم على أساس تنظيم الناس فى أى عمل جماعى فى شكل هرم متدرج ، أى

---

1 — Merton, R.K. «Bureacratic Structure and Personality». Etzioni «A Sociological Reader on Complex Organizations» Holt Rinhart and Winston, Inc., New York, 1969. P. 47.

2 — Biesanz : Op. Cit., P. 187.

شكل سلم اجتماعى يوضح مختلف مستويات السلطة فى شكل هرم متدرج أعلى سلطة فى القمة واقل سلطة فى القاع ·

ويرتبط بالمفهومين السابقين مفهوم آخر أصبح محوريا فى علم الاجتماع الحديث وهو مفهوم القوة Power فى المجتمع · فالقوة فى المجتمع تتدرج فى شكل سلم اجتماعى فى قمته تلك الجماعة التى يطلق عليها علماء الاجتماع الصفوة Elite وهى تتكون فى كل مجتمع من رجال مراكزهم الاجتماعية تمكنهم من الارتفاع فوق ظروف بيئة الناس العاديين ، ذلك يرجع الى انهم فى مركز صنع القرار ، لأنهم على رأس معظم المنظمات الكبرى فى المجتمع الحديث فهم يديرون آلة الدولة (الحكومة) ويديرون المؤسسات الهامة والكبرى فى المجتمع ، بمعنى أنهم يشغلون المواقع الاستراتيجية للأمر والاملاء فى البناء الاجتماعى (١) ·

وهكذا فان الترتيب الاجتماعى فى سلم متدرج لمختلف الظواهر الاجتماعية ظاهرة واضحة فى كل نواحى الحياة الاجتماعية ، بل يبدو أن هذه الظاهرة ترجع الى أنها احدى الصفات السيكولوجية عند الانسان ، فنحن فى حياتنا العادية نصنف الأشياء فى سلم سواء فى الجانب اللا مادى أو الجانب المادى من عناصر الثقافة ، فنحن نصنف ملابسنا أيهما أبهى من الآخر ، ونصنف الأطعمة أيهما أحب وأيهما أبعد ، ونصنف أصدقاءنا أيهما أقرب وأيهما ابعد ، ونصنف الفن أيهما أقرب الى النفس وأيهما ابعد ، ونصنف الألوان أيهما أحب وأيهما أبغض · وهكذا الى آخر القائمة التى يمكن ان ان تاخذ صفحات لو أردنا حصرها ·

وهنا نلاحظ كيف أن ظاهرة سيكولوجية تتفاعل مع البيئة الاجتماعية فتتولد ظاهرة اجتماعية هى ظاهرة الترتيب فى سلم اجتماعى · ومن ناحية أخرى ان ظاهرة الترتيب فى سلم سواء على مستوى الظواهر الاجتماعية أو الظواهر الفردية ، هى من أساليب تيسير الحياة فمثلا على المستوى

---

1 — C. Wright Mills : « The Power Elite» Oxford University Press, New Jersy, 1966 P. 3—4.

الفردى تجعل أمر الاختيار سهل ، طالما ان ترتيب الأشياء فى سلم ، فأنت تختار ما هو فى القمة فان لم تجده تتدرج منحدرا الى أدنى وهكذا ، وعلى المستوى الاجتماعى يجعل الأمر أسهل فى التفاعل الاجتماعى فبمجـــرد معرفة موقع ، مثلا ، القيمة فى السلم الاجتمـــاعى تستطيع أن تعرف ما هو مطلوب منك فعـله ٠

فى معنى النظام الرائد

سننظر الى النظم الاجتماعية على أسس تختلف تماما عن تلك الأسس التى سبق أن صنفنا على أساسها النظم الاجتماعية فهى تمت أكثر الى الترتيب فكما رأينا أن المجتمع يرتب الجماعات الاجتماعية حسب أهميتها ، وكمـا رأينا أن المنظمات ترتب أيضا الكانات الاجتماعية فى سلم مكانات ، كذلك يرتب أعضاء المجتمع النظم الاجتماعية فى سلم نظامى حسب أهميـة النظام ، فالنظام الأهم فى أعلى السلم ويليه النظام الأقل أهمية ، فالاقل وهكذا ٠ وهذه الأهمية تنبع من التصورات الفكرية عند أعضاء المجتمع ٠ (وما من شك فى أن الفكر على اختلاف مستوياته هو محرك الطاقات المبدعة للجماعات البشرية وهو الأداة التى تحكم وتنظم وتنسق عناصر كياننا الفردى والمجتمعى ٠ وعن طريق الفكر تنصهر التجارب الخاصة والعامة التى تحـــدد دوره ٠ بالتالى فى وجودنا الاجتماعى ليتحقق من جديد التوافق التركيبى والوظيفى أو التوظيفى فى البناء الاجتماعى) (١) ٠

والنظام الذى يعتقد المجتمع حسب تصوراته الفكرية انه أهم النظم ، ويضعه على رأس السلم النظامى ، نحن نسمى هذا النظـام بالنظام الرائد ٠

والتراث الفكرى حافل بما يمكن أن يكون أساسا لتحقيق هذه الفرضية ٠ فمثلا فى المجتمعات البدائية كان الفكر البدائى مصطبغا بصبغة دينية ، ومن ثم كان يرتب النظام الدينى على أنه النظام الأهم ولذلك كان يضعه على قمـة

---

١ ـ د٠ أحمد الخشاب : « التفكير الاجتماعى ـ دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية » دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ٠ ص ٣٦ ٠

السلم النظامى اى جعله النظام الرائد · ولنأخذ من هذه المجتمعات البدائية المجتمع التوتمى مثلا ، فى هذه المجتمعات يتصور اعضاؤهـــا انفسهم اسرة واحدة تنحدر من اب واحد ، وهو فى نفس الوقت الاههم ويسمى توتم Totem ، وقد يكون شجرة أو حيوانا او مظهرا من مظاهر الطبيعة كجبل او بركان او مطر او سحاب أو قمر أو شمس · فهم عشيره واحده وقرابتهم من درجـــة واحدة فكلهم ابناء التوتم اذ كانوا لا يعرفون أن الولادة هى نتيجة الاتصال بين الرجل والمرأة ، ولكن كانوا يعتقدون أن روح التوتم قد حلت فى بطـن المـرأة ، فالمولود هو ابن التـوتم ، فكلهم تربطهم عـلاقة قرابة واحـدة هى الأخوة ، ولهذا لم تكن قرابة دمـوية ولكن دينية ، وتتمثل فى اشتراكهم فى نفس العادات والعرف والتقاليد الدينية الخاصة بهذا التوتم · وهكذا نرى أن هذا المجتمع يقوم على فكرة دينية · ومعنى ذلك كما يقول دوركيم (أن الدين هو أهم مظهر اجتماعى فى هذه الجماعات ويصبغ كل ألوان الحيـــاة الاجتماعية من فن واقتصاد وسياسة وكل انماط العلاقات الاجتماعية بلونه الخـــاص) (١) ·

وعلى هذا يمكن أن نعتبر أن المجتمعات البدائية كانت تعطى الأهميــة الكبرى للنظام الدينى فترتبه فى اعلى السلم النظامى ، أى تجعــله النظام الرائد لكل الثقافة بما تحتويه من نظم سياسية واقتصادية وتربية وأســـاليب شعبية ·

واذا نظرنا الى المجتمعات الفرعونية سنجد أنه فى مصر الفرعونية كان النظام الاجتماعى الدينى هو الذى يوجه الحياة الاجتماعية كلها ، فيشــكل طبقا له النظام السياسى والاقتصادى والطبقى · وهكذا كانت الحياة الدينية هى محـــور الحيـــاة الاجتمـاعية وتصـبغ وتشـكل كل الثقـــافة فى مصر الفرعونية ·

---

1 — Durkheim, E.: «Les Forms Elementaires de la Via Religieuse» Paris. 1925 P. 151.

فمن ناحية النظام السياسى كان فرعون رئيس الدولة ، هو رئيسها لأنهم كانوا يعتقدون انه من الآلة أى يرتكز على أساس دينى ، وكان فى نفس الوقت يمثل طبقة اجتماعية هو وأسرته هى الطبقة العليا · تليه طبقة اجتماعية أخرى هى طبقة المشرعين والحكام وما جعلها ذلك الا ترتيبها الدينى فهم الكهنة وسدنة المعابد · ثم بعد ذلك طبقة اجتماعية أقل لبعدهم عن المكانات والأدوار الدينية هم العمال والفلاحون · هكذا نظم ورتب النظام الدينى الجماعات الاجتماعية طبقا لمعاييره ·

اما النظام الاقتصادى ، فكانت العمليات الاجتماعية الاقتصادية تدور على أساس دينى ، فالملكية فيه ترتكز على أسس دينية ، فكانت هناك ممتلكات مقدسة لا يجوز للأفراد تملكها وهى أملاك المعابد · وكان الانتاج سواء الزراعى أو الحيوانى تقوده وتحركه المعايير الدينية ، فكان هناك الاها للأرض (الاله توت) ، وتعمل تحت أمره هذا الاله آلهة أصغر منها الاله (حابى) للرى وكانيمثله شخص مبلل الجسد على رأسه مجموعة من أوراق البردى ، وللأرض الزراعية الاله (سنحت) وتمثله زهرة اللوتس ، واله للحبوب وتسمى (نورى) · وكان للانتاج الحيوانى أيضا آلهته ، فهناك العجل (أبيس) ، وكبش آمون فى طيبة ، والثروة السمكية أيضا لها اله منها سمكة الأقنوم ·

فاذا انتقلنا الى النظام التربوى ، نجد أن التربية كانت تتم فى ظل النظام الدينى ، فكان يقوم بها الكهنة ، وكان الكاهن عندما يفرغ من أعماله الدينية يقوم بتعليم أبناء منطقته ، وفى مكان ملحق بالمعبد نفسه ، كما أن النظام التعليمى الذى كانت تقوم به الدولة كان نظام تعليمى دينى ·

وليس هذا فى المجتمعات القديمة فحسب ، ولكن أيضا عرفت أوربا هذا النظام فى القرون الوسطى حيث سيطر النظام الدينى المسيحى على كل النظم الاجتماعية حتى أن المؤرخين يسمون هذا العصر بالعصر المسيحى أى العصر الكنسى نسبة الى الكنيسة ، فكان النظام السياسى يخضع للكنيسة حتى أن الأمراء والملوك فى أوربا كان يتوجهم البابا الذى كان يستطيع أن يعزل أى أمير أو ملك ، وكذلك كان النظام التربوى تشرف عليه الكنيسة

ولا يعلم فى المدارس الا ما شاءت الكنيسة ، وهكذا كل الحياة الاجتماعية فى أوربا فى العصر المسيحى كان يشكلها النظام الدينى وفقا لمعاييره ٠

وأيضا عرف العالم الاسلامى هــذا فى العصر الاسلامى منـذ صدر الاسلام وحتى نهاية الخـلافة الاسـلامية ، كان النظام الرائد هو النظـام الدينى ٠ فكان هو النظام الذى يصبغ كل النظم الاجتماعية الأخرى بصبغته ، فالنظام السياسى كان علَى رأسه الخليفة ، واصطلاح خليفة وان كان يعتبر مكانة سياسية الا أنه مفهوم يقوم على أساس دينى ، فهو يعنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى مكانة دينية بالدرجة الأولى وكانت كافة النظم الأخرى تستمد معاييرها من النظام الاسلامى ، فكان الاقتصاد يـدور من خلال المعايير الاسلامية ، وكان النظام القانونى يستلهم الشريعة ، والنظـام التربوى لحمته الدين وكان العلم لله أولا ، وهكذا كل النظم حتى الحـرب والسلام كانت تحكمها الشريعة الاسلامية التى كانت معاييرها متغلغلة فى كل النواحى الاجتماعية ٠

وسنرى أيضا فيما سيأتى من الدراسة أن المجتمعات المعاصرة أيضــا يوجد لكل مجتمع من المجتمعات نظام رائد وان اختلف من مجتمع لمجتمـع طبقا لاختلاف اهتمامات المجتمع ٠

وهكذا هنـــاك دائما يكون من النظم العليا نظام رائد يســود المجتمع ويصبغه بصبغته ، كما أن هناك أدلة للتفكير فى أن الترتيب الطبيعى للنظم يجرى من أسفل الى أعلى فى السلم النظامى كما يلى : فى أسفل الأسرة ثم يعلوها النقل ثم الاتصالات ثم الاقتصاد ثم التكنولوجيا العملية ثم الفنـون الزخرفية ثم التربية ثم السياسة ثم العلوم الخالصة والفنون الخـالصة ثم الفلسفة ثم الدين ٠ ومن ثم يكون النظام الرائد هو الأعلى فى النظم العليا ٠

فالدين طبقا لهذا الترتيب هو النظام الرائد لقداسته ونفاسته ، ولكن يصبح السؤال أى دين ؟ ــ (لكم دينكم ولى دين) ــ هل مجرد أى دين يصبح ملائما ليكون النظام الرائد فى المجتمع ٠ مثلا هل نظام دينى يتدهور ملائم أكثر ليكون النظام الرائد لمجتمـع مـن بعض النظم الأخـرى التى تكون فى فترة

ازدهارها وقوتها ؟ ان كان كذلك ، اذن كيف يحدث أن يكون النظام الـذى يعتبر الأكثر علوا فى تدهور ؟ ويلاحظ ان اصطلاح (تدهور) لا يتضمن فى طياته أى معنى للريادة ، فقد يكون ما زال يتمتع بمظاهر شكليات الاحتـرام ولكن لم يعد له قوة ، وفى هذا المعنى يكون النظام قد فقد مكانته كنظـام رائـد ٠

بكل تاكيد ان يوضع النظام الدينى فى غير موضعه ، بمعنى ازاحته من أعلى السـلم ، فهذا يعنى الاقلال من مكانته الاجتماعية ، أى أنه رتب أقل من بعض النظم الأخرى التى وضعت فى مكانته كما فى روسيا السوفييتية والعالم الغربى كله ، وكثير من المجتمعات الاسلامية ٠

عندما النظام الرائد فى مجتمع لا يكون ديانته ، عند ذلك نكون متأكدين أن هناك خطأ فى المجتمع ، وكذلك نسرع لاضـافة ، وخطأ أكبر فى الفـكر والسلوك الدينى لأعضاء المجتمع ٠ ففكرة أن لا شيىء يمكن أن يبرر ازاحة النظام الدينى من مكانه كنظام رائد فكرة خاطئة ، اذ أن وضع النظـام الدينى فى أعلى السـلم مرتبط ليس بالنظام الدينى نفسـه ، ولكن مرتبط بالتصورات الفكرية لأعضاء المجتمع التى رتبت النظم الاجتماعية ٠

ومن أجل شرح أفضـل عن كيفية قيادة النظام الرائد ، وكيف يسود النظم الأخرى سوف ألجأ الى العناصر البنائية للنظام ومن تحليلها نستطيع فهم عملية قيادة النظام الرائد لسائر النظم والثقافة ٠

بنـاء النظام الرائد

هيئـة النظـام

تتكون هيئة النظام من قـادة المجتمع ومن ثم يرتبون عـلى أنهم أعـلى شريحة فى المجتمع مثل فرعـون وكهنته فى المجتمـع الفرعونى ، والبـابا وقساوسته فى القرون الوسطى فى أوربا ، ومثل محمد صلى الله عليـه وسلم وصحابته فى صدر الاسلام ، والخليفة ورجاله فى الدول الاسـلامية التى أتت بعد ذلك • ورجال الأزهر فى مصر فى مطلع العصر الحديث حيث كان يلجأ اليهم أعضاء المجتمع كلما أحسوا بجور الولاه ، وهم الذين ولاهم المجتمع قيادته لصد الغزو الفرنسى عندما هرب المماليك من المعركة ، وهم الذين ولوا محمد عـلى ولاية مصر ، وهم الذين قـادوا المصريين فى ضـد الغزو الانجليزى على مدينة رشيد أثناء غياب محمد على وجيشه فى الصعيد لمطاردة المماليك • فهم قادة المجتمع لأن المجتمع رتب النظام الدينى على أنه النظام الرائد ومن ثم كان لهيئته أعلى مكانة اجتماعية •

وهكذا يرفع أعضـاء المجتمـع هيئة النظام الرائد الى أعـلى مكانة اجتماعية ومن ثم يؤدون الأدوار القيادية فى المجتمع • فهم لهم القيادة فى المجتمع أيا كان النظام الذى يخدمونه • فعلية القوم فى المجتمع تتـكون من مديرى النظـام الرائد ، ولقـد كان فى هذه المكانة الاجتمـاعية فى العصر الحديث ملاك الأراضى فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ، ورجال الصناعة فى القرن العشرين فى الولايات المتحدة •

يعتمد النظام الرائد دائما على قـدرته على الاستمرار فى الاختيـار لأعضـاء هيئته بمـا يقـدمه المجتمع من مكانات عـالية للرجال ذوى الذكاء والتصورات والمبادأة والابداع ، فهذه المكانات العالية تصبح عامل جذب لهذا النوع المتفوق من الرجال ، وما أن يصبح الأذكياء اعضاء فى هيئة النظـام يكتسبون الى جانب صفاتهم الشخصية صفات اجتماعية ألا وهى القـوة والريادة ، ولكن قليـــــل من الأذكيـــاء فى قدرتهم المحافظــة على قوتهم

منفصله عن النظام • كما أنه بقدر ما يكون النظام مقدرا تزداد مكانة أعضاء هيئته علوا وتزداد أهمية أدوارهم • وهكذا يصبح امداد النظام الرائــد بالرجال الأذكياء أمرا سهلا ويحب بعض علماء الاجتماع بتسميتهم الصفوة Elit • وأصدق مثل على ذلك تجمع الرجــال الأذكياء حول رسول الله صلى الله عليه وسلم • ويشهد التاريخ بعبقريتهم سواء فى الحكم مثــل أبو بكر وعمر بن الخطاب ، أو فى الحرب مثل خالد بن الوليد أو أبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص وغيرهم رضى الله عنهم، وكذلك فى أوربــا تجمـــع الأذكيــاء فى الكنيســـة الكاثولوكية فى العصور الوسطى •

عادة يكون لدى الهيئة المسئولة عن النظام الرائد مجموعة من الأهداف التى قد يفقدونها خلال سنوات التحجر والجمود أو التوسع والتمدد • فعادة ينجح الرجال ذوو الاستبصار فى استمالة الأعضاء من الجماعات المكبوتة ، ويقنعونهم بكيفية الحصول على القوة ولكن لا يقولون لهم أبدا كيف يحافظون على هذه الحقائق بعد أن يحصلوا على القوة ، لأنهم لا يعرفون الوســيلة الى ذلك • فمثلا بوسع بشر الايمان بالحقيقة المسيحية ولكن ليس كيفية ادارة مجتمع مسيحى ، (ذلك لحكمة عند الله ، أعتقد أنه لم يكن بعد قد آن الآوان لأن يكون دينا ودولة لأنه ليس آخر الأديان) • وكذلك زعماء الثــورة الفرنسية علموا الشعب ما هى الحقائق الموصلة للقوة ولكن بعد أن حصلوا على القوة لم يعلموهم كيف يحافظون عليها ، فقامت فى فرنسا الثورة تلو الثورة وهكذا ظلت تعانى فرنسا من الاضطراب ما يقــرب من نصف قــرن • وكذلك نشر ماركس آراءا اقتصادية معينة ولكن لم يقل أبدا كيفية ادارة مجتمع شيوعى، وهذا سر ما تعانيه المجتمعــات الشــيوعية من دكتاتورية قاسية وعبــودية مذلة • ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم هو صاحب النظام الوحيد الذى بين كيفية الحصول على القوة وكيفية المحافظة عليها ، أولا فى كثير من آيات القرآن (ولله العــزة ولرسوله وللمؤمنين) (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا) (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) (ان تنصروا الله ينصركم) (ان ينصركم الله فلا غالب

لكم) ، ثم فى الحديث الشريف اكبر بيان لكيفية الاحتفاظ بالحقائق الموصلة للقوة فى قوله صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتى) وطالما كان المسلمون متمسكون بالقرآن وسـنته كانت لهم السيادة فى الأرض ٠

ويلاحظ أنه فى النظام الرائد يرتب مديرو النظام أعلى من المنتجين ٠ فمديرو النظام هم حكماء النظام وهم أكثـر الناس أهمية فى المجتمع وهـم الصفوة ٠ ويكون للمنتجين مقام أعلى من بقية أعضاء المجتمع لكونهم فى النظام الرائد ، ويعرفهم المجتمع فقط من خلال انتاجهم ٠ فمديرو النظـام فى صدر الاسلام كانوا محمدا صلى الله عليه وسلم والعشرة المبشرين بالجنة، وبعـده كان أبا بكر وبقية العشرة وهكذا حتى على كرم الله وجهه ، أمـا المنتجون فكان منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العـاص ، وقواد الجيوش الاسلامية على مر العصور مثل طارق بن زياد ، الذين عرفوا بجهادهم فى نشر الاسلام شرقا وغربا ، وكذلك ولاة الأمصار الذين أرسوا قواعد الاسـلام واوضحوا عن فضل الشريعة فى قيادة المجتمعات ٠

المعـــدات

مثـل كل النظم الأخـرى يمتلك النظـام الرائد وسائل مادية لمباشرة وظائفه ، ولكن فى حالة النظام الرائد هذه الوسائل المادية تصبح فى المجتمع الرموز symbols أو الأشياء المقدسة ٠ فالحجر المقدس (الحجر الأسود) لم يعد عند المسلمين مجرد قطعة حجر ، وكذلك فقطعة من الصليب المسيحى الحقيقى لم تعد عند المسيحيين مجرد قطعة خشب بل تحولت الى شيء مقدس عندهم ٠

ومن ثم فالنظام الرائد يضع القيمة الرمزية على الشيء فيجعله متفردا ، فالحجر المقدس لم يعد بعد من فئة الاحجار بل شيء مقدس ، حتى ان هذه القداسة تنزع عنه صفة الحجر ، بل اكثر من ذلك ينسى تماما المؤمنين عنـد تقبيله انهم يقبلون حجرا ، بل يقبلون شيئا مقدسا ٠ وكذلك الصليب عنـد

المسيحيين لم يعد قطعة خشب بل شيئا مقدسا ، وأكثر من ذلك ان سائر الصلبان قد اكتسبت صفة القداسة بسبب الصليب الحقيقى وليس بسبب انها صنعت من نفس مادة الصليب الأصلى • كذلك المساجد لم تعد مجرد مبان بل أصبحت حرما مقدسا •

ومعدات النظام الرائد لها هدفان مزدوجان ، فهى أولا تخدم النظام الرائد باسلوب نفعى خالص ، فالمساجد فى النظام الدينى الاسلامى تستخدم لاقامة شعائر النظام ، ومن ناحية أخرى تعمل هذه المعدات كرموز ، كما تضفى على كل المتشابهات قيما رمزية ، فكل المساجد فى مختلف أنحاء الأرض لها قيمة رمزية استمدتها من البيت العتيق ومسجد الرسول عليه السلام • ونحن نستخدم الأشياء كرموز بقدر ما نستعملها من اجل ذواتها اى من اجل انها معدات او أدوات • ولكن فى حالة النظام الرائد لدينا موقف متميز ، اذ أن القيمة الرمزية لمعدات النظام الرائد تميل الى السمو على قيمة المنفعة التقليدية ، بينما فى سائر النظم الأخرى قيمة المنفعة للمعدات أهم من قيمتها الرمزية •

الاجراءات

ما يفعله النظام الرائد فى المجتمع يصبح أهم ما يجب على أعضاء المجتمع عمله • سواء كانت شعائر دينية أو ادارة حكومة أو ادارة الصناعة والتجارة ، ايا ماكان فى المجتمع قد اكتسب اعتقاد المجتمع على أنه الاجراءات المطلوبة سوف ينال تأييد المجتمع وتعضيده • ولمتابعة شعائر النظام الرائد لابد أن تكون مقدسة وتنقى ، فدائما تتضمن اجراءات النظام الرائد شعائر مطهرة مثل الصلاة فهى تطهر المسلم خمس مرات فى اليوم • ولابد ان نتذكر انه فى اى مجتمع ، النظام الرائد يقود ليس فقط بالزام من القوة ولكن لأن النظم الاجتماعية الأخرى والجماعات الأخرى تطلب من النظام الرائد أن يقود المجتمع • فالعادات العربية قد وطنت بحرية واختيار تماما فى كل العالم الاسلامى الممتد من الساحل الغربى لافريقيا الى الحدود الغربية للهند ، فى

دول وثقافات متعددة الاختلاف ، وكل ذلك بسبب أن هذه الديانة قد أصبحت النظام الرائد فى تلك المجتمعات · فقوة النظام الرائد تتحرك وتسرى بالرضا والقبول وليس بالتكليف والجبر ·

التنظيم :

يتضمن التنظيم للنظام الرائد كل المجتمع ، كما أنه يعطى المجتمع الوحدة المطلوبة · الاحساس بتلك الوحدة يجعل المجتمع يشعر بالراحة ، ومن ثم يصبح المجتمع غير راغب فى ترك أو هجر النظام الذى يؤدى ذلك الدور مهما كانت الظروف المحيطة بالمجتمع ، وحتى لو كان النظام فاشلا ، مثال ذلك ، التماسك الذى أوجده نظام الأسرة ، ثم نظام الأسرة الابوية الكبيرة ، والعشيره والقبيلة ، والمجتمع المحلى فى المجتمعات القديمة ، والذى تقدم نحو التحسن فى المراحل التالية فى ظل النظام الكنسى فى أوربا ، والنظام الاسلامى فى العالم الاسلامى · ففى داخل حدود التنظيم الاجتماعى الذى صنعه كل من تلك النظم الرائدة ، كان المجتمع متوحدا مع ذلك التنظيم ·

ليس هذا فقط ولكن ايضا يجهز هذا النوع من التنظيم بالحجج التى تؤيده والتى تبرر وجوده · فمثلا فى المجتمعات الأمية التى فيها النظام الرائد هو النظام الأمى يصنع تنظيما يعطى مكانة اجتماعية للأم بحيث لا يستطيع أحد فى المجتمع أن يدانى مكانتها · وكذلك فى نظام للملكية قديم التأسيس يعطى التنظيم مكانة اجتماعية للملك بحيث لايجرؤ أحد على معارضة سلطته · وهكذا يجعل التنظيم سيادة للنظام الرائد مرتبطة مع المجتمع الذى يسود فيه بطريقة لا يمكن الفصل بينهما ·

لنلقى نظرة سريعة على دولة قومية ، أى أمة فى علاقتها مع التنظيم للنظام الرائد · أولئك الذين يعيشون فى دولة قومية يفكرون فى الحكومة بالضرورة على أنها النظام الأول فى المجتمع · ويلاحظ أن التاريخ يبين لنا أن هذه الحالة ليست حالة ضرورية ، فهناك فترات من التاريخ ، كان الناس يعيشون فى مجتمعات ، ولم تفكر هذه المجتمعات فى أن نظام الحكومة له أهمية

أساسية كما نفعل الآن · النزعة القومية بقدر ما هى تعبر عن نوعية المجتمع ، هى فى نفس الوقت نتيجة لتحرك النظام السياسى الى مكان النظام الرائد · فالقومية تتضمن تعريفا عاطفيا لأعضاء المجتمع كجماعة سياسة ،أى الانتساب الى جماعة سياسية هى الدولة ، أو بمعنى آخر توجيه القيم العاطفية نحو الدولة ·

وغنى عن البيان أن الاستعمار عندما جثم على صدر العالم الاسلامى عمد الى احياء النعرات القومية بين أجزاء المجتمع الاسلامى ، وهو يعنى ويقصد أن يحرك النظام السياسى الى أعلى السلم النظامى فى هده المجتمعات ليزيح النظام الدينى من أعلى السلم · لأن الاستعمار يعلم أنه طالما النظام الدينى فى أعلى السلم ، فان هذا المجتمع الاسلامى سيظل له وحدته عن طرين التنظيم الاجتماعى المنبثق من النظام الرائد والمتوحد معه ، فاذا ولد الاستعمار العواطف القومية عند المجتمعات العربية يؤدى ذلك الى تحريك النظام السياسى الى أعلى السلم ، وبالتالى يفقد النظام الدينى ريادته للمجتمع ، ومن ثم يتلاشى التنظيم الاجتماعى الاسلامى الذى يعطى الوحدة للمجتمعات الاسلامية ويجعلها أمة واحدة · والمجتمعات فى حالة تغير دائم ، ومن ثم تتطور المجتمعات الاسلامية كل على حدة فى ظل نظام رائد سياسى يؤدى الى تنظيم اجتماعى مرتبط به ، فاذا ما أدى التغير الى اختلاف الأنظمة السياسية فى كل من المجتمعات الاسلامية ، يؤدى بالتالى الى اختلاف التنظيمات الاجتماعية فى كل منها · هذه الاختلافات تؤدى ليس الى ضياع الوحدة التى كان يصنعها تنظيم النظام الاسلامى عندما كان نظاما رائدا بل الى تباعد المجتمعات بعضها عن بعض ، وهذا ما نراه فى عصرنا من صراع بين الدول العربية لأن لكل نظامها الرائد السياسى وتنظيمه المختلف عن الآخر ، وكل حزب منهم فرح بما لديه ·

هدفى النظام الرائد

الهدف الأولى للنظام الرائد

الهدف الأولى للنظم هو التسهيلات الواضحة للحياة الاجتماعية • ولا يختلف الهدف الأولى عندما يكون النظام هو الرائد ، حيث ما يزال الهدف هو تسهيل الحياة الاجتماعية •

هناك ظرف واحد يؤدى الى ضعف تنفيذ الهدف الأولى فى حالة النظام الرائد ، اذ يهتم الهدف الأولى لنظام عادى بمعاونة المجتمع ومن ثم يصبح النظام وهدفه تابع للمجتمع ، وهذا أمر عادى فلا يوجد مجتمع ما من أجل نظام خدمة مثل نظام النقل ، اذ لا توجد المجتمعات أساسا من أجل مجموعة القوانين التى أسستها ، ولكن فى حالة النظام الرائد يكون المتوقع هو أن يوجد المجتمع من أجل النظام ، أنه فى حالة النظام الرائد يصبح المجتمع طائعا للقوانين والمعايير التى يؤسسها النظام الرائد • وفى الحقيقة أن المجتمعات وجدت أساسا من أجل انجاز وظيفة النظام الرائد ، فالدولة **الاسلامية** التى أقامها محمد صلى الله عليه وسلم أقامها أصلا من أجل انجاز الشريعة الاسلامية أى القوانين التى أرساها النظام الدينى أى النظام الرائد •

وهكذا يتطلب الهدف الأولى من النظام الرائد السيادة على المجتمع الذى يقوده ، وعندما يكون الأمر كذلك ، تتزايد صعوبة القيادة فى عبارات من التسهيلات الواضحة للمجتمع اذ التراخى أو حتى التساهل فى أداء وظيفة النظام الرائد لا تتلاءم أبدا مع وصف الهدف الأولى لنظام معداته هى الرموز الأساسية للمجتمع ، وتجهز هيئته قادة المجتمع ، والذى يمتد تنظيمه خلال المجتمع كله • ذلك أن التسهيلات الواضحة للحياة الاجتماعية تعنى أنه قد تم انجاز الهدف الأولى بينما النظام نفسه فى الخلفية ، اذ لايبدو منه الا تلك التسهيلات • السؤال الآن كيف يظل نظام رائد فى الخلفية ؟ هنا

يبدو أن لدينا تنـاقض ، اذ بالتأكيد لا تعنى القيادة البقاء فى الخـلفية ٠ الاجابة اذن هى أنه لابد وأن هناك أسلوب للقيادة غير ذلك الذى تمارسـه سائر النظم الأخرى ٠

وغنى عن البيان أن النظام الرائد لا ينجح فى ادارة مجتمع لأى فترة من الوقت بعد أن يوجه نقد لصحة أسلوبه فى قيادة وادارة المجتمع ٠ هذه الحقيقة الاجتماعية المنطقية تكشف عن أسلوب النظام الرائد فى القيـادة وتحقيق هدفه الأولى أى التسهيلات الواضحة دون أن يكون فى الخلفية فحيث يكون مجتمع فيه العادات الاجتماعية مستقرة ، وحيث كل فرد قبل لفترة طويلة تنظيما معينا للأشياء ، وحيث قد أسس النظام الرائد معاييره وقوانينه واستقرت فى أعماق الذاكرة وأصبحت عنصرا من عناصر الشخصية خـلال عملية التنشئة الاجتماعية ، هنا تظهر تلقائيا التسهيلات الواضحة التى تنشأ من نقص المقاومة لاملاءات وأوامر النظام الرائد،ومن الاعتقاد الكلى الراسخ فى أعماق الشخصية وعند الجماعات الاجتماعية فى أحقية النظام الرائد فى القيادة ، ولا ينبع ذلك من مجرد التسهيلات الواضحة كما فى سائر النظم ٠

ونتيجة أخرى من الحقائق السابقة وهى أن النظام الرائد ينجز الهدف الأولى فقط عندما يقود بدون مزاولة القوة ومع تسهيلات واضحة تترك كل نظام آخر ليعمل كما يجب أن يعمل ، كما لو لم يكن هناك تدخلا من ناحيـة النظام الرائد على الاطلاق ، وتحت هذه الظروف يقود النظام الرائد بسبب أن النظام نعمة مهداه ، وليس بسبب أنه يملك القوة ٠

الهدفان الثانويان للنظام الرائد

نحن نعلم أن الهدفين للنظام هما أن يحيا وأن ينمو ٠ نحن الآن نواجه نفس الهدفين ولكن هذه المرة الهدفان الثانويان هما للنظام الرائد ، مـرة ثانية الموقف معقد بدرجة كافية تدعونا لاجراء مناقشة اضافية ٠

لكى يحيا النظام الرائد بطريقة تخدم الهدف الأولى،يحتاج النظام الرائد أن يحتوى كل المجتمع ٠ وهذا الاحتواء يتضمن فى طياته النظم الأخرى أيضا ،

ولكن أن يتضمن النظم الأخرى لا يعنى ذلك أن يقلل من أدائها لوظائفها أو يعوقها · ان النظام الذى يسود المجتمع ليعوق النظم الأخرى لهو نظام ينم عن شىءمن الضعف حتى ولو نجح فى سيادته للمجتمع · انما نجاح النظام الرائد الحقيقى يكمن فى أن يكون قوة تمنح مزيدا من القدرة للنظم الأخرى فى أدائها لوظائفها ، فوظيفة النظام الرائد ليس طمس النظم الأخرى ولكن سيادتها وقيادتها ، وأحد أهم أوجه القيادة هو معاونة ما يقوده من النظم أثناء أدائها لوظائفها · ذلك يرجع الى حقيقة أن النظام الرائد هو نظـام فقط وليس مجتمعا كاملا · فغرض النظام الرائد هو أن يرى أن هدفه الأولى تحقق وساد خلال المجتمع كله فاصبح هو قائد النظم · وليحيا فان نظامه لابـد أن يصبح النظام الاجتماعى ، وقيمه هى القيم الاجتماعية ، ومن ثم يبتدىء أن يكون له بل ويتمتع بكثير من العلاقات الخارجية الهامة مع النظم الأخرى بل والثقافة كلها ، وكما نتوقع يكون لمثل هذه العلاقات الخارجية صدى فى داخل النظام الرائد نفسه · وبينما عادة يكون هناك صراع فى النظم الأخرى بين أعضاء هيئة النظام ، أى بين المديرين المنتجين حول مسألة مصالح كل منهما ، ولكن للعلاقات الخارجية الخاصة بالنظام الرائد مع النظم الأخرى تأثير آخر هو المصالحة بين المديرين والمنتجين · ذلك يرجع الى أن المقام والقوة فى المجتمع التى تعتبر امتيازات النظام الرائد هى أشياء يرغب النظام فى المحافظة عليها ، ولن يستطيع فعل ذلك الا بالعمل فى داخله على وجـود حالة من الانسجام ، ومقدما بذلك واجهة قوية للنظم الأخرى ·

هناك ناحية أخرى للمسألة ، لنتذكر معا أن النظام الرائد هو التنظيم الاجتماعى للمجتمع ، ومن ثم فلديه أحسن فرصة للحياة ، اذ يمكن القـول أن حياته يؤكدها نجاحه ، وعلى هذا فليس هناك حاجة للكفاح من أجل هـذا الهدف ، طالما أنه شىء قد أنجز فعلا ·

وعلى هذا فالنظام الرائد ليس لديه كمشـكله الأول من الهـدفين أى الحياة ، فليس أن يهتم كنظام بمشـكلة أن يحيا · ولهـذا يمـكن أن يكرس النظام الرائد كل مجهوداته ونشاطاته لتحسين واجادة الهدف الثـانى من

الهدفين اعنى ، النمو • ولكن النمو هدف شرعى ومنطقى للنظام الرائد ، وهذا يتيح له ميزة أخرى على منافسيه من النظم الأخرى • بل وقد ينجح النظام الرائد فى الاحتفاظ فى كهولته بأحــد الفضائل عــلى الأقل ، والتى لا يمتلكها معظم النظم الأخرى الا فى شبابها وفترات ازدهارها ، ألا وهى الانسجام الذى ينجم عن ملكيته وتكريس جهوده لهدف واحد فقط ألا وهــى النمــو •

ويلاحظ انه عندما يتأكد النظام الرائد من الحياة وأيضا من النجاح • وحيث قد تأكد من وجهة نظره هو أنه قد حقق أهدافه ، عند ذلك يظهر النظام نوعا من التصلب rigidity • اذ يحصل النظام على الكبرياء والعظمة تلك الصفات التى عادة نلصقها بالأشــــخاص النـــاجحين ، ومن ثم يبتدىء فى ممارسة صفات النزعة المطلقة ، وهنا يدخل فى الصورة الخطأ المعروف للنزعة المطلة ، التى تعمل على صب الأفعال والاتجاهات لأعضاء المجتمع فى قوالب ومن ثم تصيبهم بالجمود ، فلا مباداة ولا ابداع • وتصبح قصة نمو النظام الرائد هى قصة زيادة تأكيد الذات Self-certainty ، اذ أن أعوامه السابقة وأنماط السلوك المتكررة والتى تصبح معروفة على أنها معايير والتى تدعــو الى الاطمئنان لتبريراتها وتفسيراتها الأخلاقية ، وتعطيها وتضمن لهـــا كل الاعتقاد ، وأيضا القبول من الأجيال السابقة ، كل هذا يعتبر مواثيق حيــة ضد وقاحة أو غدر أى نظام منافس قد يسعى الى معارضة سلطة النظــام الرائد •

وأكثر من ذلك يدخل فى الصورة أيضا خداع النزعة التاريخية ، فيتحول فى أيدى النظام الرائد الى أحسن مستنداته ووثائقه المؤيدة له ، اذ أن ما استمر فى الوجود قائدا أطول مدة هو بالضرورة له القيمة الأعلى • وهكذا يختلط المنطق بالتاريخ ، مما سبق أن عمل من أعمال جليله يستدعى ليبرر ما يفعل ويسانده •

ويلاحظ أنه لكون النظام الرائد فتؤكد وواثق من ممارساته رغم اتصافها بالجمود ، ذلك يرجع لعظم درجة قبوله من المجتمع ، وان كان هذا يشكل خطرا

على رفاهية المجتمع • فالنظام الرائد اصبح كذلك أى له هذا المقام لأن الناس نما ورسخ لديهم اعتقاد ان النظام الرائد ليس فقط يستطيع عمل الأشياء الحسنه ، ولكن لأن لديه احسن ما يمكن أن يفعل من الأشياء ، وأن هـذا الاعتقاد كان عميقا جدا الى درجة أن الناس قد نسوا الأسباب التى ادت الى اعتقادهم هذا وآرائهم تلك •

والملاحظة الهامة التى تفصح عنها كل هذه المناقشة ويجدر التنبيه اليها هى أنــه مهمــا كــان النظــام الرائد قويا ، فانه ليس ابــدا النظام الوحيـد فى المجتمع ، فاذا كان هو النظام الرائد فانه كذلك بسبب مركزه النسبى بين النظم الأخرى • انه ممكن أن يقود ولكن فقط اذا كان هناك نظما ليقودها ، ولهذا فهو يعتبر نظاما رائدا ليس الا بسبب علاقته بالنظم الأخــرى ، وأنه نفسه نظام بين النظم الأخرى •

العلاقات بين النظم

التفاعل : INTERACTION

تقوم النظم بوظائفها معا فى بناء يتضمن التأييد المتبادل بينهم ، والا فان المجتمع ككل سوف يكون مستحيلا • فالنظام الاقتصادى يساند النظام التربوى اثناء ادائه لوظائفه ، فهو يمده بأبنية المدارس والمعامل والكتب المدرسية وكل ما تحتاجه العملية التربوية من مصنوعات لتسهيل عمل النظام التربوى ، والعكس صحيح ، فالنظام التربوى يساند النظام الاقتصادى بمده بأعضاء المجتمع المؤهلين علميا للعمل فى مجالات الاقتصاد المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة •

وكما لاحظنا هناك نظم معينة المسماه نظم خدمة والتى وظائفها خدمة النظم الأخرى ، ومن بين نظم الخدمة : النقل والاتصالات والاقتصاد والتربية والسياسة • ويعتبر نظامى النقل والاتصالات من أحسن الأمثلة على نظم الخدمة • فتسليم بريد من شخص لآخر أو من منظمة لأخرى ، أو حتى توصيل اشخاص او اشياء مادية من مدينة لأخرى ، كل ذلك ربما يخدم الأهداف النظامية لنظام كالأسرة • كما يعتبر الاقتصاد الذى يهتم كلية بتبادل السلع والخدمات ، هو نظام خدمة اساسى ، ومن ثم فطبيعته الخاصة الانشغال بتسهيل وظائف النظم الأخرى • وفى الحقيقة أن عمل النظام الاقتصادى مهم ، حتى أن بقية النظم الاخرى قد كرست بداخلها نظما فرعية للصلة بين أى منها والنظام الاقتصادى فالأسرة مثلا تعتبر ضعيفة التنظيم ان لم يكن لها ميزانية ، كما انه لا يمكن أن توجد مدرسة بلا جهاز للحسابات ، والحكومة التى ليس لها خزانة حسنة الادارة تصبح فاسدة • فنظم الخدمة وجدت لتجعل من الممكن للنظم الأخرى أداء وظائفها فى سهولة ويسر ، دون أن يكون لها غرض التدخل فى أهدافهم •

ومن ناحية أخرى قد يتضمن فعل اجتماعى وجوها لعدد من النظم ، لنفترض أن زوجين تزوجا فى مجتمع يمارس فيه ظاهرة المهر ، ان هـذا الفعل يتضمن فى طياته النظم الآتية ، الأسرة والقانون والاقتصاد والنقـل والاتصالات والفنون والعلوم التطبيقية ٠

كما يحدث التفاعل عن طريق الأفراد ، فهم عادة أعضاء فى أكثر من نظـام واحد ، فالانسان عادة ممارس فى النظام الذى ينتسب اليه اجتماعيا ومشارك فى معظم النظم الأخرى فى المجتمع ، فمثلا المدرس يشغل مكانة فى النظام التربوى ، ولكنه يؤدى أدوارا عديدة أيضا الى جانب دوره الأساسى ، فهو عضو فى أسرة ويذهب الى المسجد ويستهلك سلعا ويكتب خطابات ويسافر ٠

وهكذا نرى أن تفاعل النظم الاجتماعية هى حقيقة اجتماعية ولابد أن تؤخذ فى الحسبان كأحد أهم عوامل البناء الاجتماعى ٠ ولكن ما نـريد أن نسأله الآن ونعرفه ما هى الطبيعة الخاصة للعلاقة بين النظم ٠

النظم مثل كل الأنساق الدنياميكية الأخرى ، هى كليات تتوقف عـلى تنظيم الأجزاء ٠ حقيقة اننا عندما نتعامل مع الكليات نتعامل معها ككليات ، ولكن دائما عن طريق الأجزاء المسئولة ، لأن الأجزاء هى وكلاء الكل ، مثـل عندما نحيى الانسان ككل نحن نرمز لذلك بالسلام باليـد وهى جـزء مـن الرجل ، وكما نحيى دولة أجنبية فى عيد استقلالها مثلا عن طريق سفارتها ٠ ومن ثم فالتفاعل بين النظم كلها يحدث خلال الاحتكاك بين أجزائها ، سواء اكانت أقسام أو وكلاء أو عناصر أو أيا كان ٠ فعندما يبيع مندوب شركة أدوات نظافة لربة أسرة عند باب مسكنها مكنسة مثلا ، يكون لدينا مثل عن وكيل نظام اقتصادى ووكيل نظام الأسرة فى احتكاك فى أسلوب قد يؤثر على كل من النظامين ، ولو انه لم يحدث الاحتكاك بين كل النظام الاقتصادى مـع كل النظام الأسرى ٠

انه من الصعب تصور التخلل المتبادل matual permeated بين النظم أو ما يحب أن يسميه بعض علماء الاجتماع بالتداخل internalization ولو أن مثل هذه الظاهرة بلاشك موجودة ، فمثلا عنـدما وجهات النظـ

الدينية لكل أعضاء نظام تربوى ، جامعة مثلا ، تتطابق مع النظام الدينى الاسلامى ، نحن نقول ان نظام الدين الاسلامى قد تخلل النظام التربوى ، فالعلاقات المتداخلة interrelationshep بين النظم توضح مثلا لماذا المنظمات المعبرة عن المثل النظامية والتى تقوم بأعباء عمليات النظام نادرا ما تستطيع ضبط سلوك أعضائها بطريقة متطابقة تماما مع المثل النظامية • فمثلا المدارس قد تعطى منهجا مثاليا لكل التلاميذ ، ولكن ردود فعل التلاميذ تعتمد على عوامل عديدة خارجة عن ارادة النظام التربوى ، فالأطفال الذين من أسر تعنى بمتابعة دروس المدرسة فى المنزل يكون تأثرهم بالنظام التربوى غير الأطفال الذين يعيشون فى أسر لا تهتم بمتابعة أعمال المدرسة بل تميل الى المزاح ، ويشغل التليفزيون كل وقتها • ذلك يرجع الى أنه (لا يوجد نظام فى فراغ • فلا يستطيع الانسان فهم نظام اجتماعى الا اذا درس علاقته مع بقية النظم • النظام الدينى والحكومى والاقتصادى والتربوى والأسرة كلها توجد فى حالة مستمرة من التفاعل المتبادل • فظروف العمل تؤثر فى عدد الناس الذين يشعرون بقدرتهم على الزواج ، ومعدلات الزواج والمواليد تؤثر فى طلب السلع) (١) •

والآن قد يكون سؤال لطيف أن نسأل الى أى مدى يحدث التفاعل بين النظم ؟ هل يعتبر الاتصال بين العناصر الأربعة هو الكمية الكافية ؟ أو هل يتراكبان ويتداخلان بعضهم فى بعض والى أى مدى ؟ أو هل يكون التخلل كلى ؟ أو أن هذه البدائل المختلفة يتطلبها تفاعل خاص بين النظم ، لأن بعض النظم أكثر قربا ومن ثم أكثر احتكاكا من الأخرى ؟

بلاشك ، ممكن أن يكون هناك درجات من التفاعل النظامى أكثر مما ذكرنا • فمحتمل أن يكون نظامان متشابكان حتى أنه يصبح من الصعب فصلهما ، أو أن يكون اتصالهما طفيفا جدا أو سريع الزوال • المثل عن النوع الأول المتشابك جدا يمكن أن يكون مدرسة مسجد ، وعن النوع الثانى الطفيف السريع الزوال وصف العلم الخالص فى عبارات من الفن الخالص ،

---

1 — Horton and Hunt : Op. Cit., P. 173.

كما فى قصة تكتب عن اكتشاف علمى • وبلاشك أيضا ، يحدد نموذج التفاعل الى درجة ما صفات النظم المتضمنة فى التفاعل •

يلاحظ أن كل المناقشة السابقة عن التفاعل كانت بين نظامين فقط • مـاذا نتوقع عند دراسة التفاعل بين ثلاث نظم مرة واحـدة أو أكثر مـن ثلاثة ؟ المشكلة الرئيسـية هنـا ، ما هى الحقـائق ، هل تتفاعل النظم فى مجموعات من ثلاثة أو أكثر ؟ هل نحن ندرس مواقف فعلية أو مجرد احتمالات ظنية فقط ، عندما نضع مثل هذه الاسئلة ؟ يصبح أولا علينا أن نحدد الهدف الخاص لبحثنا •

أليس حقا أن المجتمع من ناحية المستوى الأول التحليلى يعتمد عـلى مجموعة من النظم معا ، بالاضافة الى العلاقات بينهم ؟ وما هى هذه العلاقات وخاصة أنها تتضمن التفاعلات الديناميكية ؟ وهل هذه التفاعلات الديناميكية هى فقط التى بين النظم وبعضها ، وماذا اذن عن التفاعلات التى تحدث داخل النظام بين أجزائه ، وهذه الحقيقة ذاتها قد تؤثر فى النظام رغم عدم حدوث تاثير معين من خارج النظـام • وهـكذا نحـن نواجه عند دراسة التفاعل مشاكل عن البناء والوظيفة وعن العلاقة بين النظم وعن النظم نفسـها ، لأنه عندما نتحدث عن العلاقة بين النظم قد يكون ما نتحدث عنه هو من الطبيعة الخاصة للنظام ، فنظام الأسرة مثلا يكاد يكون له علاقة بكل نظم المجتمع من قانونيه واقتصادية وسياسية وجمالية واتصالات وهذا يرجع الى الطبيعـة الخاصة لنظام الأسرة • ومـن ثم يمكننا القول دون التجنى على الواقـع الاجتماعى ، لأن التفاعل هو النشاط الذى استلزمته العـلاقات بين النظم فى بناء اجتماعى ، قد صاغه ذلك التفاعل ، وأن النظام هو بؤرة مثـل هـذه العلاقات ، بل وقد يكون النظام غارقا فيها تماما •

وفى الحقيقة أنه لا يمكننا فهم المجتمع كتجمع مرتب من علب مقسمة متجاوره ومحدده تماما • ذلك يرجع الى أن كل نظام اجتماعى هو باتسـاع المجتمع ، اذ يمتد كل نظام منهم من حدود المجتمع الى حدوده الأخـرى فهل هناك أى ركن من المجتمـع لم يصـله النظـام الاقتصادى مثـلا ، أو

الاتصالات ؟ بل انه من الصعب حتى تصور ما يمكن أن يكون عليه هذا الاتساع • اذن كيف نفصل بين مختلف أجزاء هذا النسيج ونقسم المجتمع الى عناصره المكونه ، ونفرن مختلف النظم ونقسمها طبقا لوظائفها ، كما أنها ليست أجزاء من المجتمع ، ولكن تنظيمات مستقلة بدون تفاعل ، ومن هذه الحقيقة نستطيع أن نقرر دون خطأ ينكر أن أى دراسة اجتماعية هى بالضرورة دراسة بنائية أى نأخذ فى اعتبارها ذلك التشابك بين النظم ، لأن الذى يواجهنا هو موقف ديناميكى •

ذلك لا يمنع ولا يعنى أن النظم ليس لها استقلالها أيضا ، أى لها استقلال ذاتى Institutional Autonomy ويرجع ذلك أنه لا توجد هيئة نظام ترغب فى الاستسلام أى الخضوع لأى من النظم الأخرى • بل وفى نفس الوقت يبحثون عن التأثير ان لم يكن سيادة الناس المنتمين للنظم الأخرى • ففى كل النظم الأساسية قد نمت أنماط من السلوك تهدف الى حفظ درجة من التساند ، وتمنع سيادة الأشخاص الذين ينتمون الى نظم أخرى •

الصراعات

CONFLICTS

قد تنشأ الصراعات بين النظم أثناء التفاعل ويحدث ذلك بدرجات متفاوته عن أحد الظروف الآتية :

التعدى Infringement

قد يقع التعدى من أحد النظم على حقوق نظام آخر بعدد من الأساليب ، بعضها طفيف ، مثل افتراش بائع ماكولات حديقة جامعة رغم انه مكتوب لافتة (حافظ على الحشائش) يشتمل هذا على تعد من النوع الطفيف . انما التعدى الجسيم يوضحه محاولة بعض النظم أخذ حقوق النظم الأخرى بأساليب حادة ، مثل ما يحدث كثيرا فى البلاد الغربية عندما يحاول اتحاد المنتجين (نظام اقتصادى فرعى) أن يؤثر فى قرارات الحكومة أو حتى يديرها لتحقيق مصالحه .

وعادة النظم فى حياتها اليومية معرضة للأحداث ، حتى أنه لا يحدث فقط بعض التعدى على الحقوق ، بل أيضا يحدث أنواع عديدة من الكفاح الضخم من أجل القوة ، ذلك يحدث نتيجة التقارب بين النظم فى المجتمع .

وغالبا يقع الكفاح بين النظم ولكن الحالة الأشد تطرفا والتى تؤدى الى الصراع تلك التى تحدث فى داخل مستوى نظام واحد ، بمعنى بين المنظمات المكرسة لنفس الأهداف النظامية ، فمثلا كل من البريد والتلغراف منظمتين أو نسقين فرعيين داخل نظام واحد هو نظام الاتصالات فيقع التعدى من كل من المنظمتين على الأخرى ، فالتلغراف يطلق شعار (لا تكتب ارسل تلغراف) ويطلق البريد بدوره شعارا مقابلا (لا ترسل تلغرافا بل اكتب) فكل يعوق الآخر فى أدائه لوظيفته ومن ثم يفشل نظام الاتصالات فى أداء وظيفته طالما وقع الصراع بين منظماته . وكذلك مثل ما يحدث داخل شركة كبيرة من

صراع بين ادارات الشركة المختلفة ، فادارات الشركة هى أنساق فرعية كل مكلف بانجاز وظيفه جزئية ، وجماع هذه الوظائف وتعاونها وتساندها هو الذى يمكن النظام من انجاز هـــدفه ، فاذا وقع الصراع بين أنســـاق النظام الفرعية ، تعوق كل الأخرى عن أداء وظيفتها ومن ثم لا يتم انجـــاز وظيفة النظام ، أو تتم فى أسوء حالة ٠

المنافســـة Competition

المنافسة هى الكفاح بين النظم من أجل التفوق ، وهى عادة تأخذ شكل كفاح قوى ذى أهمية كبرى ٠ مثل ما حدث فى القرون الوسطى فى أوربـــا من منافسة بين الكنيسة والدولة ، ومثل ما يحدث الآن فى العالم الغربى من منافسة وخاصة فى كل من الولايات المتحدة والمانيا الغربية واليـــابان وفرنسا من كفاح بين الحكومة أى النظام السياسى والأعمال أى النظـــام الاقتصادى ، فتدخل الحكومة فى المشاريع يقاومه رجال الأعمال بشـــدة ، فأولئك الرجال يصرون على أن المشاريع الاقتصادية ليست من عمل الحكومة ، بينما إذا ظهرت منافسة خارجية لسلع مشاريع رجال الأعمال فمن الغريب أنهم يصرون على تدخل الحكومة لوضع تعريفة جمركية لحماية أعمالهم ٠

هل الحروب هىحالات متطرفة منالمنافسة بين النظم أو بين المجتمعات ؟ انه يبدو أن كلا منهما ممكن الحدوث ٠ بالتأكيد أنه عندما تعـــلن الولايات فى داخل ثقافة واحدة الحرب كل على الأخرى انه يمكن النظر الى هذا على أنه نوع من المنافسة النظامية ، مثل الحرب الأهلية التى حدثت فى الولايات المتحدة بين الشمال والجنوب ، وكذلك الحروب بين الامارات الاســـلامية فى الأندلس التى ادت الى سقوط الأندلس فى يد الفرنجه ، وكذلك الحروب الدينيـــة فى القـــرن الســـادس عشر فى أوربا بين البروتستانت والكاثوليك الرومان ، كانت بالتأكيد بين نظم الديانات المتنافسة ٠

المنافسة بين النظم من أجل الســـمو والتفوق يوضـــحه الكفاح بين الديانة والحكومة ، فلقد كسبت المسيحية التفوق والانتشار بفضل ضـــعف

الأباطرة الرومان ، ثم ضعفت عندما دخلت فى صراع القوميات الناشئة فى أوربا والتى انتصرت فى النهاية وأصبحت الديانة تابعة للدولة فى كل دول أوربـــا ٠

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أنه عند نشأة نظام تقع المنافسة بينه وبين النظم الأخرى الموجودة فعلا فى المجتمع ، بل ويقـابل بالقـوة المتناسبة مع تزايد نمو النظام الجديد ، اذ يعنى تزايد نمو النظام الجـديد تزايد أثره فى المجتمع ، ومن ثم يقابله بالتالى تزايد كبر حجم المقـاومة من النظم المستقرة فى المجتمـــع ٠ اذ يعنى تزايد تأثير النظام الجـديد تـزايد ما يجريه من عمليات التغير فى أسلوب التفكير والعمل عند أعضاء المجتمع ، وخير مثال على ذلك هو نمو النظام العلمى فى أوربا ابان سيطرة الكنيســة على الفكر الأوربى ، وابتدأت منافسة العلم لأنكار الكنيسة ، مما أدى الى زيادة مقاومة الكنيسة المهددة مراكزها ٠ واشتدت المنافسة ، وقتل النظام القديم قواد النظام الجديد بغض النظر وبدون تفكير فى فضائل النظـام الجديد ٠ وكذلك النظـام الجديد لا يمتنـــع عن أن يجهز للمعركة شـهداء يدفعون ثمن النجاح الجديد ، فمايكل سرفيتس Michael Servetus لم ينقذه من الحــرق فى جنيف ١٥٥٣ ميـلادية اكتشــافه الدورة الدموية ، ولا الحقائق التى اكتشفها لافوازيه Lovoisier التى قدمت للكمياء أجـل الخدمات أنقذته من الجليانين فى باريس سنة ١٧٩٢ م ٠ وتاريخ النظـام الدينى الاسلامى عند نشأته قدم آلاف الشهداء الابرار فى صراعة مع نظام الوثنيـــة ٠

وهكذا فان لم تتزايد تبعا لذلك قدرة النظام الجديد على التنظيم والبناء أى التماسك الداخلى وتنمية أنماط من السلوك هدفها المحافظة عـلى هذا التماسك فانه لن يثبت للمقاومة ٠ ذلك أن زيادة التوترات الناجمة عـن عمليات التغير التى يجريها ظهور النظام الجديد بتزايد نجاحه يؤدى الى زيادة عمل ميكانزمات الدفاع فى النظم الاجتماعية القائمة فى المجتمع ٠ اذ أن ظهور نظام جديد يؤدى بالضرورة الى حالة من عدم التوازن والصراع

بين النظم الموجودة والنظام الناشيء ، وتنشأ التوترات والصراع بين النظم . وتحاول النظم القديمة اجراء عملية التوازن وقد تكون بأساليب تتميز بالقهر • كما حدث من كفار قريش من اضطهادهم للمسلمين ثم محاولة قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة •

الالتواء DISTORTION

الالتواء هو الصراع الذى يحدث عندما توضع النظم فى غير موضعها أى ترتيبها الصحيح ومن ثم تندفع الى الصراع كل مع الأخرى • هناك سلم طبيعى للنظم ، ويمكننا رؤية بعض الأمثلة حيث ينتهك هذا الترتيب • تأمل مثلا النظم التى يفترض وجودها من أجل خدمة نظم أخرى ، والتى لهذا لا يمكن أن تكون نهايات فى ذاتها • النظم الاقتصادية والاتصالات والنقل هى نظم خدمة ، فهى توجد من أجل تهيئة أهداف نظم أخرى ، لأن الناس لم توجد فقط من أجل ارسال خطابات أو أن تحمل من مكان الى مكان ، ولا أيضا وجدوا من أجل السلع ، لأن السلع وجدت من أجل الناس • عندما نظم الخدمة تعمل كوسائل نحو بعض الأهداف تصبح مهمة جدا فى المجتمع . ولكن أن تتحول لخدمة نفسها كأهداف لابد بالضرورة أن تندفع الى الصراع مع النظم الأخرى • فمثلا فى الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين هدد نظام النقل المجتمع ، اذ حاول أن يصبح هدفا للحياة عند بعض الجماعات ، وأصبح جزء غير متناسب من دخلهم يذهب فى شراء وحفظ السيارات مما أدى الى انهيارات فى كثير من الأسر • ومثل آخر على الالتواء هو أنه فى أوربا يعتبر النظام السياسى أعلى فى السلم من النظام الدينى منذ القرن السادس عشر ، ولكن فى فترات كثيرة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية حاولت التدخل فى السياسة وحاولت قيادة الجانب السياسى من الحياة الاجتماعية ، ولكن لم يتحقق غير الفشل والاستسلام وصار مثلا فى أوربا أعط ما لقيص لقيص وما لله •

الالتواء هو شكل متطور من المنافسة بين النظم ، وهى تدل على أن نظاما التوى بعيدا عن مكانه الصحيح فى المجتمع ، وأصبح يهدد مكانة

بعض النظم الأخرى ، ومن ثم ندخل فى صراع جاء معها · ومثال ذلك عندما أصبح أصحـــاب مهنة الطب كمهنيين أقوياء بدرجة كافية حاولوا التاثير فى السـياسة عن طـريق الاتحـاد الطبى الأمريكى · أن يكون الأطباء كافـراد مواطنين عليهم أن يشـاركوا فى الحيـاة السـياسية هذا أمـر طبيعى فى الديموقراطية · ولكن أن يعمل اتحادهم كجماعة ضاغطة ذات ميزانية كبيرة تكرس لهدف التاثير فى السياسة يعتبر شيئا آخر يوضح خروج اتحاد الأطباء كنظـام اجتمـاعى عن مكانه الصحيح وأصـبح يهدد النظـام الاجتمـاعى السياسى · ومثل آخر هو الرشوة للموظفين العموميين عن طريق رجـال الاقتصاد للحصول على أهداف عادة على طرفى نقيض مع المصلحة العامة ، هنا النظام الاقتصادى التوى عن وضعه الصحيح كنظام خدمة وأصبح يهدد أمن الحكومة (نظام سياسى) بل والمجتمع أى جميع النظم ·

الاغتصاب USURPATION

المرحلة الأخيرة فى سلسلة الصراعات بين النظم هى الحالة المتطرفة التى يضعها الاغتصاب · فى بعض الأحيان يحدث من نظام واحد فى داخل ثقافة محاولة التغلب على كل الثقافة · وهناك أمثلة على ذلك ، ففى الاتحاد السوفييتى جعلت الحكومة من نفسها المنبع الوحيد للسلطة والقوة فى المجتمع الروسى ، حتى أن الحكومة اغتصبت حقوق نظام الفن فقررت ما هى الموسيقى الحسنه وما هى السيئة · والمجتمعات ذات النظام الواحد تميل الى التحجر . فهى اذا كانت تدعى النجاح فى الحصول على التنظيم ، ولكن كان ذلك بلاشك على حساب النظم التى نظمتها ، وبهذا الأسلوب تكون قد أغلقت النظم الأخرى وافقدتها كفاءتها على القيام بوظائفها ·

وربما اقدم وأكثر النماذج المألوفة للاغتصاب ذلك الذى يحدث عندما نظام تنظيمى كالحكومة يحتوى المجتمع ويصبح اكثر النظم أهمية فى ذاته · وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى ملكيات أصحاب الحق الالاهى عندما كان الملك يعتبر نفسه من أصل الاهى ، فكان الملك يملك قوة الحياة والموت عـلى رعاياه ، وقد سادت هـذه الظـاهرة ملكيات أوربا فى القرون الوسـطى ،

وكذلك نفس الظاهرة حدثت فى المانيا النازية والحكومات الشيوعية ، حيث تعتبر الحكومة نفسها ثقة فى ذاتها ، أى فوق مستوى الأخطاء فهى دكتاتورية • عند ذلك يكون لدينا نتيجة قبيحة جدا ، اذ تصبح الحكومة هى المجتمع ، بمعنى أن تجعل الحكومة المجتمع فى خدمة أهدافها ، هذا اغتصاب واضح لأن المجتمع هو الأصل ، وما الحكومة الا نظام خدمة وجد لخدمة المجتمع •

كما أنه من الخطأ افتراض أن المجتمعات التى تبدو من وجهة نظرنا غير قادرة على تنظيم أو حكم نفسها كانت حقيقة غير قادرة ، مثل المجتمعات البدائية أو المجتمعات القبلية ، اذ تكون تلك المجتمعات قد صبت مصالحها واهتماماتها فى نظم أخرى • ففى المجتمعات البدائية كان التنظيم الدينى ينظم مصالحهم واهتماماتهم •

السؤال الآن هل فى المجتمع المثالى لابد وأن تكون الحكومة هى الأعلى ؟ فى الحقيقة يبدو أن العكس هو الأصح • لأن الحكومة هى نظام تنظيمى ، وتقوم بوظيفتها على أحسن وجه عندما لا تغتصب القيم العليا ، ولكن تعمل على تيسيرها • معنى ذلك أنه فى المجتمعات الاسلامية الحكومة التى تطبق الشريعة تيسر القيم العليا ، ومن ثم تكون الحكومة هنا نظام خدمة ، والعكس صحيح •

وفى الحقيقة أن المجتمعات لابد أن تكون متسعة بدرجة كافية للتوفيق بين التناقضات ، وأن تحتوى على منافسة بين النظم مثالية ومشروعة • فالنظم العسكرية فى معظم مجتمعات العالم الثالث التى نشأت فيها وحاول النظام العسكرى احتواء المجتمع أن تحول الى دكتاتورية أدى الى ضمور النظم الأخرى مما عوق عمليات التنمية فى تلك المجتمعات • ذلك أن نزعة الحرية تعنى التسامح مع أولئك الذين يفكرون بأسلوب آخر و (ادعو الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) و (جادلهم بالتى هى أحسن) (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) و (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) • فالذى يسمح بزرع الحرية حقيقة هو النظام

الاسلامى فمعاييره وقيمه هى من عند الله الكريم ، فالبشر أمامه سواسيه . ولكن النظام السياسى أو النظام الاقتصادى أو أى نظام آخر معاييره وقيمه من صنع البشر فهى تحابى بل وعادة ما يتوخى صانعوها تحقيق مصالحهم. فاذا حدث واحتوى نظام من هذه النظم المجتمع فانه بالضرورة سيغتصب حقوق النظم الأخرى ، لأنه سيقع تحت وطأة المصالح والهوى طالما هو من صنع البشر .

ومن أجل هذا نحن نريد منافسة ذات طابع شرعى بين النظم من النوع الذى لا يمكن أن يحدث عندما نظام غير النظام الاسلامى يغتصب وظـائف النظم الأخرى ويحتوى المجتمع ، فالنظم الأخرى تحتاج الى التنفس لتستطيع النمو والقيام بوظائفها على الوجه الأكمل فيتحقق النمـو للمجتمع كله . ولا يسمح بذلك الا النظـام الدينى الاسـلامى اذ تنطلق منه قيم الايمـان والاخلاص فتكون لب النظم الأخرى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

الفصل الخامس

الثقـــافة

- المنظم تصنع الثقافة
- نسق القيم الأســاسى
- طبيعــة الثقــافة
- التراث الاجتمــاعى
- التراكم الثقــافى

الاخــتراع ـ الانتشـــار

- التكنولوجيا والثقــافة
- التخـــلف الثقــافى
- نقد أفكار التخلف الثقافى



النظم تصنع الثقافة

تعطى النظم الاجتماعية للثقـافة عناصرها ، وتلك العناصر تصـبح باتساع الثقافة ، وتعتبر العنـاصر المأخوذة من النظم الزائدة هى العنـاصر الرئيسية من بين عناصر الثقافة • ويلاحظ أن طبيعة التبجيل للقائد الموهوب Charismatic Leader فى الجيش أو فى السياسة قد يكون ممتازا أو عظيما ، ولكن كل ذلك أمر مؤقت فمثلا رأينا الأسماء المشهورة فى التاريخ تأتى وتذهب ولكن عندما يضطلع نظام بالعمل من خلال كيفياته المعظمة فقـد تبقى سيادته فى الثقافة لآلاف السنين • فالاسلام عاش أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ذلك يرجع الى قـوة النظم وخاصة الرائدة ، فديمومتها هـى نتيجـة لدرجة ارسائها وتأسيسها ، فمدى قبول النظم مرتبط ارتباطا وثيقا بمـدى وجودها الحقيقى مستقلا وموضوعيا عن ممارسيها الفرديين • فقد ارتـكز الاسلام على مجموعة من القيم مثل الحرية والأخوة والرحمة والتسـامح والعدل ، واكثر من ذلك على أساس أنه نظام للحياة الاجتماعية كلهـا ، ولهذا انتشرت عناصر النظام باتساع الثقافة كلها ، وأصبح لايوجد جزء مـن الثقافة ليس فى مجتمع واحد ولكن فى المجتمعات الاسلامية لم يتخلله النظام الاسلامى •

ذلك النظام اذا كان قد نمى واتبع فذلك يرجع الى انسجامه مع واقـع الحياة الاجتماعية ولم يكن قاهرا ولا آمرا ، رغم اختلاف البيئات الاجتماعية المنتشرة فيها تلك العناصر • ولهذا تكمن قوة جاذبية اتباعها فى انسجامها مع الواقع الاجتماعى ، وكانت قوة الجاذبية تلك هى الأداة التى انتعش وانتشر بها ذلك النظام وليس سلطة القهر •

فما النظام الا مركب ثقافى مغـروس فيـه عدد من أنماط السـلوك والسمات ويكون له جوه الخاص وطعمه الخاص ، والناس الذين يأتون فى داخل مجاله يتاثرون به ويفعلون سلوكا مطابقا له • فعندما نقـول أن جامعة تضع طابعها على الناس وتصبغهم بصبغتها ذلك هو ما نعنيه • نحن نقصد ونشير الى حقيقة أن القيم التى تقدمها الجـامعة تعمل عـلى نشـأة

قيم مماثلة فى الرجال الذين تعرضوا أى عايشوا تلك القيم ، ومن ناحيــة أخرى أن هذا يحـــدث بدون قصــد أو وعى أو تخطيط • ومن ثم فتكريس النـــاس للنظم التى يخدمونها يكون متناســبا مــع قــدرتهم عــلى الشعور والاحساس بقيمها •

وهكذا يصبح الارتفاع لنظام ما الى علو وسمو النظام الرائد ليس نتيجة للتفكير المقصود أو التخطيط من جانب الأفراد المعنيين به ، ولكن بالأحرى مسألة القيم التى تجعــل من نفسها موضع الاحساس والشــعور القوى عند أعضاء المجتمع • وعــادة المعتقــدات التى يشعر بها أعضــاء المجتمع أنها الأحسن والأقوى هى معتقدات نظامية ، وعندما تصل مجموعة القيم التى يقدمها نظام الى مستوى الاعتقاد وتصبح مسلمات عند أعضاء المجتمع ، ذلك النظام يصبح النظام الرائد ، وتصبح قيمه هى نسق القيم الأســـاس للثقــافة ، فالعمــلية ، اذن ليست فى أى نقطــة منهــا عمــلية واعية وعن قصد •

ولهذا عندما يصبح علم الوجود ontology (العلم الذى يعــرف حقائق الأشياء) للنظام الرائد هو علم الوجود السائد فى المجتمع ، هنــا يحدث تغير عام فى المناخ الاجتماعى • فيكون مناخ المجتمع الكيفى قــد تغير ، اذ تنبعث من النظام الرائد حالة أخلاقية تكون شاملة جدا • ويمكن القول أن مشاعرا معينــة ، وكيفيات معينــة ، وأنواعا معينة من القــوى العالية ، أى القيم المنبعثة من هذه الحالة الاخلاقية ، تكتسب ســطوة ، بينما أنواع القيم الأخرى لا تكسب شيئا بل تتراجع • ويلاحظ ان ما ينظر اليه على أنه ذو قيمة عالية ذلك دليل على نوع من السيادة • كمــا أن كميــة التقدير التى يعطيهــا المجتمــع لهــا يكون لها تأثير فى المناخ الأخــلاقى للمجتمع • وتصبح هذه الحالة الاخلاقية والقيم المنبعثة منها الوســط الذى يمكن أن تعيش فيه فقط أنواع معينة من القيم ، ليس هذا فقط ما يفعــله النظام الرائد خلال علم وجوده الثابت الذى يحدد ما هو صواب وما هو خطأ ، ولكن خلال الحــالة الأخلاقية يحــدد أيضــا ما ســوف يكون متــاحا الاحساس به • وهكذا ينبثق من هذا كله نسق القيم الأســاسى للمجتمع •

نسق القيم الاساسى

هذا هو ما فعله النظام الدينى الاسلامى فى صدر الاسلام عند ظهوره فى الجزيرة العربية وأصبح الاسلام النظام الرائد للمجتمع وأصبح القرآن الكريم والسنة الشريفة علم الوجود الثابت والسائد للمجتمع عند ذلك حدث تغير عام فى المناخ الاجتماعى عند العرب وانبعثت حالة أخلاقية معينة أرست قيما معينة ، أى صنع نسق القيم الأساسى للمجتمع ، واكتسب هذا النسق سطوة على سائر القيم السابقة والتى تضاءلت بل واختفت ، وأصبح نسق القيم الأساسى لا يقود ويرشد سلوك المسلمين فقط بل ويحدد ما هو مسموح الاحساس به ٠

وهكذا ينبعث نسق القيم الاساسى للثقافة من أسطورة النظام الرائد (*) ٠ ولكن يمكن أن نميز نسق القيم الأساسى للثقافة عن الأسطورة، ذلك أن الأسطورة هى عادة قصة رمزية تصور طبيعة الحقيقة من وجهة نظر المجتمع الذى تسود فيه تلك الأسطورة ، بينما نسق القيم الأساسى يعبر عن الحقيقة ، ولكن المنطقية التى فيها كل الثقافة تسبح ، ولا يستثنى من تأثيرها أى ركن فى أى نظام فى المجتمع ٠ كما أن الأسطورة يعرفها أعضاء المجتمع ويتناقلونها ولكن نسق القيم الأساسى يشعر فقط به أعضاء المجتمع ٠

ولهذا يمكن اعتبار نسق القيم الأساسى شاملا لكل أنحاء الثقافة ونافذا الى كل ركن فيها ووحيدا ليس له منافس من بين القيم ٠ وان كان يشعر به فقط الا أنه شىء يوجد فى العالم ولكن مميز عن القدرة التى تدركه ٠ وفى الحقيقة أنه لا يمكن لانسان عاش فى ثقافة واحده أن يدرك مدى قوة نسق القيم الاساسى نظرا لتنشئته الاجتماعية فى ظله فاصبح يألفه ويخضع له دون أن يشعر بقوته ، ولكن يشعر بقوته فقط عندما يحاول

---

(١) كل النظم الرائدة الوضعية علم وجودها متضمن فى أسطورة ، ولكن النظام الاسلامى علم وجوده متضمن فى كتاب منزل من لدن حكيم عليم وأيضا فى السنة الشريفة (العالم، واقوال قائد النظام) ، ولهذا كل الأساطير قابلة للتغير نتيجة للعبث البشرى والأهواء ، الا النظام الاسلامى حيث علم وجوده محفوظ ٠

الوقوف ضده ، أو أن ينتقل لثقافة أخرى ذات نسق قيم أساسى يختلف عن نسق ثقافته فيشعر بوطأته • انها صعوبة ان لم تكن استحالة أن يتنبه الانسان لكيفيات الوسط الذى يغرق فيه •

وينتشر نسق القيم الأساسى ببطء من أسطورة النظام الرائد ويغلف الثقافة كلها ، ونتيجة لذلك نتوقع الحصول على نوع مختلف من المناخ الاجتماعى من ثقافة لأخرى • فالقيمة العالية للبعث عند الفراعنة دفعتهم الى بناء الأهرامات الخالدة على الدهر ، وهى تختلف عن الثقافة اليونانية التى أعطت للعمل الذهنى قيمة عالية التى خلدت الكلاسيكيات اليونانية من أرسطو الى أفلاطون الى سقراط ، كما أن القيمة العالية التى أعطتها الثقافة الاسلامية لمعنى الجهاد من أجل نشر الدعوة جعلت الشهادة فى سبيل الله مطلبا عزيزا لديهم وبها نشروا الدعوة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها •

وهكذا فى حالة نسق القيم الأساسى ، كما هو الحال مع أى كيفية أخرى ، لا نستطيع أن نفعل أكثر من وصفها بطريق غير مباشر عن طريق استرجاع الأحداث التى يظهر أثره فيها بوضوح ، ونأخذ القياس من بعض مساهماته فى تشكيل الثقافة • فهناك شعور يميز كل نظرة ، فنظرة الانسان فى ثقافة نوعية للعالم وحقائقه تختلف تماما عن نظرة انسان فى ثقافة غربية أو نظرة انسان فى ثقافة اسلامية • فرؤية العالم من خلال نسق القيم الأساسى هى السبب فى قبول أى شىء اذا طوع ليبدو عاديا ومألوفا ، لأن الألفه تعنى فى الواقع الثبات مع جو معين ، ولهذا يعجب الانسان كيف أمكن للقساوسة فى القرون الوسطى اعدام العالم جاليليو أول من قال بكروية الأرض فى العالم الغربى • وكذلك يعجب الانسان كيف وجد وأد البنات عند جاهلية العرب رغم أنه عملية قتل ، وقتل أعز ما يملك الانسان اليوم ، وهى ابنته ، الا أنه فى الجاهلية طوع حتى صار مقبولا عند الجماعة وأصبح شيئا مألوفا فى داخل الجماعة ، وكذلك القاء فتاة فى النيل فى احتفال فيضان النيل عند الفراعنة ، ومثله قتل الشيوخ عند الهنود الحمر وهكذا أكثر الأفعال شناعة ، وأكثر المفاهيم توحشا تبدو مجرد أمور من الفهم العام ، فما هو مقبول عند كل الأفراد يكون واضح الصدق عند كل فرد ، اعتيادية المباشرة للفعل تحوله الى حقيقة صادقة •

وهكذا يصبح أعمق المعتقدات ، هو الاعتقاد فيما يعتبر حقيقة ، ويمكن أن نفسر الحقيقة الآن على أنها تعنى مواضيع القيم المباشرة ٠ ونحن نعرف أنه لا يستطيع انسان الحياة بين أقرانه لأى فترة من الوقت ويشاركهم اهتماماتهم ومناشطهم دون أن يرتبط معهم ببعض المعتقدات عن الطبيعة النهائية للأشياء (حقيقة الأشياء) ٠ وهذه المعتقدات تكون مضمرة أكثر منها معلنة ، ولكنها بالتأكيد تسود أفكار أعمال الفرد ، وكلما كانت مألوفة كلما قل تنبهه لها ، وبالتالى زادت قوتها فى العمل ٠ فى هذا المعنى تقوم المعتقدات بوظائفها كاستجابات جاهزة ، انها البديهيات تحلى العمل ، ذلك يرجع الى أن علم الوجود السائد الذى أصبح نسق القيم الأساسى هو أكبر قوة فى حياة الفرد ٠

وفى الحقيقة أن معظم الناس لا يصنعون أفكارا تجريبية أكثر مما هم فى حاجة ماسة اليه ، فالمعتقدات متضمنة كحلول للقضايا الاجتماعية ، وهى أكثر وضوحا فى الشعور (التفكير) والعمل عنها فى التعبير فى الأفكار الواعية ، ولهذا عند مستوى الشعور والعمل نجد ظاهرة نسق القيم الأساسى ٠ فعندما نعمل من الشعور ، نحن نعمل من ينابيع البديهيات فمعتقداتنا تفشى عن نفسها فى المشاعر والأعمال ، ولكنها لا تظهر أبدا بصراحة على ما هى عليه ، وأحكام نسق القيم الأساسى تمليه المشاعر ، وهكذا تكون قد وجدت طبقا لحقيقة موضوعية ٠

فنسق القيم الأساسى هو نسق من التقنينات ، من رغبات أخذت على أنها الأحسن ، وذلك بتأثير عاطفى ٠ نسق القيم الأساسى يتوقف على القيم التى توجد خارج الأفراد الذين هم غارقون فيها ، ولذلك (أى موقف يختلف معناه من مجتمع الى مجتمع ٠ اذ أن أعضاء كل مجتمع يكونون منغمسين تماما فى معتقداتهم وعاداتهم ، وهم عادة يفشلون فى الاحساس بأنهم يطيعون معتقدات اجتماعية ، وفقط عندما يخرج الانسان بعيدا عن معتقداته وعاداته يمكن أن يصبح متنبها لطبيعتهم الواقعية) (١) ٠

---

1 — Horton and Hunt : Op. Cit., P. 46

ويلاحظ أن اكتساب البديهيات يحدث فى وقت مبكر من الحيــاة ، انها لا تتشرب فى لحظة معينة ولا بعملية وحيدة • نحن نتشرب المعتقدات مــن أسـلوب حيـاتنا من ابائنا ومــن أصدقائنا ومدرسينا ، مــن كل الاحتكاكات مع الأشخاص وأيضا مع الأساليب الشعبية والصناعات الانسانية للثقافة التى نحن جزء منها • فنحن نقول عادة أن شخصا قد تشرب ثقافة اذا تكلم لغة مجتمعه واستخدم أساليبهم فى مختلف نواحى الحياة •

واذا كانت النظم الرائدة هى التى تعطى الثقافة نسق القيم الأســاسى الذى يعتبر من أهم عناصرها ، فان النظم الرائدة أيضا عندما تصل الى مراكز الغلبة والامتياز ، فان الثقافة تتخــذ بعضا من أحسن وجوه النظم الرائدة عناصرا لها • وعند ذلك تصبح هذه العناصر خارجة عن ضبط النظم نفسها • تلك العناصر تصبح باتساع الثقافة • وتصبح فى هذه المرحــلة ليست مجرد اجراءات فرضتها النظم عــلى الثقافة ، ولكن بالأحرى أخذتها الثقافة من النظم •

المكان الأول الذى نبحث فيه عن مثل هذه العناصر الثقافية ، هــو بين القيم العليا ، لأن تلك هى العناصر التى نفترض أنها أكثر سهولة فى الانطلاق بحرية من مراسيها الأصلية فى النظم • وأصدق مثل على تلك العناصر التى أخذت مــن النظم وأصبحت باتساع الثقافة ، أى أصــبح عنصر ثقافى نجــده متضــمنا فى حالة أحــد الاجراءات النظامية ، أعنى الاجراءات البرلمانية فى النظام الديموقراطى ـ النظام السياسى يعتبر النظام الرائد فى معظم المجتمعات المعــاصرة ـ فعملية التصويت فى الانتخابات البرلمانية ، أو عند أخذ القرار فى البرلمان ، هو الآن متضمن فى كل الثقافات الغربية ، بل وانتشر منها الى معظم الثقافات فى العالم ، واستخدمت فى مناشط لا يمكن أن يكون لها علاقة بأصولها السياسية ، فأعضاء نــادى رياضى أو اجتماعى أو أعضاء مجلس ادارة بنك أو شركة صناعية عنــدما يناقشون مسألة ثم يجرون عملية تصويت لأخذ القرار سواء بالقبــول أو الرفض ، أفعالهم تلك ليس لها أى علاقة بالعمل السياسى التى تولدت فيه هذه القواعد أصلا • وهذا المثل يفصح عن عنصر من اجراءات نظــام

سياسى انتهى الى عنصر باتساع الثقافة ليست الغربية فحسب بل يكاد ينتشر فى معظم ثقافات العالم ، اذ أصبح يستفاد به فى أى اجتماع لجماعة اجتماعية تهدف الى صياغة قرار .

وأيضا تقوم النظم بمهمة أخرى فى اعطاء الثقافة عناصر باتساعها ، فاذا نظرنا الى النظم من زاوية تاريخية نجد أنها تمثل المرحلة الأولى لنمو الثقافات . فالنظم تعتبر المعامل التى تجهز العناصر للثقافة ، فعملها هى معالجة المواد الخام التى تأتى اليها من خارج الثقافة أى من ثقافة أخرى فتجرى عليها عمليات التعديل والتكييف حتى تكون قابلة للاستخدام فى الثقافة من أولها لآخرها ، فهى عملية ترويض أو استئناس للعناصر الوافده من ثقافات أخرى .

اذا كانت النظم لها تلك الأهمية فى اعطاء الثقافة عناصرها ، فانه بالمثل النظم وليس كل الثقافة التى يعتمد عليها فى الفعل الديناميكى فالنظم تعتبر وكلاء الثقافة ، لأن الثقافات ككليات لا يكون لها تأثير . فمثلا فى حالة غزو ثقافة لثقافة أخرى ، فان ذلك لا يتم عن طريق الثقافة ككل ، ولكن يتم عن طريق غزو النظم للثقافة الأخرى ، فمثلا فى القرن التاسع عشر عندما غزت الثقافة الغربية مناطق الهند والصين وكل الشرق الأقصى تم ذلك عن طريق النظام الدينى الذى يمثله المبشرون فهم هيئته ، تؤيدهم الكنيسة وهى النظام نفسه وكذلك عن طريق النظام الاقتصادى مثل شركة الهند الشرقية وشركة خليج هدسون . فالنظام الدينى الاقتصادى كانا وكيلين للثقافة الغربية فى غزوها لثقافات الشرق الأقصى والهند والصين . ومن ناحية أخرى هذا ما أعطى كلا من النظامين السابقين ارتفاعا وأهمية فى الثقافة الغربية كأداة لغزو الثقافات الأخرى فى تلك الوقت .

فاذا كانت النظم الاجتماعية تعطى الثقافة عناصرها ومعاييرها وكذلك نسق القيم كما أنها أدواتها فى التفاعل مع المجتمعات الأخرى ، فاذا أضفنا الى كل ذلك تلك الروابط بين المنظمات التى توجد فى المجتمع وينبعث منها معايير معينة تنظم العلاقات بين تلك المنظمات ، وكذلك الاعتماد المتبادل

اى التساند بين اعضاء المجتمع اثناء ادائهم لأدوارهم فى المجتمع ذلك كله يلقى الضوء على تلك القضية التى عادة تثار بين الاجتماعيين البنائيين والانثروبولوجيين الثقافيين من أن المجتمع والثقافة شيئان متمايزان ، (فالذى لا شك فيه هو أن الانثروبولوجيين الاجتماعيين البنائيين يعتبرون المجتمع هو الحقيقة النهائية التى تجعل من الممكن فهم طبيعة الانسان والنظم الاجتماعية التى تحكم ذلك المجتمع ، بينما يرى العلماء الثقافيون أن الثقافة هى تلك الحقيقة النهائية المتمايزة بذاتها ، وأن المجتمع ليس سوى أداة ووسيلة لقيام الثقافة ووجودها واستمرارها ، انه مجرد ظرف أو شرط ضرورى ـ ولكن ليس كافيا بذاته ـ لوجود الثقافة) (١) · فليس مجرد عدد من الأفراد هو الذى يعطيهم الصفة الاجتماعية ، ولكن ما ينشأ بينهم من عادات وتقاليد وما يصطلحون عليه من القيم والأساليب والوسائل التى يتخذونها فى حياتهم ، اى باختصار الثقافة هى التى تعطى مثل هذا المجتمع صفته الاجتماعية ·

ومن ناحية اخرى يذهب كثير من علماء الاجتماع الى أن كثيرا من سمات الثقافة موجهة للمحافظة على بقاء المجتمع اكثر من اشباع حاجات الأفراد ، كما لاحظت ايضا دروثى لى Drothy Lee (أن كثيرا من علماء الاجتماع يدعون ببساطة أن الهدف النهائى للمجتمع هو أن يحيا) (٢) · ولكن اذا كان على المجتمع أن يؤدى وظيفته بنجاح ، وأن يحيا ويستمر خلال الزمن فلابد من انجاز بعض الشروط · تلك الشروط لو تأملناها لوجدنا مدى التداخل بين مفهومى المجتمع والثقافة ، وانهما كما يقول ايفانز برتشارد (المجتمع والثقافة هما تجريدان

---

(١) د· أحمد أبو زيد « البناء الاجتماعى » الجزء الأول · الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٨٥ ·

2 — Dorothy Lee : «Are Basic Needs Ultimate», in Jams Fadiman, ed., «The Proper Stady of Man,» The Macmillan Company, New York, 1971 PP. 38—42

مختلفان لشيء واحد) (١) ٠ فما هى تلك الشروط لنتأملها ونكتشف هـذه الحقيقـة ؟

١ ـ يجب أن يشبع المجتمع حاجات الأفراد السيكولوجية والبيولوجية ، ومن ثم تنبعث نظم اجتماعية للقيام بهذه المهمة ٠

٢ ـ الأعضاء الجدد ، عادة الأطفال الجدد لابد أن ينشأوا اجتماعيا ، وأن يشربوا القيم الاجتمـاعية ويدربوا عـلى شـغل مراكز فى البنـــاء الاجتماعى ، وأن يتعلم الأعضاء الجدد كيف يسلكون كأزواج أو رؤساء أو مرءوسين ، ومن ثم بفعل هـذا تستمر تلك المكانات ومعها النسـق الاجتماعى ككل ٠

٣ ـ ولابد أن يوجه سلوك أعضاء المجتمع نحو ما هو مرغوب اجتماعيا ، خلال المعايير والجزاءات ٠ فلابد أن يكون لكل مجتمع نظام للضـبط الاجتماعى لينظم الاحتكاكات المختلفة بين أعضاء المجتمع ٠

٤ ـ ومن أجـل أن يـؤدى الأفـراد وظـائفهم فى المجتمـع فلابد أن ينظم التفـاعل ، وفى نفس الوقت يـكون قابلا للتنبـؤ به ، فما المعـايير الا توقعات ، وتعريف وتحديد اجتماعى للأفعال الممكنة ، (التعـريف والتحديد الاجتماعى يمد كل ممارس بارشاد حاسم لتوجيه أفعـاله لتتلاءم مع أفعال الآخرين ٠ وتخـدم تلك التحـديدات الاجتماعية فى توضيح الانتظام والاستقرار والاطراد للأفعال المترابطة فى منـاطق واسعة من حياة الجماعة ، فهى منابع السلوك الاجتماعى المؤسس والمنظم ، وهذا هو المقصود بمفهوم الثقافة) (٢) ٠

٥ ـ الزام آخر ، هو أن أعضاء المجتمع يشعرون أنهم ينتمون الى جماعة وأنهم مدفوعون ومحركون للعمـل طبقا لقواعد الجمـاعة ٠ تجمـع

---

(١) ايفانز برتشارد « الانثروبولوجيا الاجتماعية » ترجمة د ٠ احمد ابو زيد ص ٣٧ ٠

2 — Blumer, Herbert : «Symbolic Interaction», Englewood Cliffs, Prentice-Hall, Inc., 1969. P. 71

المعتقدات والقيم يتجه الى الوفاء بهذا الالزام ، فهى تضع أهدافا اجتماعية وفردية تعطى معنى الأصل والهدف ، وتكسب الخبرات معانى وقيم ٠

الاشباع المنظم لحاجات الأفراد ، وتعليم الأعضاء الجدد ، وتشريبهم سمات الثقافة ، والضبط الاجتماعى للسلوك ، وامكانية التنبؤ بالتفاعل ، والاحساس بالانتماء والهدف ، يمكن المجتمع من أداء وظيفته والاستمرار اى الحياة ٠ ومن ثم نرى أن ثقافة المجتمع العامة هى أدوات حياته ٠ فالمجتمع والثقافة شديدا التشابك وهما كوجهى العملة ، فهما مظهران لشىء واحد ٠ ويوضح هوجين Hogbin صعوبة التفرقة بين المجتمع والثقافة ومدى تشابك وتعقد العلاقة بين كل منهما فى قوله (يشير المجتمع الى كل العلاقات التى تقوم بين أفراد المجتمع المحلى ، اما الثقافة فانها تعنى أنماط السلوك المقنن ، وبذلك فان كلا منهما هو وجه لشىء واحد) (١) ٠ وكذلك يوضح كروبر وبارسونز هذه العلاقة المتشابكة فى قولهما (يشير المجتمع للأنساق المنظمة للتفاعل المتبادل بين الأفراد والجماعات ، بينما تشير الثقافة الى انماط القيم والأفكار وأنساق المعانى الرمزية التى توجه السلوك الانسانى) (٢) ٠

ومع ذلك فان حدود المجتمع والثقافة ليست متطابقة ٠ فمثلا القانون الرومانى هو أساس كل من القانون الفرنسى والقانون الألمانى ، ومع ذلك يعتبر كلا منهما مجتمعا منفصلا ٠ وبالعكس بعض نواحى الثقافة قد تفشل فى الانتشار فى كل انحاء المجتمع ٠ فقد يتضمن مجتمع واحد لغتين أو أكثر كالمجتمع السويسرى حيث توجد اللغة الفرنسية الى جانب كل من الألمانية والايطالية ، وكذلك قد يوجد فى مجتمعواحد معتقدات دينيةمتعددة مثل الهند ٠

---

1 — Hogbin, I. : 'Social Change». Watts, London. 1958. P. 10

2 — Kroeber A. and Parsons, T. : «The Concepts of Culture and Social System» American Sociological Review. October 1958. P. 583.

فالثقافات توجد داخل المجتمعات ، ولكن بعض وجوه الثقافة قد تمتد وراء حدود المجتمع فيشارك فيها أعضاء أكثر من مجتمع ، ومن ناحية أخرى قد توجد بعض أوجه الثقافات لا يشارك فيها كل أعضاء المجتمع ·

طبيعة الثقافة

وهذه النقطة الأخيرة تقودنا الى فكرة الثقافة العامة والثقافة الفرعية ، أى أنه توجد فى المجتمع سمات ثقافية يشارك فيها كل أعضاء المجتمع وهذه تسمى بالثقافة العامة للمجتمع كاللغة العربية فى المجتمع المصرى أو المجتمع السعودى وكذلك كالدين الاسلامى · ولكن يوجد هناك الى جانب هذه السمات العامة سمات خاصة بالجماعات الاجتماعية فأهل الريف لهم عادات وتقاليد تختلف عن أهل الحضر أو أهل البدو ، كما ان جماعة الفلاحين لهم سمات تختلف عن جماعة العمال أو جماعة البدو وهكذا ، وكل هذه الثقافات الخاصة يطلق عليها ثقافات فرعية ، وذلك كله يرجع الى طبيعة الثقافة · تلك الطبيعة التى تجعل من الثقافة أمرا ديناميكيا وليس استاتيكيا · كل هذه الأنماط الثقافية سواء العامة أو الفرعية فى تفاعل دائم · فليست العناصر الثقافية قوالب جامدة ، ولكنها تحمل بذور تغيرها ، فالثقافة ليست أمرا أستاتيكيا · ويعبر عن ذلك ارنولد روز بقوله (لسوف يكون من الخطأ الفاحش التفكير فى الثقافة استاتيكيا ، فهناك باستمرار تراكم وتلف وتعديلات أخرى) (١) · وكذلك يتحدث ماكيفر عن ديناميكية الثقافة وفاعليتها فى التغير الاجتماعى فى قوله (رفضنا للمبدأ الحتمى يعدنا للنظر الى الثقافة كديناميكية للتغير الاجتماعى) (٢) · وفى الحقيقة أن ذلك يرجع الى طبيعة الثقافة ذاتها فهى التى تكشف لنا عما تحتويه من عناصر ديناميكية وهى التى تعطينا فهما عن عملية التغير

---

1 — Ross, Arnold (Edit) : «The Institntions of Advanced Societies». University Minnesota Prees Minneopolis, 1958. P. 4

2 — Maciver and Page : Op. Cit., P. 580.

الثقافى · ويعبر عن هذه الحقيقة ميردوك فى قوله (لا يمكن فهم العملية التى تتغير بها الثقافة دون فهم طبيعة الثقافة) (١) · ويؤكد ماكيفر هذه الحقيقة فى قوله (أنه من الطبيعة الخاصة للثقافة اجراء تغيرات · فمن ناحية ، الثقافة هى تقييم ومن ناحية أخرى انها تعبير · تتغير التقييمات بالخبرات المتغيرة ، سواء أتت الخبرة باشباع أو لا ، ولكل سن تقييماته الخاصة وتقديره الخاص للأشياء المستحقة للاهتمام ، ويظهر ذلك فى آدابه وفى أشكال تفكيره ، وتلك تتغير مع الزمن ، فما يجذب الآباء لم يعد يجذب الأبناء · وأكثر من ذلك أسلوب التعبير ونموذج الثقافة هو داخليا متغير · ليس هناك أسلوب كامل تماما للتعبير أو يحصل نهائيا على الهدف الذى ينشده ، واذا كان ، مشبعا لوقت ما ، سيأتى وقت متأخر ، جيلا جديدا ، عندما يتوقف عن الاشباع ، وأكثر من ذلك هناك اختلاف عظيم من المصالح الثقافية · فى داخل كل مجتمع مركب هناك اختلاف فى التقييمات والدوافع والمعايير للجماعات الكبيرة والصغيرة المكونة للمجتمع ، الأسر والطبقات والجماعات المهنية والجماعات الدينية ··· الخ) (٢) ·

وفى هذه العبارة أفصح ماكيفر عن خصائص الثقافة التى تتفاعل فى اطار المجتمع ، ان الثقافة لها خصائص معينة تتيح لها هذه الديناميكية ، فمن المعروف أن ما يمنح الثقافة عنصرا الاستمرار والتغير هو طبيعة الثقافة ذاتها ، فما يعطى الثقافة استمرارها هى تلك السمات الثقافية المتمثلة فى وحدة المعتقدات الدينية والتقاليد والعادات واللغة والممارسات المشتركة بين أعضاء المجتمع ، تلك السمات يحافظ عليها المجتمع أشد المحافظة ويضع العقوبات على من يخرج عليها ، فهى تعطى المجتمع تكامله وتماسكه ومن ثم استمراره ، فهى المعبرة عن وحدة المجتمع ومن ثم فهى تعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة · وهكذا يمكننا الحديث عن الثقافة المصرية

---

1 — Murdock : Op. Cit., P. 247.

2 — Moclver and Page : Op. Cit., P. 517—518.

أو الثقافة الفرنسية ، فهى سمات رئيسية تسود المجتمع كله وتميزه عن المجتمعات الأخرى ، ولهذا تسمى هذه السمات بالعموميات ·

ولا يعنى هذا أنه لا توجد سمات ثقافية فى المجتمع غير العموميات ، اذ أن وجودها لا يمنع أن تقوم الى جانبها سمات ثقافية أخرى يتمايز بها كل قطاع من قطاعات المجتمع سواء من حيث المهارة أو المعارف الفنية ، كما فى الجماعات المهنية والجماعات الزراعية ، أى أنه يمكن الحديث عن ثقافة العمال أو ثقافة الفلاحين ، أو قد ينفرد الرجال ببعض قواعد السلوك دون النساء أو الآباء دون الأبناء · تلك السمات هى ما يطلق عليها الخصوصيات فهى التى تؤدى الى ظهور التباين والتفاوت داخل نطاق المجتمع · وهكذا فهناك أنماط متعددة من السلوك فى داخل المجتمع الواحد ، هذه الأنماط من السلوك أو السمات الثقافية توجد متجاورة وكل منها يؤثر ويتأثر بالأخرى فهى فى تفاعل دائم ، ومن ثم تحدث تغيرات هنا وهناك ·

وخاصة أن العموميات لا تفرض نفسها على جميع أعضاء المجتمع فرضا حرفيا · اذ أنه فى الحقيقة (يمكن التميز فى كل سمة من هذه السمات العمومية بين عدد من البدائل أو الأنماط السلوكية المختلفة التى يمكن تطبيقها فى الموقف الواحد) (١) · ومن ثم فالبدائل وهى الخاصية الثالثة للثقافة تتمثل فى أساليب التفكير والعمل التى تختلف عما اتفق علية غالبية أعضاء المجتمع أى عن عموميات الثقافة · وقد تظهر هذه البدائل على شكل أساليب جديدة فى العمل والتفكير أو أنواع النشاط المختلفة ويعبر عن هذه الحقيقة ميردوك بقوله (التغير فى السلوك الاجتماعى ومن ثم فى الثقافة ، عادة تكون أصوله فى بعض البدائل الهامة فى ظروف الحياة للمجتمع ، أى حادثة تغير المواقف ، ومن ثم يحدث فى ظلها سلوك جمعى ، حتى أنه لا تشجع الأفعال المعتادة ، وتفضل عليها استجابات جديدة · ومن ثم يقود ذلك الى استحداث أو تجديد ثقافى) (٢) ·

---

1 — Hoebel : Op. Cit., P. 173.
2 — Murdock : Op. Cit., P. 249.

وقد تظهر هذه البدائل من داخـل المجتمع وهو ما يسمى بالتحـدى الداخلى ، وذلك بظهور افكار جديدة أو ثورات اجتماعية وسياسية ، أو قد يكون على شكل اختراعات تكنولوجية نتيجة تطور الفكر وتقدم العلم · وقد تكون تلك البدائل نتيجة لاحتكاك ثقافى مع مجتمع آخر أو هجرة نمط ثقافى من مجتمع لآخر فتتفاعل سمات الثقافتين · ومن هذا التفاعل تنشأ سمات جديدة أى بدائـل · (أى انه يمـكن التمييز فى كل سمة من هذه السـمات العمومية بين عدد من البدائل التى يمكن تطبيقها فى الموقف الواحد) (١) ·

وهكذا ينمى الناس من خبرات الحياة ومن هذا الخضم من التفـاعل الاجتماعى ، مجموعة من القواعد والاجراءات لمواجهة احتياجاتهم ، وتلك المجموعة من القواعد والاجراءات مع مجموعة تؤيدها من الأفكار والقيم تسمى الثقافة ·

وعلى أى حال فالتعريف التقليدى لاصطلاح الثقافة الذى صاغه ادوارد تيلر Edward Tylor (الثافة هى ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية والامكانيات التى اكتسبها الانسان كعضو فى مجتمع) (٢) ويمكن أن نضع لها تعريفا بسيطا هو أن الثقافة هى كل شىء يتعلمه ويشارك فيه اجتماعيا أعضاء المجتمـع · وعادة يتسلم الفرد الثقافة كجزء من التراث الاجتماعى ، وبدوره قد يعيـد تشكيل الثقافة ويقدم تغيرات ، ومن ثم تصبح جزءا من التراث للأجيـال التالية · ولكن ما هو ذلك التراث الاجتماعى ؟

التراث الاجتماعى SOCIA HERITAGE

يقسم كثير من علماء الاجتماع التراث الاجتماعى الى ثقافة لا مادية Nonmaterial وثقافة مادية Material و تتكون الثقافة اللامادية من الكلمات والأفكار والعادات والمعتقدات التى يتمسك بها أعضاء المجتمع ويتبعونها ، وتتكون الثقافة المادية من الأشياء المصنوعة مثـل

1 — Hoebel : Op. Cit., P. 173.
2 — Tylor, E. : Primitive Culture, 1871, V. 1, P. 1.

الأدوات والأثاثات والمبانى والسيارات وأى مادة طبيعية قد غيرها الانسان لتصبح صالحة لاستعماله · وبعض المصنوعات تسمى artificate

أى مصنوعات انسانية · فى لعبة كرة القدم مثلا ، الملابس الرسمية للعب وأخشاب الهدف وشبكته والكرة والأحذية الخاصة باللعب هى عناصر قليلة من الثقافة المادية · والثقافة اللامادية فى هذه اللعبة تتضمن قواعد اللعب ومهارات اللاعبين ومصطلحات اللعبة مثل حارس المرمى والجناحين الخ · والسلوك التقليدى للاعبين والمشاهدين · وتصبح الثقافة المادية بلا معنى بدون الثقافة اللامادية ، فمثلا اذا نسينا لعبة كرة القدم ننسى الأحذية الخاصة بها ولا تصنع · الحرب العالمية الثانية رغم أنها أكثر الأحداث تدميرا فى التاريخ لم تترك سوى آثارا مادية تدميرية قليلة لأن النــــاس كانت تحتفظ بالمعارف والمهارات أى الجانب اللامادى من الثقافة والتى استطاع الناس أن يعيدوا بها بناء المدن التى دمرتها الحرب · بينما الأهرامات المصرية لا يمكن اعادة بنائها لأنها قد انفصلت كلية عن الثقافة اللامادية التى أدت الى بنائها . تلك الثقافة التى تتضمن كلا من القيم وطرق البناء التى دفعت الفراعنة الى الرغبة فى بناء مثــل هذه الأهرامات ، ولكن اليوم اختفى نسق القيم الذى حفز سلوكهم للبناء · يجب الناس أن يضعوا قيمة كبرى على الأجــزاء ذات الأثر الواضح من الثقافة المادية رغم أنه يمكن استبدالها بســــهولة ، اذا كانت الثقافة اللاعادية نشطة · ونشاط الثقافة اللامادية هذا هو الذى جعل من التراث الاجتماعى دائم الاستبدال أو أسرع فى استبداله لجــوانب الثقافة المادية ، ومن ناحية أخرى أدى الى هذا التراكم الضخم من عناصر الثقافة فى التراث الاجتماعى · فمن حياة الكهوف والأدوات البدائية الحجرية المتناهية البساطة فىمطلع الحياة البشرية الى حياة ناطحات السحابوالآلات الالكترونية المتناهية التعقيد ، ومن تلك المجتمعات وحيدة النظام حيث لم يكن هناك الا نظام الأسرة الى مجتمعات اليوم التى لم تتعد فيها النظم فحسب بل وتعقدت أيما تعقيد · هــذا التراكم الثقافى لفت نظر علماء الاجتماع ومن ثم توفروا على دراسته ، وهو ما سنناقشه فى الفقرة التالية ·

التراكم الثقـــافى
ACCULTURATION

وجه فريق من العلماء فى دراساتهم عن الثقافة مزيد عنايتهمواهتمامهم الى عملية التراكم الثقافى · واعتبروا أن عملية التراكم الثقـــافى تتم عن طريق عمليتين اجتماعيتين ، عملية داخلية أى تتم داخل الثقافة ذاتهـا وهى الاختراع والتجديد ، وعملية خارجية وهى الانتشار الثقافى ، أى تنتشر سمة ثقافية من ثقافة الى أخرى ، وذلك لا يحدث الا اذا حدث احتكاك ثقافى بين الثقافات ، فتقترض كل ثقافة من الأخرى السمات التى هى فى حاجة اليهـا وأطلقوا على هذه العملية اصطلاح الاستعارة الثقافية ·

فبالاختراع يتم انتاج أسلوب جديد فى التفكير والعمل ويترتب على ذلك تغيرات فى الثقافة ، اذ أن عناصر الثقافة متشابكة ومتساندة واذا حدث تغير فى أى عنصر من عناصرها أو اضافة عنصر جديد اليها يكون لذلك انعكاسات على باقى أجزاء الثقافة · وبالانتشار تنتقل هذه السمة الجديدة ، أو احدى سمات ثقافة ما ، الى ثقافة أخرى ، ومن ثم تجرى عملية توطين الســـمة الجديدة وتحدث تغيرات فى الثقافة المستعيرة للسمة ·

ويتحدث كثير من العلماء عن الاحتكاك الثقافى كعملية تنتشر بهـــا السمات الثقافية · فالاحتكاك الثقافى يعتبر عند علماء الثقافة الوسيلة الفعالة فى التغير ، اذ أن المجتمعات التى تعيش فى عزلة لا يتأتى لها الاستعارة من المجتمعات الأخرى وبذلك تصاب بالفقر فى سماتها الثقافية وبالعقم ، ويترتب على ذلك بطء نموها الشديد · ويعزى التطـور الحضارى البعيـــد المدى فى الحضارات التى نمت فى حوض البحر الأبيض المتوسط ثم انتشرت فى أوربا كلها ومنها الى أمريكا الى عملية الاحتكاك بين الثقافات المصرية القديمـة واليونانية القديمة ثم الرومانية ثم العرب ثم مرة ثانية الى أوربا · عملية الاحتكاك المستمرة بين هذه الثقافات هى التى أدت الى استعارة كل من الأخرى، مما أثرى ثقافة كل عن الأخرى وأتاح فرصة أوسع لاختراعات جديدة · كما يعزى تخلف المجتمعات البدائية الى عزلتها ·

وكذلك يرجع تخلف الأمة العربية الى الستار الحديدى الذى ضرب على هذه الأمة فى عصر تدهور الدولة العمثانية حيث لم تتح فرصة الاحتكاك الثقافى بين الثقافة العربية والثقافة الأوربية ، وأقفرت حركة الترجمة التى أثرت الثقافة العربية فى العصر العباسى عندما جلبت ثقافة اليونان والرومان، والتى أثرت الثقافة الأوربية عندما ترجمت اليها الثقافة العربية العباسية والأندلسية · اذ ليس من الضرورى عند علماء الثقافة أن يتم الاحتكاك بطريق مباشر بين الجماعات ، فهناك حالات كثيرة يتم فيها الاستعارة عن طريق اللغة المكتوبة أو ترجمتها مما أسماه ميردوك (الاستعارة الثقافية عن بعد) (١)

ذلك هو ما دعى كثيرا من العلماء الى الاهتمام بعمليتى الاختراع والانتشار واعتبارهما المحركان الأساسيان للتغير الثقافى ، ويعبر ميرل عن هذه الحقيقة بقوله (العنصران الرئيسيان فى التغير الثقافى هما الاختراع والانتشار) (٢) ·

١ ــ الاختراع :

وعن الاختراع يحدثنا اوجبرن قائلا (مفتاح التغير يمكن البحث عنه فى الاختراع أو الابتكار ، وكلمة الاختراع تعنى هنا أى عنصر جديد فى الثقافة أى تستعمل هنا بمعنى أوسع مما عادة تستعمل فيه هذه الكلمة ، (اذ أن الثقافة ككل هى القوة الفعالة فى عملية التغير وهى صنع اختراع) (٣)· ويعرف ميرل الاختراع بقوله (الاختراع هو توليف سمتان أو أكثر ثقافية موجودة أو أنماطا فى شىء جديد يكون أكبر من كمية أجزائه) (٤)· ويعرف جلفيلان الاختراع بقوله

---

1 — Hurdock G. P. «How Culture Change» In Shapiro, H. L. (ed.) «Man Culture and Society» N.Y. Oxford Press. 1956. P. 255.

2 — Merrill, F. E. : «Society and Culture» Prentic-Hall Inc. Englewood Cliffs New Jersay 1963. P. 461.

3 — Ogburn. W.F. : «Social change» Encyclopidia of the Social Science. P. 330.

4 — Merrill : Op. Cit., p. 462.

(ما يسمى اختراعا هاما هو تراكم دائم لتفاصيل صغيرة ، ومحتمل أن لا يكون لها بداية تامة أو نهاية ذات حدود معروفة ، الاختراع هو تطور أكثر منه سلسلة من الانشاء ، وكثير الشبه بالعملية البيولوجية) (١) . كما يعرفه لينديرج أنه أى أسلوب للسلوك واضح الجده يسمى اختراعا . فى الكلام العام عادة يعنى اختراع آلات طبيعية . ونحن نستعمله هنا بمعنى واسع ليتضمن كل أنواع أنماط السلوك الجديد ـ أغنية جديدة ، رقصة جديدة ، أو شكل جديد من الحكومات) (٢) .

ويلاحظ فى هذه التعريفات أن علماء الاجتماع يركزون على أن اصطلاح اختراع فى العلوم الاجتماعية لا ينطبق فقط على الاختراعات فى الجانب المادى من الثقافة ،ولكنه يتضمن بالضرورة الجانب اللامادى من الثقافة . ويقول فى ذلك ميرل (قد يحدث التوليف بين العناصر الموجودة فى حقل العلاقات الاجتماعية ،والنظم الاجتماعية والبناءات الاجتماعية . هذه التوليفات تعرف بالاختراعات الاجتماعية ، وهى تدور من قانون طلاق جديد الى صيغة الأمم المتحدة) (٣) . وكذلك يقول لندبرج (نظرا لانشغالنا بالعدد الآلية ، تميل كلمة الاختراع فى تعريفها الشعبى لما ينتمى للأشياء المادية . ولكن بالضرورة عملية اختراع نسق جديد لعلاج الفقر أو نسق جديد من المنطق والرياضيات صارت مثل اختراع السيارة والراديو) (٤) .

ويبدو أن الذى دفع علماء الاجتماع الى ابراز أن كلمة اختراع تتضمن لديهم أيضا الاختراعات الاجتماعية . ذلك أن المخترعات المادية تحيط بنا من كل جانب والآثار الاجتماعية للمخترعات الجديدة هى حولنا فى كل ناحية والأقل اعتبارا ولفتا للانظار هى الاختراعات الاجتماعية . ذلك بالرغم من التغيرات العظيمة للأشكال الموجودة من التنظيم الاجتماعى ، والأشكال المقبولة

---

1 — Gilfillan. S.C. : «The Sociology of Invention» Follet Publishing Co. Chicago 1935. P. 5.

2 — Lundberg, G.A. and Clarence C.S. and Otto N. Larson : «Sociology» Harper and Brothers, Publishers, N. Y. 1958 P. 707.

3 — Merrill : Op. Cit., p. 465.

4 — Lundberg : «Foundations of Sociology», P. 508.

من العلاقات المتبادلة بين الأشخاص • والآلة العظيمة التشابك والتعقد لادارة الأعمال والحكومات ما هى الا اختراعات اجتماعية مثلها مثل المخترعات الميكانيكية • ومثل معظم الاختراعات المادية ، انبعثت المخترعات الاجتماعية من الادراك الملموس لبعض حاجات التكيف ، كما هو الحال فى المخترعات الطبيعية الحديثة •

والمخترعات الاجتماعية أولا تنفذ رمـــزيا بواسطة تجمع البيـــانات المتعلقة فى شكل المعرفة السابق وجودها عن الموقف الذى يواجه المجتمـع والموضوع الذى ينشد انجازه • وكما يحول المختــرع الطبيعى افتراضاته الى رســوم ، كذلك المختــرع الاجتمــاعى يحـــول افتراضاته الى خطط ثابتة ، ودساتير ، وقوائم تشريعية ،ونظريات اجمتاعية ، وكما يبنى المهندس الانشائى الآلة أو الاختراع التطبيقى ، كذلك الاختراع الاجتماعى يسن فى قانون أو يستخدمه المجتمع الذى قرر تجربته ، اذ مثل ما يوضع الاختراع الطبيعى فى العمل يوضع الاختراع الاجتماعى ليؤدى وظيفته التى عمل من أجلها •

كما أن هناك علاقة وثيقة بين الاختراعات الاجتماعية والطبيعية ، اذ أن الاثنين عنصران ثقافيان ومن ثم متشابكان ومتساندان يؤثر كل منهما فى الآخر ، الا أنه من المألوف أن يسترعى انتباهنا آثار وانعكاسات الاختراعات الطبيعية مثل الراديو والتليفزيون والطائرة ، اكثر من الظروف والعلاقات الاجتماعية • ولكن انتشار اختراع اجتماعى مثل المذهب الاشتراكى كان له أبعد الأثر على العلاقات الاقتصادية والسياسية فى داخل المجتمعات التى طبقت هذا الأسلوب ، وأكثر من ذلك على عـــلاقات هذه المجتمعـــات مع المجتمعات التى تدين بمذاهب سياسية أخرى مما يتضح أن مثل هذا الاختراع لم يكن له أثر فقط على العلاقات الاجتماعية فى داخل المجتمع بل امتدت آثاره لتشكل وتغير من العلاقات بين الدول • واللغة أيضا هى اختراع اجتماعى هام بل وتعتبر أهم الاختراعات الانسانية سواء الطبيعية أو الاجتماعية ، فهـى التى أتاحت نقل خبرة الانسان خلال الأجيال المتعاقبـة ، وجعلت من عمليـة التراكم الثقافية عملية فعالة فى التجهيز للاختراعات بنوعيها ، وخاصةالرموز

الاكثر تجريدا مثل المستعملة فى العلوم الرياضية التى أتاحت ليس فقط نموا ضخما فى العلوم بل وأيضا جعلت من الممكن نقل الخبرات الى مناطق مختلفة اللغات ، ومن ثم مهدت للعمل الجمعى فى حقـــل الاختراع • وهكذا تعتبر القاعدة الأساسية لأغلب المخترعات الطبيعية الحديثة •

وان كان بارنت فى كتابه التجديد Innovation لم يفرق بين كلمة التجديد والاختراع واستخدام كلمة التجديد لكل من الاختراعين المادى والاجتماعى اذ يقول (عندما يأخذ التجديد مكانه • هناك صلة وثيقة أو انصهار لعنصرين أو أكثر لم يلتصقا قبل ذلك بهذا الأسلوب • وهكذا تكـون النتيجة كل متميز ومختلف كيفيا ويكون الاتحاد تأليفا أو تركيبا حقيقيا ، أى أن الناتج هو وحدة ذات خاصية وميزة مختلفة كليـة عن مميزات سوابقها الفـردية) (١) • فان ميردوك قد جعلمن الاختراعسواء الاجتماعى أو الطبيعى أحد أنواع التجديد ، واستخدم كلمة التجديد لتشمل أنواعا أخرى • والتجديد المسمى عند ميردوك اختراعا هو (عندما يتضمن تجديد نقل عنصر من السلوك من محتوى موقف الىمتن موقف آخر ، أو تركيبه فى موضوع جـديد ، يقال له اختراع ، عادة تكون بعض درجات الانشاء موجودة ، معظم التجديدات التكنولوجية هى من هـذا النمـوذج) (٢) • وهـو فى هـذا التعريف يتفق مع بارنت فى معنى الاختراع •

ولكـن ميردوك يذهب باصطلاح التجـديد الى معانى أوسع • أو هى بالأحرى تفصيلا أكثر لمعنى الاختراع • فيطلق ميردوك اصطلاح التجديد على عملية يسميها تباين Variation(يقال للتجديد أنه تباين عندما يقدم تعديلا طفيفا لسلوك معتاد موجود من قبل ، تحت ضغط الظروف المتغيرة تدريجيا • عادة التطـور البطىء فى أشكال الأشياء المصنوعة عبر الزمن يمثـل تراكم الاختلافات ، القمصان قد تقصر أو تطول ، الاحتفالات قد تزاد عن قصـد ، تحدث التغيرات فى كل الثقافات فى كل الأوقات • الاضافات الفردية للتغير هى

---

1 — Barnett, H. G. «Innovation» McGrow-Hill Book Company Inc. New York, 1953. P. 181.

2 — Murdock : Op. Cit., P. 251.

عادة بطيئة لدرجة غير مدركة ولكن تراكمها يؤثر عبر فترة طويلة وربما يتضاعف) (١) • فى هذا التعريف يقصد ميردوك تلك التغيرات الطفيفة وخاصة التى تحدث فى جانب من الثقافة ليس له تأثير اجتماعى كبير محسوس ، وعلى أى حال انه نوع من الاختراع اذ أنه يتألف من امتزاج عنصرين ممثلين فى تقصير القميص أو اطالته ، القميص عنصر ثقافى أدخل تعديل عليه ، حقيقة انه لم ينشأ عنه شىء آخر يختلف تماما عنه ، الا أنه أضيف اليه عنصر ثقافى آخر هو الذى أدى الى ذلك التحوير فيه ، قد تكون فكرة اقتصادية لخفض تكاليف القميص فى حالة تقصيره مثلا • وهذا يشبه تماما التجديدات التى ادخلت على السيارة أو الطيارة فهل الطيارة ذات المحركات العادية بعد ادخال التعديل الذى جعلها نفاثة أو أسرع من الصوت ألا يسمى هذا اختراعا • ان الاحتفاظ باسم الطيارة أو القميص بعد ادخال التغيرات عليه هو من سبيل الاختصار فى اللغة ، اذ كان يمكن اضافة اسما آخر للقميص بعد تقصيره مثلا أو استعماله خارج البنطلون كل هذا أدى الى تغيرات فى الوظيفة وفى اقتصاديات مستعملية ، بل والى عادات جديدة لم تكن موجودة من قبل •

وينتقل ميردوك الى وصف تجديد آخر يطلق عليه اسم التجريب Tentative ، ويفرق أيضا بينه وبين الاختراع قائلا (لايشبه النموذج السابق الذى هو مجرد تعديل أو اعادة توليف العناصر الموجودة فعلا (الاختراع) ـ التجريب قد يؤدى الى نشأة عناصر تظهر قليلا من الاتصال مع الماضى • ويحدث ذلك بميكانزم يسميه السيكولوجيون المحاولة والخطأ ، قد يحدث التجريب فى أى موقف يثبت فيه عدم ملائمة العادات القائمة ، ولهذا يكون لدى الأفراد دوافع قوية تجعلهم يحاولون اخراج أساليب أخرى من السلوك فى سبيل البحث عن حل مناسب لمشاكلهم انهم عادة يحاولون أولا اخراج عدد من المتغيرات أو التباينات ، واعادة توليفها للاستجابات المعتادة الموجودة ، ولكن اذا فشل كل هذا فانه يدفعهم الى سلوك عشوائى ، وفى مجراه قد يقعون صدفة على استجابة جديدة تحل المشكلة ، ولهذا تؤسس على أنها عنصر ثقافى

1 — Ibid, p. 250.

جديد ، وتقود الأزمات خاصة آلى التجريب • ففى المجاعات مثلا يحاول الناس تجريب كل الأنواع التى لم ياكلوها من قبل ، واذا أثبت بعضها فائدة وطعما قد يضيفونها الى قائمة طعامهم • ويقود الوباء الى دواء جديد ، والقلق الاجتماعى يقود الى الثورة • عندما الاكتشاف بالصدفة يقود الى تجديد ثقافى ، العملية عادة هى من نوع التجريب) (١) •

وفى الحقيقة عملية التجريب أو المحاولة والخطأ هى أيضا نوع من الاختراع باستخدام مفهوم بارنت ، فالمجتمع الذى يحاول التجريب ، هو يحاول التجريب ليس من فراغ ولكن بالضرورة من بين العناصر المتاحة له فى البيئة ، مثل فى حالة الطعام ، فليست المجاعة هى التى ادت الى هذا التجديد ولكنها دافع ، اما الذى أحدث التجديد فعلا هو اضافة عنصر جديد أو اكثر الى هذا النبات أو ذاك مما أخرجه من شكله الأول غير القابل لتناوله الى شكل جديد أو عنصر جديد قابل للتناول • ولا يجد لاندبرج مانعا فى تسمية هذا النوع من الاكتشاف بالصدفة أو المحاولة والخطأ أن يسميه اختراعا فيقول : (كثيرا من المخترعات المبكرة كانت بدون شك بالصدفة من التحسس عن طريق المحاولة والخطأ ، فاذا ما أصبح نوع واحد من التحسس ناجحا نسبيا ومرغوبا ومشجعا ومن ثم فيكرر وينقل • ولو أن الاكتشافات والاختراعات بالصدفة ربما تحدث فى كل مراحل الثقافة ، مثلا عندما يعمل عالم على شيء ما ولكن بالصدفة يكتشف شيئا آخر) (٢) •

وفى الحقيقة انه من الصعب وضع تمييز قاطع بين اصطلاحات الاكتشاف والاختراع والتجديد • فالاكتشاف يمثل ادراكا للعلاقات بين عناصر لم تكن معروفة أو مفهومة من قبل • ولقد يكون البحث عن هذه العلاقة عمدا ، أو وجدت بالصدفة • ومن ناحية أخرى الاختراع هو توليف عناصر معروفة فى شكل جديد • ومن ثم يعتبر الاكتشاف أساسيا للاختراع ، طالما لابد أن يكون لدى الانسان معارف ومهارات معينة عن الأشياء والمواقف والناس ، قبل أن يكون لديه القدرة على وضع معارفه ومهاراته فى العمل من أجل انتاج شيء جديد •

1 — Ibid, P. 252.

2 — Lundberg and others : «Sociology, p. 707.

وقد يعتمد اكتشاف حقائق جديدة أو علاقات جديدة على اختراع طرق جديدة في التفكير والعمل ٠ ومن ثم فمن الخير اعتبار أن اصطلاح الاختراع يقوم مقام كل من اكتشاف بعض الحقائق والمبادىء أو صنع انماط جديدة ٠ وهكذا يقرب مما انتهى اليه رالف لنتون Ralph Linton ، وهو يشرح اصطلاح الاختراع بقوله (أولا : يمكن شرح الاختراع بتلك الأشياء مثل اكتشاف استخدام النار ، واكتشاف الأشعة فوق البنفسجية ، واختراع حروف الهجاء اللفظية ، وصهر خام الحديد ، والصفر والأعداد بالناقص وحساب التفاضل ٠ وثانية : الاختراعات التي تعمل على تحسين أو تعديل الاختراعات الأخرى مثل ادخال النقل الاوتوماتيكي في السيارة) (١) ٠

وعلى اى حال فان جميع أنواع الاختراع كما راينا تعتمد اساسا على عناصر الثقافة الموجودة فعلا في ثقافة مجتمع ما ٠ فالاختراع لا ياتي من فراغ وفي ذلك يقول بارنت : لا يقفز أي تجديد من لا شيء لا بد له من سوابق ومقدمات وهذه دائما يمكن تتبع آثارها) (٢) ٠ ومن ثم فزيادة عناصر الثقافة تؤدي الى زيادة الاختراع ٠ تلك الحقيقة هي التي لفتت علماء الاجتماع الى أهمية عملية التراكم الثقافي ، أي مدى توفر ونمو عناصر الثقافة ٠ وفي ذلك يقول لندبرج (لقد اقترحنا انه في كثير من المناسبات نمو الثقافة هو للمجتمع كمثل التعليم للفرد ، بمعنى ، كليهما تراكم ، تراكم مستمر للخبرات) (٣) ٠ وهذا ما يفرق بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتقدمة في قدراتها على الاختراع والتجديد ، فمجتمعا مثل قبائل الهنود الحمر في أمريكا اوزنوج أواسط أفريقيا ليست لديهم العناصر الثقافية التي تتيح لهم اختراع آلة طباعة بالتصوير مثلا ، أو اختراعا اجتماعيا كتكوين نظرية عن حكومة عالمية ٠ ونفس الكلام يمكن أن يقال عن أسلافنا الأوائل من مئات السنين ٠ ويعبر بارنت عن هذه الحقيقة

---

1 — Ralph Linton : «The Study of Man» Appleton-Century» Crofts, Inc., New York 1936. PP. 316—317.

2 — Barnett : Op. Cit., p. 181.

3 — Lundburg : Op. Cit., P. 711.

بقوله (انشتين كان لا يمكنه ان ينمى نظريته عن النسبية لو أنه كان يعيش فى العصر الحجرى · وأيضا كان لا يمكن عمل القنبلة الذرية فى أيام نيوتن ، وكقاعدة النمو يقدم المواد لنمو اكثر) (١) ·

وتزايد الاختراعات نفسها تعتبر عملية تراكم ثقافى ، فكلما زادت المخترعات زادت المادة المتاحة للاختراع · ويعبر أوجبرن عن هذه الحقيقة بقوله (الاختراعات المفيدة تميل الى التجمع ·· ان ميل الاختراعات الى التجمع يؤدى الى زيادة فى عناصر الثقافة الموجودة التى ربما تؤدى الى انشاء اختراع جديد ، ومن هنا كانت الزيادة فى الاختراعات · ان عملية التجمع للاختراعات لا تعتبر فى حد ذاتها مقدارا اكبر من التغير ، بل تعتبر تغيرا اجتماعيا اكثر سرعة) (٢) · ومن ثم فتنوع الاختراعات وتنوع الوسائل الفنية والآلات المتاحة فى الثقافة تزيد من فرص الاختراع · (ودلت البحوث على أن الاختراع يقوم على ثلاثة عوامل ، الأول ، وجود العناصر الضرورية لاختراع جديد ، طالما أن الاختراع هو شىء جديد يعمل من عناصر موجودة ، فمن ثم يتضح أنه من الضرورى وجود العناصر المكونة قبل امكان الاختراع ، والامدادات من العناصر الكونية ـ الاختراعات والمواد ـ هى عامل فى انتاج الاختراعات الجديدة) (٣) ·

كما أن حالة المعرفة ومدى انتشارها فى بيئة المخترع أو فى عصره تسمح بطرق مختلفة ومتنوعة للبحث وانتاج مزيد من المخترعات · (وفى بعض الأحيان تتعلق مسالة امكانيات منابع الاختراع بالتصورات العقلية للمخترع · قد يكون أفقه الثقافى محددا بالمعرفة الموجودة فقط فى مجتمعه ، أو ربما تمتد الى ما وراء ذلك لتشمل المعارف الموجودة فى مجتمعات أخرى فى أنحاء العالم ، ويمكن القول أن سهولة وامتداد الاتصالات تؤثر فى تراكم الأفكار ، وعن طريق تكوين وسائل اتصالات جيدة يصبح هناك امكانيات اكبر لتكوين منابع أكثر للتصور العقلى) (٤) ·

---

1 — Barnett : Op. Cit., P. 40.
2 — Ogburn : «Social Change» Encyclo. P. 380.
3 — Ogburn and Nimkoff : «Hand Book of Sociology» P. 543.
4 — Barnett : Op. Cit., P. 40.

ومن ثم فان المجتمعات المفتوحة فكريا تساعد على تراكم الأفكار مما يؤدى الى زيادة الاختراعات سواء المادية او الاجتماعية ، والعكس صحيح ، بمعنى أن المجتمعات التى لا تشجع الحرية الفكرية وتشجع التكتم والسرية أو تقطع حرية سريان الأخبار ، أو تجعل من التساؤل عن المعارف حقا خاصا للقلة المختارة ، اما رسميا أو عن طريق غير مباشر نتيجة لامتياز اقتصادى أو سياسى أو أسرى أو من أى نوع اخر ، كل ذلك يحد من الافق الثقافى لأعضاء المجتمع ، ليس فقط فيما يتاح لهم من عناصر داخل مجتمعاتهم بل وايضا المعرفة عن أفكار المجتمعات الأخرى مما يؤدى الى عقم المجتمع وتخلفه · (ان مجموعة من الظروف ربما تكـــون عظيمة التشجيع على التعلـم من ظروف أخرى ، فهذه الظروف المشجعة تكون أكثر ملاءمة لنمو الثقافة والاختراعات ومن بين الظروف الهامة المشجعة للاختراع ، زيادة ما يعرفه الفرد حاليا . وسهولة تعلم شيء اكثر ، وبالمثل ، ثقافة ذات نمو عال متقن تصبح اكثر احتمالا لانتاج اختراع هام عما عليه الحال فى ثقافة بسيطة غير نامية) (١)· (وحقيقة ان بعض الناس لديهم اختراعات كثيرة واخرين ليس لديهم ، فالأهمية هى لدرجة الامدادات الثقافية فى كل من المجتمعين · فالهنود الأمريكيون مثلا فى حاجة شديدة للدواء العلمى لأن معدل الوفيات عال جدا عندهم ، والأوبئة تكاد تفنيهم وأطباؤهم يعملون بشدة لحل المشكلة ولكن ليس لديهم الامداد الثقـافى) (٢) ·

وفى الحقيقة ان الدعامة الأولى لعمليـة الاختراع هى العناصر التى أعدتها الثقافة لهذه العملية وتتمثل خطورة هذا العامل فى أنه خارج عن ارادة الأفراد ، فهم يولدون فيجدون عناصر ثقافتهم على ما هى عليه بغض النظر عن رغبات الأفراد أو مجهوداتهم ، اذ كلنا نبتدىء بمجموعة من الأفكار والأشياء والسلوك التى تجمعت وتكاملت بواسطة أسلافنا من أمد طويل . صنعتها الظروف التى احاطت بالمجتمع سواء من قوى داخلية أدت الى عـدم

---

1 — Lundberg : «Sociology» P. 712

2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., p. 544.

تراكم الأفكار كما حدث فى أوربا فى العصور الوسطى عندما حجرت الكنيسة ، وساعدها الملوك والأمراء ، على عقول المجتمعات الأوربية ولذا سميت بالعصور المظلمة ، أو ظروف خارجية فرضت على المجتمع فقطعت اتصاله بالعالم الخارجى ، ومن ثم عدم تراكم الأفكار كما حدث للأمة العربية فى نهاية العصر العثمانى ومصر بالذات ابان الاستعمار • حقيقة أن كلا منا يستطيع أن يصنع تعديلا طفيفا فى الوسط الثقافى الذى يعيش فيه • ولكن مدى هذا التعديل وأهميته مرتبط بمدى توفر العناصر ، ورغم ذلك قد يقال ان بعض الأفراد قد يحدثون تغيرات هامة ، ولكن التغيرات الهامة تكون أولا وبالضرورة حدثت فى تراكم العناصر الثقافية لديهم مثل ما حدث عندما أتيح ـ رغم الاستعمار ـ لبعض أعضاء المجتمع المصرى مثل محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد الاتصال بالثقافات الخارجية وعادوا للبلاد ، فأحدثوا اختراعات اجتماعية مثل انشاء الصحف والمجلات والدعوة الى الديموقراطية ، مما كان له اثر بعيد فى تراكم الأفكار لدى الشعب المصرى وأعده للاستقلال •

تلك النقط تقودنا الى فكرة المخترع العبقرى فى الثقافة المادية واللامادية على السواء التى يصر عليها بعض علماء الاجتماع مثل بارنت فيقول (الباعث الى كل فكرة جديدة أو أسلوب جديد هو دائما منسوب لفرد معين) (١) • والغريب أن بارنت حلل عملية التجديد الى أربع عمليات الأولى وهى تراكم الأفكار ، والثانية تكاثف الأفكار والثالثة التحام الأفكار والرابعة المشاركة فى المجهودات ويصر فى العملية الثانية وهى تكاثف الأفكار على فكرة الفرد المخترع فيقول (الأفكار لا تمتزج أو تعيد ترتيب نفسها • هذه العملية يجب أن تأخذ مكانها فى عقل فرد ما) (٢) • ثم يعود فى العنصر الثالث فى عملية التجديد وهى المشاركة فى المجهودات ويضيف عنصرا فى هذه المرة اجتماعيا ، اذ أنه جعل من عملية المشاركة فى المجهودات ذات اثر بالغ فيقول (امكانية نمو فكرة جديدة تكون مرتفعة وعظيمة اذا عدة أشخاص تلقائيا وتعاونيا

1 — Barnett ; Op. Cit., P. 39.
2 — Ibid., p. 41.

أظهروا نفس الاحتمال ، ان المشاركة فى المجهـــودات ليست فقط توفق بين تكاثف الأفكار لعديد من الأفراد ولكن أيضا تزيد من فرص امكانية وصـــول أحدهم الى حل لمشكلتهم العامة) (١) ٠

والعجيب انه يقرر أن عملية المشاركة فى المجهودات نفسها عنصر ثقافى فيقول (المشاركة فى المجهودات مثل تراكم وتكاثف الأفكار ليست ظـاهرة طبيعية اذ انها لا توجد عشوائيا أو حيويا انما هى تأثير وتنميط ثقافى) (٢) ٠ وهو فى هذه الفقرة يعترف أن تراكم وتكاثف الأفكار هى ظاهرة اجتماعية ، أى أن تكاثف الأفكار لا يتم سيكولوجيا ولكن اجتماعيا ، أى أن المجتمـــع هو الذى يتيح للأفكار أن تتكاثف فى عقول الأفراد ، فليست عملية فرد عبقرى ولكن عملية اجتماعية ٠ ويوضح ذلك أوجبرن فيقـــول) انه فى السكان من نفس الجنس هناك عدد كبير من الأشخاص يرثون الكفاءة الكافية ليـكونوا مخترعين ٠ وبالرغم من ذلك فان عدد المخترعين صغير ٠ ويرجع الاختلاف الى حقيقة أن كل الأفـــراد ذوى الكفاءة الموروثة لم يدربوا على الاختـــراع ولا المجتمـــع يشـــجع الاختراع عند كل الجزء الـــذى تدرب ٠ وهـــكذا فى الانثربولوجيا ، هناك عدد من البحاث قليل جدا الذين يصلون الى اكتشافات علمية ٠ وان كان هناك عدد كبير من الأشخاص الوارثين لقدرات عقليـــة كافية ، ولكن الوقت والمال المطلوب لانتاج دكتـــور فلسفة فى الأنثربولوجيا يخفض العدد ، وأن الحاجة الى الانثروبولوجيين هى نسبيا قليلة حتى أن المجتمع سوف لا يساعد الا قليلا فقط (٣) ٠

ومن ثم يتبين أن هناك قوى اجتماعية هى التى تحدد تكاثف الأفكار ٠ ويبدو أن ميل بارنت الى تفسير الظواهر الاجتماعية بالمصطلحات السيكولوجية أدى به الى التركين عـــلى الاختراعات التى تطورت بالثقافة الانسانية فى مراحلها الأولى حيث يمكن اسنادها عقليا الى افراد نظرا لبساطتها وعـــدم تعقـــدها ٠

---

1 — Ibid., P. 43.
2 — Ibid., P. 43.
3 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 546—547.

وعندما وصل بارنت الى المخترعات الحديثة وتشابكها وتعقدها أضاف عنصر المشاركة فى المجهودات ، وحصرها أيضا سيكولوجيا فى عدد معين من الافراد الموهوبين (الأسس الثقافية أساسية للاختراع ولكن بدون الأفراد الموهوبين لن تعمل اطلاقا التوليفة بين العناصر الثقافية الموجودة) (١) ·
ونحن عندما نرفض فكرة العبقرية والموهوبين لا نغض من أهميـــة القـدرة العقلية ، ولكن ما نقول به هو النظر الى هذه القدرة العقلية نظرة اجتماعية وليست سيكولوجية · فالقدرة العقلية من وجهة النظر الاجتماعية هى عمل اجتماعى اكثر منه سيكولوجى عندما نتحدث عنها فى علاقاتها بالاختراعات· فأفلاطون وأرسطو وغيرهم من فلاسفة العصر القديم قد نموا نظريات فى الفلسفة تدل على عبقرية فائقة الا انهم لم يستطيعوا اختراع دواء مثـل البنسلين ، لأن عناصر هذا الدواء لم تكن موجودة فى البيئة الثقافية لهم · ويعبر أوجبرن عن هذه الحقيقة بقوله (من الواضح أن القدرات المكتسبة تتغير بشدة فى العصر الحديث من زمن لزمن ، فمنذ ٣٠٠ سنة لم نكن نعرف شـيئا عـن الكهـرباء والآن قدراتنا فى الكهرباء عظيمة ومدهشة · هذا الاختلاف فى القدرات المكتسبة خلال السنين نشأت عن الاختلاف فيما نتعلمه وخاصة فى ثقافتنا · اليس اذن التغير فى القوى الثقافية هو الذى يسبب التغير فى امدادات الرجـال العظـام مـن قـرن لقـرن ، أكثر من القـوى الفردية) (٢) ·

وغنى عن البيان اننا غير معتادين أن نرى القوى المسببة التى تميز الأعمال الكبيرة ، ونوعا ما نرى الأعمال كنتائج لأعمال الأفراد دون تتبـع لأسباب هذه الأعمال · فاكتشاف سطح القمر لا يمكن أن ننسبه الى رواد الفضـاء ولا حتى الى مخترع المركبـة الفضـائية ولا الى أى قدرة عقـلية شخصية سيكولوجيا ، فالقدرات العقلية الخارقة كانت موجودة ، والقمر منذ آلاف السنين شغل عقول الانسانية ، وكذلك فكرة الوصول اليه ، ولكن

---

1 — Barnett : Op. Cit., P. 10.
2 — Ogburne : «Technology Causes Socialchange Op. Cit., P. 14.

لم يتيسر ذلك • فالتغير فى هذا الموقف من الأحرى أن ينسب الى النمو فى العناصر الثقافية التى مهدت لهذا الاكتشاف ، فالقدرة العقلية الحديثة بما زودت به من عناصر ثقافية وبما اكتسبته من التراكم الثقافى استطاعت أن تحقق فكرة الوصول الى القمر • فالمتغير هنا هى العناصر الثقافية ، اما القدرة العقلية فهى ثابتة تقريبا • (انه من الضرورى التمييز بين الكفاءة العقلية الموروثه والقدرات المكتسبة) (١) • (فاختراع القارب البخارى ينسب الى الامريكى روبرت فلتن ، وان كان هناك فى نفس الوقت ستة آخرون اخترعوا القارب البخارى • فان لم يكن وجد روبرت ، لكان أخترع القارب البخارى حتى لو لم يوجد أيضا الستة المخترعون السابق الحديث عنهم اذ ما دام هناك حاجة الى مثل هذا القارب ، وطالما يوجد القارب والبخار والحاجة الى قارب يسير بدون الاعتماد على الريح ، أو ضد التيار ، هذه الحاجة ستدفع الى اختراع القارب• وعلى هذا فان من الأنسب أن ننسب القارب البخارى الى اختراع الآلة البخارية لا الى رجل عبقرى) (٢) •

فى المثل السابق ، أوجبرن ، الى جانب رفضه ارجاع الاختراع الى فرد معين ونسب ذلك الى تغير العناصر الثقافية أضاف عاملا آخر وهو الحاجة الى الاختراع كقوة اجتماعية دافعه الى الاختراع ، وهو يؤكد هذه الحقيقة فيقول (فالحاجة كما يقال هى أم الاختراع ، فليس كل الأفكار الموجودة فى المجتمع تدعونا الى النظر اليها والتمعن فيها ، ولكن هناك نوع معين من هذه الأفكار وهى التى تتصل بشىء نحن فى حاجة اليه • هذه الأفكار وحدها هى التى تجذب انتباهنا اليها • وأن الحاجة أو الضرورة ليست فى كل الأحوال قادرة على انتاج اختراع ما • طالما لم تكن موجودة المواد التى تمكننا من انتاج الاختراعات فالرجل البدائى كان فى حاجة ماسة الى العلاج الطبى العلمى ولكنه لم يوفق ولم يصل الا الى اكتشافات قليلة نادرة

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 546.
2 — Ogburn : «Technology and Social Change» Op. Cit., P. 15.

فى هذا الميدان) (١) . ولكن ميرل يرفض هذه الحاجة كقوة من القوى الدافعة على الاختراع وليس عنده الا توفر العناصر الثقافية كعامل على الاختراع فيقول (يقدم التحليل العام رأيا بأن الأقوال الشعبية تقول ان الحاجة أم الاختراع ، هذه لابد أن تتعدل أو أن تنبذ كلية . حقا ان الحاجة فعلا تعطى دفعة للاختراع . وتطور القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية هو مثل مشاهد لهذه العملية . ولكن الرومان فى مواجهة القبائل البربرية كانوا فى حاجة ماسة الى هذا السلاح ، واضح أن الحاجة كانت عند الرومان ، ولكن ليس الأساس الثقافى الذى يمكنهم من الاختراع . كان لا يمكن انتاج القنابل الهيدروجينية والذرية بدون الانجازات التى عملت فى العلوم الطبيعية التى تميزت بها السنوات الأخيرة من القرن الحالى) (٢) .

ولكن لندبرج يقف موقفا معتدلا ، فهو يؤيد أهمية الحاجة الاجتماعية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرى انها مقيدة بامكانية عناصر الثقافة فعنده (طبيعة الثقافة الموجودة ، مشتملة على قيم واهتمامات الناس سوف تحدد طبيعيا النماذج الأساسية للاختراعات المحتمل حدوثها . فالاختراعات التى يبدو انها لا تشبع أى حاجات مشعور بها محتمل أن لا تظهر او لاتستخدم اذا ظهرت . ومن ناحية أخرى مبدأ أن الحاجة (أم الاختراع) يجب أن لا يقبل بدون تحفظات هامة . الحاجة الى امداد غذائى أكثر ملاءمة ، والى السفر اكثر سرعة وبأقل الوسائل جهدا ، والحماية ضد الأمراض الوبائية ، واضح أنها وجدت لعدة قرون بدون تقديم أسباب كافية للاختراعات التى أشبعت أخيرا هذه الحاجات . فى كلمات أخرى ، لا يمكن للاختراعات أن توجد ، بغض النظر عن الحاجة ، حتى توجد فعلا فى الثقافة عناصرها الضروزية(٣) .

---

1 — Ogburn : «Social Change» Encyclop. P. 331.

2 — Merrill : Op. Cit., P. 1. 464—465.

3 — Lundberg : Sociology P. 714.

والحقيقة أن الحاجة الاجتماعية تمثل احدى القوى الاجتماعية المحركة والدافعة على الاختراع اذا توفرت عناصر الاختراع المشبع لتلك الحاجة ٠ بل يبدو أن الحاجة لها دور أكبر من ذلك ، اذ أنها تعمل على انشاء العناصر الثقافية اللازمة للاختراع فهى تظل تحرك القدرات العقلية نحو تحقيق اشباع تلك الحاجة ، ومن ثم تعمل على تراكم العناصر الثقافية حتى تصل الى الدرجة الكافية ٠ اذ أننا لو سلمنا بأن الحاجة الاجتماعية لا تعمل على الاختراع الا اذا وجدت العناصر الثقافية ، فان هذا يعنى الغاء الارادة الانسانية وبالتالى الغاء الاختراعات الموجهة نحو أهداف معينة ٠ وبذلك يظل الاختراع تحت مفهوم الصدفة فقط ، وهذا أمر تدل على بطلانه معظم المخترعات الحديثة المقادة فى معامل التجريب نحو تحقيق فروض علمية بغية تحقيقها ٠

وغنى عن البيان أن اصطلاح الحاجة الاجتماعية يتضمن أن هناك موقف من سوء التكيف أى أن هناك أسلوبا فى التفكير أو العمل أصبح غير مشبع ، ومن ثم نشأت الحاجة الى اعادة التكيف ، أو فى كلمات أخرى أن هناك حالة من اللاتوازن ، ومن ثم يحدث فى النسق تلك التوترات التى تدفع الى بذل الجهود لاعادة التوازن الى النسق ٠ وتظل هذه الجهود تبذل سواء عن طريق محاولة اعادة التوليف بين عناصر الثقافة الموجودة ، أو اكتشاف عناصر جديدة لم تكن موجودة عن طريق المحاولة والخطأ ٠ المهم أن الحاجة الاجتماعية تظل تعمل كمحرك ودافع لاعادة التكيف لاحداث تكيف أسهل وأيسر ، ومن ثم ازالة التوتر واعادة التوازن ، فاذا نجحت الجهود فى الوصول الى التوليفة الجديدة أو اكتشاف العنصر الجديد وحدث الاشباع سمى هذا اختراعا ٠

وليس معنى هذا أننى أقول بحتمية الحاجة الاجتماعية وأنها أم الاختراع كما ذهب الى ذلك أوجبرن ، ورفضها كل من ميرل ولندبرج وبارنت ، انما ما قصدت اليه هو توضيح أهمية الدور الذى تلعبه الحاجة كقوة اجتماعية فى انشاء الاختراعات ، تماما مثل أهمية العناصر الثقافية فى

هذه العملية · وان توفر احدهما دون الآخر لا يساعد على نشأة الاختراعات . ولكن ازدياد ضغط الحاجة الاجتماعية قد يوحى بانشاء العناصر الثقافيــة او التوليف بينها وبالمثل توافر العناصر الثقافية يزيد من فرص الاختراع . ومن ثم فتوفر كليهما يسرع بعملية الاختراع ·

(ب) ـ الانتشــار Diffusion

والعملية الرئيسية الثانية التى اهتم بها معظم علماء الاجتماع عملية الانتشــار اذ (ليس هنــاك مجتمــع ثابت حقيقة هذه الأيام بسبب انتشــار السمات الثقافية) (١) · وعملية (الانتشار هى حركة نمط ثقافى مــن مجتمع الى اخــر ، أو فى داخل المجتمــع نفسه ، ومن الواضح انه بــدون الاختراع أولا لا يكون هناك انتشار ، ولكن بدون الانتشار لا يكون هنــاك الا تغير طفيف ، اذ لا ينتج مجتمع بذاته اكثر من شظايا من العناصر الثقافية فيه) (٢) · (لم يصنع مجتمع من المجتمعات المعقدة على وجه الأرض الآن اكثر من قليل جدا من العــدد الكلى لعنــاصر الثقــافة الموجودة فيه · كل المجتمعات استعارت العناصر من مجتمعات اخــرى) (٣) · (فلا تنمو الثقافة فقط بالاختراع او الاكتشاف ، ولكن اكثر بالانتشار · والانتشــار هو استعاره أو قبول سمة أو نمط من وحدات اجتماعية أخرى) (٤) · (بواسطة هذه العملية تنتشر الثقافة بشكل واسع ، وما يخترع أو يكتشف فى مجتمــع ينتشر الى المجتمعات الأخرى فى كل العالم · والأساليب الحديثة لوســائل الاتصال الجمعى ووسائل النقل ، وسهولة تقابل الناس ، كلها قد ســهلت

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 590.

2 — Merrill : Op. Cit., P. 462.

3 — Bierstedt. R. «The Social Order», Second Edition. McGraw-Hill Book Com., Ine kogakusha com, Ltd. Tokyo. 1963 P. 152.

4 — Young. K. and Mack, R. : «Systematic Sociology» Affilited East-West Press Pyt. LTD New Delhi, 1972, P. 460.

الانتشار الثقافى الى درجة أن بعض الأشياء يمكن الآن أن تكون موجودة فى كل مجتمع تقريبا ، باستثناء أكثر المجتمعات البدائية انعزالا) (١) • (ومن المتفق عليه بصفة عامة أن الانتشار أكثر أهمية من الاختراع فى البناء الكلى لأى ثقافة • اذ أن السمات المستعارة فى أى ثقافة أكثر من السمات المخترعة) (٢) • ويبدو أن ذلك يرجع الى أن الاستعارة أسهل من الاختراع ، اذ أسهل على الانسان أن ينظر حوله ويقع على بعض الأساليب المستعملة فعلا ، من التفكير فى اختراع أسلوب جديد كلية لمواجهة موقف جديد قد نجح فيه ذلك الأسلوب المستعمل المستعار •

(وتقرر نظرية الانتشار الثقافى أن التغيرات الكبرى فى المجتمع تحدث نتيجة للاحتكاك بمجتمعات أخرى • وجزئيا انبعثت النظرية من مفهوم انثروبولوجى قديم عن الأهمية الرئيسية لانتشار العناصر الثقافية • فقد اعتنق بعض الانتشاريين الأوائل افكارهم بشكل متطرف ، واعتبروا أنه اذا وجدت سمات ثقافية متشابهة فى مجتمعات منفصلة متباعدة اذن لابد وأنه كان هناك اتصال قديم بين هذه المجتمعات والذى يمكن تتبعه تاريخيا) (٣) •

وما زال هذا الرأى يجد له مؤيدين بين علماء الانثروبولوجيا المحدثين ، وفى الحقيقة أن التشابه فى السمات الثقافية بين المجتمعات المتباعدة فى المكان لفت انظار هؤلاء العلماء ، بل الأكثر من ذلك أنهم وجدوا تشابها فى السمات الثقافية بين جماعات مختلفة لغويا وسلاليا • فتجد أن روث بندكت تقرر (أن من أهم الحقائق الخاصة بالانثروبولوجيا ، ذلك العمل الانثروبولوجى الكبير الذى خصص لفهم حقائق التقليد البشرى على مدى المناطق البدائية التى انتشرت فيها السمات ، سمات العادات الاجتماعية

---

1 — Bierstedt : Op. Cit., P. 151.

2 — Young and Mack : Op. Cit., P. 461.

3 — Kroeber, A.L. : «Diffusionism» Encyclopidia of the Social Sciences. N. Y., Macmillan, 1932.

لأساليب العمل وللاحتفالات والخرافات وللتبادل الاقتصادى عند الزواج ، كلها منتشرة فى كل المناطق ، وكل قبيلة فى منطقة لديها السمات فى شكل ما ، ولو أن بعض المناطق فى هذه المنطقة الواسعة أبرزت أهدافا ودوافع متمايزة على هذه المادة الخام • فيستخدم جماعة البوبلو طرق الزراعة والحيل السحرية والخرافات المنتشره بشكل واسع والتى تنتمى الى أجزاء كبيرة من شمال أمريكا ••• أى فهم واضح لعملية التكامل الثقافى يجب أن يأخذ نقطة انطلاقه من معلومات أو معرفة عن حقائق الانتشار) (١) •

ظاهرة الانتشار هذه لم تسترع انتباه العلماء فقط ، بل ادت أيضا الى انقسامهم حول تفسيرها ، فمنهم من أرجع التشابه بين السمات الثقافية الى انتشارها وسمى هذا الاتجاه بالمدرسة الانتشارية ، ومنهم من أرجع التشابه ليس الى قدرة السمات الثقافية على الانتشار ، بل أرجع التشابه الى التشابه فى البيئات الطبيعية لدى المجتمعات المتشابهة ثقافيا ، اذ فى اعتقادهم أن التفكير الانسانى هو واحد فى كل مكان وزمان • ومن ثم فاذا اتفقت الظروف الطبيعية والبيئية فالنتيجة هى ثقافات متشابهة ، ولذا سميت هذه المدرسة بمدرسة النشأة المستقلة ، اذ أن أولئك العلماء اعتبروا أن الثقافة تتطور من داخل المجتمع • ولكن وجهت انتقادات شديدة لهذه المدرسة ، بل ان المدرسة الانتشارية قامت على أساس رفض دعاوى تلك المدرسة • وأرجعت التشابه بين الثقافات الى عملية الانتشار ، ذلك عن طريق الاحتكاك بين المجتمعات سواء عن طريق التجارة أو الحروب أو الهجرة ، حيث يرى المجتمع المستعير فى السمة الثقافية المستعارة أسلوبا فى التفكير أو العمل اكثر اشباعا مما لديه •

وهذه النقطة بالذات تؤدى الى ابطال رأى أصحاب المدرسة التطورية أو مدرسة النشأة المستقلة ، اذ أن استعارة نمط ثقافىمن مجتمع آخر يؤدىالى اضطراب الخط التطورى الذى يزعمه أصحاب مدرسة النشأة المستقلة •

---

1 — Benedect : Op. Cit., P. 223—4.

ويوضح ذلك أوجبرن ونمكوف فى تساؤلهما (عن ، لماذا لا يذهب النظام خلال نفس المجموعة من الأطوار فى كل ثقافة ؟ السبب هو أن التعديلات تأتى اليه من الخارج • مثلا أصبحت الحكومة فى جزر الفلبين ديموقراطية بواسطة الاستيراد المباشر لهذا النمط من الحكومة فى أمريكا بدون ضرورة الذهاب خلال الأطوار المختلفة التى مرت بها أوربا ••• اذ كانت كل بلاد العالم منفصلة وليست ملتصقة كل بالأخرى ، احتمالية تطور النظم خلال نفس المراحل سوف تكون أكبر • ولكن عندما يكون كل الناس فى احتكاك مع عدد كبير من الشعوب الأخرى ، ومع نظم فى درجات مختلفة من النمو ، وعندما تنتشر السمات الثقافية من شعب لآخر ، فسوف يختلف مجرى النمو لأى نظام من مكان لآخر) (١) •

وتلك حقيقة واضحة جدا اذ أن السمات الثقافية تنتشر ، اذ تستعير المجتمعات المختلفة السمات الثقافية كل من الأخرى • ومن ثم فان التشابه فى الأنماط الثقافية فى المجتمعات المختلفة لا ينشأ نشأة مستقلة تلقائية نتيجة للتشابه فى الظروف الطبيعية وتشابه تكوين العقل البشرى كما يدعى أصحاب مدرسة النشأة المستقلة • فاذا افترضنا أن الانعزال الاجتماعى يتضمن الغياب النسبى للانتشار • ومن ثم فهذا الظرف يولد الركود الثقافى • وأن الاتصال والاحتكاك الثقافى يتضمن عملية الانتشار وأن هذه العملية تساعد على النمو الثقافى • ثم اذا اتجهنا بهذه المسلمة لنفحصها فيما نعرف من مناطق العالم سنجد أن المنطقة التى كان يسودها الاحتكاك والاتصال منذ اقدم العصور ، وهى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط والمناطق المحيطة بها ، تلك المناطق شهدت نموا عظيما ، بينما أمريكا واستراليا قبل اكتشافهما أى حتى القرن الخامس عشر ، كان التغير فيهما بطيئا جدا لانعزالهما ، ذلك رغم أن أمريكا واستراليا وأيضا نيوزيلندا لديهم

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 489.

ظروف طبيعية وبيئية متشابهة وأن العقل البشرى كما يزعم أصحاب اتجاه النشأة المستقلة هو واحد · ورغم هذا لم تصل أنماطهم وعناصرهم الثقافية مثل ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية أو الحضارة الأوربية الحديثة ·

والأكثر من ذلك انــه يمــكن تتبع آثــار انتشار السمات الثقافية عبر التاريخ · فان السمات الثقافية سواء المادية أو اللامادية التى وجدت عنــد شعوب تلك المنطقة فى مختلف امكنتها وازمانها لم تظهر تلقائيا عند كل منها بعيدة عن الأخــرى فلقــد أثبت علماء الآثــار والاثنوجرافيا أن الحضـــارة الفرعونية انتشر كثير من سماتها الثقافية شرقا الى الفينيقيين ، وغــربا حتى قرطاجنة ، ثم انتشرت عبر البحــر الى مالطة وكريت ثم الى اليونان التى استعارت كثيرا من السمات الثقافية ، وكذلك عندما قامت الــدولة الرومانية استعارت كثيراً من السمات الثقافيـــة الأغريقية حتى أنه ليعتبر الفكر الرومانى امتدادا للفكر اليونانى · وعند نشأة الدولة الاســلامية اســتعارت كثيرا من الســمات الثقــافية اليونانية والرومــانية حيث ترجم التراثان اليونانى والرومانى ثم انتقــل كثير من الســمات العربية الى أوربا ، وعرفت هناك أفكار الفارابى والكندى وانتشرت سمات أخرى عربيــة عن طريق التجارة وكذلك الحروب بين الأندلسيين والفرنجة · وهكذا يمــكن تتبع انتشـــار الثقــافة من الثقــافة المصرية القديمة حتى الثقافة الأوربيـــة الحـــديثة ·

وهذا ما دعا العلماء الأوائل الذين كتبوا عن النمو الثقافى والانتشار بالقول بأن الثقافة تطورت بانتشارها من عدد معين من مراكز الثقافة · ولقد خضعت السمات الثقافية أثناء عملية الانتشـــار والاحتكاك ثم التوطن فى الثقافات الأخرى لكل أنواع التبدل والتغير طبقا لمفهوم كل مجتمع · واذا كان كذلك عن الثقافات الراقية فماذا يمنع أيضا أن تكون السمات الثقافية المتشابهة عند المجتمعات البدائية قد اتبعت نفس الأسلوب ، أى انتشرت من مراكز ثقافية معينة الى القبائل الأخرى ، حتى وان لم يكن هناك دليل على

ذلك الانتشار غير مجرد التشابه القائم بينها ، ويزيد ذلك الاحتمال عندما تكون سمات هذه الثقافة معقدة وتوجد معظمها مع ذلك فى كل تلك المجتمعات المنتشرة على مساحة كبيرة على ماذكرت روث بندكت عن ثقافة البويلو المنتشرة فى أجزاء كبيرة من شمال أمريكا (١) ٠

وقد استرعت ظاهرة الانتشار من مراكز معينة للثقافة انتباه العلماء الأوائل فى دراسة الانتشار ولكن تغير وسائل الاتصالات من طائرات وتليفزيون وراديو وصحف وسينما ، قد قلبت هذه النظرية ٠ فهى ان كانت تصلح لدراسة تطور الثقافة وانتشارها فى المراحل المبكرة من تاريخ الانسانية ٠ فقد دخلت وسائل الاتصال الحديثة كعامل شديد الأثر فى عملية الانتشار ، مما قلب نظرية الانتشار من مراكز معينة فى شكل دوائر رأسا على عقب ٠ (فى المحاولات العلمية المبكرة لدراسة الانتشار الثقافى التى عملها الانثروبولوجيون الثقافيون ، اقترحوا أولا أن الانتشار يحدث بنفس الطريقة التى تتبعها الدوائر المنتشرة من وقوع حجر فى الماء ٠ هذا الكلام يعنى أن الثقافة تنتشر فى دوائر منتظمة بمعدل ثابت السرعة وفى وسط متجانس ٠ وطبقا لهذا الشرح لابد وأن تكون نقطة واحدة مركزية للاصل التى انتشر منها التجديد) (٢) ٠ ولكن فى ظل وسائل الاتصال الحديثة فقد مفهوم الدائرة المركزية كثيرا من صلاحيته ٠

وهكذا أصبح مفهوم الانتشار عند علماء الاجتماع المعاصرين شيئا آخر ، فهو عند ميرل (الانتشار هو العملية التى بها سمة ثقافية أو نمط ثقافى ينتشر من فرد أو جماعة أو مجتمع لآخر ٠ هذه العملية تنطلق بواسطة هيئات : التجارة والحرب والتزاوج والأدب وطلاب العلم المسافرين ، والجامعات والصحف والراديو والسينما والتليفزيون قد نشروا سمات وأنماطا فى داخل المجتمع ومن مجتمع لآخر) (٣) ٠ ويعتبر لندبرج أن

---

1 — Benedct : Op. Cit., P. 223.
2 — Merrill : Op. Cit., P. 467.
3 — Ibid., P. 467.

(انتشار الثقافة يشير الى انتشار وامتداد المصطلحات الثقافية فى المكان ، من شخص الى شخص ، ومن قبيلة الى قبيلة ، ومن بلد الى بلد حول العالم) (١) . وهى عند ميردوك (النوع الرابع من التجديد هو الاستعارة الثقافية والاستعارة الثقافية تعتمد على الاتصال ، وفى هذه الحالة يستعير المجتمع بعض العادات الاجتماعية التى وجدت فى مجتمع آخر) (٢) .

وقد يستعير المجتمع نمطا ثقافيا كاملا ، وهذا ما يسمى بالهجرة الشاملة ، وقد يستعير جزءا من نمط ثقافى . وعلى أى حال سواء كان النمط المستعار كاملا أو جزءا منه فانه لا يتم نقله كما هو شكلا ومضمونا . اذ أن السمة المستعارة يقبلها المجتمع المستعير من خلال مفاهيمه ، ومن ثم فقد تتغير فى الشكل أو المضمون أو او الأثنين معا .

(ومن اهم العوامل فيما يتعلق باحتكاك عناصر الثقافة هو أنها تنتقل من مجتمع لآخر غالبا بالاقتصار على عبارات من أشكالها . فى كلمات اخرى ، يحاكى المجتمع المستعير أنماطا معينة من السلوك كما هى مفهومة له ، عادة بدون فهم محتواها الثقافى الأصلى) (٣) . والاكثر من ذلك ، قد يستخدم المجتمع المستعير السمة المستعارة فى غرض آخر ، مثل (هنود ساحل شمال غرب أمريكا نسجوا بطاطين فى رسم ليقلدوا البطاقة التى على علبة الطماطم) (٤) .

ويلاحظ أن انتشار الثقافة ليس بالضرورة من الجماعات المتحضرة الى الجماعات الأقل تحضرا ، ولكنها متبادلة بين المجتمعات بغض النظر عن درجة تحضرها .

وقد يكون الانتشار مباشرا أو غير مباشر . ويحدث الانتشار المباشر عند ما يكون بين الأشخاص أو الجماعات احتكاك مادى فعلى ويمكن

---

1 — Lundberg : Op. Cit., P. 705.
2 — Murdock : Op. Cit., P. 253 — 254.
3 — Linton, Ralph : «The Tree of Culture» Alfred A. Knoff Inc., N.Y., 1955 P. 45.
4 — Merrill : Op. Cit., P. 468.

توضيح هذه العملية بالهجرة أو الاستعمار ، والاحتكاك أثناء الحروب أو التجارة ، أو أثناء عمل الارساليات التبشيرية • أما الانتشار غير المباشر فهو انتشار السمات الثقافية دون الاتصال المادى للأشخاص أو الجماعات ، وتتم هذه العملية عن طريق وسائل الاتصال الجمعى مثل الراديو والتليفزيون والسينما والصحافة والمجلات والسلع المنقولة •

ولقد ينشأ نوع من التغير الاجتماعى نتيجة الاحتكاك الثقافى المؤدى الى تفكك القيم الموجودة فى المجتمع • وذلك عندما لا يتأكد الناس مما هو صواب وصالح نظرا لمواجهتهم لمجموعتين أو أكثر من القيم الثقافية ، عند ذلك يصبحون أكثر رغبة فى قبول أفكار وقيم جديدة • اذ عندما تدخل ثقافة فى احتكاك مع ثقافة أخرى • لا يحدث التغيير ببساطة لمجرد أن بديلا أصبح موجودا ، ولكن لأن الناس أيضا قد تبينوا أن البدائل ممكنة وأن القيم الجديدة مناسبة • ولهذا يصبح الناس الذين وضعوا فى احتكاك مع ثقافات أخرى موجهين نحو التغير • ومن ثم يصبح لديهم الرغبة فى قبول أفكار جديدة وقيم جديدة وأساليب جديدة فى العمل بل قد يصبحون مخترعين ، ليس فقط فيما يختص بالتكنولوجيا ، ولكن أيضا فيما يختص بالبناء الاجتماعى وأنماط السلوك الاجتماعية •

ويلاحظ أن التغير الاجتماعى الناشىء عن الاحتكاك الثقافى غير قابل للارتداد ، بالرغم من المجهودات المتعمدة لرده وحتى لو توقف الاحتكاك الثقافى • ذلك لا يعنى أن الثقافة المستعيرة التى تتغير تتحرك بالضرورة نحو مزيد من التشابه للثقافة الأخرى • كما أن المقاومة وردود الفعل ضد الثقافة الأخرى تصنع أيضا تغيرات وان كان ذلك لا يؤدى بالثقافتين الى مزيد من تجانس كل مع الأخرى •

التكنولوجيا ما هى الا عنصر من عناصر الثقافة ، بل وعنصر شـديد التعلق بالعالم الاجتماعى • رغم أننا (لا نفكر عادة فى التكنولوجيا كشىء اجتماعى ، ونعتبر التكنولوجيا كشىء ميكانيكى ويمت الى العلوم الطبيعية • وبالنسبة الى اعتبار أن التكنولوجيا تتعلق بصناعة الأشياء الطبيعية ، فانها تقع فى منطقـة العلـوم الطبيعيـة • تكرس مناهج الدراسة فى الكليـات التكنولوجية اكبر جزء منها للعلوم الطبيعية وقليل منه للعلوم الحيـوية أو الاجتماعية اذ أن انتاج الأشياء التكنولوجية لايقع فى منطقة العلوم الاجتماعية، وأيضا منذ وجود معانى هذه الأشياء التكنولوجية فى حقل العلوم الاجتماعية ، فانه من الغريب أن العلوم الاجتماعية تعامل هذه الأشياء وكأنها لا تمت بصلة للتكنولوجيا • فانهم يناقشون سلوك ودوافع وعلاقات الأفراد بالجماعة والنظم الاجتماعية كالأسرة والكنيسة والحكومة مثلا ، كما لو أن وجودها يعتمد على ثقافة مادية • وأيضا المدرسون فى المدارس التكنولوجية يعلمون تلاميذهم كيف يعملون هذا ويركبون هذا ، وبرغم أن هذه التركيبات ستستعمل بواسطة المجتمع ولها أثرها على الحياة الاجتماعية ، مثل هذه الأمور يبدو أنها لاتعنى رجال التكنولوجيـــا كما لو أن هنـــاك حائطا كبيـــرا بين التكنولوجيـــا والسسيولوجيا •• العلاقة بين التكنولوجيا وعلم الاجتماع من نوعين الأولى الموقف الاجتماعى الذى يؤدى الى ظهور الاختراع واستعماله ، والثانى تأثير استعمال هذا الاختراع على المجتمع) (١) •

ومن الواضح أن التكنولوجيا لا تعمل فى فراغ ، فهى أساليب فى التفكير والعمل نابعة من المجتمع الانسانى لتخدم أغراض هذا التجمع ، بل ان اختلاف حجم المجتمع نفسه يؤدى الى اختلاف الوسائل التكنولوجية المتاحة والتى يمكن أن تتاح والأكثر من ذلك أن وقت الفراغ المتاح للمجتمع فى كبره وصغره يشكل عاملا فى اختلاف أنواع الوسائل التكنولوجية ، بل وما يمكن أن تتاح منها

---

1 — Ogburn : «The Meaning of Technology» Op. Cit., P. 9

ولهذا فأصل العمل التكنولوجى اجتماعى · (ولكن أولئك الذين يتعلمون الصناعة لا يعنون بأصلها الاجتماعى ، ولكن كل عنـايتهم تكون موجهة الى الحصول وتجميع المادة التى تؤدى الى اقامة المصنع دون الاحساس بالحاجة الاجتماعية التى أدت الى انشاء هذا المصنع · وذلك الذى يفكر فى اختراع محرك صغير أو أكثر قوة على العمل أو أقل تكاليف لا يفكر فى السبب الذى دفعه الى التفكير فى هذا الاختراع · فهناك حاجات اجتماعية تدعو للتفكير فى الاختراع وهناك آثار اجتماعية لاستعمال هذا الاختراع) (١) ·

ولقد اختلف علماء الاجتماع حول مدلول اصطلاح التكنولوجيا ، فقصره البعض على الجانب المادى من الثقافة · والآخرون استعملوه بمعنى أوسع فجعلوه ينطبق على كل من جانبى الثقافة المادى واللامادى · فبارنت يستخدم اصطلاح التكنولوجيا لينطبق على الجانب المادى من الثقافة فيقول (عندما يفكر الشخص العادى فى التغيرات التى جلبهـا العلم هـو عادة يفكر فى التكنولوجيا وعجائبها المتعددة) (٢) · وكذلك أوجبرن يستخدم اصطلاح التكنولوجيا فيما يتعلق بالجانب المادى من الثقافة فيقول (التكنولوجيا يمكن أن يختلف فهمها باختلاف النظر اليها ، وعلى أى حال فاننا سنستعمل هـذا الاصطلاح بأوسع معانيه · وأن اضيق تحديد لمعنى الاصطلاح هـو دراسة الأساليب الفنية ، ومع هذا فان التكتيك يشتمل على مدى واسع من الأشـياء المادية · ويمكن اعتباره يشتمل على كل الأشياء التى يمكن اعتبارها الثقافية المادية · وعلى هذا فالتكنولوجيا تكتنف وتحيط بصناعة كثيـــر من الأشياء المختلفة من الأسهم والأقواس والفخار والمحاريث والآلات البخارية والماس والنايلون · ولا ستخدام مفهوم التكنولوجيا بشكل أوسع فاننا نبحث فى علاقة العلم بالتكنولوجيا هل التكنولوجيا تختلف عن العلم الطبيعى ؟ ، فربما يقال أن عمل الآلات يعتمد على تطبيقات العلم ذلك رغم أنه فى بعض الحالات يكون بسيطا كصناعة الفخ عند الصياد البدائى · وعلى هذا فقد تشتمل التكنولوجيا

---

1 — Ibid., P. 10.
2 — Barnett : Op. Cit., P. 7

على العلوم التطبيقية التى تساعد على صناعة الأشياء المادية) (١) · واضح أن أوجبرن رغم أنه يستعمل اصطلاح التكنولوجيا بمعناه الواسع ، الا أن هذا الاتساع عنده لم يتعد عناصر الثقافة المادية ·

ويرفض كثير من العلماء فكرة أن التكنولوجيا تنطبق فقط على العناصر المادية من الثقافة ويذهبون الى اصطلاح التكنولوجيا يقصدون به معنى أوسع من ذلك· ويوضح لندبرج الفرق بين المعنى الضيق والمعنى الواسع للتكنولوجيا بقوله (وبنمو اللغة المكتوبة ، المجال والاتقان الممكن به نقل الخبرات السابقة للنوع الانسانى قد زادا بلا حصر ، الآن أصبح التراكم النامى للخبرات فى شكل المعرفة والخبرات الرمزية الأساس لاختراع ما يسمى بالآلات والأدوات الفوق عضوية · هذا النمو التكنولوجى الواضح ، كنتيجة لقدراتهم الواضحة والمحفزة فى شكل آلات كهربائية وبخارية · هذا الاهتمام بالتكنولوجيا كما حدد بعاليه ضيق ، وعلى العموم له تأثير صحى على العلوم الاجتماعية : فى المكان الأول كان له علاقة أساسية من خلالها ابتدأ علماء الاجتماع رؤية الوحدة لكل العلوم ، وهكذا تدريجيا وطنوا وجهات نظر ومناهج الميادين الأعلى نموا ، وفى المكان الثانى ، دراسة المجتمع من وجهة نظر التكنولوجيا التى أفصحت عن امكان اختراع ميكانزمات اجتماعية يكون لها قدرة متكافئة فى انجاز كثير من التكيفات الاجتماعية المرغوبة · ومن وجهة النظر هذه ، التكنولوجيا تعنى المعرفة لكل الوسائل الفنية لتكيف الانسان أيا كانت ، ومن أبسط تأمل الى استخدام أعظم آلة أو حكومة امبراطورية) (٢) ·

ولقد ابتدأ النمو التكنولوجى بطيئا جدا ، وتقدم أولا بواسطة تفاعلات متبادلة بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والبيئة خلال آلاف السنين · وكانت هذه العملية غير مدركة أولا ، الا أن التراث الاجتماعى ظل يتزايد من جيل الى جيل ويتزايد بسرعة كلما تتزايد عناصر الثقافية · وكنتيجة لهذا التراكم

---

1 — Ogburn : «The Meaning of Technology» P. 8.
2 — Lundberg : «Foundations of Sociology» Op. Cit., P. 505 — 506.

المتزايد السرعة ، تكيف الانسان للبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية وتبدل خلال القرنين الأخيرين تبدلا عظيما ، جذب أنظار عديد من علماء الاجتماع فقاموا بدراسات كثيرة عن النمو التكنولوجى حتى استطاع هذا النوع من الدراسات أن يجعل من نفسه لونا متمايزا · (النمو السريع للآلات لانجاز تكيفات مرغوبة من زمن بعيــد للبيئات الطبيعية والجغرافية ، التأكيد على هذا الوجه فى الكتابات الاجتماعية فى السنين الحالية أصبح واضحا بدرجة كافية لابراز أنها ظاهرة جديدة تماما وان كان واضحا أنها ليست كذلك) (١) · وكذلك يوضح ماكيفر جاذبية دراسات النمو التكنولوجى اذ أن (لها من ناحية أخرى جاذبية وأهمية خاصة لعصرنا اذ يتعلق التغير السريع لمجتمعنا ويعتمد بدرجة ما على النمو لأساليب فنية جديدة ، واختراعات جـديدة وأساليب جـديدة للأنتاج ومستويات للمعيشة جديدة) (٢) ·

ويبدو أن ماجذب علماء الاجتماع الى هذا اللون من الدراسة هو طبيعة موضوع دراسات النمو التكنولوجى ، لما يتميز به من سهولة تناوله نظرا لما تتمتع به العناصر التكنولوجية وخاصة المتعلقــة بالجانب المــادى من الثــقافة من الاستمرار من ناحية وامكان قياسها من ناحية أخرى · ويوضح ماكيفر صعوبة دراســة التغيــر الاجتماعى عامــة ، وخاصة الجانب اللامادى من التفكيــر التكنولوجى اذ (المجتمع يوجد فقط كتتابع زمنى · انه آت وليس كائن ، عملية وليس نتاج · وفى كلمات أخرى ، بمجرد توقف العملية يختفى الانتاج · يبقى انتاج الآلة بعد كسرها ، وتعيش الحفريات أجيالا بالرغم من أن الحياة التى صنعتها زالت · فى كل هذه الأمثلة الانتاج منفصل عن العمليــة ويستمر فى الوجود منفصلا كلية عن القوى التى أعطته شكله ومميزاته · وبدرجة ما نفس الشىء صادق ليس فقط عن الآثار المادية لثقافة الانسان الماضية ، ولكن حتى لمنجزاته الثقافية اللامادية فانها منتجات نقلت للأجيال ، مثل أشعار هومير ، طالما أن الطبيعة الانسانية تحفظ نفس القدرات ، فهى تظل العجلة التى تتصل

---

1 — Ibid., P. 506.
2 — MacIver and Page : Op. Cit., P. 552,

بها الأجيال الماضية بالحاضر · العمليات التى انشأتها قد زالت ، ودامت المنتجات · ولكن نظاما اجتماعيا أو نسقا طبقيا ، هو انتاج يدوم فقط فى العملية التى أنشأته · اذا لم يعد الناس يحافظون على عادة جمعية ، فالعادة الجمعية لا توجد بعد على وجه الأرض · فانه ليس لها جسم يبقى بعد موتها فانها توجد فقط كأسلوب للنشاط منمطة فى عقول أولئك الذين يتبعونها · أسلوب للعلاقات لا يمكن أن يجرد من الحياة التى هو تعبير عنها · لا يمكن وضع بناء اجتماعى فى متحف لحفظه من عوائد الزمن) (١) ·

وفى عبارة أخرى يوضح ماكيفر سهولة دراسة النمو التكنولوجى المادى · ومدى الأمان العلمى الذى يستند اليه الدارس عند دراسته للنمو التكنولوجى المادى · (يبدو الموقف مختلفا عندما نتجه للعوامل التكنولوجية ، اختراع جديد يقوم فجأة وينمو بسرعة · يمكننا رؤية كيف يمهد لتغيرات اجتماعية · يمكننا رؤية كيف انشأ الراديو مستويات مألوفة للحديث أو كيف يعطى المدنية ثقافة جديدة تسود على البلاد ··· وأكثر من ذلك التقدم التكنولوجى يمكن تتبع تأثيره المستمر على فترات طويلة · وفى نفس الوقت ، فانه ثابت وقابل للقياس وقابل للمشاهدة ، ومن ثم فالدراسة لتأثيره على المجتمع يبدو أنها تمنح منظرا أكبر للعقل العلمى ، وطالما يمكننا اقامة علاقة واضحة بين تغيراته والتغيرات الاجتماعية المطابقة نكون على أرضية علمية)(٢) ·

وكذلك يتحدث أوجبرن عن وضوح النمو التكنولوجى ، (اذ تكون النتيجة كبيرة التباين فمن اللاوجود الى الوجود مثل عندما يخلق شىء جديد ، مثل عندما اخترع التليفون أول مرة ، فهناك تباين من لا شىء ، من لا تليفون الى تليفون) (٣) · وكذلك يعقد أوجبرن ونمكوف مقارنة بين دراسة جانبى الثقافة المادية واللامادية ، يوضحان فيها مدى صعوبة دراسة

---

1 — MacIver and Page : Op. Cit., P. 511.
2 — Ibid., P. 552.
3 — Ogburn : «The Technology causes Social change. P. 12.

الجانب اللامادى من الثقافة من ناحية ، ومدى سهولة تناول الموضوع من ناحية الثقافة المادية ، والدقة العلمية التى يمكن أن تتاح عند دراسة تغير الثقافة من ناحية التغير التكنولوجى · بل يذهبان الى أبعد من ذلك الى حد القول بأنه يمكن تتابع أطوار الثقافة عن طريق دراسة التغير التكنولوجى المادى ، بل عندهما تعتبر هذه الوسيلة أفضل الطرق لدراسة التغير فى الأجزاء الأخرى من الثقافة · اذ أن (الثقافات المادية هى أكثر سهولة من ناحية التصنيف فى سلسلة من المراحل المبكرة الى المتأخرة عن التنظيمات الاجتماعية · فجماعى الغذاء بالمعدات الخشبية والحجرية ولكن دون اعتماد كبير على صيد الحيوانات المتوحشة ، لا بد أن يكون دائما مبكرا جدا · ثم بعد ذلك أتت تخمينا ، مهارة أكثر فى صنع الأسلحة ، مما يؤدى الى قدرة أكثرعلى الصيد والقنص · فالتطور فى الوسائل الفنية للصيد ، والتأخير فى نمو الفلاحة تمكن من التصنيف للمجتمعات الممتدة من ثقافات الصيد البسيط الى المعقد · ابتدأت الزراعة بعصا الحفر ، ومؤخرا أتت الى استعمال المحراث ، يصاحبه استئناس الحيوانات · وبعد ذلك أتى البخار والبترول والكهرباء ، مثل هذه السلسلة معقولة بسبب الميل فى أن تحل آلة متفوقة محل آلة ناقصة · فالتفوق لأداة ميكانيكية جديدة هى أكثر قابلية للتحديد عن تفوق ديانة جديدة أو أساطير جديدة · اذ أن تفوق أداة تكنولوجية يقوم على اختبار بسيط هو عما سوف تفعله فى المنجزات الطبيعية ، ذلك يمكن اظهاره وتوضيحه بسهولة · ولكن تفوق تنظيم اجتماعى هو بصفة عامة لا يمكن تحديده بمثل هذا الاختبار السهل البسيط فانه يقوم ، بدلا من ذلك على عدد من العوامل ، وخاصة فى روابطه مع النظم الاجتماعية الأخرى · وتطوير آلة لا يعتمد الى هذا الحد على علاقتها مع بعض التنظيمات الاجتماعية · ويعتمد صناعة آلة جديدة على المعرفة الموجودة عن الآلات · كما أنه فى حالة المخترعات الميكانيكية ، الاعتماد على ما قد ذهب هو أكثر قابلية للمشاهدة عنه فى حالة اختراع فى نسق القرابة أو فى نمط للقيادة · ومن ثم فهناك منطق أو أسبقية آلية فى الثقافة المادية سواء كان هناك أسبقية معاصرة أولا ··· وبما أن التتابع فى الثقافة المادية هو جزئيا مسألة

تسجيل ، وجزئيا قابل للاستخراج ، ولهذا من الممكن الاستفادة من هـذه الحقيقة فى تصنيف النظم • فليس للأجزاء الأخرى من الثقافة تتابع تاريخى ممكن مشـاهدته ، أو حيث التتـابع يمـكن استخراجه فقط فى مصطلحات فضفاضة جدا • وهكذا أصبحت الثقافة المادية مستوى للمقارنة أو مصطلح للرجوع اليه) (١) •

وأيضا مالفت أنظار علماء الاجتماع هو النمـو السريع فى مجـال التكنولوجيا • (فشهرتها فى الوقت الحاضر ، راجعـة الى سرعتها المقارنة لنموها فى حقول معينة) (٢) • ويبـدو أن ذلك راجـع لطبيعة التكنولوجيا نفسها فهى لها قدرة فائقة على التراكم السريع مما يؤدى الى تغيرات واضحة وبعيدة الأثر • فمن المنابع (للتغيرات الاجتماعية ، التغير الدائم والنمـو المستمر فى الوسائل الفنية • ومن أهم المميزات فى النظام الصناعى هـى الاختراع المتواصل للآلات الجديدة • أو عمليات طبيعية أو كيميائية جديدة • هذا النمو المستمر يجعل الصناعة كنظام للانتاج يتميز عن النظم الانتـاجية الأخرى • وبدون شك من أهم العوامل التى تدفع بهذا النمو قدما ينبع مـن رغبة الادارة فى الربح ، ولكن أيضا يبدو أن التكنولوجيا تنمو أيضا عـن طريق عملية داخلية ذلك أن الاختراع الجديد يؤدى الى اختراع آخر ، ومبدأ جديد فى الادارة يؤدى الى مبدأ آخر ، واختراع طرق كيميائية جديدة تؤدى الى انتاج جديد • وأكثر من هذا فبالرغم من أن التقدم التكنولوجى يسير بخطى واسعة من زمن بعيد فليس هناك ما يدل على أنه قد أبطأ بل بالعكس فالعالم على أبواب فتح عظيم جديد وهو استخدام الطاقة الذرية فى ميادين الصناعة المختلفة • ويرتبط النمو التكنولوجى بنمو العلوم ، ونمو العلوم لا يبدو أن له حدودا) (٣) •

ويبدو أن تلك الظاهرة هى التى جعلت أوجبرن يقرر أنه (من الملاحظ ، وأن كانت ملاحظتنا غير قائمة على أساس احصائى توضـح لنا أن التغير

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., PP. 490 — 491.
2 — Lundberg : «Foundations of Sociology» Op. Cit., P. 506.
3 — Schnieder, Eugene V. : «Industrial Sociology» McGraw-Hill Book Com. Inc. N.Y., 1976. P. 488.

السريع فى الوقت الحاضر فى الجانب المادى من الثقافة ، وفى العلوم أيضا . ولكن هذا التغير أقل سرعة فى القطاعات الأخرى من الثقافة اللامادية . فالتغير سريع وواضح فى جانب الثقافة المادى وهو أقل سرعة وأكثر بطأ فى القطاع اللامادى من الثقافة . وكذلك يبدو أيضا أن عمليات التجمع فى الوقت الحاضر أكثر نشاطا وسرعة فى العلوم الطبيعية وفى الجانب المادى من الثقافة وهى التى تعرف بعمليات الانتاج واستخدامه ـ وهكذا يبدو لنا أيضا أن الجزء المادى من الثقافة والعلم الطبيعى ، أنهما أكثر سرعة فى نموهما من الجانب اللامادى . اذا نحن تحققنا ولو فى الخيال من العلاقة الوظيفية بين الأجزاء المختلفة للثقافة ومعدل التغير الاجتماعى مستقبلا ربما تنبئنا بزيادة التغير فى الثقافة المادية) (١) .

وتهتم دراسات التغير التكنولوجى بالتغير فى العناصر التكنولوجية اذ أن التحول من حالة الثقافة التى تسودها الفنون الزراعية والرعوية الى المرحلة الصناعية للحضارة التى مارسناها فى الأربع قرون الأخيرة (هذا التحول حدث كنتيجة لاكتشاف منابع جديدة للطاقة فى شكل الفحم وأخيرا فى شكل الزيت والجاز كوقود للبخار وآلة الاحتراق الداخلى فالنتائج كانت أكثر وضوحا عن الثورة الزراعية . فلقد كان هناك زيادة عظيمة فى السكان ، ووحدات سياسية أكبر ، ونمت مدن أكبر ، والثروة بالرأس زادت زيادة عظيمة . وربما ما هو أكثر أهميةكان نمو الفنون والعلوم) (٢) .

هذه التغيرات المصاحبة للنمو التكنولوجى هى التى استرعت انتباه علماء الاجتماع ومن ثم كرسوا جهودهم لدراسة العلاقة بين هذا النمو التكنولوجى وآثاره الاجتماعية . وكان طبيعيا أن تكون المشكلة الأولى هى ما اذا كانت هناك علاقات علية بين النمو التكنولوجى وبين التغيرات المصاحبة له . وقد توفر أوجبرن على اثبات العلاقة العلية بين التكنولوجيا والمجتمع (بمعنى أن تغيرات فى التكنولوجيا تسبب تغيرا فى بعض النظم أو العادات.

---

1 — Ogburn : «Social change» Encyclo. P. 332.

2 — Lundberg : «Sociology» Op. Cit., P. 698.

فاختراع القيام الذاتى للسيارة يقال أنه المسئول عن قيادة المرأة للسيارات ، لقد كان من الصعب لامرأة أن تخرج من السيارة وتديرها · التغير فى هذا الميكانزم أدى الى تغير فى عادات النساء فيما يختص بالمحرك والحياة المنزلية ورعاية الاطفال واستعمال الفنادق) (١) ·

ولما كانت أجزاء الثقافة شديدة التشابك والترابط ، فان أى تغير فى أى جزء منها يحدث تغيرات فى الأجزاء الأخرى من الثقافة ، ومن ثم (فعندما يكون لاختراع تأثير على بعض النظم أو العادات ، لا يتوقف التأثير هناك ، ولكنه يستمر على التوالى كل تأثير يتبع السالف مثل الحلقات فى سلسلة) (٢) · فكثير من التعديلات الكبيرة الحديثة فى المكانات والأدوار قد تبعت التجديدات على المستوى التكنولوجى · والنمو التكنولوجى هو جزء معروف فى الصناعة الحديثة · وآلاف من العلماء يعدون تطبيقات جديدة للعلم الخالص ، وتحدث التغيرات على هذا المستوى يوميا ، وآثارها المتجمعة على السلوك الانسانى لا يمكن التنبؤ بها · (فالصناعة توجد فى مجتمع وهى والمجتمع فى حالة تأثير متبادل مستمر ، ومن السهل رؤية التأثير المتبادل بين المجتمع والصناعة · فالصناعة يدخلها اناس لهم شخصياتهم واتجاهاتهم فيؤثرون فيها ، وكذلك الصناعة تزود المجتمع برجال ونساء قد تأثروا بالعمل فيها ومن خلال تأثرهم هذا تؤثر الصناعة فى النظم الاجتماعية المختلفة · والصناعة والمجتمع يؤثر كل منهما فى الآخر عن طريق مباشر ، فالصناعة تعكس صفات ومميزات المجتمع التى توجد فيه سواء من الناحية المرفولوجية من حيث المواصلات ومن حيث موقعها على نهر أو على خطوط سكك حديدية ، أو من الناحية الفزيولوجية أى من حيث اتجاه المجتمع نحو العمل والادارة والعمال · والمجتمع بدوره وكثير من نظمه يشعر بتأثير الصناعة فيه عن طريق مباشر ، فقيام دوريات عمل مسائية تجعل الزوج والأب يبيت خارج المنزل مما يشكل أثرا خاصا على النظام الأسرى من حيث العلاقات بين الزوج وزوجته وبين الأب وأبنائه · وكذلك أى تغير تكنولوجى أو تغيرات تنظيمية

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P.563.
2 — Ibid., P. 568.

ربما تغير وتعيد ترتيب نظام الطبقات الاجتماعية ، وربما تغير النظام الأساسى لطبيعـة التركيب السكانى ، وقد يؤدى تغير ما فى الصناعة الى اذابـة مجتمع او نقله الى مكان بعيد اذا انتقلت اليه الصناعة) (١) ٠

وغنى عن البيان انه اذا كان تغير تكنولوجى واحد يحدث سلسلة مـن الآثار الاجتماعية ، فان الصناعة كتجمع تكنولوجى ضخم اذا دخلت مجتمعا قرويا ، فمعنى ذلك تحول عن الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى ، والحياة الاجتماعية الريفية البسـيطة بكل سـماتها المترابطة تعطى مكانها للتحضر العالى ، وهكذا فالتغير من الزراعة الى الصناعة ليس مجرد تغير اقتصادى ولكنه يتضمن تغيـــرا ثقافيا ضخما ، فهـذا التغيـــر الشـديد الجارى فى البناء الاقتصادى لابد أن يكون له اثره على الأنماط الاجتماعية فى المجتمع القروى ٠ ومن أهم المشاكل الأساسية التى تتضمنها عملية ادخال هذا التجمع التكنولوجى دفعة واحـدة ، هى عملية عدم الاستمرار والدوام فى البناء الاجتماعى للقرية ، ومعنى هذا فقد أشكال المعتقدات المتوارثة التى تعطى الأمان ٠ وهكذا تتاثر الروابط الأسرية ونظام الطبقات وهى أعظم وأهم النظم الاجتماعية وخاصة فى القرية ٠

وفى الحقيقة أن التغير التكنولوجى جعل (الاتجاهات والمعتقدات ، التى ظن سابقا انها التعبير الذاتى لجوهر الطبيعة الانسانية قد تحطم أمـام تقدمها ٠ الملكية والترتيب الالهى للطبقات الاجتماعية ، وروح زمالة الحرفة والتقاليد الخاصة بمجـالات الجنس ، والنظـرة الى الدين والى السـياسة والحرب قد شـعرت بالهـزة ٠ العمـلية مبتدئة بالتغير الخـارجى ومنتهية بالاستجابة الاجتماعية ، من السهل متابعتها وفهمها ٠ خـذ مثلا التغيرات العميقة التى حدثت فى الحياة الاجتماعية ومكانة المراة فى العصر الصناعى٠ فالتصنيع حطم النسق العائلى للانتاج ، واتى بالمراة من المنزل الى المصنع

---

1 — Schneider : Op. Cit., P. 353 — 354.

والمكتب ، وفرقت أشغالهن وميزت مكاسبهن · هنا البيئة الجديدة ، والحياة الاجتماعية الجديدة للمرأة هى الاستجابة) (١) ·

اذا كان التغير التكنولوجى له مثل هذه الآثار الاجتماعية المتشابكة والعميقة ، فهل هناك اتجاه عام يتحرك فيه المجتمع فى ظل الوطأة المستمرة للتغير التكنولوجى · ويحدد ماكيفر هذا الاتجاه بالتخصص ، ويشرح هذه العملية (بأن التكنولوجيا نفسها تميل فى نفس الاتجاه مكتسبة كفاءة أعظم فى اتمام كل من الوظائف المختلفة التى تطبق وتستخدم فيها اختراعاتها · وفى فعلها ذلك فانها تخصص الوظائف أكثر فاكثر ، ومن ثم تميل لانشاء تقسيم للعمل متزايد جدا ، ومهما كانت النتائج الاجتماعية المترتبة عليها · الأهمية الاجتماعية لهذا التقسيم للعمل النامى قد أعطاه دور كيم معالجة كلاسيكية) (٢) ·

والحقيقة أن دور كيم قد انشأ نظرية كاملة علىأساس التغير التكنولوجى وما ادى اليه من تزايد تقسيم العمل ، فلقد عرف دور كيم تقسيم العمل كمغير هام فى تحديد صفة المجتمع · وقد عامل تقسيم العمل على أساس انه مغير مقيد من جهة وطليق من جهة أخرى · ففى تحليله الأول حاول أن يبحث فى أثر تقسيم العمل على المجتمع · ويبتدىء تقسيم العمل من أبسط أنواعه عند الأمم البدائية الى التقسيم الشديد فى المجتمعات الصناعية · فتقسيم العمل ازداد مع الزمن · وهذا اتجاه تاريخى يمكن ملاحظته فى المجتمعات مع تقدم التكنولوجيا · عندما اصبح تقسيم العمل كبيرا لوحظت تغيرات واسعة فى السلوك البشرى ، ويقول دور كيم انه عندما اصبح تقسيم العمل عظيما جدا قدم لنا تماسكا عضويا مع التغيرات التالية ، نقص فى المعتقدات وزيادة فى الحرية الفردية وزيادة فى قوانين التعاقد والعلاقات على أساس من الاتفاق الحر بين الشركاء ، وجماعة ذات وحدة متماسكة على أساس من عدم الاكتفاء الذاتى لعدم تجانس الأفراد أدى الى تقسيم العمل ، فكل واحد فى حاجة الى

---

1 — MacIver and page : Op. Cit., P. 553.
2 — Ibid., P. 557.

الآخر ، ولا يمكن وجوده بدون تعاون ، لأن كل فرد يعمل جزءا خاصا من العمل ، وهكذا تحول التماسك الآلى الى تماسك عضوى • وأصبحت الوظيفة السياسية أكثر تخصصا ، وزادت العلاقات التعاقدية بين الأفراد والدولة • وتميز التنظيم الاقتصادى للمجتمع بالملكية الفردية والاقتصاد الفردى والتعاقد التعاونى ونظام الباب المفتوح الذى يسمح لأى فرد بأن يقـــوم بأى عمل • وتضاءل الحب القبلى والتعصب وزاد الاتجاه نحو العالمية) (١) •

وهكذا التحولات السريعة لحضارتنا الصناعية التى تميزت بالتجمع الضخم والمتزايد السرعة فى التكنولوجيا لم يتبعها فقط تغيرات اجتماعية بعيدة المدى شديدة الأثر ، ولكن كثيرا من هذه التغيرات الاجتماعية (بدت وكأنها اما تطابقات ضرورية أو استجابة ملائمة لعالم الماكينة • فى الفئة الأولى يأتى التخصص العالى لكل الأعمال ، والوقت المضبـوط المقاد للعمل النمطى ، وتزايد السرعة للرتم العام للحيـاة ، والتركيز والتكثيف للمنافسة واهمال الحرفيين المسنين ، والنمو من ناحية للفنيين ومن ناحية أخرى لعمل الماكينة واتساع الحدود الاقتصادية والشبه معقدة والممتدة للضبط السياسى • وفى الفئة التالية ، ربما تشتمل على مختلف المصاحبات لمستويات المعيشة الأعلى وتبدل بناء ومستويات الطبقات ، ودفن الطرائق الشعبية والمحلية ، وتفكك الجوار وتحطيم نسق العائلة القديم ، وزيادة سيادة الأساليب الحضرية على أساليب القرى ، والتنظيمات الصناعية وخاصة منظمات العمال) (٢) •

---

1 — Durkhime : «Division of Labour»

2 — Malver and page : Op. Cit., PP. 553 — 554.

التخلف الثقافى : CULTURE LAG

وان كان يبدو أن هناك شبه اجماع بين علماء الاجتماع على أن النمو التكنولوجى يتجه الى زيادة تقسيم العمـل على حد تعبير دوركيم ، أو الى زيادة التخصص على حد تعبير ماكيفر ، الا أنهم اختلفوا اختلافا شديدا حول أى النظم الاجتماعية ، أو أى من وجوه الثقافة ، أسبق تأثرا ، أو بمعنى آخر حاولوا اقامة ترتيب معين لتاثير التغير التكنولوجى فى الأجزاء المتخلفة للبناء الاجتماعى ٠

وحول هذا الموضوع أنشأ أوجبرن نظرية عن التخلف الثقافى التى جذبت انتباه علماء الاجتماع من ناحية ، ومن ناحية أخرى دارت حولها دراسات عديدة ، اختلفوا فيها حول مدلول التخلف وأسبابه وحاول كل تفسيره خلال النظرية الاجتماعية التى أنشأها أو يفضلها ٠

وتتلخص فكرة أوجبرن منشىء نظـرية التخلف الثقافى فى أن شطرى الثقافة المادى واللامادى تختلف سرعة استجابتهما للتغيـر التكنولوجى ٠ وهو يعبر عن فكرته بقوله (واضح أن الظروف الاجتماعية تمهد للاختراعات الميكانيكية ، وأيضـا الاختراعات الميكانيكيـة تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية ٠ ولكن من المرغوب فيه معرفة أى النتائج أكثر عموميـة ٠ لم يحدث تقييما شاملا فى هـذه النقطة ٠ ولكن فى الوقت الحاضر فى العالم الحديث يبدو أنه أسهل وجود بيانات عن تكنولوجيا تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية ، ومن ثم نحن نميل لتفضيل الفرض القائل بأن التتابع التكنولوجى يسبب التغيرات الاجتماعية) (١) ٠

(ومن أجل هذا الفرض يصنف التراث الاجتماعى الى مادى ٠ وهـو عمليات الانتاج واستخدامه ، ولا مادى وهو يتضمن التنظيم الاجتماعى فى العلوم والفن والفلسفة والموسيقى والرسم والأدب والدين والأخلاق والعادات والأشياء المحبوبة والنحت ، ومهما كان فالملاحظة غير القائمة على الاحصائيات تظهر أن أسرع أنواع التغير فى هذا الوقت فى الجزء المادى من الثقافة وفى

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 577.

العلوم ، وأقل سرعة وأقل تغيرا فى القطاعات اللامادية . وكذلك يبدو أن تراكم العمليات فى الوقت الحاضر أكثر نشاطا فى العلوم الطبيعية وفى الثقافة المادية ، وهكذا يبدو أن الجزء المادى والعلمى من الثقافة يتسع وينمو أسرع من الجزء اللامادى) (١) . (أى أن هناك معدلا غير متساو للتغير فى وجوه الثقافة ، اذ أن الثقافة المستقرة التى تبتدىء فى التغير لا تمارس نفس الدرجة فى كل أجزائها فى نفس الوقت ... فى أجزاء ثقافتنا درجات التغير ليست متساوية . التغيرات التكنولوجية فى الكيمياء والكهرباء هى الآن سريعة جدا اكثر منها فى التغيرات فى انتاج القوة وفى بناء الصناعة . وتميل القوانين للتغيير ببطء أكثر ، بينما المحاكم باستعمالها للسابقة فى تقرير الحالات جعلت القوانين أكثر مقاومة للتغير .. أجزاء الحضارة تتحرك الى الأمام أو الوراء ، بسرعات مختلفة ، حقا انه من الصعب نظريا تصور ثقافة ما حيث مختلف الأجزاء تتغير كلها بنفس المعدل ، فاذا كانت مختلف اجزاء الكائن الاجتماعى منفصلة ، وليست متعلقة كل بالأخرى تماما ، سوف لا يكون هناك اهتمام خاص بالمعدلات المختلفة للسرعة لمختلف الأجزاء . مثلا الأوبرا ليست متعلقة بشدة بميكنة ثقافة القطن . ومن ثم يمكن لتغير ما أن يحدث فى أى منهما دون أن يؤثر فى الأخرى كثيرا . ومن ناحية أخرى ، تربية الأطفال متعلقة جدا بتشغيل المرأة فى الصناعة ، ومن ثم فأى تغير فى أحدهما سوف يؤثر فى الآخر . اذن ، اذا لم تكن أجزاء الكائن الاجتماعى منفصلة كلية ولكنها مترابطة عن قرب ، فان المعدل غير المتساوى للتغير يكون له أهمية قصوى . واذا كان جزء يتغير بسرعة ، وجزء مرتبط به يتغير ببطء يحتمل جدا نشأة توترات بين الجزئين المتحركين بلا تساو . تلك سوف تكون الحالة بالتأكيد اذا كانا من قبل فى توازن منسجم ... التوترات التى توجد بين جزئين مترابطين من ثقافة تتغير بمعدل غير متساو من السرعة ربما يمكن تفسيرها كتخلف فى الجزء الذى يتغير بالمعدل الأبطأ) (٢) .

أى أن أوجبرن ونمكوف يقصدان بالتخلف الثقافى موقفا من سوء التكيف ، بمعنى أنه حدث تغير فى عنصر ثقافى مادى وأن العنصر الثقافى

1 — Ogburn : «Social change» Encyclopidia P. 331.
2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., PP. 591 — 592.

اللامادى لم يغير من تكيفه القديم للعنصر الأول ، ومن ثم يصبح تكيفه أسوأ .
ومن ناحية أخرى أن هناك تناسبا طرديا بين سوء التكيف وبين شدة الترابط
بين العنصرين المتغير الأصلى أو الأول وهو عندهما تكنولوجى والمتغير الأبطأ
وهو عندهما اجتماعى ، بمعنى أنه كلما كان الترابط شديدا كلما ازداد موقف
سوء التكيف • (والتكيف تبعا لبيئة متغيرة صعب جدا لعدة أسباب ، أولها
أن تغير البيئة التكنولوجية من الصعب التنبؤ به وعادة بل ومن النادر أن
يكون قد عمل له أى استعداد • فمثلا السيارة عند اختراعها ، ظن أنها ليست
عملية ولم يلتفت اليها أحد • وانه عند اختراع الطيارة لم يكن يتصور أنها
ستجعل من المدن الآهلة بالسكان هدفا طيبا للطيارة قاذفة القنابل • (هناك
اذن تخلف فى التكيف للتغيرات التكنولوجية الجديدة ، وفى هذه الفترات من
التخلف يكون تكيف الانسان أسوأ منه قبل حدوث التغير التكنولوجى) (١) •
(وفى الواقع ، تخلف التغيرات الاجتماعية وراء التقدم التكنولوجى هى ببساطة
حالة خاصة للظاهرة العامة للمعدلات غير المتساوية للتغير فى الأجزاء
المترابطة من الثقافة) (٢) •

ويبدو أن أوجبرن ونمكوف كان يسيطر على تفكيرهما بيئتها الأمريكية
ذات الثقافة اللامادية المستقرة نسبيا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تمتاز
بسرعة التغيرات التكنولوجية وندرة الاختراعات الاجتماعية ، حتى أنهما
انتهيا الى أن العلم والتكنولوجيا ، أحد ، وأهم عوامل الاضطراب الاجتماعى
فيقولا (ان العلم والتكنولوجيا ولو أنهما ياتيان بمواد ثقافية أكثر كفاءة ،
ومعرفة أكثر ، ومستوى معيشة أعلى ، فانها تنتج اضطرابا اجتماعيا) (٣) •
وان كان عقليهما العلمى فى بعض الأحيان يدفعهما الى التحدث عن
الاختراعات الاجتماعية وقدراتها على احداث مثل هذا التخلف ، الا أنهما
كانا ما يلبثان أن يعودا مرة ثانية الى التأكيد على أن التكنولوجيا هى العامل
الأول فى التخلف الثقافى • فمثلا يقولان (التجديدات قد تكون فى الثقافة
المادية أو اللامادية • الحرب ، اختراع اجتماعى يمكن أن يسبب اضطرابا

1 — Ogburn «The meaning of Technology» Op. Cit., P. 8.
2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 597.
3 — Ibid., P. 597.

عظيما فى التغيرات التكنولوجية ، ولكن اعطى انتباها خاصا للتكنولوجيا فقط بسبب مكانها المهم فى الحياة الحديثة • العدد الكبير للاختراعات المهمة الآتية الواحدة تلو الأخرى فى الزمن الحاضر والتى تسبب تلك التغيرات الاجتماعية الواسعة تجعل من التكنولوجيا سببا خاصا وهاما للاضطراب الاجتماعى) (١)•

وهكذا كانت البيئة الأمريكية ذات التغير التكنولوجى السريع سواء على الأمريكين أنفسهم أو على الجماعات المحيطة بهم مثل الهنود الحمر أو نيومكسكو التى عملت عليهم دراسات عن وطأة التغير الناتج عن استخدام مواد الثقافة اللامادية أى التكنولوجيا الأمريكية ، كل هذا جعل أوجبرن ونمكوف يؤكدان دائما أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثقافى ، ولو أنهما نظرا بعد الحرب العالمية الثانية الى خارج الولايات المتحدة ، وامتد بصرهما الى آسيا (الصين والهند وباكستان وأندونسيا وماليزيا والعراق وسوريا) ودول أفريقيا (مصر والجزائر ودول شرق وغرب ووسط أفريقيا) لتبين لأوجبرن ونمكوف أن الحركات الاجتماعية التى جرت على أرض هذه المجتمعات أتت باختراعات اجتماعية أدت الى تغيرات جذرية فى بنائها الاجتماعى ، ومن ثم أصبحت هى العامل الأول فى التغير الاجتماعى ، بينما فى كل هذه البلاد وسائل الانتاج الحديث (التكنولوجيا الحديثة) والعلم التطبيقى الحديث الذى حرمهم منها الاستعمار طويلا ، قد جلبا الى تلك المجتمعات ليلحقا بخطوات التغيرات الاجتماعية فى الجانب اللامادى من الثقافة • وهكذا تعتبر هذه المجتمعات التخلف الثقافى فيها تكنولوجيا وليس ماديا •

ولكن بارنز Barnes فى دراسته عن التخلف الثقافى لم يقف عند حد المجتمع الأمريكى ، وما يحيط به من جماعات ، مثلما فعل أوجبرن ونمكوف ، بل وسع نظريته حتى شملت تاريخ الانسانية ، وقدم دراسة تطورية ممتعة عن التخلف الثقافى مستخدما المنهج التاريخى ، وبذلك استطاع أن يعرض الوانا من التخلف الثقافى التى كابدت وطأتها المجتمعات الانسانية ، مرة تظهر تخلفا تكنولوجيا وأخرى تخلفا اجتماعيا ، وثالثة يكون هناك توازن وانسجام بين كل من وجهى الثقافة • (فخلال معظم تاريخ الانسانية ، كان التفكير الاجتماعى

---

1 — Ibid., P. 597.

والنظم الاجتماعية متلائمين مع علم التكنولوجيا الذى كان موجودا فى أى عصر . فقط فى حالة اليونان والرومان وعصرنا كان هناك مثل هذا التخلف بين الآلات والنظم الاجتماعية . فى الفترة الكلاسيكية ، وخاصة بين يونانى أثينا والاسكندرية ، النظم الاجتماعية والفلسفة تقدمت أكثر بكثير من العلم والآلية ، بينما آليتنا هى سابقة لحاضرنا الى ما لا نهاية . فشل الرومان واليونان فى تحسين العلم والمخترعات حتى تحافظ على المسافة مع نظمهم الاجتماعية ، كان السبب الأكبر فى أزمة الحضارة الكلاسيكية) (١) . واضح أنه فى هذه الفقرة يشير الى أن هناك عصورا كان هناك مواءمة وانسجام بين كل من عناصر الثقافة المادية واللامادية ، ويبدو أنه يشير الى عصور ما قبل الحضارة اليونانية والرومانية ، تلك الحضارتين اللتين تميزتا بتخلف تكنولوجى .

ثم يعرض بارنز مرة ثانية نوعا من التخلف التكنولوجى الذى كان يصاحب التطور الاجتماعى العظيم ، الذى حدث فى مطلع العصر الحديث ، فى النظم الاجتماعية . (ففى مطلع العصر الحديث كان هناك دفعا أكثر للتغيرات فى النظم الاجتماعية ولأنماط جديدة من التفكير الاجتماعى أكثر مما كان يتقدم العلم والاختراع بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠ . عندما أتت نهاية العصور الوسطى ، وابتدات الأزمنة الحديثة ، هذه التغيرات كانت أصلا هى نتاج الطبقة المتوسطة ، فلقد أنكرت تلك الطبقة معظم أنماط النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى للعصور الوسطى . ولقد ساعدت الدولة وحولتها من المطلقة الى النيابية . ولقد نمت أفكار القانون الطبيعى التى وضعت الفقه والقانون وراء حماية الملكية ... وبهذا الأسلوب التأثير الاجتماعى الذى بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠ كان يشجع بقوة تحول وتغيير النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى) (٢) . وفى هذه الفترة يعرض لنا بارنز تغيرات اجتماعية واسعة فاقت التغير التكنولوجى فى هذا العصر ، أى أنه كان هناك تخلفا تكنولوجيا .

ثم يعرض بعد ذلك بارنز التخلف الثقافى اللامادى فى القرنين التاسع عشر والعشرين عندما (ابتدات الاتجاهات الثقافية والنظامية للعصر الحديث

---

1 — Barnes : «Social Institutions» Op. Cit., P. 55
2 — Ibid., P. 55

عند الكل ، تؤيد وتشجع النمو فى كل العلوم الطبيعية والاختراعات التكنولوجية ، ولقد أصبح مفهوما أن العلوم تحمى وتثرى الحياة الانسانية . وتزيد من احتمالات الربح المالى فى الأعمال وفى تشغيل العمال طبقا لنظام الربح والراسمالية ... ولهذا الطبقات المالية ورجال الأعمال القوا بكل قوتهم الهائلة فى المحافظة على الأشياء كما هى فى حياة النظم الاجتماعية . تلك ما فعلوه ، وفى نفس الوقت أصبحوا أشد اعجابا بأسلوب التقدم فى العلوم والتكنولوجيا . ولهذا منذ سنة ١٨٠٠ الى الوقت الحاضر ، الجماعات الاقتصادية السائدة فى المجتمعات الحديثة مالوا الى مقاومة التغيرات الاجتماعية والنظم الاجتماعية ، بينما فى نفس الوقت شجعوا التقدم فى العلوم والتكنولوجيا ، وذلك هو السبب الأكبر لهذه الحالة الغريبة والمنذرة بالخطر التى نواجهها اليوم ، وأكثرها أهمية عدم توازى تكنولوجيا وعلوم اليوم . وميراث من النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى زمنة فى معظم الأجزاء منذ حوالى سنة ١٨٠٠ أو قبل ذلك . فالظروف فى عالمنا الحديث ، منذ أكثر من قرن قد عملت على تقدم عظيم فى العلوم والتكنولوجيا ، وثباتا فى النظم الاجتماعية(١)) . وهكذا يعرض بارنز لونا من التغير التكنولوجى الواسع المدى فى مقابل بطء شديد فى النظم الاجتماعية مما جعل العالم الغربى الراسمالى يعيش فى ظل وطأة شديدة من التخلف الثقافى اللامادى على حد قوله .

ومن ناحية أخرى يعرض بارنز المشكلة من وجهة نظر علم الاجتماع السياسى أو بمعنى آخر من وجهة معتقداته أو أفكاره عن التنظيم الاجتماعى . فهو يبدو على عكس أوجبرن ونمكوف المتأثران ببيئتهما الأمريكية فارجعا وطأة التخلف الثقافى الى مجرد سرعة التغير التكنولوجى وموقف سوء التكيف الناجم عن التخلف فى متابعة التغيرات التكنولوجية . ومن ناحية أخرى يميلان الى الاصلاح بادخال تعديلات أو مواءمات لعملية التغير التكنولوجى لتحسين التكيف اذ عندهما (كلمة التخلف تتضمن أن السبيل الأحسن للعمل هو اخراج التخلف فى المتغير الذى لم يتغير أو الذى يتغير ببطء أكثر ، حتى يكون فى

1 — Barnes : Op. Cit., P.P. 54 — 55.

تكيف أحسن مع المتغير الذى يتغير) (١) · (وبعد ازالة التخلف فى أحـــد المتغيرين واقامة تكيف آخر نفس الصعوبة فى التقدير تنشـــأ بالنسبة للقيم بمعنى ، لأى الشيئين التكيف أحسن عن الموقف السابق) (٢) · (اذ أن عندهما لا يتفق كل الأشخاص على أى الجزئين من الثقافة يكون حسن التكيف) (٣) ·

ولكن بارنز يبدو واضحا جليا فى مهاجمته العنيفة للنظـم الاجتماعية الموروثة منذ أكثر من قرنين فى قوله (استحدثت الطبقة المتوسطة بالتحامها مع وزراء البروتستانت ، والنظام الرأسمالى ، تفضيل ومدح الربح المالى ، ولقد أخذت دورا نشيطا فى الاستعمار وفى خلق الامبريالية الحديثة وأنشأت نمطا ملائماً من نظرية سياسية واقتصادية لتبرر النظام البرجوازى الجديد ، وأوجدت فلسفة الحرية السياسية لتبرير الثورة ضد امتيازات الارستقراطية ، ودافعت عن بروز الحريات المدنية مثل حرية الكلام والطباعة والاجتماع والدين وما شابه ذلك · وفى الاقتصاد عظمت ومجدت حرية التجارة ، واعفاء وحصانة الأعمال والتجارة من التنظيمات الحكومية الواسعة · معظم هذه التجديدات فى فلسفة السياسة والاقتصاد قد نفذت عند نهاية القرن الثامن عشر · وهكذا مال هذا النسق بعد ذلك لتركيز المقاومة للتغير) (٤) ·

وتتضح نظرته للتخلف الثقافى من وجهة نظر مقاومة أصحاب المصالح المكتسبة فى قوله (التناقض الموجود بين عالمنا العلمى والتكنولوجى وبين نظمنا الاجتماعية وتفكيرنا الاجتماعى ذو أهمية قصوى فى أى عمل لفهم الأزمات فى النظم الاجتماعية والمشاكل الاجتماعية فى عصرنا · فالمشاكل الاجتماعية دون استثناء هى ابراز للهوة بين التكنولوجيا والنظم الاجتماعية · فبينما يتعذب الملايين يطلبون النجدة من سوء التغذية وسوء الاسكان ، تدفع الحـكومة للفلاحين ليحرثوا تحت القمح والقطن حتى يمكننا أن نحصل على الأقل من الأكل والملبس ، ويعيش ملايين على حد الكفاف فى الوقت الذى فيه المصانع والمزارع اذا استعملت جيدا تخرج مقدارا عظيما من الأكل والسلع · قدراتنا

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 595.
2 — Ibid., P. 595.
3 — Ibid., P. 594.
4 — Barnes : Op. Cit., P. 55.

الانتاجية مناسبة لاعطائنا كل ما نحتاجه فى مجال الطلبات الانسانية • ولكن عملية التوزيع فى المجتمع لا تمتلك شيئا مثل التسهيلات المتاحة لوضع السلع تحت أمر المستهلكين ، التناقض يمكن شرحه بسهولة ، الجانب الانتاجى من حياتنا الاقتصادية يقوم أساسا على العلوم والآلية فهو نسبيا حديث جدا وكفء ، بينما الأفكار والخبرات التى تدير التوزيع والاستهلاك هى بالعكس ، اظهارا وانعكاسا لحياة نظمنا الاجتماعية والتفكير الاجتماعى هو المتأخر جدا وغير كفء(١) •

وهكذا بينما يتأثر أوجبرن ونمكوف بالبيئة الأمريكية المتميزة بسرعة التغيرات التكنولوجية والبطء النسبى فى جانب الثقافة اللامادية الذى يسبب عمليات من سوء التكيف ، نرى بارنز يعرض التخلف الثقافى عرضا تاريخيا . فان تالكت بارسونز Parsons يعرضها بطريقة أخرى من خلال نظريته فى الدوافع والقيم ، ومن ناحية أخرى عن تأسيس النظم الاجتماعية وما ينشأ عن ذلك من توترات • ويلخص فكرته عن مفهوم التخلف الثقافى بقوله (واضح أن أحد الملامح الرئيسية لانتظامية العلم وتطبيقاته هو احداث تيار مستمر من عوامل التغير فى النظام الأجتماعى ، المشكلة الحالية هى كيف يؤثر هذا التيار من التجديد فى أجـزاء من النسق الاجتماعى ، التى ليست متضمنة مباشرة فى عملية تقديمه ••• ان انتظامية كلا نموذجى العملية تخلق توترات فى بيئاتهما المباشرة ، انه بلا شك تؤخذ على أنها شيء مفضل لأنه فى مقاهيم نسق القيم السائد بيننا ، التقدم العلمى شيء حسن ، كما أن العمليات التى تنجـز التقدم أو تستخدم نتائجه تصبح سهلة ومقبـولة تلقائيا • وبالعكس هناك توترات ومقاومات ، بعضها يتعلق بتخلف الاتصالات بين المتخصص والعوام ، والبعض بالامتيازات الخاصـة التى يطلبها الباحث أو العـالم التطبيقى ، والبعض لتدخله فى أساليب قائمة لعمل الأشياء أو التفكير ، والبعض يتعلق بحقيقة أنه يقدمتغيرات اذا استخدمت تتطلب هجر ونبذ الأساليب القائمة التى ترتبط بها مصالح مكتسبة) (٢) •

1 — Ibid., P. 51.

2 — Parsons, T. : «The Social System» The Free Press Glencoe Illinois, 1951 P. 505.

ويعرض بارسونز بعد ذلك تفسيرا للمشكلة بطريقة تكاد تتفق مع تقسيم أوجبرن للثقافة الى مادية ولا مادية ، ولكنه يبتعد عن هذه المصطلحات الى مصطلحات أخرى تتفق مع نظريته عن الموجهات الاجتماعية فيقول (الانعكاسات للتغيرات التى قدمها التقدم العلمى والتكنولوجى يمكن متابعتها خلال مجريان رئيسيان . اولهما يبتدىء مع بناء توجيهات الأدوات الاقتصادية The economy of Instrumental Oriantations التى فى داخلها يتوطن الدور الذى تنشأ فيه التغيرات وتستقبل أول تطبيقاتها . الثانى يختص بالوجوه الثقافية والأنساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية ومن ثم المكافآت ، التى معهـا تكاملت الأطوار المبكرة لعملية الترشيد) (١) . ثم بعد أن قسم بارسونز الثقافة الى هذين المجريين أتجه الى دراسة كل مجرى دراسة تفصيلية . اذ يعتبر أنه يمكننـا أن نميـز ثلاث نمـاذج رئيسيـة للانعكـاسات فى مركب الأدوات instrumental complex.

الأول : اعادة بناء الأدوار المهنية ذاتها . هذا له ناحية ايجابية ، فاذا صنعت أدوار جديدة بفضل المعرفة والتكتيك الجديد ، أو أن الأدوار القديمة أعيد تجديدها بالنسبة للمحتوى التكتيكى ... بالطبع أن هناك ميـل لانشاء هذه الأدوار الفنية بتوسع ... ولكن الاعتماد المتبادل بين الوظيفة الفنية لدور والتجديد فى توقعات الدور فى مصطلحات من توجيه القيمة Value-orientation مقفل بدرجة كافية حتى أنه أصبح من الضرورى عمل مواءمات وتكيفات كثيرة جدا للتغيرات فى المحتوى الفنى . هناك كثيـر من المناسبات التى فيها دور أستاذ علم الاجتماع لا بد أن يختلف عن دور أستاذ كلاسيكيات حتى فى نفس الجامعة ذات البناء الاجتماعى والتقاليد الثقافية الواحدة كلاهما تدريسه وبحوثه لابد وأن تختلف . الوجه الآخر لخلق أدوار جديدة هو الارجاع للأدوار القديمة ومحتوى الأدوار المهجورة . ذلك ما هو معروف باسم ظاهرة البطالة التكنولوجية لأنه لأسباب مختلفة من الصعب للشخص ذاته أن يكتسب المعرفة والتكتيك الجديدين ، وعادة جدا قبل أن يجد حلا للمشكلة يلقى العزل العادى لاحالته على المعاش ...

---

(1) Ibid., p. 505.

النمـوذج الثانى : تتوقف الانعكاسـات فى مركب الأدوات على وطأة التغيرات التكنولوجية على صفات أو خصائص التنظيمات أكثر منها على أدوار معينة · فهناك نواح كثيرة ممكنة لمثـل هذه الوطأة ، ولكن أهمها ، هى حقيقة أن التقدم التكنولوجى دائما يؤدى الى زيادة مقصودة فى تقسيم العمـل ، والمتطلبات المصاحبة من زيادة التنظيم المتعمد ··· التغير فى بناء التنظيمات ، مثل التغير فى المحتوى لأدوار معينة ، يصنع توترات ، هناك مصالح مكتسبة معقدة فى المحافظة على منظمة كما هى ، لا بد من التغلب عليها ···

النمـوذج الثالث : انعكاسات التغيـــر التكنـولوجى على الأدوات الاقتصادية ، هذه تتعلق بتركيب نسق التسهيلات ومن خلاله على بناء القوة · ادخال تسهيلات طبيعية جديدة فى شكل مهمات وآلات وما شابه ذلك ، هــو واضح ··· ولكن بالنسبة للنظام الاجتماعى مازال هاما جدا ذلك التغير فى النماذج الهامة للمهارة والخبرة ، وفى الادارة لنماذج معينة من المنظمات(١) ·

ثم يقدم بارسونز التأثيرات على الوجه الآخر الذى يختص عنده بالثقافة والانساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية والمكافآت بعبارة تتضمن معنى يدل على أنها تغيرات تالية لما يحدث فى الأدوات الاقتصادية ، أى أن التأثير التكنولوجى يحدث أولا فى مركب الأدوات الاقتصادية ثم ينتشر منها على بقية وجوه الثقافة اذ يقول (يمكننا الآن أن نتحدث عن الانعكاسات على بناءات التكيف adaptive structures خارج مركب الأدوات · بمعنى أن هــذه التغيرات تحدث نتيجة للتغير التكنولوجى فى مركب الأدوات الاقتصادية ، وهذه التغيرات التكيفية ما هى الا استجابة للتغير · ويذكر (أن أهمها هــو نسق القرابة وأن ما أدى الى عزل الأسرة المزدوجة هو التخصصية والبيرقراطية التى أدت الى زيادة الأدوار المهنية ، وأن عمليات ضم الشخصية فى داخل النسق المهنى يجب أن تكون مستقلة نسبيا عن التماسك القرابى · هذا العزل للأسرة المزدوجة بدوره كان له انعكاسات على الدور النسائى ·· ومحتمـل زيادة حدة فصل الدور الجنسى ، وأن له علاقة كبيرة بانبعاث ظواهر مثل نمط الفتنة · ولقد ازدادت التوترات على الدور النسائى ومن هنا أنتج أنماطا معينة

---

1 — Ibid., PP. 506—509.

من توترات ردود الأفعال ، وبالتأكيد لها علاقة مع التناقص السريع لمعـــدل المواليد حتى الآن • هذه العوامل بدورها يحتمل أن يكـــون لها انعكاسات أبعد على عمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال • وجه آخر هام جدا هو التغير فى تكنولوجية ادارة المنزل باستخدام التكنولوجيا لجعل عملية ادارة المنزل أسهل ••• ثم يقرر أن انعكاسات التغيرات التكنولوجية على المنظمات الدينية فى البناء الاجتماعى تتبعها أكثر صعوبة • ثم يذكر الرموز المعبرة ذات العدد والآلات الذى أتاحها النمو التكنولوجى مثل السيارة والثلاجة وآلة التسجيل والتليفزيون حيث تعبر عن المكانة ، اذ أن عدد الخدم كتعبير عن المكانة فقد دوره • ثم يتجه الى شرح أثر عملية التغير التكنولوجى فى اعادة تنظيم مستمرة لنظام المكافأة ••• فقد نشأت أدوار جديدة اكتسبت أهمية استراتيجية ، أو أدوار قديمة أصبحت مهجورة وانخفضت أهميتها نسبيا ••• وأن هذا يؤدى الى حدوث تواترات أكثر من أى صراع مصالح ، وتعتبر هذه العملية هى العامل الأول فى ما يسمى صراع الطبقات) (١) •

وكذلك ميرل يذهب فى دراسته للتخلف الثقافى مذهبا يكاد يشبه ما ذهب اليه تالكت بارسونز ، الا أن ميرل بدلا من أن يجعلها مجريين ، فانه يجعل مراحل التغير الناتج عن التجديدات التكنولوجية على ثلاث مراحل ، كل مرحلة تتخلف وراء الأخرى فعنده (النظام الاقتصادى عادة يشعر بالوطأة الأولى للتغير الناتج من تقدم التكنولوجيا • هذه النظم هى الأنماط المنظمة للعلاقات الاجتماعية الموجودة لانتاج وتوزيع السلع والخدمات • فالتغيرات الشــاملة فى النظم الاقتصادية تبعت سلسلة التغيرات التكنولوجية والاجتماعية المعروفة باسم الثورة الصناعية ـ أساس صنع الحياة تحرك من الزراعة الى المصنع ومن الريف الى المدينة ، وتغير حجم المشاريع الفردية وأصبح أسلوب جديد فى العمل والمال ضروريا لتشــغيل التجديدات التكنولوجية • ففى العــالم الحــديث المؤسســات الكبيرة هى مثــل للتكيف البنائى لسلسلة طويلة من التغيرات التكنولوجية) (٢) • ثم يأتى عنده بعــد ذلك النظــم الاجتماعية

1 — Ibid., PP. 510—513.
2 — Mirrell : Op. Cit., P. 471.

(ان الانماط المنظمة للعلاقات المشتملة على الأسرة والكنيسة والمدرسة والحكومة هى الثانية التى تشعر بوطأة التغير الاجتماعى • ذلك صادق خاصة ببناء النظام ، وأقل صدقا للمفهوم أو مجموعة القيم ، التى تتغير ببطء كثير) (١) • ثم المرحلة الثالثة أو العنصر الذى يشعر أخيرا بالتغير أى يكون التخلف الأخير عنده هو القيم الاجتماعية • (فالقيم التى فى قلب النظم هى الأهداف التى من أجلها يكافح الناس ، والنهايات التى يبحثون عنها ، فالزواج بواحدة قيمة اجتماعية فى قلب الأسرة المسيحية ، والحرية هى أساس النظم السياسية والاقتصادية ، فمعظم القيم الأساسية تتجمع حول الأنماط النظامية ، تلك العناصر الأيديولوجية تتغير ببطء جدا) (٢) ويختم ميرل هذا التصنيف بقوله (وهكذا العناصر فى مجتمع لا تتغير بنفس معدل السرعة) (٣) •

ولكن ميرل يعترض على أوجبرن فى أنه ليس كافيا فقط القول أن مختلف عناصر المجتمع تتغير بمعدلات مختلفة • بل يرى أن توضح بعض العوامل التى تعطى النشأة لهذا الظرف ، لأن مثل هذه المعرفة مهمة لفهم المشاكل الاجتماعية والضبط الاجتماعى • وتنشأ هذه العوامل بدرجة كبيرة ، وان لم تكن كلية ، من طبيعة الشخصية ، التى هى جزء من نتائج المجتمع والثقافة • وملخص العوامل التى أشار اليها ميرل هى (نزعة المحافظة على الشخصية الناجمة عن عملية التنشئة الاجتماعية التى تكسب كل فرد اتجاهات وقيم وأهداف ومعايير مجتمعة ، وأى تغيير يهدد أو يبدو أنه يهدد هذه القيم يصبح تهديدا للشخصية ذاتها • والعامل الثانى هو الاتجاهات نحو مختلف التغيرات فقد تكون هذه الاتجاهات تشجع التغيرات أو ترفضها ، ويضرب لذلك مثلا بالمجتمع الأمريكى الذى يشجع التغيرات فى الميدان التكنولوجى ويرفض التجديدات فى النظام الاقتصادى والتى ينظر اليها من الشك الى العدائية الشديدة • وأن هذا الاختلاف يساهم فى اختلاف معدل التغير بين العناصر المختلفة • ثم يذكر أن العامل الثالث هو المصالح

1 — Ibid., P. 472.
2 — Ibid., P. 472.
3 — Ibid., P. 472.

المكتسبة التى تحاول أن تؤخر التجديد الذى يهددها) (١) . الا أن ميرل فى حذر العالم العارف بشدة تعقد العملية الاجتماعية ينهى بحثه هذا بقوله (قد لخصنا عن عمد نمط التغير الاجتماعى الناشىء عن العوامل التكنولوجية . هذه العملية لا تحدث أبدا فى مثل هذا النموذج المحكم ، فالمجتمع هو معقد جدا حتى أن أى نمط لا يمكنه لأن يصف الموقف الحادث ... فالتغير الاجتماعى هو مفهوم ديناميكى ويتضمن مجالا واسعا من تعديلات المكانة والدور على مدار فترة من الزمن . ولهذا تعطى كثيرا من العوامل المختلفة النشأة للتغير الاجتماعى حتى أنه من المستحيل عزل أى سبب مفرد أو كل العوامل المحيطة . ولقد ذكرنا فقط واحدا من عديد النتائج العملية الممكنة التى تنشأ من تقديم تجديد تكنولوجى) (٢) .

أما ماكيفر فانه ينعى على استخدام مفهوم التخلف الثقافى فى معظم الدراسات الاجتماعية . بدون تحليل مناسب مما أدى الى خلط كثير فى الكتابات الاجتماعية اذ قد استخدم الاصطلاح (لكل أنواع اللاتوازن أو سوء التكيف الناشىء فى داخل عملية التغير الاجتماعى . بدلا من تحديدها لتفاوت الفاعلية داخل النسق نفسه) (٣) . بل انه يعترض على معنى التخلف عند أوجبرن الذى وصل اليه عن طريق قسمة الثقافة الى مادى ولا مادى ، وأن اللامادى تابع فى تغيره للمادى ، بقوله (عندما ننسب التخلف نحن نعنى أن شيئا ما يقع وراء أو يفشل فى المحافظة على الخطوة مع شىء آخر اذن ماذا يتخلف وراء ماذا ؟) (٤) . وأن مجرد توجيه هذا السؤال يستلزم الأمر (أن يكون لدينا مستوى للقياس ممكن التطبيق لكل من المتخطى والمتخلف . وحيث لا يكون متاحا مثل هذا المستوى لا يمكننا الحديث بصواب عن تخلف . وحيثما يفشل جزء واحد أو ناحية واحدة من نسق انتاجى

---

1 — Ibid., P. 47.

2 — Ibid., P. 479.

3 — Maelver and Page : Op. Cit., P. 573.

4 — Ibid., P. 575.

فى الارتفاع لدرجة كفاءة جزء آخر أو ناحية أخرى ، يـكون اصطلاح تخلف لائق ومناسب ، ولكن بما أن السؤال موضع البحث ليس من نوع الكفاءة المقارنة ، فاستعمال هذا الاصطلاح يصبح غامضا ومبهما ، وربما يـؤدى الى متضمنات خاطئة) (١) . ويرى ماكيفر أن حل هذه المشكلة تأتى عن طريق (التمييز بين العوامل الثقافية والتكنولوجية ومن ثم يمكننا تحـرير فروض التخلف من الخلط ونعطيها استعمالا أكثر ثراءا) (٢) .

ومن ثم اتجه ماكيفر الى وضع تقسيم جديد يتفق مع وجهة نظره ، وأعطى هذه التقسيمات اصطلاحات جديدة تعبر عن أنواع التخلف من ناحية ومن ناحية أخرى محددة لأنواع العلاقات بين أجزاء البناء الاجتماعى والتغير التكنولوجى فهو يقسمها الى تخلف تكنولوجى Technological Lage وحجر تكنولوجى Technological restraint.

ويعنى بالتخلف التكنولوجى (حيثما تفشل أى واحدة من الوظائف المتساندة فى داخـل عمـلية تكنولوجية ، تفشـل فى انجاز أو حفظ درجـة الفاعلية أو الكفاءة المطلوبة لتعاونها المنسجم مع الباقى ، حتى أن الانتاجـية لكل العملية تتعطل أو تتأخر أو تتوقف عند هذه النقطة . ومثلا عـلى ذلك هو الفشل المتكرر للادارة لحفظ كفاءة كلية عندما تتسع شركة فى المجال ، وخاصة عندما تصبح جزءا من ائتلاف ـ يعتمد مقياس التخلف التكنولوجى على قدرتنا فى قيـاس الكفـاءة النسبية لمختـلف العوامل المتبادلة القيـام بالوظائف وكذلك لبيان فشل عامل معين فى المحافظة على السرعة) (٣) .

ويقصد ماكيفر بالحجر التكنولوجى ، عندما تعرقل أو تمنع التدبيرات المرسومة لحماية بعض المصالح القـائمة ، تقديم أدوات أو أسـاليب أكثر فاعلية وكفاءة ، أو الانتفاع بمنتجات أكثر كفاءة . ويميز ماكيفر أنـواعا مختلفة من الحجر التكنولوجى ، وهى :

---

1 — Ibid., P. 575.
2 — Ibid., P. 574.
3 — Ibid., P. 576.

١ ـ حجر تحدده المصالح البيروقراطية ، هنا قوة القصور الذاتى ، والتقاليد ، أو مقاومة نظام قائم لطرق أو أساليب فنية أكثر كفاءة ٠

٢ ـ حجر تحدده المصالح الاقتصادية المحصنة عندما تواجه تهديدا لما تحصل عليه من أرباح ومميزات أخرى ، ومن ثم تعارض الاستغلال للعمليات الجديدة ٠ أو المناهج الجديدة ٠ وهو يختلف عن النمط الأول فى أن المعارضة تنبع بصفة خاصة عن الاعتبارات الاقتصادية ٠

٣ ـ حجر تحدده المصالح الثقافية ، هنا الخط الرئيسى لمعارضة النمو التكنولوجى تحدده تقاليد أو معايير القادة والجماعات والمجتمعات أى اعتبارات اخلاقية خاصة أو مذهبية ٠ وهنا يميز ماكيفر بين نمطين ، نمط فيه ثقافة المجتمع تقاوم التجديد التكنولوجى ، وثقافة أخرى تكون تقاليدها تشجع التجديد ٠ ويفرق أيضا ما كيفر فى النمط الأول الذى لا يشجع على التجديد انواعا فرعية أخرى تذهب من التطرف فى المقاومة ـ حيث تكون الثقافة متزاوجة معنسق تكنولوجى مختلفا تماما ، ثم يفرض من الخارج على هذا المجتمع تكنولوجيا جديدة ٠ وهكذا يحدث تدمير للوسط الذى تعبر ثقافة المجتمع عن نفسها من خلاله ـ الى المقاومة اليسيرة حيث تكون الثقافة ذات مستوى أعلى ولديها قدرة على التمييز بين النسق التكنولوجى والتقاليد والمعايير والقيم ، وتكون التجديدات قدمتها حكومة نفس المجتمع ، وهنا تكون الوطأة أقل ٠ والنمط الثقافى الذى تشجع ثقافته على التجديد ، يكون لديه استعدادا للمواءمة مع التجديد ٠

٤ ـ ثم يقدم ماكيفر نمطا اخر تحت اسم الصدام الثقافى وهو لايقصد به الصدام الثقافى حيث تحدث الصراعات المذهبية والأيديولوجية ، ولكن يقصد به صراع القيم والمذاهب المتصارعة أو أساليب الحياة عندما تحتك فى داخل نفس المجتمع ٠ فالخوف من تكنولوجية غريبة هو ليس ببساطة خوفا من أنها سوف تقلب القيم القديمة ، انه أيضا خوف من ان التكنولوجية الغريبة سوف تقدم قيما غريبة ومستويات وأهداف مختلفة ، أى أن المقصود بهذا المفهوم هو الصراع الذى يحدث داخل مجتمع ما بين نمطين ثقافيين كاملين كل منهما يحيط بأسلوب كامل للحياة ، أحدهما ثقافة المجتمع الأصلية والآخر جلب أو فرض عليه من الخارج ، وتزيد حدة الصراع اذا كانت الثقافة الأصلية متحدة مع الجماعة السائدة (١) ٠

---

1 — Ibid., pp. 576—580

نقد أفكار التخلف الثقافى

وهكذا يتبين من العرض السابق للدراسات التى دارت حول مسألة التخلف الثقافى أن هذه المسألة ذات شقين ، الأول فيما يختص بمفهوم التخلف نفسه ، كما صاغه أوجبرن من أن العناصر الثقافية اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية ، ووضح أن علماء الاجتماع قد اختلفوا حول هذه المسألة ، فبعضهم قرر بأنه لا يمكن الادعاء بأن العناصر اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية ، وبعضهم أيد أوجبرن فيما ذهب اليه • وآخرون لم يرفضوا الفكرة ولم يؤيدوها ، ولكن تركوا موضوع المساجلة حول مفهوم التخلف من حيث أسبقية وجوه على وجوه من الثقافة ، الى محاولة توضيح التأثيرات الاجتماعية التى تكابدها النظم الاجتماعية نتيجة النمو التكنولوجى وهى الشق الثانى من المسألة • وحول هذه النقطة أيضا اختلف علماء الاجتماع ، فمنهم من حاول ابراز أن النظم تختلف فى أسبقيتها فى التأثر بعوامل التغير التكنولوجى وأن اقربها الى التغير هى أكثرها ارتباطا بالعناصر التكنولوجية ، مشايعين فى ذلك لأوجبرن ، وأعادوا بذلك الى الأذهان نظرية الانتشار فى دوائر وأن أكثر المناطق تأثرا هى المنطقة المباشرة لمركز التغير • وبعضهم ابتعد عن هذه الفكرة وآثر الأمان العلمى ووضح آثار التغير فى النظم الاجتماعية دون التعرض لمسألة الارتباط وشدته بالعناصر التكنولوجية. ولكن نظروا الى المسألة من زواية أخرى وهى مدى قدرة النظم الاجتماعية على المقاومة ورتبوا النظم حسب شدة مقاومتها ، وآخرون تركوا كل هذا وذهبوا الى محاولة وضع مفاهيم جديدة تشرح عملية التأثير الاجتماعى وعلاقتها بعمليات المقاومة المنبعثة من النظم الاجتماعية •

وفى الحقيقة ان مفهوم التخلف الثقافى كما صاغه أوجبرن هو صادق ولكن بالنسبة لمكان وزمان معين وبعملية معينة وهو التغير التكنولوجى فى المجتمع الأمريكى • حيث التغيرات التكنولوجية سريعة جدا والنظم الاجتماعية بطيئة جدا ، كما وضع ذلك بارنز فى دراسته الممتعة عن النظم الاجتماعية الأمريكية وتخلفها ، ومن ثم فان مفهوم التخلف الثقافى اذا درس من الناحية العلمية ، بمعنى ، على أساس أنه نظرية اجتماعية يمكن أن تصدق كقانون

اجتماعى فان الأمر يختلف تماما ، اذ أنه لا يمكن الادعاء بأنه دائما العناصر اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية من الثقافة ، اذ أن هذا الأمر لا يصدق على المجتمعات التى تجرى فيها الآن تغيرات اجتماعية جذرية فى بنائها الاجتماعى نتيجة للحركات الاجتماعية التى أدت الى ازالة معظم النظم الاجتماعية القديمة وأحلت محلها نظما أخرى ، ثم جلبت التكنولوجيا الى تلك المجتمعات بعد ذلك استجابة لهذه النظم الجديدة ، أى أن التغير فى النظم الاجتماعية ووجوه الثقافة اللامادية كان سببا فى التغير التكنولوجى فى تلك المجتمعات ·

وكذلك عندما قرر أوجبرن أن العناصر اللامادية تتغير متأثرة بالتغير التكنولوجى ، لم يدرس المسألة الا من جانب واحد ولم يعطها النظرة الشاملة ، بمعنى أن أوجبرن توفر على دراسة تأثيرات التغير التكنولوجى على وجوه الثقافة اللامادية أو على النظم الاجتماعية ، ولم يحاول أن يكرس وقتا مماثلا لدراسة العوامل التى أدت الى هذا التغير التكنولوجى ؛ وحتى هذه العملية عندما تعرض لها عرضا أرجعها الى التراكم التكنولوجى ولم يتخط هذا الى دراسة العوامل التى أدت الى هذا التراكم التكنولوجى · وواضح أن وراء هذا التراكم التكنولوجى عمليات اجتماعية هى التى أدت الى ذلك التراكم · والغريب أن أوجبرن نفسه قد كرر فى أكثر من مقال له أن الحاجة أم الاختراع ، والحاجة هنا ما هى الا قوى اجتماعية تعمل على هذا التراكم التكنولوجى ·

وأكثر من ذلك لأنه قرر (ليس هناك شيء أصلى اذا ألغيت مسألة الدرجة فأى تغير يمكن أن يختار قد وضعه شيء آخر فى حركة ، والذى كان أيضا فى حركة ، وهكذا حتى نعود الى ما يسمى الأسباب اللانهائية · بالمثال بالنسبة للتغيرات فى التراث الاجتماعى ككل · لا يمكن اثبات الأسبقية سواء للثقافة المادية أو اللامادية ، لأن التغيرات فى الثقافة اللامادية ربما تكون متأثرة بواسطة تغيرات فى الثقافية المادية ، التى كانت من قبل تعزى الى تغيرات فى الثقافية اللامادية ، التى كانت سابقا تعزى الى تغيرات فى الثقافية المادية ، وهكذا · فعندما كل أجزاء الثقافة المتداخلة العلاقات

تكـــون فى حركة وكل جزء يباشر قـــوة على أجـــراء أخـــرى ، لا يمكن تعين مكان أصل الحركة) (١) · ولكنـــه يعـــود فيقـــول فى مكان أخـــر (واضح أن الظروف الاجتماعيـــة تمهـد للاختراعات الميكانيكية ، وأيضـا الاختراعات الميكانيكية تسبب تغيـرات فى الظـروف الاجتماعية · ولكن من المرغوب فيـه معرفة أى التتابع أكثر عمومية ، لم يؤسس بعـد تعميما شاملا فى هذه النقطة ، ولكنه فى الوقت الحاضر فى العالم الحديث يبـدو انه أسهل وجود بيانات عن تكنولوجيا تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية · ومـن ثم نحـن نميـل لتفضيل الفـرض ذى الأهمية الكبرى وهـو أن تتـابع التكنولوجيا يسبب التغيرات الاجتماعية) (٢) ·

ومن ذلك يتضح أن أوجبرن ونمكوف عندما يتحدثان عن العالم الحديث . هما يربطان حديثهما بزمان معين ومكان معين ، هـو المجتمع الأمريكى بعد الاستقلال· اذ لو اتجه أوجبرن ومن تبعه من العلماء الى أوربا التى كانت المصدر الأول للتراكم التكنولوجى فى العالم الحديث لتبين لهم أنه لولا حركة اجتماعية ضخمة عبارة عن تغير كبير فى وجوه الثقافة اللامادية ، وهى تلك الأفكار والقوى الاجتماعية التى عملت على خلخلة قبضة الكنيسة وضبطها للنظم الاجتماعية والعقلية فى أوربا · ففى الحقيقة أن (نموا دقيقا وهاما فى التاريخ الاجتماعى للمجتمعات الغربية ، هو ما سهـل ألى حد كبير التغيـــرات التكنولوجية والتنظيمية والأيديولوجية ، التى ميزت المجتمع الحديث من مجتمع القرون الوسطى ، هو التقلص التدريجى فى دور الأيديولوجية الدينية وزيادة فى الأيديولوجية الدنيوية) (٣) ·

وكذلك أخطأ أوجبرن ومن شايعه فى اعتبار أن المجتمعات البدائية التى تكابد تغيرات اجتماعية شديدة وسريعة نتيجة لوطأة التغير التكنولوجى الذى

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Hand Book of Sociology» Op. Cit., P. 57.

2 — Ibid., P. 577.

3 — La Piere, Richard : Op. Cit., P. 304.

جلب اليها وفرض عليها فرضا ٠ اذ ان أوجبرن كان واقعا تحت وطأة القهر الأيديولوجي وفكرة قبلية كونها عن المجتمع الأمريكى ، وكذلك استهواء رؤية الآثار الاجتماعية لوطأة التغير التكنولوجي ، دون النظر الى العملية الديناميكية التى يتميز بها التغير الاجتماعى نظرة شاملة ٠ اذ أنه ومن شايعه لم يتبينوا أن تلك المجتمعات البدائية هى أولا وقعت تحت وطأة الاستعمار ، والاستعمار يعنى أولا تغيرا فى النظام السياسى فى تلك المناطق ، أىأولا تغيرا فى أحد وجود الثقافة اللامادى ، والا لما أتيح لهذه العناصر التكنولوجية أن تفرض عليهم ، ولو كانت قدمت لهم دون مساندة النظـام السياسى المتمثل فى الحكـومة المستعمرة ، لاتخذ التغير شكلا آخر ٠ أى أنه حتى فى هذه المجتمعات التغير ابتدأ أولا فى الوجوه اللامادية من الثقافة ٠

ولو نظر أوجبرن ومن تبعه الى هذه المجتمعات من ناحية أسباب التخلف الثقافى لوجدوها تختلف تماما عن أسبابها فى المجتمعات الحديثة ولأفصحت عن طبيعـة العمليـة الاجتماعية ٠ فى المجتمعات الحـديثة (المجتمعات الرأسمالية) فى هذه المجتمعات يكون التخلف فى عناصر الثقافة اللامادية هو نتيجة النمو السريع الذى يطرأ على التكنولوجيا وأساليبها وعلى التنظيم الاقتصادى ومؤسساته ونمو العلم وأساليبه الفنية والتطبيقية مع بطء نسبى فى عناصر الثقافة اللامادية فى نفس المركب الثقافى ٠ بينما التفاوت فى المجتمعات البدائية ينشأ عن التعارض بين مركب ثقافى بما فيه العناصر المادية الذى فرض عليهم ، ومركبهم الثقافى ، أو بين النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاقتصادى وتكنولوجيته ، ونظم المجتمعات البدائية ، فهو نوع من الصدام الثقافى ، وليس نوعا من التخلف الثقافى بين عناصر مواد ثقافة واحدة ، جانب منها يتخلف وراء الجانب الآخر كما هو فى مفهوم أوجبرن ومن شايعه ٠ إنما يمكن النظر على أنه نوع من انعدام التوازن الجذرى ، فالمجتمع البدائى قبل وقوعه تحت الاستعمار كانت العلاقات الاجتماعية فيه تؤلف نظمـا اجتماعية متجانسة بل وشديدة الترابط ، أو بمعنى آخر مركبا ثقافيا متكاملا يشيع فيه التوازن ٠ ولكن الاستعمار يأتى أولا بتغيير فى النظام السياسى أى يفقد المجتمع حرية العمل والتفكير وفقا لنظمه ومعتقداته ٠ ومن ثم يحدث انعدام التوازن

ويصبح المركب الثقافى غير منسجم ولا متسق ، وانما تتصارع فيه قوى التحكم والضبط الاستعمارى معقوى الضبط الاجتماعىالأصلية ، بحيث يصبح الصراع بين قانون استعمارى مفروض ويباشر تنفيذه المستعمر ، وقيم المجتمع الأصلى ، أى بين أسلوب فى الحياة وأسلوب آخـر ، فهو تعارض جذرى ولا يشبه على الاطلاق ذلك الذى يحدث فى المجتمعات الغربية نتيجة التغيرات التكنولوجية دون التعرض للمركب الثقافى ككل ، بل هو تعارض فرعى بين متغيرات فرعية وليس بين أسس البناء الاجتماعى ، الذى أيضا قد يتضمن قوى متعارضة ولكنها عادة تكـون فى حالة اتساق وانسجام أو فى حالة توازن ، وهذا ما يسمح فى المجتمعات الغربية بالتغيرات التكنولوجية وآثارها الاجتماعية دون احداث أزمات مدمرة للنظم الاجتماعية ، وخاصة أن تلك المجتمعات قد جهزت ثقافتها بعرف وتقاليد عالية التشجيع للتغيرات فى المجال التكنولوجى ، وهذا يعتبر أحد عوامل الاتساق والانسجام للقوى المتعارضة فى تلك الثقافات ٠

والشق الثانى الذى اختلف حوله علماء الاجتماع فى مسألة التخلف الثقافى هو اختلاف معدلات السرعة التى تتغير بها مختلف وجوه الثقافة أو مختلف النظم الاجتماعية ، أو ما درسه آخرون من ناحية اختلاف درجة تأثر عناصر الثقافة المختلفة أو مختلف النظم الاجتماعية بالتغير التكنولوجى ٠ وفى الحقيقة أن هذه المسألة تدور حول الظروف الحاكمة للتغير ، أو العوامل الاجتماعية التى تتدخل فى عملية التغير ، ليس التكنولوجى فقط ، بل أى عملية من عمليات التغير الاجتماعى ٠ وهو ما يجب أن يسميه بعض علماء الاجتماع بتسهيلات أو عوائق التغير فى المجتمع أو ما يذهب اليه علماء الأنثروبولوجيا فيطلقون عليه اسم عوامل القبول أو الرفض ٠

وتدور هذه المسألة حول نقطتين ، الأولى هى اتجاه المجتمع نحو التغير نفسه من حيث التشجيع عليه أو مقاومته ، أو فى كلمات أخرى قيم وتقاليد ومعتقدات وعادات المجتمع أو ما يطلق عليه أوجبرن ومن شايعه بالعناصر اللامادية ، أو ما يسميه آخرون بأيديولوجية المجتمع واتجاهاتها نحو التغير ٠ والنقطة الثانية فى هذا المبحث هى طبيعة النظـم الاجتماعية المؤسسة فى

علاقتها بعملية التغير من حيث التسهيل أو المقاومة ، ويتعلق بهذه النقطة المارسون للنظم وهى الجماعات المتفاعلة داخل المجتمع ، واتجاهات كل جماعة نحو عملية التغير المقدمة ومدى تأثيرها على مكانة وأدوار كل جماعة من حيث القوة والرفعة او التدهور والتهديد لمراكزها ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته بظاهرة المصالح المكتسبة ·

النقطة الأولى وهى اتجاه المجتمع نحو التغير من حيث قبول أو رفض ، أو تسهيل واعاقة عملية التغير ، تكمن فى أن كثيرا من المجتمعات قد هيأتها ثقافتها اللامادية أو قيمها وتقاليدها وعاداتها وأيديولوجيتها لقبول التغير ، وأخرى هيأتها لرفض التغير · (فأهمية الميول الاجتماعية فى تحديد الانجازات الحالية لابد وأن يؤكد عليها بصفة خاصة ، من بين هذه الميول سوف يكون الميل نحو التغير الاجتماعى نفسه ، فالمقاومة أو منع التغير الاجتماعى قد يكون قيمة عظيمة فى بعض الثقافات ، بينما فى مجتمعات أخرى يشجع التجديد ويكافىء وبشرف) (١) ·

فعلماء الاجتماع وخاصة الأنثروبولوجيون ممن يهتمون بدراسة البناء الاجتماعى يذهبون الى أن البناء الاجتماعى يتميز بالاستقرار النسبى وأن لديه القدرة على الاستمرار فى الوجود ، الا أن الأبنية الاجتماعية تختلف من حيث درجة المرونة والجمود التى تتصف بها ، وأن التغير الاجتماعى الذى يحدث فى هذه الأبنية يتوقف على درجة مرونة وجمود البناء . فما عملية التغير الاجتماعى الا تفاعل لهاتين الخاصيتين ، أو صراع بينهما على الابقاء أو التغير، ومن ثم يتوقف التغير الاجتماعى فى تلك الأبنية الاجتماعية على العناصر أو القوى الاجتماعية التى تتيح لخاصية دون الأخرى التفوق النسبى · وأن الذى يجعل لدى البناء الاجتماعى القدرة على التغير هى خاصية المرونة ، والقوى الاجتماعية التى تتيح لهذه الخاصية التفوق النسبى تكمن فى أن هناك بعض المجتمعات قيمها وعاداتها وتقاليدها هى دائما فى حالة توقع للتغيرات ·

وما التوقع الا اعتقاد مشعور به بأن تغيرا ما سوف يحدث ، أى أن

1 — Lundburg and others : «Sociology» Op. Cit., P. 715.

ثقافة مثل ذلك المجتمع تكون مفتوحة للتغيرات ، أو فى كلمات أخرى أن المناخ الاجتماعى يشجع على استقبال التغيرات ، فمثلا (المناخ الاجتماعى للاختراع فى مجتمعنا هو يعجل بهذه التغيرات التكنولوجية التى ينظر اليها على انها مرغوبة ، طالما أنها تبدو أنها تجعل الحياة أسهل وأغنى وأكثر اشباعا • فيقابل المجدد فى هذه الحقــول بالتقــدير وتتوج مجهوداته بمكافآت مالية ، فى التكنولوجيا والعلم التطبيقى هناك جو من القبول) (١) • ولكن هذا القبول ليس متروكا بلاحدود (فتوقعات التغير دائما تضع صورا محددة على عملياتها • يتوقع التغير فقط بين حدود معينة) (٢) • كما أنه ليس متماثلا أو بدرجة واحدة عند كل المجتمعات ، فهناك مجتمعات يكون القبول مسموحا به فى بعض وجوه الثقافة دون الأخرى ، كما تختلف درجة القبول فى تلك الوجوه المسموح بها باختلاف المجتمعات ، أو قد يكون التغير مقبولا ومسموحا به فى كل أوجه الثقافة فى مجتمعات أخرى • ففى المجتمعات ذات الثقافة الراقية (هناك تقليد طويل من توقع التغير فى المخترعات التكنولوجية التى تعمل على اثراء الحياة البشرية) (٣) •

وكذلك التغير تختلف درجات قبوله باختلاف وجوه الثقافة (يعكس الاستقبال التقليدى الذى أعطى للاختراعات التكنولوجية اختراع دين جديد أو نظام أسرة أو أيديولوجية اقتصادية ، يقابل باتجاهات تبتدىء من الشك الى العدائية السافرة) (٤) • ويليه فى الدرجة الحقــل الذى يقع فيــه التغيــر التكنولوجى ثم النظم الشديدة الترابط بالتكنولوجيا ، ولكن أيديولوجية المجتمع الأمريكى تقف حائلا أمام قبول التغير فى النظم الاجتماعية ، كما وضح بارنز فى حديثه عن تخلف النظم الاجتماعية فى ذلك المجتمع ، اذ أن تقاليده وقيمه وعرفه تقف حائلا دون مجرد التفكير فى التغير فى هذه الجوانب من الثقافة ويعبر عن ذلك سمنر بقوله • (هناك من يريدون مناقشة الزواج المزدوج •• فشلوا فى الحصول على من يسمح لهم بذلك • والبعض الآخر يريد مناقشة

---

1 — Mirrill : Op. Cit., P. 474.
2 — Barnett : Op. Cit., P. 57
3 — Ibid., P. 313
4 — Mirrill : Op. Cit., P. 475.

الملكية . وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشته · الزواج والملكية هم فى المعايير ··· الشيء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات لأن الجماهير تعارض كل مناقشة ضد المعايير) (١) ، أى أن المجتمع الأمريكى ليس فيه توقعا للتغير فى هذه الوجوه من الثقافة ·

وفى الناحية المقابلة هناك مجتمعات توقع التغير فيها أمر مطلق ومباح فى كل وجوه الثقافة ، فمثل هذه المجتمعات يتميز بناؤها الاجتماعى بمرونة عالية لتقبل التغيرات (فجماعة النفاجو Navago يتوقعون نموات جديدة فى ثقافاتهم وفى تاريخهم ··· فهم يرحبون بالتغير ويقبلونه على أنه تكيف حقيقى للعالم المحيط بهم · وكذلك السامو انز Sumoans من المتوقعين للتغيرات ولكن بطريقة تختلف عن النفاجو ، فهم يتوقعون أن كل فرد بينهم يتحد مع كل شيء يفعله ، والتقليد شيء مؤسف ، فكل فرد له طريقته فى لبسه وفى رقصه وفى بناء مسكنه ، فتوقع الانحراف يمتد حتى الى الدين والتنظيم السياسى لكل من الفرد والقرية ، فالقاعدة هى التجديد) (٢) · بل هناك مجتمعات بلغت درجة توقع التغير فيها الى أعلى مستوياتها ، أى أن ثقافتها قد جهزت ذلك المجتمع للتوائم مع أى تغير وفى أى وجه من وجوه الثقافة مثل جماعة البالوانز Paluans (يتوقعون التغير فى ثقافتهم ، هذا الاتجاه منسجم مع تاريخهم · فالظاهر أنهم كانوا دائما غير مستقرين سياسيا ، والهزيمة ومعاناتها ليست شيئا جديدا بالنسبة لهم · فمنذ اكتشف الجزيرة الأوروبيون فـان شعبها قد أخذ سيادة الغرباء عليهم كأمر طبيعى وأنه حق خاص للمنتصر · فهم تفلسفوا حول التغيرات التى قدمها الألمان واليابانيون والأمريكيون · بل بعضهم يسأل من التالى) (٣) ·

كل هذه الحالات تبين أن التغيرات التى تتمشى مع المعايير من السهل احداثها (لكن التغيرات التي تعارض المعايير تتطلب مجهودا طويلا وصبرا

---

1 — Sumner : Op. Cit., P. 76—77.

2 — Barnett : Op. Cit., P. 56—57.

3 — Ibid., P. 99

اذا كانت ممكنة كلية) (١) ومن ثم فالمعايير تشكل التغير بلونها وتحدد منذ اللحظة الأولى المقبول منه والمرفوض · وهكذا فأيديولوجية أى مجتمع هى (جزء حيوى من الحياة الاجتماعية وبتوليفها مع العوامل الأخرى ، فانها تعمل اما لتبنى وتسهل التغيير فى النسق الاجتماعى أو لا تشجع وتعارض التغير) (٢) · فالمعايير لأى مجتمع ذات تأثير بالغ فى قبوله أو رفضه لنوع معين من التغيرات ، اذ أن تلك المعايير ما هى الا التصورات الفكرية لذلك المجتمع سواء عن علاقة أعضائه ببعض أو علاقتهم بالبيئة الطبيعية ، ولما كان أى تجديد لا يقفز من لاشىء ، انما هو ينشأ فقط بين تلك الأفكار ، وأن الأفكار هى التى ألفت بين عناصره ، فطالما أن التجديد منبعث من خلال الأفكار فهى اذن التى تشكل مادته الأولى ، ومن ثم فهى تحدد منذ اللحظة الأولى مجاله واسلوبه ·

ولا يمكن النظر الى هذه المعايير او الايديولوجيات كعوامل ثابتة لأنهم لا ينشئون انفسهم من لا شىء ليحدثوا آثارهم ، كما أن آثارهم تتغير بتغير محتوياتهم فمحتوى الأيديولوجية فى المجتمعات الأوربية فى القرون الوسطى التى كانت تقوم على الأفكار الدينية ذات القداسة والتحريم الشديد ، منعت تلك المجتمعات زمنا طويلا من التفكير فى مواضيع معينة ، أو بمعنى آخر من محاولة التوليف بين عناصر الثقافة توليفة جديدة غير التى اتاحتها الكنيسة ، ومن ثم كانت هذه الفلسفات الاجتماعية عائقا وحائلا دون التغير السريع فى تلك الحقبة · ولكن عندما ابتدأت الأفكار القائمة على أساس من التفكير العقلى والتحرر من الحجر الكنسى ، أو بمعنى آخر الأيديولوجيات الداعية الى التجديد وحرية الحركة نحو التوليف بين عناصر الثقافه ، فان تحول وتغير محتوى الأيديولوجية الأوربية هيأت المناخ الاجتماعى للتغيير ، اذ أن الفرق بين الأيديولوجية الكنسية القائمة على جزاءات صارمة وممارسين لا يقبلون أى تفسير الا ماتركه الأسلاف من القساوسة ، وبين الأيديولوجية الدنيوية التى تجعل مواد الثقافة أيا كانت خاضعة للشرح والتفسير لكل

---

1 — Sumner : Op. Cit., P. 94.

2 — Le Piere : Op. Cit., P. 263.

فرد عن طريق العقل والتجريب ، اذ (تتضمن الأيديولوجية العلمانيةمفاهيم قابلة للأختبار كلية ، ولهذا الأيديولوجيةالعلمانية يمكن انتتغير كنتيجةللخبرات التجريبية • فطالما يعتقد الناس حقـا أن ملوكهم ملوكا بالارادة الآلهيـــة ومرسمين آلهيـــة ولا يمكنهم فعل الخطأ ، سوف لا يرغبون فى الخروج عن هذه القاعدة مهما كانت الأدلة التى تقدمها تجاربهم الشخصية مع حكمه • ولكن عنـــدما يصبح الناس يعتقدون أن حكومتهم من صنع انفسهم أو اجـدادهم سوف ينظرون الى أعمالهـا نظرة المحـاسب بـل وقد يعملون ضدها) (١) •

كما أن الأيديولوجية الدنيوية نوعان ومن ثم يختلف تاثيرهما على التغير ، فلقد ذكر أوجبرن أن هنـاك نوعين من الأيديولوجية ، أحداهمـا خيالية وهى تصدر عن التطلعات وآمال الانسان ومخاوفة أو مشاعر اخرى ، وسمى هذه الأفكار بالمعتقدات • وانهـا تحتوى افكارا لا تتعلق عن قرب بالحقائق ، ورغم ذلك لها تاثيرها ، فهى تتحكم فى عملية التغير ، وضرب مثلا لذلك بفكرة الجنس فى الأيديولوجية النازية التى لم يكن لها أساس حقيقى سواء بيولوجى أو أنثروبولوجى ورغم هذا لعبت دورا هاما فى بناء اقتصاد مكتف ذاتيا فى السلع المادية • كما أن هناك أيديولوجية تتميز بخليط مـن أفكار الحقيقة والخيال ومثل لذلك بفـكرة دعـه يعمل • وقرر أن العـالم المادى يتاثر أكثر بواسطة الأفكار الواقعية عن تاثره بالمعتقدات • فالثقـافة المادية لا تلين بسهولة للأفكار من النوع الخيالى (٢) •

وهكذا فطالما يعتقد مجتمع ما فى أن أحد أوجه الثقافة لا يجوز فيـه التجديد اما بسبب العرف أو التقاليد أو القيم أو الأيديولوجية ، يصبح تغير هذا الوجه من الثقافة بطيئا جـدا •

وليس معنى هذا أن هذه المعتقـدات أو القيم أو الأيديولوجيات هى قوالب جامدة غير قابلة للتجديد بل هى أيضا تجرى عليها عملية التغير •

---

1 — Ibid., P. 304.

2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., PP. 578—481

ومن ثم فان القيم التى تشجع التغير تكون هى ذاتها متاثرة بهـذا التغير ، بمعنى أنـه كلمـا كانت القيم مـن النـوع المشـجع عـلى التغير تصبـح هى ذاتهـا أسرع تغـيرا مـن تلك التى لا تشـجع التغـير ، فهى كمـا تقف حائلا دون التغير لا تتغير هى · وهكذا يصـاب المجتمع بالجمود أو المرونة نتيجة لما فيه من قيم ومعتقدات ومعايير · وفى الحقيقة أن هذا المجال من المجتمع أو الثقافة هو أشد المنـاطق مقاومة للتغير ، ومن ثم أقلها تأثرا بالتغيرات الاجتمـاعية أو التكنولوجية ، اذ أن هـذه العناصر لها جلالها وقدسيتها التى اكتسبتها من كونها أتت الينا من الماضى وغرست فينا وتوحدت مع ذواتنا أثناء عملية التنشئة الاجتماعية · (فلقد أتت الينا المعايير مـن الماضى ولقد ولد كل فرد بينها ، وطالما أنه ولد فى جوها ، فهو لا يسـتطيع أن يضيف عليها أو يفقدها ، ومن ثم يذعن كل فرد لتأثير المعـايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقليا) (١) ·

وليس معنى هذا أنها لا تحمل فى طياتـها الأسباب العقلية لرسوخها ولكن بالعكس (هى تتضمن فى ذاتهـا تبريراتها الذاتية بواسطة التقـاليد والفائدة والرغبة وتؤيد بجزاءات خفية ، وهى ليست منبهة للفكر بل على العكس ، فقد تم صنع التفكير وأصبح منغرسا فى المعايير ، وهى لا تحتوى اطلاقا أى تجهين لتغيير ذاتها فهى ليست أسئلة ولكنها اجابات لمشـاكل الحياة فهى تضع نفسها كشىء نهائى وغير متغير لأنها تقدم اجابات معطاة على أنها صدق) (٢) ·

وهكذا ينمو الانسان فى مجتمع معين ذا عرف وتقاليد وقيم معينة ، هذا النمو الواقع تحت تأثير وفى ظل هذه العناصر يشكل أسلوب أعضاء المجتمع فى التفكير والعمل ، ومن ثم تصبح قوالب ذات صلابة ، ولهذا ينظر أعضاء المجتمع لمواد الثقافة وما يطرأ عليها من تغير فى أساليب منمطة قد هيأتها

---

1 — Sumner. Op. Cit., P. 76.

2 — Ibid P. 79.

تلك الأنماط وكونت منها فلسفة عن الحياة ، تلك هى التصورات الفكرية التى يواجه المجتمع بها التغيرات ، ومن ثم فان كانت التغيرات تتفق مع تلك المعايير فانه يسمح بها ، وتلك التعيرات التى تتعارض معها تقاومها وتكبتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون تاثرها هى بالتغير يكاد لا يذكر ، أى أن هناك تناسبا طرديا بين مقاومة المعتقدات والقيم وبين شدة تاثرها بالتغيرات ، (ولهذا يعتبر التغير تغلبا على المقاومة ، اذ أن عملية التغير طالما أنها تتعدى على الأنماط المنتظمة للفعل والعلاقة · لهذا ليس التغير أبدا مجرد تحول للانماط ولكن تحولا بواسطة التغلب على المقاومة) (١) ·

وذلك هو السبب فى أن التغير التكنولوجى أصبح سريعا فى الثقافات الراقية حيث أن المحتوى الثقافى ليس فيه مقاومة لهذه التغيرات ، اذ أن قيمه وايديولوجيته سوف تسمح مباشرة بنجاح التغير فى المحتوى الادراكى للجزء الخاص بها من الثقافة · والعكس صحيح ، بمعنى أن شدة المقاومة التى تقابل التغيرات فى مجال النظم الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى مثلا تسبب عدم قدرة التغير على التغلب على المقاومة المتضمنة فى المحتوى الثقافى للمجتمع ·

وبالمثل اذا كانت عناصر الثقافة شديدة الترابط وكان الابدال جذريا ، فان المقاومة تبلغ أعلى مراحلها ، وتخف حدتها اذا كان الابدال سطحيا · كما يحدث عندما يراد ادخال فى ثقافة شديدة الترابط ، عنصرا من ثقافة أخرى تختلف عنها جذريا أى ذات قيم وعادات وتقاليد متعارضة تماما · اذ أن العنصر الثقافى المراد ادخاله ، هو فى ثقافته الأصلية يشكل حالة من التوازن والانسجام والتكيف مع بقية عناصرها ، فاذا نقل الى الثقافة المتعارضة فهو بالتالى يكون متعارضا مع عناصرها ويشكل حالة من اللاتوازن وسوء التكيف ، ومن ثم تشتد المقاومة لاخراج العنصر المحدث للاتوازن لاعادة التوازن الى ما كان عليه ، أو مساندة العنصر الدخيل بقوة كبيرة تمكنه من التغلب على المقاومة لاحداث تغيرات جذرية فى المحتوى الثقافى لقبول التغير نفسه ·

---

1 — Parsons · «Social System» Op. Cit., P 491.

ذلك يشبه ما حدث فى المجتمعات البـدائية نسبيا التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار الأوربى ، وخاصة اذا كانت ثقافة المجتمع المقهور مـن النوع الذى مناخه الاجتماعى لا يهىء لقبول التغيرات ، ومن ثم (فالتغير يقبل واقعيا ولكن بمعنى القهر فبعض الناس يقبلون الذى لا يمكن تجنبـه بياس ، والبعض يقاسون فى صمت والبعض فى مرارة ، حقيقـة أن بعض الناس يتوقعون التغير ولكن لا يرحبون به ، هذا لا يعنى أنهم تحت رحمـة القوى الاجتماعية التى ليس لهم سلطان عليها ، انما يعنى هذا انهم تحت رحمة لأناس آخرين ذوى عقائد وافكار عكس أفكارهم وعقائدهم) (١) ، وذلك ما يطلق عليه بعض العلماء (التكيف الثقافى العـدائى

(Hestile acculturation) (٢) حيث تكون عناصر الثقافة المفروضة متعارضة جذريا مع عناصر الثقافة المفروضة عليهـا ، ومن ثم يعنى التغير فى تلك المجتمعات التغلب على مراكز المقاومة فى المحتـوى الثقافى لتلك المجتمعات أى قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعاييرهم ، ومن هنا تتدهور القيم المتوارثة وتتفكك العـلاقات الاجتمـاعية التقليدية ، ويصـبح المجتمـع غير متوازن ولا منسجم اذ أن القوى التى كانت تعطيه تماسكه قد قهرت ٠

وتخف حدة المقاومة اذا كانت عناصر الثقافتين المستعيرة والمعـيرة متشابهتين ، ومن ثم يكون توطين السمة الثقافية الجديدة غير مقلق للقيم والتقاليد لتشابههما فى الثقافتين ، وان أحدث شيئا من اللاتوازن فهو من النوع الذى يمكن التغلب عليه بسهولة لأنه لا يمس مراكز المقاومة الشـديدة من ناحية ومن ناحية أخـرى تكون هنـاك القوى الاجتمـاعية التى سببت الاستعارة مؤيدة للسمة الجديدة ، كأن تكون هذه السمة أكثر اشباعا مـن السمة القديمة ، وهذا ما يطلق عليه التكيف الودى
(Freindly acculturation) (٣)

---

1 — Barnett : Op. Cit., P. 59.

(٢) د ٠ ابو زيد (بناء اجتماعى) ج ١ ، ص ٢٧٨ ٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٨ ٠

((خـــاتمة))

أثر الاسلام فى البناء الاجتماعى

لقد رأينا أن المجتمعات الحديثة مجتمعات مركبة أى تتكون من جماعات اجتماعية مختلفة ، فهناك جماعة الرجال وجماعة النهياء وجماعة الشباب وجماعة الأطفال ، وهناك جماعات انقسمت على أسس المهنة فهناك جماعة المدرسين ، وجماعة الطلاب ، وجماعة الأطباء ، وجماعة المرضين ، وجماعة المهندسين وجماعة العمال وجماعة أصحاب الاعمال وهناك الجماعات التى تقوم على أساس أنواع أخرى من العلاقات . وعلى ما رأينا ايضا أن كلا من هذه الجماعات لها معاييرها التى تختلف من جماعة لأخرى .

ذلك يعنى أن المجتمعات الحديثة فى الواقع الاجتماعى لا يسودها مجموعة واحدة من المعايير ، بل عدة مجموعات من المعايير بعدد الجماعات المركب منها المجتمع ، ومن هنا يقع الصراع بين معايير هذه الجماعات على ما رأينا فى الفقرات السابقة ، وقد تتضارب مصالح هذه الجماعات فيشتد الصراع بين معايير كل جماعة واخرى فتعتبر كل جماعة من الجماعات الاجتمــاعية الجماعة الأخرى جمــاعة خارجية ، مثل ما يحــدث بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال فى المجتمعات الغربية فكل جماعة من هاتين الجماعتين تعتبر نفسها جماعة داخلية والأخرى جمــاعة خارجية ، فمثــلا نرى اتحــادات أصحاب الأعمال يقابل اتحادات ونقابات العمال وهكذا بين الجماعات المختلفة بعضها وبعض . وهذا يؤدى بدوره الى حدة الصراع بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع مما يهدد المجتمع بالتفكك والانهيار .

واذا قيل ان القانون الوضعى هو الوسيلة التى تستخدمها المجتمعات غير الاسلامية فى الضبط الاجتماعى والسيطرة على هذه الصراعات عــلى أساس أن القانون الوضعى هو معيار اكثر سلطة وسيادة ويمثل المجتمـع كله ليقضى ويحكم بين هذه الجماعات ومعاييرها المتصارعة . ولكن كلنــا يعرف أن القانون الوضعى تسنه وتشرعه هياة برلمانية أى الحزب الحاكم

سواء فى المجتمعات الغربية أو المجتمعات الاشتراكية والشيوعية • والحزب ما هو الا جماعة من بين الجماعات ، فالحزب السياسى ما هو الا جماعة اجتماعية سياسية ، أى أن لها أيضا مصالحها التى تصوغ معاييرها وتوجه أنماط سلوكها ، وقد تتضارب هذه المصالح مع مصالح الجماعات الأخرى (الحزب المعارض فى المجتمعات الغربية ، وكل الشعب فى المجتمعات الشيوعية) وعلى هذا تكون القوانين التى تصدرها جماعة الحزب الحاكم معبرة عن مصالحه هو ومتفقة مع معاييره هو وليس مصلحة المجتمع ككل ، وهذه حقيقة اجتماعية كشفت عنها الدراسات الاجتماعية فى المجتمعات الأوربية غربيها وشرقيها ، اذ ثبت أن كل جماعة اجتماعية تصل الى مراكز السلطة تسعى الى مزيد من الامتيازات لاعضائها وتريد البقاء فى السلطة أكبر وقت ممكن ، ومن ثم تلجأ الى سن القوانين التى تؤمن مصالحها ، فاذا كان مثلا الحزب الذى فى السلطة يمثل أصحاب رؤوس الأموال أو حتى فئة منهم فهو يصدر عن طريق الأغلبية البرلمانية فى الدول الديموقراطية ، وعن طريق مكتب الحزب فى الدول الاشتراكية) من التشريعات التى تحافظ على مصالحهم وتزيد من امتيازاتهم على حساب الجماعات الأخرى •

ذلك يعنى أن القوانين الوضعية هى قوانين تصدر معبرة عن مصلحة الجماعة التى تصدرها • وهنا يصبح القانون الوضعى كمعيار أكثر سلطة وسيادة قد فقد وظيفته الأساسية وهى وقاية الحقوق وحسم ما ينشأ بين الجماعات التى تتعارض مصالحهم ، وبالتالى يفقد صفته الاجتماعية كأحد أهم عناصر البناء الاجتماعى • اذ فى مثل هذه الحالة بدلا من أن يلزم كل الجماعات بالتساوى على اتباع نوع من العلاقات الاجتماعية المضبوطة ، يصبح عامل اجبار تستخدمه جماعة واحدة فى المجتمع لاجبار سائر الجماعات • بل ويؤيد القانون الوضعى بجزاءات تقع على من يريد الخروج على معايير جماعة الحزب الحاكم • وهكذا يشتد الصراع بين الجماعات الاجتماعية وبدلا من أن يكون القانون الوضعى عنصرا فعالا فى البناء الاجتماعى يصبح عامل هدم للكيان الاجتماعى •

بينما في الدين الاسلامي يعتبر المعيار الاساسي الذي ينظم العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع وهو معيار ايجابي « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١) • فهو يجعل من المسلمين جماعة واحدة ، فلا جماعة داخلية ، وجماعة خارجية تختلف معاييرهم ويقع الصراع بينهم ولكنهم جماعة داخلية واحدة يرتفع أسلوب العلاقات الاجتماعية بينهم الى أعلى مستوى من الود الاجتماعي ألا وهو مستوى الأخوة ، ويختم العليم الخبير هذه الآية بقوله تعالى « لعلكم ترحمون » أي اذا كان ذلك المعيار هو معياركم تعمكم الرحمة ، وتكون رحمة الله بالمسلمين متناسبة تناسبا طرديا مع تطبيقهم هذا المعيار أي كلما اشتدت أواصر الأخوة بينهم زادت رحمته بهم ، واذا وهنت هذه الأخوة قلت رحمته بنفس النسبة ، فاذا نزعت من علاقاتهم الاجتماعية معنى الاخوة نزع رحمته عنهم • ويردف هذه الآية بمعيار سلبي أي معيار يعمل على منع ما يخدش أو يوهن العلاقة الاجتماعية التي رسمتها الآية الأولى ، ومن ثم فهي تقطع الطريق على كل ما من شأنه أن يحدث الصراع بين الجماعات « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون • يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (٢) • وانظر الى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (٣) ، في هذه الآية يعرض الله الرحيم صورة رائعة لأثر التماسك الاجتماعي ، ويبين أن الفرقة

---

(١) الحجرات : ٩ •
(٢) آل عمران : ١٠٢ •
(٣) الحجرات : ١٠ ، ١١ •

تؤدى بلغة علم الاجتماع الى أن تنظر كل جماعة الى الأخرى علـى انهـا جماعة خـارجية ، وتشـحن المسافة الاجتمـاعية بين الجماعات بالعـداوة وبالبغضاء ، ومن ثم يقعـون فى نـار الصراع فى الدنيا بظلمهم بعضـهم بعضا واستعباد بعضهم بعضا ، ويقعون بذلك فى الآخرة فى نار جهنم . ولكن الله ذو الفضل العظيم أرسل اليهم رسولا يعلمهم الحكمة فجعلهم بنعمة الله اخوانا فانقذهم من الفرقة ومن ثم من الصراع · وفى الحديث الشريف (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (١) · فالرسول عليـه الصلاة والسلام فى هذا الحديث وضع معيارا للايمان هو حب المسلم لأخيه المسلم ، فتصبح العلاقات الاجتماعية علاقات يسودها الحب ، فهو معيار يوجه العلاقات الاجتماعية الى منطقة حيث لا صراع بأى لون من الألوان ، وجاء أيضا فى الحديث الشريف (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ثم شبك عليه الصلاة والسلام بين أصابعه تأكيدا لمعنى التماسك وهو بهذا ينبه الى أهمية هذا المعيار فى البناء الاجتماعى فى المجتمع المسلم ·

ورغم ان معيار الاخوة فى المجتمع الاسلامى كان يكفى لتوجيه كل أنماط العلاقات الاجتماعية نحو التماسك الاجتماعى ويبعدهم عن الصراع الاجتماعى ، الا أن الاسلام لم يترك أى نمط من انماط العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمـع الا ووضع لها معيارا مضـمونة تأكيدا لمعنى الاخوة . فعلاقات الاسرة سواء بين الزوج وزوجته أو الآباء والابناء صاغها علـى أروع ما تكون الصياغة المؤدية الى التماسك الاجتماعى وعلاقات القـربى وعلاقات الجوار حتى كاد يورثه كما ورد فى الحديث الشريف ، حتى علاقات الجوار بالجنب · وعلاقات العمل ، وعلاقات الحاكم والمحكوم الى آخـر ما يمكن أن يوجد من انماط العلاقات الاجتماعية ، كلها صيغت بأسلوب يؤكد معنى الاخوة والرحمة والعدل والتى فى جملتها هى معايير تؤدى الى بناء اجتماعى لم يشهده العالم الا فى صدر الاسلام ويمكن أن يشهده اى مجتمع شاء أن يعتصم بحبل الله وهدايته ·

---

(١) رواه البخارى ومسلم واحمد والترمذى ·

وهكذا كان المعيار الأساسى للعلاقات الاجتماعية فى الاسلام هو الاخوة ، ولما كان الاسلام من عند الله الخالق العليم الخبير ، فهو أعلم بمن خلق ، وثم يعلم أن المجتمعات الانسانية تقع تحت طائلة التغير من ناحية ، ومن ناحية اخرى هناك جماعات ستحكم جماعات أخرى وجماعات ستستخدم جماعات أخرى فقد وضع الحدود وسن القوانين التى يسير عليها البشر ، فلا تستطيع جماعة من الجماعات أن تغير أو تبدل طبقا لمصالحها « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١) • وهكذا ضمن الاسلام لرعاياه المساواة بينهم فالكل سواء أمام القانون الربانى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (٢) • والقرآن الكريم والحديث الشريف مملوءان بالآيات والأحاديث التى تحض على العدل بين الناس وتكشف عن أثر التخلى عن ذلك على البناء الاجتماعى بل ضياع المجتمعات •

اما من ناحية النظم الاجتماعية كعنصر هام من عناصر البناء الاجتماعى بل تكاد لأهميته تفوق سائر العناصر الأخرى ، هذا يتطلب أن نضرب مثلا من المجتمعات القديمة ليكشف لنا عن علاقة النظم الاجتماعية بعضها ببعض وهى تتفاعل وتتكامل فى البناء الاجتماعى •

ففى مصر الفرعونية كان النظام الاجتماعى الدينى هو الذى يوجه الحياة الاجتماعية كلها ، فيشكل طبقا له النظام الاقتصادى والسياسى والطبقى والتربوى • وهكذا كانت الحياة الدينية هى محور الحياة الاجتماعية وتصبغ وتشكل كل الثقافة فى مصر الفرعونية(٣) •

فى مثل هذه المجتمعات التى يبدو فيها أن هناك نظاما اجتماعيا يسود الثقافة ويحتويها ، وتظهر بصماته واضحة على سائر النظم الأخرى فى المجتمع ، أى الذى يبدو واضحا أن المجتمع قد رتب هذا النظام على أنه

---

(١) الحجر : ٩ • (٢) المائدة : ٨ •

(٣) ارجع الى الفصل الخاص بالنظام الرائد ص ٢٠٢

النظام الأكثر أهمية فوضعه المجتمع فى أعلى السلم النظامى مثل هذا النظام اتفق علماء الاجتماع على اعتباره أنه النظام الرائد للثقافة كلها ، فيوضع النظام الرائد فريدا فى المكان الأعلى من السلم النظامى لمجموعة من الأسباب المهمة لدى أعضاء المجتمع ، ومن ثم فهو النظام الذى يحكم النظم الأخرى ، وهو الذى يضع نظرية الحقيقة للثقافة كلها أى يحدد ما هو صواب وما هو خطأ ، ويضع مستويات المعايير والقيم المطابقة لها ٠

وان كنا ضربنا مثلا بالمجتمعات الفرعونية ، فليس معنى ذلك أن المجتمعات الأخرى والتالية فى التطور الحضارى لم تعرف النظام الرائد ٠

ففى أوربا فى العصر الوسيط ابان ازدهار الكنيسة المسيحية كان نظامها الرائد هو الدين فى شكل الكنيسة المسيحية حيث كان يشكل ويوجه ثقافة المجتمعات الأوربية كلها وكان النظام التربوى يتم داخل الكنائس فكانت جميع المدارس تتبع الكنيسة وهكذا فى سائر النظم الاجتماعية ٠

وأحب أن أركز على نقطة هامة هى أن النظام الرائد عند علماء الاجتماع عندما يقود الثقافة كلها ويحتويها يفعلذلك لمقامه العالى فى التصوراتالفكرية عند أعضاء المجتمع ، فهم يعتقدون أن له أهمية حيوية لحياتهم الاجتماعية ٠ فنحن لا نفكر فى سيادة النظام الرائد بمعان من الزام القوة ، ولكن قوة النظام الرائد تنبع من الرضا والقبول من أعضاء المجتمع ، أما قاعدة الترتيب المؤيدة بالقوة والجبر والالزام فهى تنتمى الى الدولة ٠

وأوضح مثال على ذلك هى أنماط السلوك الاسلامية التى توطنت بحرية واختيار تماما فى كل المجتمعات من الساحل الغربى لأفريقيا الى الحدود الغربية للهند ، رغم اختلاف هذه الشعوب فى عاداتها وتقاليدها أى فى ثقافاتها ، كل ذلك بسبب أن النظام الدينى الاسلامى كان النظام الرائد فى هذه المجتمعات ، ذلك يعنى أن هذه المجتمعات أسلمت أى رضيت وقبلت الدين الاسلامى عقيدة لها وتركت عقائدها السابقة عن رضى وقبول (لا اكراه فى الدين) ، ورغم أن الدولة الاسلامية كانت تدع من يريد البقاء على عقيدته ، ولكن معظم أعضاء هذه المجتمعات تمثلوا العقائد الجديدة وارتضوها عقائدا

لهم بل ترك كثير منهم لغاتهم الأصلية واتخذوا العربية لغة الاسلام لغة لهم ·
ذلك يعنى أن النظام الدينى الاسلامى أصبح نظاما رائدا ليس عن جبر والزام
ولكن عن رضى وقبول ، وأيضا يعنى أن النظام الرائد تكمن قوته فى الرضا
والقبول أكثر من التكليف والقهر · وليس أدل على ذلك أن الرومان قد حكموا
مصر قرابة خمسة قرون ولكن لم يرتفع دينهم الى مرتبة النظام الرائد فى
المجتمع المصرى ، بل واحتفظ المجتمع المصرى بلغته ولم يتكلم الرومانية رغم
سطوة الحكام الرومان وقوتهم واجبارهم والزامهم ، فهم كانوا يعتبرون
أنفسهم غزاة ورغم هذه القوة للدولة الرومانية لم تستطع أن تضع نظامها
الدينى نظاما رائدا لمصر · فالنظام الرائد تكمن قوته فى الرضا والقبول
أكثر من التكليف والجبر ·

والنظام الرائد عندما يضع بصماته على كل النظم الاجتماعية فى المجتمع
ذلك يعنى أن النظام الرائد قد وضع نسق القيم والمعايير الأساسى للمجتمع ،
فيصبح كل أنماط السلوك لأعضاء المجتمع مهما تنوعت تشتق أصولها وتتطابق
مع معايير وقيم النظام الرائد ، أى يصبح ميثاق النظام الرائد(*) هو منبع
المعايير والقيم فى المجتمع ·

وفى العصر الحديث نجد أن العالم قد انقسم الى قسمين فهناك
المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الاشتراكية أو الشيوعية ·

والمجتمعات الرأسمالية تدل هذه التسمية على أن نظامها الرائد هو
النظام الرأسمالى والقيمة المحورية أى الأساسية فيه هى الربح ، ويصبح كل
فعل اجتماعى يحقق الربح مقبولا اجتماعيا بغض النظر عما اذا كان هذا
السلوك المؤدى الى الربح يتضمن عناصر أخلاقية أو غير اخلاقية · فاذا كانت
صناعة الخمر و الميسر أو الدعارة أو استغلال الشعوب يحقق ربحا فهو يتمشى
مع نسق القيم الأساسى للنظام الرائد الرأسمالى طالما هو يحقق الربح ، ومن

(*) ميثاق النظام الرائد هو عنصر من عناصر النظام السابق الحديث عنها وهو عنصر الاجراءات والقواعد ولكن رأى علماء الاجتماع تسمية هذا العنصر بالميثاق اذا كان النظام هو النظام الرائد ·

ثم فهو معيار القبول الاجتماعى • ومن هنا نشأ الصراع بين جماعة أصحاب رأس المال والعمال فى المجتمعات التى نظامها الرائد النظام الرأسمالى ، ذلك لأن صاحب رأس المال يبغى الربح ولو على حساب استغلال العمال ، وهو فى ذلك متطابق ومتوافق مع معايير نظامه الرائد • فلا عدالة فى التوزيع بل استغلال للعمال والمستهلكين •

كذلك النظام الاشتراكى أو الشيوعى المنبعث من الفكر الماركسى الذى اعتبر النظام الاقتصادى هو أساس الحياة الاجتماعية ودعا الى الملكية العامة لوسائل الانتاج فى قوله أن (يصبح كل الانتاج متمركزا فى أيدى جمعية واسعة تشمل الأمة بأسرها) • وغنى عن البيان أن هذا القول هو من سياق الخيال ويجافى الواقع ، اذ كيف يتم ذلك فى مجتمعات يتراوح تعدادها بين عشرات ومئات الملايين ؟ ! ومن ثم فهو قول لا يتصف بالواقعية ، اذ من الناحية الواقعية يصبح المجتمع سياسيا واقتصاديا خاضعا لجماعة معينة من البروليتاريا وليس للأمة بأسرها ، أو حتى البروليتاريا بأسرها ومن ثم ينشأ السؤال الآتى : ما هى الضمانات حتى لا تتحول هذه الجماعة الى طبقة جديدة تحل محل الرأسماليين ، أعنى لا توفر عدالة التوزيع ، لأن التوزيع واقعيا سوف يكون نابعا من تصورات هذه الجماعة الفكرية وخاصة أنها تملك السلطة السياسية والاقتصادية فلا معقب عليها فتستغل هذه الجماعة سائر الجماعات الأخرى فى المجتمع ولا تملك هذه الأخيرة الا الخضوع والاستسلام ، فلاسند لها من قوة سياسية أو اقتصادية ، وهكذا يتضح جليا أن أساس عدالة التوزيع هو توفر القيم الأخلاقية الرفيعة • وهكذا أصبحت عدالة التوزيع فى المجتمعات الاشتراكية هى التوزيع على أعضاء الحزب والفئات ابقية الشعب • وعدالة التوزيع فى اتجاه الشعوب الاخرى هو سلب مواردها الاقتصادية ليزداد الاقتصاد السوفيتى قوة وتزداد الشعوب الأخرى فقرا •

وهكذا رغم أن كلا من النظامين الرأسمالى والماركسى الاشتراكى أو الشيوعى قد ظهر الى الوجود الاجتماعى تحت معيار الحرية وهلل العالم الأوربى للنظام الرأسمالى عند ظهوره لأنه قضى على النظام الاقطاعى وما كان يحويه من استعباد جماعة الاقطاع للجماعات الأخرى ، قضى عليه بمعيار الحرية

(دعه يعمل أى حرية العمل ، دعه يمر أى حرية الانتقال) وما صاحبه من نشأة الديمقراطية أى حكم الشعب بواسطة الشعب ، الا أنه بعد مضى أقل من قرن من الزمان صرخت المجتمعات الأوربية من أن الحرية أصبحت لجماعة أصحاب رؤوس الأموال فى استغلال أعضاء المجتمع . وعلى أنقاض معايير الحرية الرأسمالية نشأت معايير الحرية الاجتماعية فى ظل المذاهب الاشتراكية ، وهللت لها كثير من المجتمعات الأوربية الا أنها انتهت بحرية جماعة أعضاء الحزب الشيوعى واستعلائهم على الجماعات الأخرى فى المجتمع ومن يرفض ففى سيبريا متسع لكل رافض ، وبالنسبة للمجتمعات الاشتراكية الأخرى انتهت بجحافل الدبابات الروسية تجتاح المجر عندما أرادت أن تتحدث بحرية فى وجه الاتحاد السوفييتى ، ونفس الشىء حدث للمجتمع التشيكوسلوفاكى فاجتاحته الدبابات السوفييتية عندما أراد أن يعبر بحرية عن ارادته فى التغير .

ذلك كله يرجع الى أن النظم الاجتماعية قد تبتدىء بشىء وتنتهى الى شىء آخر قد يكون مختلفا تماما عن بدايتها . اذ أن النظم الاجتماعية مركبات فياضة ، وخاصة أن تلك النظم الاجتماعية سواء الرأسمالية أو الاشتراكية هى من صنع البشر أى المجتمعات ، والمجتمعات هى فى حركة تغير دائم ، ومن ثم فهذه النظم غير ثابتة وليس بين أحد عناصر بنائها ما يضمن لها الثبات أو الاستقرار فهى فى حالة تغير دائم ، وهذه صفة ثابتة متفق عليها من علماء الاجتماع .

ولكن الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى ضمن لنظامه الاجتماعى ثبات نسق القيم والمعايير ، ذلك يرجع الى ثبات أهم عنصر من عناصر النظام وهو الميثاق ؛ فالميثاق فى النظام الدينى الاسلامى هو القرآن الكريم وهو ميثاق مكتوب ، ومكتوب كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وثابت أنه كما هو منذ أن كتب فى عهد النبى وجمع فى عهد عثمان من ١٣٩٩ سنة ، وأنه سيظل كما هو باذن الله الى يوم القيامة « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ذلك يدل على مدى أهمية لأن يكون النظام الدينى الاسلامى هو النظام الرائد فى المجتمع فميثاقه ثابت ومن ثم نسق القيم والمعايير ثابت ، فليس لأى أحد أو جماعة أن تعبث فيه وهذا ما يضمن له الصفة الحيادية أى عدم التغير

تحت تأثير المصالح المادية أو الامتيازات الطبقية أو التيارات الثقافية الاستعمارية ، كما حدث لكل من مجتمعات النظم الرأسمالية أو الاشتراكية ، والمجتمعات العربية التى أخذت بأى منهما ·

ومن ثم فوضع النظام الاسلامى فى المكان الأعلي أى جعله نظاما رائدا للمجتمع فيشكل ميثاقه نسق القيم الأساسى للمجتمع ، ويصبح الوسط الذى يمكن أن تنشأ فيه أنواع معينة من المعايير والقيم ، فيتحدد ما هو صواب وما هو خطأ ، بل ويحدد ما سوف يكون متاحا للاحساس به ، وما هو مرغوب ومقبول ، أى أن نسق القيم الأساسى هو الذى يحدد قواعد السلوك العام وهو الذى يوجه الفعل الاجتماعى والتغير الاجتماعى ·



المراجع العربيــة

١ ـ **القــرآن الكــريم**

٢ ـ **الحديث الشريف**

٣ ـ الدكتور أحمد الخشاب : **تاريخ التفكير الاجتماعى** : دار المعارف بمصر .

٤ ـ الدكتور أحمد أبو زيد : **البنـاء الاجتماعى** : الدار القومية للطباعة والنشر .

٥ ـ الدكتور حسن شحاته سعفان : **اسس علم الاجتماع** : مكتبة النهضة .

٦ ـ الدكتور مصطفى الخشاب : **علم الاجتماع ومدارسه** : الدار القومية للطباعة والنشر .

المراجع الاجنبية

1 — ALLYN, CHARLES : «Sociology, An Introduction» Prentice-Hall, Englwood Cliffs, New Jersy. 1972.

2 — ARYGRIS, CHRIS : «Personality and Organization» Harper and Row, New York, 1957.

3 — BANTON, MICHEAL : «Roles: An Introduction to the Study of Social Relationship» Basic Books. New York. 1955.

4 — BARNARD, CHESTER : «Organization as Systems of Co-operation» In Etzioni (mantioned and after)

5 — BARNES, HAIRY ELMER : «Social Institutions» Prentice-Hall, Inc., New York, 1946.

6 — BARNNET, H. G. : « Innovation » McGrow-Hill Book Company, Inc. New York. 1953.

7 — BENDICT, ROTH : «Patterns of Culture» A Mentor Book, The New American Library, New York. 1955.

8 — BIEDNEY, DAVID : «Theoretical Anthropology» Colombia Univeristy Press. 1954.

9 — BIERSTEDT, ROPERT : «The Social Order, An Introduction to Sociology» McGraw-Hill Book Company, Inc., New York. 1963.

10 — BIESANZ, MAVIS H. and BIESANZ, J. : «Introduction to Sociology» Prentice-Hall, Englwood Cliffs, New Jersey, 1973.

11 — BLALOCK, H.M. and ANN B. BLALOCK : «Toward a Clasification of System Analysis in the Social Sciences» In Barker, Frank : «Organizational Systems to Complex Organizations» 1973.

12 — BLUMER, HERBERT : «Symbolic Interactions Englwood Cliffs: Prentice-Hall. Inc., 1969.

13 — CHAPIN, F.S. : «Contemporary American Institutions» Harper, 1935.

14 — CONT, AUGUST : Cours de Philosophie Positive» Tome Quantriam, Paris 1955

15 — DAVIS, KINGSLEY : «Human Society» The Macmillan Comp. New York. 1955.

16 — DAVIS, KINGSLEY and MOOT, W. : «Some Principles of Stratification» American Sociological Review, April 1945.

17 — EISENSTADT, S.N. : «Essays on Comparative Institutions» John Wiley and Sons., Inc. New York. 1965.

18 — ETZIONI, AMITAI : «A Sociological Reader on Complex Organization» Second Edition, Holt, Rinehart and Winston, Inc., New York. 1969.

19 — ELLTON MAYO : «The Human Problems of Industrial Civilization» Harvard, Cambridge, Mass. 1946.

20 — FARIS, R.E.L. : «Social Disorganization» The Ronald Press Company New York 1955.

21 — FIRTH, RAYMOND : Human Types» Mentor Book, 1958.

22 — ——————— : «Social Organization» Watts, 1951.

23 — GEORGE STRAUSS and LEONARD R. SAYLES : «Personnell : The Human Problems of Manegment» Prentice-Hall, Englwood Cliffs, New Jersy 1972.

24 — GERTH, HANS and MILLS, W. : «Character and Social Structure» A Harbinger Book, Harcont, Brace and World, Inc., New York. 1953.

25 — GINSBIRG, MORRIS : «Studies in Sociology» Methaen and Co. LTD. London 1932.

26 — HICKS, HERBERT G. and GULLETT C. RAY : «Organizations : Theory and Behavior» McGraw-Hill Book Company, New York, 1975.

27 — HOEBEL, E. A. : «The Nalure of Cullure» In Shapiro, Henry L. (edt.) «Man culture and Society» Oxford Universty Press. New York 1956.

28 — HORTON, PAUL and HUNT CHESTER : «Sociology» Forth Edition, McGraw-Hill Book Company. New York. 1976.

29 — HUGHES, E. C. : «Social Institutions» In, «Principls of Sociology» Edit by Alfred Lee. College Outline Series.

30 — LA PIERE, RICHARD : «Social change» MacGraw-Hill Book Company New York. 1965.

31 — LUNDBERG, GEORGE A. : «Foundations of Sociology» The Macmillan Company, New York. 1956.

32 — MacIVER, R.M. : «The Web of Government» The Macmillan Company, New York, 1947.

33 — MALINOWSKI, B. : «Culture» Encyclopaedia of the Social Scienses, 1931.

34 — MANNHEIM, KARL : «Ideology and Utopia» Kegan Paul, Trench, Trubener and Co. LTD. London, 1940.

35 — MERRILL, FRANCIS E. : «Society and Culture» Englewood cliffs, New Jersy, 1963.

36 — MERTON, ROBET : «Social Theory and Social Structure» Glencoe, Ill., The Free Press, New York, 1957.

37 — MERTON, R. K. : «Bureacratic Structure and Personality» In Etzioni, Op. Cit.,

38 — MILLER, DELBERT C. and FORM, W.H. : «Industrial Sociology» Harper and Brothers, New York, 1951.

39 — MILLS, C. WRIGT : «The Power Elite» Oxford University Press, New Jersy, 1966.

40 — MURDOCK, GEORGE PETTER : «How Culture Change» In Shapiro, Herry L. (edt), «Man Culture and Society» New York, Oxford University Press, 1956.

41 — MURDOCK, GEORGE : «Dictionary of Sociology and Related Sciences» Ames, Lawa, Litelfield Adams and Comp., 1965.

42 — NADEL, S.F. : «The Foundations of Social Anthropology» Cohen and West, LTD., London, 1953.

43 — OGBURN, W.F. : «Social Change» Encyclopedia of the Social Sciences.

44 — OGBURN, W.F. and Other (edit) : Technology and Changing Society» Houghton Mifflin Company, New York 1953.

45 — OGBURN, W.F. : «Technology Causes Social Change» In «Technology and Changing Society» Op. Cit.

46 — OGBURN, W.F. : «How Technology Change Society» In «Technology and Changing Society» Op. Cit.

47 — PARSONS, TALCOTT : «The Social System» The Free Press, Glencoe, Illinois, 1951.

48 — RADECLIFF, A.B. : «The Present Position of Anthropology Studies» British Association for the Advancment of Science, Centenary meating, London, 1931. Section H.

49 — RADECLIFF, B. : «Structure and Function in Primitive Society» Cohen and West, 1953.

50 — READ FIELD, R. «The Little Community» The University of Chicago Press, Chicago, 1956.

51 — ROSE, ARNOLD M. (ed) : «Human Behavior and Social Processes.» Houghton Mifflin Company, Boston, 1962.

52 — Rose, Arnold (ed) : «The Institutions of Advanced Societies» University of Minnesota Press Minneapolis, 1958.

53 — ROSE, PETER 1. : «The Study of Society» Random House Inc. New York 1967.

54 — SOROKIN, PITIRN A. : «Society, Culture, and Personality» Harper and Brothers, New York, 1947.

55 — SUMNER, WILLIAM GRAHAM : «Folkways» Ginn and Company, Boston, 1907.
